منشورات اتحاد



القاهــــرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

المحتويـــات

د. سامى عبد الفتاح محمد شحاته(*)

التجنيد المحلى فى مصر فى العصر الرومانى

تقـــديم:

يتناول موضوع هذا البحث دراسة التجنيد المحلى فى مصر من الاحتلال الرومانى ٣٠ ق.م. حتى عصر الإمبراطور سبتميوس سيفيروس، وأهمية هذا الموضوع تنبثق من أهمية مصر ذاتهـا ثم بكونها أهم ولايات الإمبراطورية الرومانية، وإحدى الجبهات الرئيسية لقوات الجيش الرومانى، ولقد أدرك أغسطس أهمية موقع مصر الاستراتيجى وسهولة الدفاع عنه كما تأكد من أهميتـها كمستودع للقمح لا غناء عنه لإطعام الشعب الرومانى، وكذلك كمورد للثروة والمال لابد منه لتدعيم الخزانة التى نضبت من جراء الحروب الأهلية، بالإضافة إلى كثافة سكانها ، لـذا فقـد حرص أغسطس على تأمينها من الوقوع فى يد الخصوم والمنافسين، وإلى جانـب الاحتياطـات الأخرى التى اتخذها، فإنه وضع فيها من الفرق الرومانيـة (*Legiones*) والقـوات المسـاعدة (*auxlia*) أكثر مما تقتضيه حاجة الدفاع عنها.

(*) مدرس بكلية الآداب – جامعة عين شمس .

فماذا كان انعكاس ذلك على التجنيد المحلى فى مصر؟ وكيف كان يتم الالتحاق بصفوف الجيش الرومانى؟ وهل كانت الفرصة مواتية لكل فئات وطبقات السكان فى مصر للانضمام إلى هذا الجيش ؟ وما هو أصل هذه الفرق الرومانية؟ ومن أين كان يتم دعمها بالمجندين؟ وما هى أهم مراحل تطور التجنيد فى مصر؟

وهذه الدراسة هى محاولة من خلال دراسة وتحليل الوثائق المدونة باليونانية واللاتينية، للإجابة عن هذه الأسئلة وإلقاء الضوء على بعض جوانب هذه المؤسسة العسكرية لما لها من أهمية كبيرة فى تاريخ مصر فى العصر الرومانى.

إجراءات التجنيد

الالتحاق بصفوف الجيش الرومانى (*exercitus*) والقيام بالخدمة العسكرية (*στρατεύεσθαι-militare*)[١] يبدأ بأحد الإجراءات الذى أشارت إليه الوثائق البردية ببعض المصطلحات مثل (*probatio*)، وتعنى الاختبار أو التحقق أو الإثبات، أو عبارات وردت بهذا المعنى فى بعض الوثائق البردية مثل (*tirones probatio voluntarii*)[٢] وتعنى التسجيل للمجندين اختياريا، ويقابل فى اليونانية مصطلح (*ἐπίκρισις*) الفحص العسكرى، وهو إجراء ذو طبيعة عسكرية يجب على الفرد بمقتضاه التقدم بطلب مكتوب للفحص والتسجيل فى أفرع ووحدات الجيش الرومانى، كما يتعين عليه المثول بنفسه أمام الوالى ومعه المستندات (*δικαιώματα*) الدالة على وضعه القانونى وموطنه وعمره وكل ما يثبت أهليته للخدمة العسكرية، كما كان يصطحب معه ثلاثة أشخاص كشهود لضمان هويته.[٣]

وعملية الفحص وتسجيل المتقدمين للخدمة العسكرية كانت تخضع لإشراف حاكم مصر الذى كان يسيطر على القوات العسكرية فى مصر سيطرة مباشرة بحكم تمتعه بسلطة الـ (*imperium*) وهذه السلطة تتضمن سلطات وصلاحيات أخرى لم يكن فى وسع هذا الوالى أن يدير الشئون العسكرية أو يقوم بالحرب أو يقود الجيوش بدونها، وكان الحاكم يمارسها كما يمارسها حاكم الولاية الإمبراطورية بطريق التفويض من الإمبراطور.[٤]

ويقوم هذاالحاكم فى مدينة الإسكندرية ـــ مقر القيادة العسكرية ـــ بفحص المتقدمين من الشباب للخدمة العسكرية والموافقة على صلاحيتهم وتسجيلهم فى وحدات الجيش، يتضح

ذلك من الخطاب المحرر باللاتينية[٥] والذى أرسله والى مصر مينوكيوس ايتالوس إلى قائد الكتيبة الثالثة الأيتورية ويدعى كيلسيانوس، العام السادس من حكم الإمبراطور تراجان وجـاء فيـه: "صديقى العزيز تحياتى، أعط أوامرك بأن المجندين الستة الذين قمت أنا بفحصهم وقبولهم، يـتم تسجيلهم فى الكتيبة التى تحت قيادتك وذلك اعتباراً من التاسع عشر من شهر فبراير".[٦]

ويرفق الحاكم طى هذا الخطاب بياناً بأسمائهم وأعمارهم وأوصافهم، ويتبين أن أصغرهم سناً كان يبلغ ٢١ عاماً وأكبرهم كان ٢٥ عاماً، ومتوسط أعمارهم ٢٢ عاماً وشهرين. وفى نهاية الخطاب (سطر ٢٤ــ٣١) يوجد تاريخ تسلم الخطاب وحفظه، ثم توقيع سكرتير الكتيبة بأن أصل الخطاب تم حفظه فى أرشيف الكتيبة. L. 30: in tabulario cohortis

وثيقة أخرى[٧] تتضمن سجلاً لقوة الكتيبة الأولى الأغسطية التى كانت تعسكر فى مواجهـة مدينة أبولونوبوليس الكبرى (أدفو) منذ عام ١٣١م. ويتضح من هـذا الـسجل أن الحـاكم سمبرونيوس ليبراليس كان قد خضع أمامه للفحص العسكرى تسعة من المجندين اختيارياً وصدق على تسجيلهم فى هذه الكتيبة .

LL. 28-30: tirones prob[a]ti voluntari a Sempronio Liberalae praefecto) Aeg(ypti) viiii,

وبعد أن يخضع المجندون للفحص العسكرى أمام الحاكم الذى يقرر قبـولهم وتـسجيلهم (*scribere or referre*)[٨] فى وحدات الجيش، يلى ذلك الأمر بإيداع الـدعم والمخصـصات المقررة لهم فتتضمن إحدى البرديات[٩] إيصالاً أصدره لونجينوس لونجوس مـن الكتيبـة الأولى اللوسيتانية، سرية يتولى قيادتها تيتوليوس أنه تسلم مبلغ أربعمائة وثلاثة وعشرين ديناراً فـضياً قيمة إيداعات لصالح مجندين من آسيا وعددهم عشرون مجنداً.

LL.5-7: *ὑπὲρ δηποσίτου τι[ρώνων] Ἀσ[ιανῶ]ν*
διατριβούτων ἐν τῇ κεντυρίᾳ ἀνδρῶν εἴκοσι.

وإيصال آخر فى نفس الوثيقة (سطر ٩-١٤) بمبلغ مائتين واثنين وثلاثين ديناراً تم إيداعه فى هذه الكتيبة لصالح سبعة عشر مجنداً من آسيا ينتمون للسرية التى يتولى قيادتها كريسكينتوس ثم التاريخ: العام الحادى والعشرون من عصر الإمبراطور ترايانوس.

ولم يقتصر إخضاع التجنيد المحلى لسلطة وإشراف الحاكم بل إن مجرد انتقال أحد الجنود من وحدة إلى أخرى أو من فرع إلى آخر كان يخضع أيضا لإشراف الحاكم، ففى رسالة خاصة من باوزانياس[١٠] يتضح أن ابنه الذى كان يخدم فى إحدى الفرق العسكرية فى الإسكندرية لم يرغب فى الخدمة فى هذه الفرقة، ويريد الانتقال إلى إحدى فصائل الفرسان المرابطة فى قفط (ربما لقربها من محل إقامة أسرته)، لذلك سافر الأب إلى الإسكندرية، واستخدم الكثير من الطرق والوسائل[١١] حتى تم نقله أخيرا إلى فصيلة الفرسان فى قفط.

LL.9-11: *κατελθὼν εἰς Ἀλεξάνδρειαν πολλαῖς ἀφορμαῖς ἐχρησάμην ἄχρι οὗ [[υ]]μετενέχθη εἰς τὴν Κόπτῳ εἴλαν.*

ويبدو أن هذا الأب نجح فى مسعاه وبالتالى خضع ابنه للفحص العسكرى أمام الحاكم، إذ نستدل على ذلك من أن النص يذكر أن الحاكم نفسه منحه أيضا أجازة محددة قبل أن يصل إلى وحدته العسكرية المنقول إليها فى قفط (*Coptos*).

وفى بعض الأحيان كان الحاكم ينيب عنه أحد كبار القادة العسكريين مثل قادة الفرق أو فصائل الفرسان أو الأسطول للقيام بمثل هذه المهام[١٢] فعلى سبيل المثال يتبين من وثيقة أخرى[١٣] أنه تم نقل جندى يدعى أسيدوروس من كتيبة الفرسان إلى الأسطول بعد أن خضع للفحص العسكرى أمام قائد أسطول الإسكندرية نيابة عن الحاكم.

ولضمان ضبط عملية الفحص والتسجيل فى أفرع الجيش الرومانى تذكر المادة رقم ٥٥ من مقننة الإيديولوجوس أنه "إذا أدى مصرى الخدمة العسكرية فى فرقة رومانية دون أن يكتشف أمره، فإنه بعد تسريحه يعود إلى حالته الأولى بوصفه مصرياً، والحال بالمثل بالنسبة لمن التحقوا بسلاح المجدفين، فإنهم عقب تسريحهم يعودون إلى حالتهم القديمة، على أن يستثنى من ذلك فقط الذين ينتمون إلى الأسطول المرابط فى ميسينوم".[١٤]

وهى بالتالى توجه التحذير للمصريين من اقتراف أية مخالفات فى هذا الشأن واتباع أساليب غير قانونية للانضمام إلى هذه الفرق الرومانية أو غيرها وانتحال الصفات واغتصاب حقوق المواطنة الرومانية، فى الوقت الذى لم يكن مسموحاً للمصرى الالتحاق بإحدى الفرق مالم يكن قد منح من قبل المواطنة الرومانية، وهذا أمر كان عسير المنال.[١٥]

الشروط والقواعد التنظيمية للتجنيد

والسؤال هنا هل الانخراط فى صفوف الجيش الرومانى كان مباحا لجميع طبقات وفئات السكان فى مصر؟ يختلف الوضع إذا ما كان الأمر يتعلق بالخدمة العسكرية فى الفرق الرومانية (*Legiones*) أو القوات المساعدة (*auxilia*) والأسطول (*classicae*) كذلك الوضع القانونى للمتقدم للتجنيد يمثل عنصراً هاماً وحاسماً.

أولا: فبالنسبة للتسجيل فى الفرق العسكرية كان لا يسمح للعبيد ولا المحررين (المعتقين) الانضمام إليها ويستبعد كذلك الأجانب (*peregrini*) والمصريون باعتبارهم من وجهة نظر القانون الرومانى يدخلون ضمن الأجانب، ولأن الفرق الرومانية كانت تتكون كقاعدة عامة من الجنود الرومان الذين يتمتعون بالمواطنة الرومانية[١٦] سواء داخل إيطاليا أو المقيمين فى ولايات الإمبراطورية أو من المناطق التى يمنح سكانها الجنسية الرومانية (*civitas romana*) فإنه فى مصر يكون مسموحاً لفئات معينة الالتحاق بالفرق العسكرية الرومانية وهى كالتالى:

أ ــ المواطنون الرومان، الذين استقروا فى مصر وأخذت أعدادهم تتزايد تدريجيا وكانت تضم من حضروا للعمل فى إدارة الولاية أو للاستفادة من النشاط التجارى والمالى، وانضم إليهم عدد كبير من الذين اكتسبوا المواطنة الرومانية عن طريق الخدمة العسكرية فى الجيش، وكذلك عدد من طبقة الإسكندريين الذين استطاعوا الحصول على المواطنة الرومانية فهؤلاء جميعاً مهما كان أصلهم والطريقة التى حصلوا بها على المواطنة الرومانية كانوا يمثلون طبقة المواطنين الرومان فى مصر.[١٧]

ب ــ مواطنو المدن الإغريقية؛ إذ كان يسمح لهم بالخدمة العسكرية فى الفرق الرومانية، وكانوا يتحولون بمجرد تسجيلهم فى هذه الفرق إلى مواطنين رومان[١٨] فتحتوى وثيقة بردية على عقد وكالة أصدرها جندى يدعى جايوس يوليوس ساتورنينوس لطرف آخر من أوكسيرينخوس، تبين منها أن جايوس كان لا زال فى الخدمة العسكرية ومسجل فى الفرقة ديوطاروس الثانية والعشرين وحصل على المواطنة الرومانية ويحمل اسماً رومانياً، وكان قبل الخدمة العسكرية مواطنا سكندرى وكان يدعى بطليموس بن بطليموس.[١٩]

كذلك ماركوس أوريليوس أزيدوروس جندى التحق عام ١٦٨م. بالفرقة الثانية تراجانا الكتيبة الخامسة، سرية تحت قيادة سفيروس وتم تسريحه عام ١٩٤، وقبل انضمامه إلى هذه الفرقة كان مواطنا سكندرياً.[٢٠]

ج ــ المولودون فى المعسكر (καστρῆσις=castris) كان يسمح لهم أيضاً بالخدمة فى الفرق، وهم أبناء الجنود الذين تزوجوا زواجاً غير شرعى لمخالفتهم قاعدة حظر الزواج على الجنود أثناء الخدمة العسكرية، وتمكنوا من تكوين عائلات فى كل شئ عدا الناحية القانونية، وسكنوا فى مناطق نمت وتطورت حول المعسكرات والقلاع أو بالقرب منها وأصبحت أشبه بضواحى المدن، لذا فكثير من جنود الفرق لم يذكروا اسم مدينة أو ولاية، وإنما مصطلح "ex castris"[٢١] كموطن (origo) لهم.

ومثالاً لهذه الفئة يوضحه نقش نيكوبوليس[٢٢] الذى يتضمن أسماء بعض الجنود الذين التحقوا بالخدمة العسكرية فى الفرقة الثانية ترايانا، الكتيبة الخامسة، عام ١٦٨م. وكانوا أصلاً من مواليد المعسكرات ومنهم:

ــ ماركوس جابينيوس أمونيانوس بن ماركوس من مواليد المعسكر "castris" من مائة (أى سرية) تحت قيادة كيلير.

ــ تيتوس أوريليوس خايرمونيانوس بن تيتوس من مواليد المعسكر "castris" سرية تحت قيادة فلافيوس فيليبيانوس.

ــ جايوس بومبيوس سربتوس بن جايوس، من مواليد المعسكر "castris" من سرية تحت قيادة سيفيروس.

د ــ الفئة الرابعة "peregrini"؛ من غير الرومان أى الأجانب وتكون فقط فى الظروف الاضطرارية أو الأوقات الحرجة، يوضح ذلك بردية[٢٣] تم تحريرها فى قيصرية بفلسطين تتضمن التماساً من اثنين وعشرين من الجنود المسرحين من أصل مصرى كانوا قد بدأوا خدمتهم العسكرية فى أسطول ميسينوم وبعد فترة تم نقلهم إلى فرقة فريتينسيس العاشرة (X Fretensia Legio) طبقا لقرار الإمبراطور هادريانوس، وبعد تسريحهم يطلبون فى هذا الالتماس من حاكم قيصرية اعطائهم وثيقة رسمية تفيد أنه تم تسريحهم عن طريقه من الفرقة ذاتها، وليس من الأسطول، وحتى يمكنهم بعد العودة، الاستناد عليها والإفادة منها عند الضرورة.

L. 10-12: ut ex adfirmatione tua appareat
nos ex eadem legione missos esse non ex

classe, ut possit rebus necessariis subscriptio
tua instrumenti causa nobis prodesse.

هكذا فإن هؤلاء الجنود وهم أصلاً لا يتمتعون بالمواطنة الرومانية ولكن بعد أن تم ضمهم إلى هذه الفرقة العسكرية أصبحوا يتمتعون بحقوق المواطنة، ولذلك يطلبون من حاكم قيصرية الذى يخضعون لسلطته العسكرية وأشرف على تسريحهم أن يعطيهم وثيقة رسمية تثبت تسريحهم من هذه الفرقة ومن ثم تمتعهم بالمواطنة الرومانية وتضمن لهم ما يترتب عليها من حقوق وكذلك المنح والمكافآت الأخرى بمناسبة تسريحهم، وحتى يمكنهم تفادى ما قد يظهر مستقبلاً من لبس أو مشاكل عند عودتهم إلى مصر.

وهذه الحالة النادرة حيث تم إلحاق عناصر غير رومانية "*peregrini*" إلى فرقة رومانية "*Legio*"بمقتضى قرار الإمبراطور هادريانوس، ارتبطت فيما يبدو بظروف تجدد الإضطرابات والصدام المسلح بين الرومان واليهود فى فلسطين ومصر.[٢٤]

كانت هذه هى الشرائح أو الفئات الأربع التى يسمح لأفرادها بالتجنيد والخدمة فى الفرق العسكرية الرومانية، ولقد أدرك أغسطس أهمية مصر وأنها من أكثر الولايات كثافة فى السكان وأوفرها ثراء وإنتاجاً فى القمح لذا فقد وضع فيها ما لا يقل عن ثلاث فرق عسكرية بالإضافة إلى القوات المساعدة؛ فيذكر استرابون[٢٥] "أنه يوجد فى مصر ثلاث فرق عسكرية، إحداها فى المدينة (الإسكندرية) والأخريان داخل البلاد. وتوجد غير هذه تسع كتائب رومانية ثلاث منها فى المدينة وثلاث على الحدود الأثيوبية (النوبة) فى سوينى (أسوان) وثلاث فى باقى البلاد، وهناك أيضاً ثلاث فصائل من الفرسان موزعة بالمثل على المراكز الحيوية".

فما هو أصل هذه الفرق ؟ وما هى الأقاليم والولايات التى ينتمى إليها أفراد هذه الفرق العسكرية ؟ ومن أين كان يتم دعمها بالمجندين؟.

أصل هذه الفرق التى خدمت فى مصر لا يعرف عنها سوى القليل لأن الموجود من قوائم الجنود قليل جداً، ومع ذلك تتضمن إحدى الدراسات الحديثة بعض الجداول والاحصاءات[٢٦] وبتحليلها يمكن الخروج بالملاحظات التالية:

١ ــ إن وجود الجنود من أصل إيطالى يمثل نسبة ليست بالكبيرة فيتضح من وثيقة بردية ترجع إلى القرن الأول الميلادى أن نسبتهم كانت ١٤,٢% من عدد الجنود فى المصدر

ذاته[٢٧]، وفى القرن الثانى كانت ١١,٣% من عدد الجنود طبقاً لنقش نيقوبوليس الذى عثر عليه بالقرب من الإسكندرية.[٢٨]

٢ ــ وجود نسبة كبيرة من الجنود الذين ترجع أصولهم إلى آسيا الصغرى ــ خاصة جالاتيا (*Galatia*) ــ فى القرن الأول بعد الميلاد وكانت نسبتهم ٤٠% من عدد الجنود حسب ما ورد بمصدرين اثنين يرجعان إلى هذا القرن.[٢٩] أما فى القرن الثانى هبطت نسبتهم إلى ٢,٥% من عدد الجنود وترجع أصولهم إلى بيثنية (*Bithynia*).[٣٠]

٣ ــ إن التجنيد المحلى بما فى ذلك أبناء المعسكرات (*ex castris*) مثبت ومؤكد منذ فترة مبكرة ترجع إلى عهد أغسطس، وشهد هذا التجنيد المحلى زيادة كبيرة بمرور الوقت، ففى القرن الأول كانت نسبة المجندين محليا حوالى ٢٥% من عدد الجنود فى المصدر ذاته،[٣١] وارتفعت هذه النسبة إلى ٧٧,٥% فى النصف الثانى من القرن الثانى.[٣٢]

٤ ــ إن وجود الجنود السوريين أمر وارد ومتوقع نظراً لقرب مصر ومجاورتها لسورية، وكانت نسبتهم ٢١,٥% من عدد الجنود حسب مصدر من القرن الأول،[٣٣] وتراجعت هذه النسبة إلى ١٤% حسب مصدرين من القرن الثانى.[٣٤]

٥ ــ وأخيراً وجود جنود من أفريقية بنسبة ١٠,٢% فى القرن الأول،[٣٥] ولكن هذه النسبة ترفع ارتفاعاً كبيراً ووصلت إلى٦٧% حوالى منتصف القرن الثانى كما يتضح من أحد النقوش الذى يرجع إلى عام ١٥٧م.،[٣٦] وهذه الزيادة الكبيرة فى النسبة المئوية يمكن تفسيرها بأن هذا النقش يحتوى على إهداء مقدم إلى الإمبراطور أنطونينوس بيوس من مجموعة من الجنود وعددهم ١٣٢ جندى بمناسبة انتهاء خدمتهم العسكرية وتسريحهم عام ١٥٧م. من الفرقة الثانية تراجانا التى كانت تعسكر فى نيقوبوليس ضاحية الإسكندرية، وهذا يعنى أنه قد تم تجنيدهم حوالى عام ١٣٢م.، وفى أثناء حكم الإمبراطور هادريان وهى الفترة التى عاصرت أحداث اليهود وتداعياتها،[٣٧] لذا قرر هذا الإمبراطور فيما يبدو ضم بعض قوات الفرقة الثالثة الإغسطية، التى كانت مرابطة معظم الوقت فى ولاية إفريقية، إلى الفرقة الثانية تراجانا بالإسكندرية. وربما يدعم هذا التفسير أن النسبة المئوية لهؤلاء الجنود من ولاية إفريقية تعود ثانية إلى الهبوط حتى تصل إلى ٥% من عدد الجنود فى نقش من نهاية القرن الثانى بعد الميلاد.[٣٨]

ثانياً: أما القوات المساعدة (*auxilia*) فكانت تتألف من كتائب المشاة (*cohortes*) وفصائل الفرسان (*alae*) كل منها تضم إما ٥٠٠ أو ١٠٠٠ جندى تحت إمرة قائد (*perefectus*) مجندين غالبا من بين سكان الولايات غير المواطنين (*peregrini*)، وكانت بعض هذه الكتائب تنتظم مشاة وخيالة وتعرف باسم (*cohortes equitatae*).(٣٩)

ويذكر ريكارد الستون أن التجنيد فى القوات المساعدة لا يوجد بشأنه قاعدة واضحة ومحددة فى كل الولايات؛ التى احتفظت كل منها بأصلها المحلى والمميز، بل كان يتم تجنيد هذه القوات بشروط وأعداد تختلف من حالة إلى أخرى.(٤٠)

ومنذ عصر أغسطس أصبحت القوات المساعدة جزءاً هاماً من الحامية الرومانية فى مصر، وكانت توجد منها تسع كتائب (*cohortes*) وثلاث وحدات فرسان (*alae*)، ثلاث من الكتائب التسع عسكرت عند سيينى (أسوان) لحماية الحدود الجنوبية وثلاث أخرى فى الإسكندرية، والكتائب الثلاث المتبقية توزعت فى وحدات صغيرة على النقاط الإستراتيجية فى مختلف نواحى البلاد. كذلك الأمر أيضا بالنسبة لوحدات الفرسان الثلاث.(٤١) واعتمد النظام الرومانى على نشر القوات فى مختلف أقاليم مصر فى المعسكرات الحصينة وفى المراكز الأقل أهمية، وتغير تشكيل الكتائب والوحدات خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد بالإضافة أو بالنقل أو بالإلغاء.(٤٢)

ومع ذلك يمكن حصر عدد من الوحدات ــ من خلال البرديات ــ عسكرت فى مناطق استراتيجية فى جنوب البلاد أحياناً كحاميات وفى أحيان أخرى أثناء قيامها بمهام خاصة، ومثال على ذلك الكتيبة الاغسطية الأولى التى عسكرت فى عام ١٣١م. عبر النهر تجاه ابولونيوبوليس (*Apollon opolis*) فى مصر العليا ونراها بعد ٢٥ عاماً فى نفس المكان بقوة إجمالية عددها ٥٠٥ جندى منها ٣٦٣ من المشاة و ١١٤ من الفرسان و ١٩من راكبى الجمال و ٦ من ضباط برتبة الكينتوريون (قائد مائة) و ٣ برتبة الديكيريون (قائد سرية).(٤٣)

وتوضح الوثائق البردية أن كثيراً من المجندين فى القوات المسلحة المساعدة (*auxilia*) ينتمون إلى عواصم الأقاليم المصرية (*metropoleis*)، وترجع أصولهم إلى طبقة الإغريق الذين استوطنوا مصر أثناء العصر البطلمى، وأبرم الكثير منهم عقود زواج مشترك مع المصريين.(٤٤)

ويبدو أن الجيش كان مجالاً جاذباً للأفراد متواضعى الحال الذين كان يمكن أن يدفع بهم إلى التطـــور والنجـــاح[٤٥] ويـــذكر تاوبنـــشلاج أن الخاضـــعين لـــضريبة الـــرأس (λαογραφούμενοι)كان يمكنهم أن يلتحقوا بالخدمة العسكرية أيضاً فى صفوف القـــوات المساعدة[٤٦] التى كانت مدة الخدمة فيها ٢٥ عاماً، وبعد أن ينتـــهى الجنـــود مـــن خدمتـــهم العسكرية بما يرضى قادتهم يحصلون على التسريح المشرف (*missio honesta*) بـــصفة رسميـــة وقانونية، فعلى سبيل المثال يتبين من إحدى الوثائق البردية[٤٧] أن الجندى المـــسرح فـــاليريوس كليمنيس أعلن أنه خدم فى الكتيبة الثانية الإيتورية، وعرض خطاباً باللاتينية مـــن بـــاكتوميوس ماجنوس، الوالى السابق، يوضح أنه بعد أدائه الخدمة العسكرية فى الكتيبة المذكورة عالية حصل على التسريح القانونى.

L. 8-13: ὁ προγεγραμμένος οὐετρανὸς δηλώσας ἑαυτὸν ἐστρατεῦσθαι ἐν σπείρῃ β Ἰτυραίων ἐπέδειξεν Πακτουμηίου Μάγνου τοῦ ἡγεμονεύσαντος ἐπιστολὴν ' Ρωμαϊκ ὴν δι' ἧς ἐδηλοῦτο στρατευσ-άμενον αὐτὸν ἐν τῇ προγεγραμμένῃ σπείρῃ νομίμῃ ἀπολεῦσι ἀπολελῦσθαι.

هكذا يتضح أن الحاكم كان يشرف على تسريح الجنود، ويصدق على منحهم التـــسريح المشرف عند اكتمال مدة الخدمة العسكرية[٤٨] لكل منهم تبعاً للأسلحة التى يخـــدمون فيهـــا، ويترتب على هذا التسريح المشرف منح الجندى المـــسرح أو المحـــارب (*veteranus*) الجنـــسية الرومانية هو وأبنائه بالإضافة إلى حق الزواج الشرعى (*ius conubii*)، فى صـــورة شـــهادة أو دبلومة تؤكد الوضع القانونى الجديد، وهذه الدبلومات العـــسكرية (*diplomata militaria*) كانت تصدر بمقتضى مراسيم إمبراطورية (*constitutiones*)، وتمنح للجنود (غـــير الرومـــان) المسرحين (*veterani*) من القوات المساعدة (*auxilia*) بعد خدمـــة مـــدتها ٢٥ عامـــاً، والمسرحين من الأسطول (*classis*) بعد ٢٦ عاماً.[٤٩]

وأخذ الرأى العام يتقبل الخدمة العسكرية فى القوات المساعدة أكثر من الفرق، ولكن بـــدأ يظهر اتجاه عام لا يتقيد بالشروط المرعية عند تجنيد الأفراد فى الفرق العسكرية؛ فأخذت الفرق تسجل شباباً من بيئات متواضعة بشكل متزايد، بينما القوات المساعدة تسجل مواطنين رومان أكثر فأكثر، ونتيجة ذلك أصبح هناك تقارب تدريجى لكلا النوعين من القـــوات العـــسكرية وبمرور الوقت لم يعد هناك فرق يذكر بين الخدمة فى الفرق والخدمة فى القوات المساعدة[٥٠]

ثالثا: ويحتل الأسطول المرتبة الثانية فى الأهمية بعد قوات الجيش البرية، وبعد أن أعاد أغسطس تنظيم القوات البحرية كان الهدف الحقيقى منها هو أن تكون بمثابة قوة دفاعية ضد أعمال القرصنة والقيام بأعمال الحراسة والنقل وحفظ الأمن فى البحار بشكل عام، وأصبحت قاعدتا الأسطول (*classis*) الرئيسيتان تقعان فى رافينا (*Ravenna*) لتأمين البحر الأدرياتيكى وميسينوم لتأمين البحر التيرانى.(٥١)

وكان يتم تجنيد رجال البحرية (*classiarii*) من الأجانب من مختلف الولايات، وكذلك قليل من العبيد الذين تم تحريرهم قبل تسجيلهم فى الأسطول ــ وهى حالة استثنائية عكس القاعدة ــ واشترك أيضاً المواطنون الرومان ويرجع ذلك إلى عصر أغسطس، وشغلوا الرتب الكبيرة كما استندت القيادة العليا للأسطول إلى قادة من طبقة الفرسان الرومانية.(٥٢)

وتوضح الوثائق البردية(٥٣) أن الشباب المصرى، التحقوا بصفوف القوات البحرية، ورسائلهم الشخصية إلى أفراد أسرهم فى مصر، تساعد فى إلقاء الضوء على ظروف تجنيدهم وعملهم بالوحدات البحرية المختلفة؛ فأبيون بن ايبماخوس المجند حديثا فى أسطول ميسينوم يرسل إلى والده فى فيلادلفيا(٥٤) ليخبره بأنه حصل على اسم "أنطونيوس ماكسيموس"، وتم إلحاقه بوحدة "اثينونيكا".

LL. 22-24: ἐστι [δε] μου ὄνομα Ἀντῶνος
Μάξιμος. ἐρρῶσθαι σε εὔχομι. κεντυρί(α) Ἀθηνονίκη.

واسم الوحدة فى الأسطول هو اسم السفينة التى يخدم الجندى ضمن طاقمها(٥٥) وأرسل هذا الجندى بعد ذلك بفترة رسالة أخرى يتضح منها أنه تزوج وأنجب ابناً(٥٦)

ورسالة أخرى من مجند حديث بأسطول ميسينوم يدعى أبوليناريوس إلى والدته فى كراليس(٥٧)

يبلغها فيها بسلامة وصوله إلى روما وأنه لم يتم تسجيله فى وحدته البحرية، لأنه لم يصل بعد إلى ميسينوم عندما كان يكتب لها هذه الرسالة. ويفهم من ذلك أن قائد الأسطول هو الذى يتولى توزيع وتسجيل المجندين على الوحدات البحرية التابعة لأسطوله.

ويبدو أن الأمر اقتضى بناء أساطيل إقليمية لاتساع رقعة الإمبراطورية الرومانية وازدياد أعبائها، فالقمح الذى كان ينقل بحراً من الإسكندرية كانت تقوم بحراسته سفن أسطول

الإسكندرية، وترجع أول إشارة إلى "الأسطول السكندرى العظيم" إلى عصر كاليجولا (٣٧–٤١م.)(٥٨)، ولكن لابد أن هذا الأسطول كان موجوداً منذ عصر أغسطس كأسطول رومانى إقليمى بالإضافة إلى الأسطولين الرئيسيين فى ميسينوم ورافينا بإيطاليا، والأرجح أن النواة الأولى لهذا الأسطول السكندرى تكونت من سفن كليوباترا السابعة التى لم تتحطم فى معركة اكتيوم، وقد ضم هذا الأسطول سفناً حديثة طويلة وسريعة مجهزة بقواطع، وتولى قيادته ضباط من طبقة الفرسان أيضاً.(٥٩)

وتتضمن وثيقة بردية أن كلاوديوس تيرنتيانوس المجند فى أسطول الإسكندرية أرسل إلى والده فى كرانيس يخبره عن المرض الذى كان يعانى منه على ظهر السفينة، إلا أنه أصبح قادراً على أن يرسل إلى والده بعض الأدوات من الإسكندرية(٦٠) ربما لم تكن متوافرة فى كرانيس، وهذه الوثيقة تنتمى لأرشيف "تيبريانوس" الذى تم اكتشافه فى أحد منازل كرانيس ويتضح منه أن هذا المجند أرسل إلى والده تسع رسائل محررة بالإغريقية وست رسائل باللاتينية، وكتابته الأخيرة يشوبها بعض الأخطاء وبها مؤثرات وتداخلات إغريقية مما يوحى بأن لغته الأصلية هى اللغة الإغريقية(٦١).

وتحتوى بردية أخرى(٦٢) على رسالة من روما بعثها ابريناريوس إلى أخيه يخبره بوصوله إلى الأراضى الإيطالية يوم السادس من شهر أبيب، ولم يتم تفريغ الشحنة حتى اليوم الثامن عشر من نفس الشهر، ووصل إلى روما فى اليوم الخامس والعشرين من نفس الشهر، ومنذ ذلك وهم يتوقعون يومياً تسريحهم، وحتى ذلك اليوم لم يتم تسريح أى شخص من أسطول القمح.

LL. 14-15: ὥστε ἕως σήμερον μηδέναν
ἀπολελύσθαι τῶν μετὰ σίτου.

يتبين إذن أن أسطول الإسكندرية الذى كان يشارك فى صيانة الأمن ومراقبة البحار قد انصب اهتمامه بصفة خاصة على حراسة السفن التى تنقل القمح وشحنات الغلال من مصر إلى إيطاليا، وكذلك فإن جنود الأسطول من الأجانب (*peregrini*) كانوا يحصلون على الاسم الثلاثى منذ عام ٦٩م. وبعد أداء خدمتهم العسكرية (*militia*) التى تمتد إلى ٢٦ عاماً يحصلون على الدبلومات التى تمنحهم المواطنة الرومانية.(٦٣)

وبخصوص حجم مشاركة كل من الولايات فى تعبئة جنود الأسطول الرومانى، تكمن الصعوبة فى ندرة المصادر والإحصاءات الدقيقة التى كان يمكن التعويل عليها فى هذه المسألة ومع ذلك يحاول أحد الباحثين ترتيب الولايات طبقاً للزيادة العددية للبحارة المجندين من كل منها، حسب ما تسمح به المصادر المتاحة والقوائم الحديثة، وهى كالتالى: أن البحارة على سفن أسطول ميسينوم تم تجنيدهم من: مصر، آسيا، تراقيا، سردينيا، سورية، دلماتيا، أفريقية، اليونان، إيطاليا، كورسيكا. والبحارة على سفن أسطول رافينا تم تجنيدهم من: دالماتيا، سورية، مصر، بانونيا، كورسيكا، سردينيا، آسيا، إيطاليا، اليونان.(٦٤)

يتبين إذن مدى مساهمة مصر فى دعم الأسطول الرومانى بالمجندين، هذا غير "أسطول الإسكندرية" الأقليمى στόλου Σεβαστοῦ Ἀλεξανδρίνου الذى من المحتمل تم دعمه أيضا بعدد كبير من المجندين المصريين كما توحى بذلك الوثائق البردية التى سبق عرض جانب منها.

مراحل تطور التجنيد:

كانت تلك هى الإجراءات والقواعد التنظيمية للتجنيد فى مصر ودعم الأفرع الرئيسية للجيش الرومانى:

الفرق والقوات المساعدة والأسطول بالمجندين من مصر، ومع أن التجنيد المحلى سمة من سمات الجيوش الرومانية فى الولايات المختلفة إلا أنه بدأ فى مصر فى وقت سابق،(٦٥) وينسب إلى الإمبراطور هادريان (١١٧ــ١٣٨م.) إحداث نقلة نوعية بشأن هذا التجنيد فى مصر، فمنذ عهد هذا الإمبراطور اتجهت سياسة الأباطرة إلى تعبئة جنود الحاميات الرومانية فى الولايات من أهلها بعد أن ظلت على مدى قرن ونصف منصرفة إلى تعبئة هؤلاء الجنود من خارج الولاية.(٦٦)

ويبدو أن تطوراً راسخاً بدأ منذ بداية القرن الثانى الميلادى للتحول من التجنيد الإقليمى إلى التجنيد المحلى، ولكن الإمبراطور تراجان (٩٨ــ١١٧م.) اتخذ سياسة معارضة لهذا الاتجاه، وحاول أن يعتمد على إيطاليا لدعم فرق الجيش بالمجندين ثانية وقدم المساعدات والقروض

للفئات التى كانت فى حاجة إليها والتى كان يعتمد عليها فى تعبئة المجندين، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل، لذا فالإمبراطور هادريان عندما تولى السلطة أعطى دفعة قوية للتجنيد المحلى،[٦٧] وفى هذاالسياق يمكن فهم الدوافع والظروف المحيطة بقرار الإمبراطور هادريان عام ١١٩.[٦٨] والصادر فى شكل فتوى كتابية إلى والى مصر كونتوس راميوس مارتياليس، يمنح حقا قانونياً للأبناء غير الشرعيين للجنود الذين توفوا خلال خدمتهم العسكرية دون أن يتركوا وصية ـــ بأن يرثوا آباءهم.

LL. 20-28: ὅνπερ τοιγαροῦν τ[ρόπ]ον οὐκ εἰσιν νόμιμοι
κληρο [νόμ]οι τῶν ἑαυτῶν πατέρων οἱ τῷ [τ]ῆς
στρατείας χρόνῳ ἀναλημφθέντεσ, ὅμως κατοχὴ [ν]
ὑ[πα]ρχόντων ἐξ ἐκείνου τοῦ μέ[ρ]ους τοῦ διατάγ-ματος οὗ κα
ὶ τοῖς πρὸς [γ]ένους συγγενέσι δίδοταιαἰτεῖσθαι δύνασθαι καὶ α
ὐτοὺς κρε[ίν]ω.

وذلك لأن زواج الجنود أثناء الخدمة العسكرية غير شرعي ـــ حسب القانون الرومانى ـــ مما يترتب عليه عدم شرعية ما ينتج عنه من أبناء، الذين كانوا يفتقدون بالتالى الحق الشرعى فى ميراث آبائهم.

وتاريخ هذا القرار (١١٩م.) قريب بل يتصل بتوابع حرب أو ثورة اليهود عام ١١٤ـــ١١٧م. وقيام الجيش الرومانى بالقضاء عليها، و نتج عن ذلك خسائر فى الأرواح والممتلكات وموت أعداد ليست قليلة من جنود الجيش الرومانى ونقص فى صفوفه.[٦٩]

ويبدو أن المقصود بهذا القرار كان هو تحقيق هدفين:

الأول أن يوفر هذا القرار أساساً قانونياً لحقوق الأبناء غير الشرعيين فى تركات آبائهم من الجنود الذين ماتوا خلال خدمتهم العسكرية، واضعاً بذلك حداً لمشاكل وقضايا الميراث فى مثل هذه الحالة،[٧٠] ومشجعاً هؤلاء الأبناء وغيرهم من الشباب على الالتحاق بصفوف الجيش الرومانى بعد أن شكل هذا القرار دعماً مادياً ومعنوياً لهم.

والثانى أن يدعم سياسة الإمبراطور هادريانوس الجديدة بخصوص التجنيد المحلى والعمل على زيادة الإقبال على الإنضمام إلى الجيش وتعويض ما حدث له من نقص فى الأعداد.

ويبدو أن هذه السياسة أتت بثمارها؛ فهذا القرار شجع بالفعل أعداداً كبيرة من أبناء الجنود الذين عاشوا بالقرب من المعسكرات (*ex castris*) على الانضمام إلى الخدمة العسكرية يوضح ذلك الأدلة التى ترجع إلى النصف الثانى من القرن الثانى والقرن الثالث بعد الميلاد.[٧١] ويذكر نفتالى لويس[٧٢] أنه منذ منتصف القرن الثانى الميلادى تزايد بين الجنود المسرحين فى مصر عدد أولئك الذين ينتمون إلى المدن المختلفة داخل البلاد والذين وجدوا الوسيلة للحصول على المواطنة الرومانية من خلال التحاقهم بالخدمة العسكرية.

وبعد عهد هادريانوس يبدو أنه كان على كل ولاية أن تزود نفسها بما يلزمها من المجندين،[٧٣] خاصة بعد أن تم تخفيف شروط الوضع القانونى للمتقدمين للتجنيد، كما أصبح فى استطاعة الشخص الفقير الانضمام إلى صفوف الجيش،[٧٤] وكان معنى ذلك بالنسبة لكثير من المجندين إحراز تقدم كبير فى المستوى الاجتماعى والاقتصادى. ووفقاً لما ذكرته الوثائق البردية فإن الجنود المسرحين كانوا ــ مع مواطنى المدن الإغريقية خاصة الإسكندرية ــ هم الملاك الرئيسيون للأراضى الخاصة؛ فمن القوائم الضريبية فى كرانيس بالفيوم والتى ترجع إلى عام ١٧١ــ١٧٣ بعد الميلاد، يتبين أن الجنود المسرحين كان عددهم كبيراً فى هذه المنطقة ويمثلون نسبة كبيرة من ملاك الأراضى فيها (٥٥٪ ممن يملكون من ٥ إلى ١٥ أرورة)، ويمكن تفسير ذلك إما بأن التجنيد كان مكثفاً فى هذه المنطقة أو بأن توزيع الأراضى على الجنود كان شائعاً فيها.[٧٥] وهم عادة يستقرون بجوار الأراضى المملوكة لهم بل يتجهون مثل غيرهم من متوسطى وصغار الملاك ــ إلى استئجار أراضى خاصة أو مملوكة للدولة.[٧٦]

وتحتوى الوثائق البردية على نماذج لجنود مسرحين خلال هذه الفترة التاريخية (النصف الثانى من القرن الثانى م.) احتلوا مكانة هامة فى مجتمعاتهم الجديدة التى اختاروها لإقامتهم وكونوا عائلات وأصابوا الثروات، ومنهم جايوس يوليوس نيجر جندى مسرح من كتيبة الفرسان وأمتلك هو وأسرته الأراضى والمنازل فى كرانيس وكيركيسوخا،[٧٧] وبطلميوس ويدعى أيضاً ديوسكوروس من الجنود المسرحين فى أرسينوى

LL. 2: οἱ ἀπὸ τοῦ Ἀρσινοειτου οὐετρανοί

وامتلك وأفراد أسرته إقطاعاً من الأراضى والمنازل فى أرسينوى وثيادلفيا.[٧٨] كما أنه كان أحد مستأجرى الأراضى الإمبراطورية μισθωτὴς οὐσιακός.[٧٩]

مرحلة هامة أخرى لتطور التجنيد المحلى فى مصر بدأت فى عهد الإمبراطـور سـبتيميوس سيفيروس (١٩٣ــ٢١١م.) الذى اعتبر الجيش هو جوهر السلطة والحكم ومصدرها فى كافة أنحاء الإمبراطورى، ومن ثم أعطى جنوده وضعاً متميزاً فبدأ بذلك عهد الاوتوقراطية العسكرية، ولم ينس أنه كان مديناً إلى جنوده فى الجلوس على العرش وفى هزيمة منافسيه (نيجر والبينـوس) فى الحكم، ولهذا كان يثق فى جنوده ويحرص على الاحتفاظ بولائهم كهدف اسمى له.[٨٠]

ومعتمداً على خبرته الطويلة، قام الإمبراطور سيفيروس بعدد مـن الإصلاحات الإداريـة والعسكرية، وفتح باب التطوع للتجنيد أمام الجميع فى كثير من ولايات الإمبراطورية، خاصـة أن فترة حكمه البالغة ثمانية عشرة عاما لم ينتشر السلام سوى فى ست منها فقط، وبالتالى عانت الإمبراطورية وولاياتها من جراء هذه الحروب،[٨١] ويبدو أن الإقبال على التجنيد فى مصر شهد زيادة واضحة لبعض الاعتبارات التى حفزت الأشخاص على الانـضمام لـصفوف الجـيش وهى:

١ ــ أن الإمبراطور سيفيروس عمل على زيادة رواتب الجنود بلغت مقدار الثلث،[٨٢] وزاد من الامتيازات والمكافآت التى تمنح للجنود المسرحين، كما فتح أمامهم أبواب الوظائف المدنية والإدارية.[٨٣]

٢ ــ أنه رفع الحظر المفروض على زواج الجنود خلال خدمتهم العسكرية، عـام ١٩٧م. وعمل على الاعتراف بشرعية الأبناء الذين يولدون من هذا الـزواج، كمـا سمـح للجنـود المتزوجين بحق الإقامة مع عائلتهم بالقرب من المناطق التى تعسكر فيها القوات التابعون لها.[٨٤]

٣ ــ أنه أحيا سياسة الأباطرة الأول بإنشاء المستعمرات ومنح الجنود المـسرحين الـذين استقراوا عليها قطعاً من الأراضى يطلق عليها κολωνίαι[٨٥] فوثيقة بردية أصابها بعض التلف وترجع إلى عام ٢٠٠ ميلادية،[٨٦] تتضمن التماساً من جندى مسرح تسريحاً يـدعى بوليـوس فاليريوس إلى الوالى لأنه تعرض لأعمال عنف قام بها جندى مسرح آخر ماركوس أوريليـوس نيفروس، ويضيف فى التماسه قائلاً: "أننى بفضل مولانا وكرمهم الواضح نحو الجنود المسرحين، تم منحى قطعة أرض κολωνία بالقرب من قرية كيركيسوخا فى قسم هيراكليديس فى أقلـيم أرسينوى، وعلى هذه الأرض ــ ومنها أحصل على نفقات معيشتى، ولقد انفقت كثيراً علـى القناة التى بواسطتها أروى الحقول و ــ، كما زودتها بالأدوات ــ ولكن نيفروس السابق ذكره

بكل غرور ــ (دون احترام لهيبتكم) ــ ارتكبت كثيرا من أعمال العنف تجاه استقرار الجنود المسرحين وتوطيدهم [وإلى هنا يضيع النص]".

يبدو إذن أن سياسة الإمبراطور سيفيروس كانت ترمى إلى منح الأراضى للجنود المسرحين ليستقروا عليها مكافأة على خدمتهم العسكرية فى الجيش الرومانى[٨٧] كذلك العمل نحو إصلاح الأراضى البور وزيادة رقعة الأراضى المزرعة فى مصر عن طريق منحها لهؤلاء الجنود لاستثمار جهودهم ومدخراتهم فيها، لأنها عادة ما تكون من الأراضى البور والمهجورة وتحتاج بعض النفقات لاستعادة قدرتها على الإنتاج.

وإذا لم يحصل الجندى المسرح على قطعة أرض كان يمكنه بما يحصل عليه من المكافأة فى نهاية الخدمة العسكرية وباقى مدخراته الأخرى شراء ما يريده من الأراضى الزراعية والعقارات المختلفة، خاصة أن الجنود حصلوا على أجور ومنح ومكافآت ضخمة فى عهد الأمبراطورين سيفيروس وكاراكلا.[٨٨]

فتوضح إحدى الوثائق البردية[٨٩] التى ترجع إلى عام ٢٠١م. أن جايوس يوليوس ديوجينيس جندى من فرقة تراجانوس الثانية اشترى قطعة من الأراضى التى تم مصادرتها ثم أصبحت تابعة لخزانة الدولة، وكانت مساحتها أرورة ونصف أرورة، وقام ديوجينيس بشرائها فى مزاد عام طبقاً لأوامر المدير الإمبراطورى اوريليوس فيليكس، ووصل سعر الأرورة ٨٠٠ دراخمة وسدد هذا الجندى ــ عن طريق البنك ــ الثمن مضافاً إليه الضرائب الأخرى وكان المبلغ الأجمالى ١٤٩٦ دراخمة.

هذه الأرض يبدو أنها كانت على درجة عالية من الخصوبة وأن الإدارة الرومانية، كثيراً ما تجد صعوبة فى وجود مستأجرين لها فتتجه إلى بيعها فى مزاد علنى هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى كانت تعمل بذلك على تهيئة الفرصة لتكوين طبقة من ملاك الأراضى يستطيعون النهوض بأعباء المناصب البلدية.[٩٠]

ويبدو أن امتلاك قطعة من الأراضى الزراعية كان مطلباً عزيزاً يتطلع إليه عدد كبير من الجنود المسرحين وأملاً يسعون إلى تحقيقه، ويمكن الاستدلال من أحدى البرديات[٩١] التى ترجع إلى عام ٢١٧ بعد الميلاد على هذا التوجه القوى إلى امتلاك واستثمار الأراضى الزراعية من

جانب الجيش سواء أثناء خدمتهم العسكرية أو بعد تسريحهم منها، فتحتوى هذه البردية على بيان بأسماء ملاك الأراضى فى قرية فيلادلفيا قام بإعداده سكرتير القرية، ويتضمن هذا البيان ١٦٧ اسماً لهؤلاء الملاك المقيمين فى القرية، منهم ٢٠ من الجنود المسرحين، و١١ من الجنود، وبالتالى فإن العدد الإجمالى يكون ٣١ وهذه نسبة عالية تقارب ٢٠% من مجموع ملاك الأراضى الخاصة فى زمام هذه القرية.

ويبدو أن الإصلاحات العسكرية التى قام بها الإمبراطور سيفيروس جعلت الجنود على ثقة من منحهم فى نهاية مدة خدمتهم قطعاً من الأراضى أو مكافآت جيدة من المال تكفيهم لشراء قطعة أرض ولإقامة المسكن اللازم لتكوين أسرة لهم، وعلى ذلك أظهر كثير من الأفراد رغبتهم فى الالتحاق بصفوف الجيش، ففى رسالة شخصية[٩٢] من سيدة "إيزيس" إلى والدها فى فيلادلفيا فى الفيوم تخبرها بسلامة وصولها إلى الإسكندرية ثم تضيف قائلة:

"إذا كان آيون يريد الانضمام إلى الجيش دعه يأتى (إلى هنا) فالجميع يلتحقون بالجيش"

LL. 9-10: καὶ ἐὰν θελήσῃ Αἰῶν στρατεύσασθαι,
ἐρχέσθω· στρατεύονται γὰρ πάντες.

تدل هذه العبارة إذن على وجود زيادة فى الإقبال على التجنيد فالامتيازات والحوافز التى تنتظر المجندين كان لابد أن تكون مغرية ومن ثم فإن الالتحاق بصفوف الجيش كان بوابة المرور إلى طبقة الرأسماليين الزراعيين فى القرى والأقاليم المصرية.

الهوامش

(١) وردت هذه الكلمة بصيغها المختلفة فى مقننة الايديولوجوس
BGU., V, 1210=Gnom. Art. 35;55,56,111; P.Oxy., 1666,III cet. AD.

(2) BGU., 696. L-28; P.Oxy., 1022; W. Chr., 453; P. Oxy., 1451, 175 A.D., Introd. P. 152; Plin., Ep., x, 30.

(٣) توجد مجموعة متنوعة من الفحص لفئات وشرائح اجتماعية متعددة والهدف منها اثبات وضعية اجتماعية يترتب عليها التمتع بحقوق وامتيازات بعينها، والفحص العسكرى ممكن أن يخضع له الجنود والجنود المسرحون أكثر من مرة ولكل منها هدف معين. أنظر:
P.Oxy., 1451; Introd. P. 150; BGU, 143; Sel. pap., 315; S.B., 9228, 160 A.D.; O.W. Reinmuth, The Prefect of Egypt from Augusts to Diocletian, Leipzig, 1935, P. 123; A.C. Johnson: Roman Egypt, An Economic Survey of Ancient Rome, ed. By T. Frank, vol. 2, Baltimore, (1936), p.249-251; C. Nelson, Status Declarations in Roman Egypt, BASP., 19, (1979), p. 44-45.
فاروق القاضى، "المواطنون الرومان فى مصر فى القرنين الأول والثانى الميلاديين"، مجلة مركز الدراسات البردية، المجلد الخامس، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٨٣؛ حسن الإبارى وحسين يوسف، تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى فى عصر الرومان، القاهرة ٢٠٠٤، ص ٦٤ وما بعدها.

(4) See Ulp., Dig., I, 17, 1; H. Last, "The Praefectus Aegypti and his Powers" J.E.A., 40, 1954, pp. 68-73; A.H.M. Jones, "Procurators and prefects in the Early Principate", Studies in Roman Government And Law, Basil Blackwell, Oxford, 1960, pp. 121 ff.
عبد اللطيف أحمد على، مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٧٦–١٧٧.

(5) P. Oxy. 1022=Sel. Pap., 421, 103 A.D.

(6) Ibid. LL: [C.] Minucius Italu [s C]elsiano suo sal[u]tem. Tirones sexs probatos a me in coh(orte) cui praees in numeros referri iube ex xi kalendas Martias:
وهذه الكتيبة كانت ترابط فى اوكسيرينخوس حوالى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى. أنظر:
J. Lesquier, L'Armée Romaine d'Egypte d'Auguste à Diocletien, Mem. IFAO., L. XLI, (1918), p. 91.

(7) B.G.U., 696=Sel. Pap., 401, 156 A.D.

(٨) أشارت بعض الوثائق البردية إلى التسجيل بلفظ:
'Scribere' in P. Mich., VII, 432. L. 10. and 'referre' in P. Oxy., 1022=Sel. Pap. 421, L. 6.

(9) P.S.I., 1063, LL. 1-14, 117 A.D.

(10) P.Oxy., 1666, III Cent A.D.

(١١) كان يتم الاستعانة أحياناً ببعض الشخصيات للمساعدة فى حل هذه المشاكل وتذكية أصحابها لدى المسئولين؛ ففى رسالة باللاتينية إلى قائد أحدى الفرق العسكرية من ضابط آخر يذكى فيها *L. 4 commendare* أحد أصدقائه لدى هذا القائد من أجل أن يحظى بالقبول وبإنجاز المهمة التى يسعى من أجلها. أنظر:

Sel. Pap., 122, 2nd cent. A.D.

([12]) See P. Oxy., 1451, Introd., P. 150.

([13]) B.G.U., 142=W. Chr., 455.

([14]) Gnom., art. 55.

Εάν αἰγύπτ[ιο]ς λαθὼν στρατεύσητα[ι ἐ]ν λεηῶνι, ἀπολυθ[εὶς [εἰ]ς τὸ
Αἰγύπτιο[ν] τάγμα ἀποκαθίστ[αι]. ὁμοίως δὲ καὶ οἱ ἐκ [τοῦ]ἐρε.
τικοῦ ἀπ[ολ]υθέντες ἀποκαθίστανται πλὴν μόνων τῶ[ν] ἐκ
Μησινῶν [σ]τόλου.

([15]) R. Taubenschlag, The Law of Greco-Roman Egypt in the light of the Papyri, 332 B.C.- 640 A.D 2nd. ed., Warszawa, 1955, p. 475.

وذكى على، مقتنة الإديولوجوس، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٢٥.

([16]) Yann le Bohec, The Imperial Roman Army, Translated by Raphael Bate, routedge, London and New York, 2001, p. 87.; R. Taubenschlag, op. cit., 621; J. Barns, Three Fayum Papyri, Chr. d. Eg. 24, 1949, p. 296ff.; No. 2.

وانظر: هـ. إيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة وإضافة عبد اللطيف أحمد علـي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص ٩٢ والهوامش؛ سيد أحمد الناصرى، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضارى، ط ٢، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٩١)، ص ٤٦.

(١٧) مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ٢٠٧ـ٢٠٨، فاروق القاضى، المرجع السابق، ص ٧٣ـ٧٧.، فـوزى مكاوى، الشرق الأدنى فى العصرين الهلينستى والرومانى، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٧٥ـ٢٧٦.

([18]) N. Lewis, Life in Egypt under Roman Rule, Clarendon Press, Oxford. (1983), p. 27-28.

جونيفيف هوسون، دومينيك فاليل، الدولة والمؤسسات فى مصر، ترجمة: فؤاد الدهان، مراجعة: زكية طبوزادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٣٣٥، ومصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ٢١٠.

([19]) LL. 27-29:

Γάιος Ἰούλιος Σατορνεῖλος στρατιώτης λεγεῶνος δευτέρας καὶ εἰκοστῆς κεντέρ-ας βίου Σεουήρου οὐ δυνάμενος τὸν εἰς τὴν χώραν
ἀνάπλουν ποιήσασθαι διὰ τὸ ἐν σ.τ.ρα[ταίᾳ εἶναι συ]νίστημι τὸν ἠλε- υθ ερωμένον ἐπ'
ἐμοῦ πρὶν τῆς στρτείας τότε χρηματίσδων
Πτολεμαῖος Πτολεμαίου Φυλαξιθαλάσσ[ιος ὁ κα]ὶ Ἀλθεαιοὺς

([20]) CIL., III, 6580.

([21]) See: CIL. III, 6627; 6580; P.Oxy., 1471, 81 A.D.,L. 5; Danny, D. and Nicholas, P., Hadrian's Empire when Rome Ruled the World, Hodder, Great Britan, (2005), p, 157; Richard Alston, Soldier and Society in Roman Egypt, Routledge, London and New York, (1995), p. 40;

مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص ٢٠٥، وهامش رقم ٣، ص ٢٠٦ يشير إلى أن نحواً من نصف المجندين فى الفرقة الرومانية الثالثة الأوغسطية يذكرون أنهم من مواليد المعسكرات.

([22]) CIL, III, 6580.

([23]) P.S.I., 1026, Col. C, ll. 9-33, 150 A.D.; see: O.W. Reinmuth, op. cit. p. 123; N. Lewis, op. cit. p. 21.

(٢٤) عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، دار النهضة، القاهرة (١٩٦٥)، ص ١٩٠ وما بعدها.

([25]) Strabo XVII, 1, 12.

([26]) Yann le Bohec, The Imperial Roman Army, Translated by Raphael Bate, Routedge, London and New York, (2001), pp 78ff; tables, No. 16; 19; 30.

([27]) BGU. IV, 1083, before 41 A.D.

([28]) Musé d' Alexandrie, inv No. 2577 ed. by Abdullatif A. Aly, "A Latin Inscription from Nicopolis", Ann. Fac. Arts, Ain-Shams Univ. III, (1955)" pp. 113-146.

([29]) CIL, III, 6627; BGU. IV, 1083.

([30]) CIL. III, 6580, 194 A.D.; A. A. Aly, A Latin Inscription from Nicopolis.

([31]) CIL, III, 6627, Augustus age.

([32]) CIL III, 6580.

([33]) BGU. IV, 1083.

([34]) A. A. Aly, A Latin Inscription from Nicopolis; CIL, III, 6580.

([35]) BGU. IV, 1083

([36]) Musé d' Alexandrie, inv No. 2577, 157 A.D.

([37]) Yann, op. cit. p. 87; O.W. Reinmuth, p. 126.

([38]) CIL, III. 6580.

([39]) See for example: Sel. Pop., No. 401,156 A. D.; P. Mich., III, 159, 41-68 A.D.; R. Alston, op. cit., pp. 21-22; R. Taubenschlag, op. cit. p. 621.

هـ. إيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ترجمة: عبد اللطيف أحمد على، ط ٣، بيروت، ١٩٧٣، هامش ٢.

([40]) R. Alston, op. cit. p. 21; see also Yann Le Bohec, op. cit. p. 93.

([41]) Strabo. XVII, 1, 12.

(٤٢) هوسون، د. فاليل، المرجع السابق، ص ٣٣٤، وعن إجمالى عدد القوات العسكرية فى مصر، يرى عبد اللطيف أحمد على، أنه من العسير تقدير عدد جنود الجيش الرومانى فى مصر فى وقت بعينه، ولكن لسكيه يرى أنه لم يزد عن ١٧ ألف أو ١٨ ألف بعد عام ٢٣م.، على أن غيره من العلماء يعتقد استناداً إلى الوثائق المكتشفة حديثاً أنه كان يزيد على هذا العدد، وأنه كان يوجد بمصر وحدات عسكرية أخرى لم يذكرها استرابون، انظر عبد اللطيف أحمد على ، مصر والإمبراطورية الرومانية، ص ٤٥-٤٦، و هـ. إيدرس بل، المرجع السابق، ص ٩٢، هامش ٣،

ويذكر مصطفى العبادى، أن إجمالى العدد فى عصر أغسطس ٢٢,٨٠٠، ثم خفض ١٦,٧٠٠ فى عصر تيبريوس، ثم خفض أخيراً فى القرن الثانى إلى ١١,١٠٠ جندى، مصطفى العبادى، الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطورى ومصر الرومانية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩، ص ١٥٩؛ ويرى ريكارد الستون بعد دراسته لبعض النقوش، أن العدد الإجمالى قبل عام ٢٣ كان حوالى ٢١,٠٠٠ وفى عام ٨٣ كان ١٥,٠٠٠، وفى عهد تراجان كان ١٦,٥٠٠ وفى القرن الثانى كان حوالى ١٢,٠٠٠ جندى، R. Alston, op. cit. p. 32.

([43]) BGU., 696=Sel. Pap., 401, 165 A.D.

([44]) See P. Fouad I, 21, 63 A.D., 28, 59 A.D.; BGU., 180, 172 A.D.; Sel. Pap., 315, 188 A.D.; 85, 189-194 A.D.; R. Taubenschlag, op. cit., p. 105; N. Lewis, op. cit. p. 20.

([45]) Danny, D. and Nicholas, P., op. cit. p. 157.

([46]) R. Taubenschlag, op. cit. p. 621.

([47]) Sel. Pap., 315, 188 A.D.

([48]) See P. Oxy., 39, 52 A.D.

حيث يتضمن تسريحاً بسبب مرض عضوى لشخص يدعى تريفون بن ديونيسيوس من اكسيرينخوس الذى التحق بالخدمة العسكرية، ولكنه لم يستكمل مدة خدمته بسبب إصابته بمرض عتامة عدسة العين وقصر النظر، لذا تم تسريحه من الخدمة العسكرية بواسطة الوالى بعد أن خضع أمامه للفحص العسكرى فى الإسكندرية

L. 5-6: ἀπελύθηι [ὑ]πὸ [ναίου Οὐεργιλιόυ
Καπίτων[ο]ς τοῦ ἡγεμόνος
L. 11: ἐπεκρίθ (η) ἐν Ἀλεξανδ (ρεια).

([49]) See Berger, Encyclopedic Dictionary of Roman Law, Tran. Amer. Phil. Soc., vol. 43, Port 2, 1953, S.V. Diploma Militare; O.W. Reinmuth, op. cit. p. 124-5; H. Nesselhauf, Diplomata Militaria" CIL., XVI. 1936; R. Taubenschlag, op. cit. p. 621.

وعبد اللطيف أحمد على، مصادر التاريخ الرومانى، دار النهضة، بيروت ١٩٧٠، ص ١١٧ـــ١١٨، وهامش ٣. حيث يذكر "أن الجنود المسرحين من الفرق الرومانية (*Legiones*) فلم تجر العادة على منحهم براءات عسكرية بعد عشرين عاماً من الخدمة حيث أنهم فى الأصل رومان لأنه لم يكن يجند فى الفرق سوى الرومان. وإذا كنا قد عثرنا على عدد قليل جداً من البراءات العسكرية الممنوحة لجنود الفرق، فإنها قد منحت لهم فى ظروف استثنائية أو غير عادية".

([50]) See Yann Le Bohec, op. cit. p. 93; 98.

(٥١) دونالد دادلى، حضارة روما، ترجمة: جميل يواقيم وفاروق فريد، مراجعة: محمد صقر خفاجة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٩، ص ٢٢٤ــ٢٢٥؛ م. ب. تشارلزوورث ، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة: رمزى عبده جرجس، مراجعة: محمد صقر خفاجة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٥٣.

([52]) Yann Le Bohec, op. cit. p. 101.

([53]) BGU., 423, 27= Sel. Pap., 112, 113, 2nd cent. A.D.; P.W. Pestman, The New Papyrological Primer, E. J. Brill, Leiden, New York, 1990. No. 38, 39; 50; P. Mich., 8, 468; 491, II cent. A.D.; O.Oxy., 1451, 175 A.D.; Itrod.

([54]) BGU., 423, = Sel. Pap., 112, 2nd cent. A.D.

([55]) P.W. Pestman, op. cit. No. 39, n. 24.

([56]) BGU., 2, 632.

([57]) P. Mich., 491 = Sel. Pap., 111 2nd cent. A.D.

([58]) Philon, in Flac., 163.

وأشارت وثيقة بردية إليه باسم "أسطول الإسكندرية الإمبراطورى" أنظر:

P.Oxy., 1451, 175 A.D., L. 14:
ἐπάρχου στόλου Σεβαστοῦ Ἀλεξα[νδρ]ίνου

(٥٩) ج هوسون و د. فاليل، المرجع السابق، ص ٣٣٧ــ٣٣٨.

([60]) P. W. Pestman, op. cit., No. 38, early 2nd cent. A.D.

([61]) R. W. Davies, "The Enlistment of Claudius Terentianus", B.A.S.P., 10, 1973, pp. 21-25.

([62]) Sel. Pap., 113, II or III cent. A.D.

([63]) Yann Le Bohec, op. cit. p. 64.

([64]) Ibid., Table 30 in p. 101.

(٦٥) ج. هوسون، المرجع السابق، ص ٣٣٥.

([66]) N. Lewis, op. cit., p. 20.

مصطفى العبادى، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٠٣، وفاروق القاضى، المرجع السابق، ص ٧٧.

([67]) Yann Le. Bohec., op. cit. p. 81.

([68]) BGU, 140 Sel. Pap., 213; 119 A.D.; P.W. Pestman. op. cit., p. 138; R. Taubenschlag, "The Imperial Constitutions in Papyri", J.J.P., vol. VI, 1952, p. 141.

(٦٩) عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية الرومانية، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٩٠ــ٢١١، والمصادر والمراجع التى أشار إليها. وعن السياسة القانونية لهادريان وإصلاحاته، أنظر:

Fritz Pringsheim, "The Legal Policy and Reforms of Hadrian" J.R.S., 24, 1934, pp. 141-53.

([70]) See P. Mich. III, 159, 41-68 A.D.; Mitteis, Chrest., No. 372, 117 A.D.= P.W. Pestman. op. cit., No. 28; Lesquier. J., op. cit., pp. 268-70.

([71]) Yann Le. Bohec., op. cit. p. 82; and table 19 in P. 86.; R. Alston, op. cit., p. 40.

([72]) N. Lewis, op. cit., p. 21.

(٧٣) م. روستفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى، ترجمة: زكى على، محمد سليم سالم، القاهرة ١٩٥٧، ص ١٨٦.

([74]) Danny and Nicholas, op. cit., p. 160-161.

(75) P. Mich. IV. Pt. I, Tax Rolls form Karanis ed. H.C. Youtie, Ann Arbor, 1936. Nos. 223-225;

هوسون وفاليل، المرجع السابق، ص ٣٤٢.

(76) P. Mich., 225, 174 A.D.; 428. 154 A.D.; S.B., 7427; P. Mich., 364; 385; 386;422-426; S.B., 7360; 7361; P. Oxy., 62, 4595.

(77) P. Mich. 174; P. Wisc., 33,34, B.G.U, 1896; P.S.I., 877.

(78) P. Wisc., 34; P. Mich., 174.

(79) P. Wisc., 34., L. 3-4.

(٨٠) سيد أحمد الناصرى، المرجع السابق، ٣١٦ــ٣١٧. وتتضمن بردية نشرت حديثاً فى مجموعة أوكسيرينخوس تحتوى على رسالة من أحد الأباطرة (ربما سبتيموس سيفيروس) إلى الإسكندريين يعدهم بزيارته لهم، بعد أن تم تعيينه إمبراطوراً بواسطة الجنود الشجعان (γενναῖοι).

P.Oxy., 4592, L. 6-7: Κεχε[ι]ροτονη[μενος] μεν αὐτοκράτωρ ὑπο τῶν γενναιοτάτ [ων] στρατιωτῶν,

(٨١) م. روستفتزف، المرجع السابق، ٤٧٦ــ٤٧٧؛ سيد أحمد الناصرى، المرجع السابق، ص ٣٢٢.

(82) See N. Lewis, op. cit., p. 21; Yann Le Bohec, op. cit., p. 210.

حيث يذكر الباحث الأخير أن راتب الجندى زاد فى عهد الإمبراطور دوميتيان إلى ٣٠٠ دينار سنوياً، وفى عهد الإمبراطور سيفيروس حوالى عام ١٩٣، توجد بشأنه ثلاثة أرقام ٤٠٠، ٤٥٠، ٥٠٠دينار سنوياً، وأنه يفضل الرقم الأوسط.

(٨٣) فعلى سبيل المثال أوريليوس كالوريتيوس أبوليندس، بعد خدمته العسكرية فى أحد الفرق الرومانية، وتسريحه تم تعينه فى منصب المشرف على الإيديولوجوس: بعد عام ٢٠٩ ميلادية. راجع:

IGRRI,. 1107, CIG II, 3751; P.R. Swarney, The Ptolemaic and Roman Idioslogos, Toronto, 1970, pp.129-130.

(84) Yann Le. Bohec., op. cit. p. 81;

وسيد أحمد الناصرى، المرجع السابق، ص ٣١٨.

(85) See A.H. Johnson, op. cit., p. 673.

(86) W. Chr., No. 461, 200 A.D.; AH. Johnson, op. cit., No. 413, p. 680.

(٨٧) هذا أشبه بسياسة البطالمة الأوائل بخصوص منح الجنود اليونانيين أراضى ليقيموا عليها ويعيشون من ريعها باستثمارها بطريقتهم الخاصة وقت السلم. أنظر: محمود إبراهيم السعدنى، تاريخ وحضارة مصر فى العصر البطلمى، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٨٤.

(88) N. Lewis. "Soldiers Permitted to own Provincial Land", BASP., 17. 1980, p. 148.

(89) BGU., 156=W. Chr. 175; A.H. Johnson. op. cit., No. 97,201 A.D.

(٨٩) محمد فهمى عبد الباقى، "الوضع القانونى للأراضى فى مصر فى عصر الرومان حتى القــرن الرابــع المــيلادى"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس والثلاثون، ١٩٨٩، ص ٢٥ــ٢٦.

(91) P. Yale, 79, 217 A.D. see J. Oates, "Philadelphia in The Fayum during the Roman Empire", XI Cong. Int . Pap., Milano, 1966, p. 454 ff.

و فاروق القاضى، المواطنون الرومان فى مصر فى القرنين الأول والثانى الميلاديين، مركز الدراسات البردية، المجلــد الخامس، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٧٨ــ٧٩.

(92) BGU, 1680 = Sel. pap., 134, 3rd Cent. A.D.



المصادر والمراجع

أولا: المصادر

١ ـ المصادر الأدبية:

- Philo, in Flaccum, 163.
- Pliny The Younger, Epistulae, x, 30.
- Strabo, XVIII, I, 12.
- Ulpian, Digesta, 1. 17. 1.

٢ ـ النقوش:

C.I.L. - Corpus Inscriptionum Latinarum.

C.I.G. = A. Boeck, Corpus Inscriptionum Graecarum

- I.G.R.R. = Inscriptiones Graecae ad res Romanas pertinentes (R. Cagnat).

٣ ـ الوثائق البردية:

- BGU., Aegyptische Urkunden aus den Komniglichen Museen zu Berlin, Griechische Urkunden Berlin 19 Vols. (1895-2005).

- P. Fay., Fayum Towns and their Papyri, ed B. P. Grenfell, A. S Hunt and D. G. Hogarth. London (1900)

- P. Fouad., Les Papyrus Fouad I. Ed. A Bataille, O. Gueraud, P. Jouguet, N.

- Lewis, H. Marrou, J. Scherer and W. G. Waddell. Cairo (1939).

- P. Mich., Michigan Papyri, 11 Vols. Each Volume has a sub-title of its own, 193-1971.

- P. Oxy., The Oxyrhynchus Papyri. Published by the Egypt Exploration Society in Greco-Roman Memoirs-London ed. B. P. Grenfell, A. S. Hunt and other, 72 Vols (1898-2008).

- P. Ryl., Catalogue of the Greek and Latin Papyri in the John Rylands Library, Manchester, ed. A. S. Hunt, A. C. Johnson and others, 4 Vols (1911-1952).

- PSI., Papyri greci e Latini (Pubblicazionedella Societa Italiana per la ricerca die Papiri greci e latini in Egitto) Florence. Ed. Vitelli and M/ Norsa. 15 Vols (1912-2008).

- P. Tebt., The Tebtunis Papyri. ed B. P. Grenfell, A. S. Hunt and other. 4 Vols. (1905-1976).

- P. Wisc., he Wisconsin Papyri I, ed. P. J. Sijpesteijn, Leiden, 1967. (Pap. Lugd. Bat. XVI)

- P. Yale., Yale Papyri in the Beinecke Rare book and Manuscript Library vol. I ed. J.F. Oates, A.E. Samuel and C.E. Welles, New Haven and Toronto, 1967.

- S.B., Sammelbuch griechischer Urkunden aus Aegypten, Collection of documentary Papyri, Ostrac, inscriptions published in Journals or unindexed Catalogues, Begun by F. Preisigke 26 Vols (1912-2006).

- Sel. Pap., Select Papyri, London and Cambridge ed. A. S. Hunt and C. C. Edgar 3 vols (1932-1942).

ثانياً: المراجع والدوريات الحديثة

١ ـــ المراجع الأجنبية

- A. A. Aly, A latin Inscription from Nicopolis; Ann Fac. Art-Shams Univ. III, 1955, pp. 113-149.

- Barns, J., Three Fayum Papyri, chr. D. Eg. 24, 1949, p. 296, No. 2.

- Berger, Encyclopedic Dictionary of Roman Law, Tran. Amer. Phil. Soc., vol. 43, Port 2, 1953.

- Danny, D. and Nicholas, P., Hadrian's Empire when Rome Ruled the World, Hodder, Great Britan, (2005).

- Davies, R. W., "The Enlistment of Claudius Terentianus", B.A.S.P., 10, 1973, pp. 21-25

- Fritz Pringsheim, "The Legal Policy and Reforms of Hadrian" J.R.S., 24, 1934, pp. 141-53.

- Johnson, A.C., Roman Egypt to The Reign of Diocletian, An Economic Survey of Ancient Rome, ed. By T. Frank, vol. 2, Baltimore, (1936).

- Jones, A.H.M., "Procurators and prefects in the Early Principate", Studies in Roman Government And Law, Basil Blackwell, Oxford, 1960, pp. 115-125.

- H. Last, H., "The Praefectus Aegypti and his Powers" J.E.A., 40, 1954, pp. 68-73.

- Lesquier, J., L'Armée Romaine d'Egypte d'Auguste à Diocletien, Mem. IFAO., L. XLI, (1918).

- Naphtali Lewis, Life in Egypt under Roman Rule, Clarendon Press, Oxford. (1983).

- , "Soldiers Permitted to own Provincial Land", BASP., 17, 1980, p. 143-148.

- Nelson, C., Status Declaratios in Roman Egypt, BASP., 19, (1979), p. 13-45.

- Oates, J., "Philadelphia in The Fayum during the Roman Empire", XI Cong. Int . Pap., Milano, 1966.

- Pestman, P.W., The New Papyrological Primer, E. J. Brill, Leiden, New York, 1990.

- Reinmuth, O.W., The Prefect of Egypt from Augusts to Diocletian, Leipzig, 1935.

- Richardd Alston, Soldier and Society in Roman Egypt, Routledge, London and New York, (1995).

- Swarney, P.R.., The Ptolemaic and Roman Idioslogos, Toronto, 1970.

- Taubenschlag, R., The Law of Greco-Roman Egypt in the light of the Papyri, 332 B.C.- 640 A.D 2nd, ed., Warszawa, 1955.

., "The Imperial Constitutions in Papyri", J.J.P., vol. VI, 1952, p. 121-142.

- Yann le Bohec, The Imperial Roman Army, Translated by Raphael Bate, routedge, London and New York, 2001.

٢ ـ المراجع العربية:

ـ إيدرس هـ. بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة وإضافة عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣.

ـ تشارلزورث، ب، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة: رمزي عبده جرجس، مراجعة: محمد صقر خفاجة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

ـ حسن الإبياري وحسين يوسف، تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي في عصر الرومان، القاهرة ٢٠٠٤.

ـ دونالد دادلي، حضارة روما، ترجمة: جميل يواقيم وفاروق فريد، مراجعة: محمد صقر خفاجة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٩.

ـــ روستفتزف، م.، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادى، ترجمة: ذكى على، محمد سليم سالم، القاهرة ١٩٥٧.

ـــ زكى على، مقتنة الإديولوجوس، القاهرة، ١٩٩٨.

ـــ سيد أحمد الناصرى، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى، ط ٢، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٩١).

ـــ عبد اللطيف أحمد على، مصادر التاريخ الرومانى، دار النهضة، بيروت ١٩٧٠.

ـــ ـــــــــــــ ، مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، دار النهضة، القاهرة (١٩٦٥).

ـــ فاروق القاضى، "المواطنون الرومان فى مصر فى القرنين الأول والثانى الميلاديين"، مجلة مركز الدراسات البردية، المجلد الخامس، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٨.

ـــ محمد فهمى عبد الباقى، "الوضع القانونى للأراضى فى مصر فى عصر الرومان حتى القرن الرابع الميلادى"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس والثلاثون، ١٩٨٩.

ـــ محمود إبراهيم السعدنى، تاريخ وحضارة مصر فى العصر البطلمى، القاهرة ٢٠٠٦.

ـــ مصطفى العبادى، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، القاهرة، ١٩٦٦.

ـــ مصطفى العبادى، الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطورى ومصر الرومانية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩.

ـــ جونيفييف هوسون، دومينيك فالبيل، الدولة والمؤسسات فى مصر، ترجمة: فؤاد الدهان، مراجعة: زكية طبوزادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥.



بقلم الأستاذ: رحماني بلقاسم (*)

روما وسياسة الرومنة في شمال إفريقيا

(بلاد المغرب نموذجًا)

بعد تدمير قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م وتحويلها إلى ولاية رومانية أصبحت منطقة المغرب في أيدي الرومان، رغم ذلك لم يكن من السهل تحقيق احتلاله المنطقة، فلقد واجهت الرومان ثورات ومقاومات عديدة في مختلف أنحاء المنطقة، إلا أن الرومان أكملوا سيطرتهم بتحقيق انتصارات على المقاومات وشرعوا في تحقيق تهدئة المنطقة، وفي استكمال سياسة الإخضاع العسكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والتقاضي أو ما يعرف بسياسة الرومنة.

١ – السياسة الإدارية الرومانية في بلاد المغرب ودورها في سياسة الرومنة:

يجمع المؤرخون على أن الاحتلال الروماني لبلاد المغرب تميز منذ البداية بالتدرج والبطء، وبالتدرج نفسه اتسمت به الإدارة الرومانية وأجهزتها في المنطقة في إطار تحويل الأنظمة الإدارية المغربية إلى أنظمة رومانية خالصة، والواضح أن السياسة الرومانية الإدارية تميزت في

* قسم التاريخ – جامعة الجزائر

بدايتها بالمرونة [١]، وهي ضرورة تطلبها التطورات السياسية الإدارية والعسكرية في كل مناطق الإمبراطورية، واقتضتها ضرورة تحقيق أهداف روما في بلاد المغرب، وهي الأهداف التي تتمحور حول تكثيف الجهود لتثبيت السيطرة الرومانية، وبالتالي تمهيد وتهيئة النفسية المغربية لتقبل الحضارة الرومانية بمختلف مظاهرها، أي قبول السكان لسياسة الرومنة. ويرى عدد من المؤرخين أن أبرز وجوه المرونة الرومانية في هذا الميدان تكمن فيما يلي:

أ – اللامركزية الإدارية:

وتتمثل في عدم جعل مدينة مغربية خاضعة للرومان تتمركز فيها السلطة الإدارية لكل المنطقة المغربية، وتحت سلطة مسؤول روماني واحد، وبالتالي اعتماد سياسة تقسيم المنطقة الخاضعة إلى وحدات إدارية (ومقاطعات) لكل منها سلطة مستقبلية وربطها بإدارة روما المركزية المباشرة. وهذا التقسيم تتضح أهدافه في أنه يمكن حكامها من السيطرة عليها، وكذلك جمع الجباية المختلفة وخاصة المنتجات الزراعية وتصديرها إلى الرومان كذلك تسهيل عملية إخضاع العناصر الوطنية الثائرة على الرومان. إضافة إلى ذلك فإنه كان لهذه التجربة صلاحيات واسعة للحكام لاتخاذ الإجراءات السريعة والرادعة دون اللجوء إلى السلطة المركزية في روما. وكذلك فإن صغر مساحة الولاية كان يساعد الحاكم على معرفة كل دقائقها وعن كثب في شتى المجالات.

ويتضح من قراءة بسيطة لهذا النظام الروماني مدى حذر روما الشديد من تعرض مصالحها لأي خطر في هذه المناطق البعيدة عنها سواء كان خطرا محليا وطنيا ضد مصالحها، أو خطر من قبل ولاة روما الطموحين في الانفراد بالسلطة في المنطقة الغربية، وبالتالي فهذه التجزئة كانت تهدف إلى ضرب طموح هؤلاء الحكام في التمرد ضد السلطة المركزية ورفضا لاستقلال الجاليات الرومانية بأي مقاطعة[٢].

ب – المناطق المدنية والمناطق العسكرية:

يلاحظ أن الرومان قد قسموا بلاد المغرب إلى نوعين من المناطق الإدارية وذلك حسب مدى توغل النفوذ الروماني بها، ودرجة خضوع السكان لهذا النفوذ.

فالنوع الأول يتمثل في المناطق الأكثر أمنا وهدوءا لأنه مضى على احتلالها زمن طويل و في هده المناطق يستبعد قيام أي ثورة ضدها فهي ذات حكم مدني تحت سلطة حاكم يتمتع بالعضوية في مجلس الشيوخ . ولقد تمتع إقليم قرطاجة بهذه الصفة المدنية ثم منطقة نوميديا الشرقية عندما تم تحويلها إلى ولاية رومانية جديدة لسنة ٤٦ ق.م [٤].

لكن المناطق التي كانت نشطة عسكريا ضد الاستعمار الروماني، فإنها تطلبت وجود نشاط عسكري روماني، فاعتبرت مناطق عسكرية أو ولايات إمبراطورية كما عرفت خلال العهد الإمبراطوري، ويشرف على هذه المناطق ضباط كبار يعينهم الإمبراطور مباشرة دون مجلس الشيوخ، ويمارسون عملهم بتعليمات الإمبراطور [٥].

ويلاحظ أنه عندما تستوفي الإدارة العسكرية نشاطها بالمنطقة أي عندما يسود الأمن والاستقرار وتضعف الحركات الثورية الوطنية يتم إحلال الإدارة المدنية مكان الإدارة العسكرية وبذلك يتضح دور سياسة التقسيم والعمل العسكري في تجسيد الرومنة في المنطقة المغربية.

والظاهر أن هذه السياسة الإدارية المدنية والعسكرية تعود إلى يوليوس قيصر نفسه حيث ظهرت في العهد الإمبراطوري بجلاء عند إعلانه عن إنشاء الولاية الإفريقية الجديدة في نوميديا بعد نجاحه في الحرب الإفريقية [٦]، عرض أن يضمها إلى ولاية إفريقية القديمة لأنه يظهر أن نوميديا في نظره كانت تشكل منطقة غير آمنة ومن الضروري أن تظل معزولة عن الولاية القديمة التي سارت فيها سياسة الرومنة بشكل واسع، وحتى لا تصلها آثار الثورة الوطنية التي كان خلفاء " يوبا" يقومون بها . ويظهر أن سبب عداء قيصر للولاية القديمة يعود إلى الموقف الذي اتخذته جاليتها والسلطة الرومانية تجاهه أثناء حملته عليها، لذلك كان حذرًا ومرتابا منها ورأى ضرورة الفصل بينهما [٧].

ولقد عين قيصر (Caesar) القائد " سالوست" لأن يكون على رأس الولاية الجديدة وذلك نظرا لعداء " سالوست" الكبير لأتباع " بومبي" ومجلس الشيوخ، ودفاعه المستميت عن الحزب القيصري و دوره في حملة قيصر على إفريقيا.

وبعد القضاء على ثورة " أرابيون" الوطنية ثبت قيصر أسس المستعمرات الإقطاعية التي كافأ بها قيصر رجال " سيتيوس" في نوميديا ليجسد بذلك سياسة الرومنة وبذلك انتقلت حدود روما إلى ما وراء نوميديا غربا [٨].

وبالتالي كان هذا التقسيم الإداري قيصري الأصل، والهدف المدني منه هو تنظيم أساليب أكثر إيجابية لأهداف الرومان في المرحلة الأولى ويمكن مقارنتها بما حدث في كل من نوميديا وموريطانيا. [٩]

ج – إفريقية البروقنصلية:

تتمثل في المنطقة التي ورثها الرومان عن القرطاجيين عام ١٤٦ق.م حيث كان نظامها مدنيا منذ المرحلة الأولى و النشاط العسكري كان فيها قليلا والسبب الذي جنب هذه المنطقة الإدارة العسكرية هو أن قرطاجة كانت تتمتع في العهد القرطاجي بسلطة مدنية تعود الناس عليها فاستفاد منها الرومان كما استفادوا من الحضارة القرطاجية، [١٠] إضافة إلى تغير الوضع السياسي بعد سقوط قرطاجة ووقوف بعض المدن المستقلة إلى جانب الرومان كل ذلك أدى إلى تفكك عنصر الوحدة والتضامن القرطاجي المغربي مما جعل الرومان يطمئنون إلى الإدارة المدنية لرومنة المنطقة بالتدريج.

ويؤكد المؤرخون أن نوميديا حليفة الرومان كانت الحامي الحقيقي للولاية الرومانية حيث اعترفت روما بالأراضي القرطاجية التي ضمتها مملكة نوميديا إليها قبيل سقوط قرطاجة، خاصة وأن تلك المناطق الجبلية الصحراوية موطنا لقبائل يصعب انقيادها لسيطرة أجنبية فهي لا تعرف الاستقرار، ويضيف أحد المؤرخين أن المملكة النوميدية كانت أشبه بمنطقة عسكرية بالنسبة للولاية الرومانية وأن ملوكها الأوائل قاموا بتمهيد المنطقة لمستقبل كانوا يجهلون هويته لعدم وضوح الرؤية البعيدة لديهم حيث ساد جو سياسي مشحون بالضغائن، فاعتبروا الولاء للرومان أسلوبا وحيدا للمحافظة على المملكة النوميدية وهو الأسلوب الذي جنب الرومان مشاكل كثيرة وعاد عليهم بفوائد سياسية واقتصادية عديدة [١١].

د – موريتانيا وازدواجية الإدارة فيها:

لقد ضم يوليوس قيصر نوميديا (Numidia) رسميا للممتلكات الرومانية سنة ٤٦ق.م وأصبح الملك الموريتاني، " بوكوس الثاني" حليفا للرومان الذين حققوا بذلك مكسبا إقليميا نحو الغرب وتسامح قيصر مع " بوكوس الثاني" بضمه الجزء الغربي من نوميديا، كما كافأ على

دوره في حرب قيصر الإفريقية. واستمر بوكوس على نفس النهج الموالي للحزب القيصري إلى وفاته سنة ٣٣ق.م، وبذلك قدم خدمات كبرى لمصالح روما منها حماية ظهر للولاية الجديدة. ويلاحظ أنه بعد وفاة" بوكوس الثاني" تم ضم المملكة الموريتانية مدة ٠٨ سنوات تحت الإدارة العسكرية بأمر من " أوكتافيوس" ليتراجع عن ذلك سنة ٢٥ق.م عندما نصب " يوبا الثاني" ملكا على موريتانيا الموسعة والممتدة من حدود الولاية الجديدة . إلى المحيط الأطلسي. ولم يعمل "يوبا الثاني" إلا على مساعدة تغلغل النفوذ الرومان في موريتانيا بصورة أكثر مما كان عليه في نوميديا وبذلك استأنف " يوبا الثاني" مهمة "بوكوس الثاني" لكن بجدية أكثر وإرادة أقوى لتجسيد سياسة الرومنة، وتدل على مخلفات الملك " يوبا الثاني" وخليفته " بطلميوس" (Ptalemaeus) في عاصمة المملكة شرشال (CAESARIA)[١٢].

والواضح أن دور " يوبا الثاني" قد جسد التبعية الموريتانية للرومان في جميع الميادين بل اعتبر " يوبا الثاني" مسؤولا أمام الإمبراطور على المصالح الإدارية والاقتصادية والعسكرية والرومانية في مملكته في حين كانت في عهد" بكوس الثاني" تبعية سياسية أكثر منها عسكرية أو اقتصادية.

وبذلك فإن موريتانيا (Mauretania) شهدت حكما مزدوجا بين ٣٣ق.م -٤٠ ق.م، فالحكم العسكري دام ثماني سنوات (٠٨)، وألحقت فيه بأملاك الإمبراطورية، والحكم المدني تمظهر تحت عنوان المملكة الموريتانية امتد إلى نهاية " بطلميوس" عام ٤٠م حيث أعلن بعد ذلك الإمبراطورى "كلوديوس" (Claudius) عن الفصل بين موريتانيا القيصرية وطنجة، وأن كلا منهما أثبح ولاية إمبراطورية مستقلة عن الأخرى وذلك عام ٤٢م وبذلك ظلت موريتانيا ضمن المقاطعات العسكرية التي يتولى أمرها الإمبراطور وحده إلى نهاية العهد الإمبراطورى الأول عام ٢٨٤م[١٣].

والمرجع لدى المؤرخين أن إطالة عمر الإدارة العسكرية في موريتانيا مرده إلى صعوبة التحكم في المنطقة وأن الحكام المحليين لم يتمركزوا من التمهيد للاستعمار الروماني الكامل، ويعلل المؤرخون ذلك بالحروب التي فرضها سكان السهول العليا" الجزائرية" و المرتفعات" المغربية" على الرومان مما فرض عليهم إبقاء الإدارة العسكرية إلى زمن متأخر [١٤] بل إن

تراجع الليمس "المستعمرات الحدودية" (LIMES) الروماني شمالا ينبئ بحالة الطوارئ التي كان عليها الرومان أمام ضغط قبائل السهول والجبال إضافة إلى فقر المنطقة زراعيا.

ولقد لجأ حكام موريتانيا الرومان إلى أسلوب التحالف مع القبائل للحدود لدرء خطرها، وقد دلت على ذلك نقوش "وليلى"(VOLUBILIS) التي احتفظت بنصوص اتفاقيات مسالمة مع قبائل " البقات" (BOCATES) (١٥) والتي سكت الحواف الجنوبية للمستعمرات الرومانية في السهول الداخلية. وعمومًا لم يتجاوز التوسع الروماني في موريتانيا السهول الخصبة والسفوح الجبلية والهضاب المطلة عليها وهي المناطق الغنية زراعيا، وبها مدن وقرى مغربية قديمة.

٢ – السياسة الاجتماعية الرومانية في بلاد المغربية ودورها في سياسة الرومنة:

يلاحظ أن القوانين الاجتماعية الرومانية لسكان الولايات قامت على مبدأ الطبقة الاجتماعية، وعلى مبدأ عنصري يجعل الإنسان الروماني في المرتبة الأولى بين مختلف الأجناس البشرية. ولقد سُمِحَ مع ذلك لمختلف المجتمعات بالاندماج والارتقاء التدريجي وفق شروط معينة ووفق القوانين المتعلقة بدرجات المواطنة لتصل إلى درجة المواطنين الأصليين، رغم ذلك فالباحثون يؤكدون أن غموضا كبيرا يكتنف الحقوق والواجبات الممارسة يوميا من طرف المتمتعين بصفة الرومنة والمؤكد قلة المعلومات المتعلقة بوضعية المغاربة الاجتماعية في أواخر العهد الجمهوري وبداية العهد الإمبراطوري، فالتشريع الإداري الروماني لم يبرز لبلاد المغرب إلا في القرن الثالث الميلادي ذلك أن العهدين المذكورين لم يكن يهم أباطرته من إفريقيا إلا التزود بالمنتجات الزراعية، ودعم الاستقرار والأمن في إيطاليا وولاياتها الأخرى وبالتالي تُركت هذه الأمور الاجتماعية المغربية للحكام المحليين الذين انشغلوا بجمع الثروة ليس إلا. (١٦)

ويذكر المؤرخون أن الأباطرة اهتموا بالطبقة الارستقراطية المغربية وشجعوا الاندماج في الوضع الجديد، وبالتالي تنمية التأثير الروماني في المغرب مما أدى إلى ظهور طبقة أرستقراطية في المدن اشتهرت بولائها للرومان، وارتباطها المصلحي معهم . أما الأغلبية فكانت تعيش على هامش حياة المجتمع الارستقراطي، وأبرز مثال على ذلك يتضح في أنه عشية سقوط قرطاجة

سنة ١٤٦ ق.م لم تتم اللجنة التشريعية المكلفة بهذه الولاية إلا بتحديد الولاية وتنصيب الحاكم ووضع ترتيبات لعلاقة الولاية بالمدن الحرة الحليفة، وتنظيم الجباية [١٧] وهي أمور ذات طابع استعجالي.

وهكذا ظل السكان عرضة لتصرفات الحكام الحرة حيث أنهم كثيرا ما أساءوا للسكان بدافع الحرص على الثراء السريع [١٨] لأن السلطة المركزية بروما لم تمنح الحكام صلاحيات تشريعية. وهذا يدل على أن التشريعات الرومانية لم تكن تهتم كثيرا بقضايا الشعوب الخاضعة لها، اهتمامها بالشعب الروماني ومتطلباته وذلك رغم ضخامة التشريع الروماني في العالم فإن حظ شعوب المستعمرات منها كان ضئيلا.

ونستنتج أنه ما عدا المتمتعين بصفة رومانية أو مواطنة لاتينية فإن جميع الشعوب الخاضعة للرومان في إيطاليا أو خارجها تعد في وضعية الأجانب الذين يخضعون لإدارة وإرادة الحكام الرومان في المعاملة والتسيير. وعلى هذا المنوال كانت وضعية المغاربة خاصة خلال فترة التوسعات. ويلاحظ المؤرخون أن أهم عامل حرم المغربة من الحصول على حقوق مدنية تمكنهم من التدرج نحو الحصول على إحدى صفتي المواطنة الرومانية هو أن الذين لا يملكون أراضي من سكان الولايات يعدون في وضعية الأجانب وبالتالي كانت ملكية الأرض شرط أساسي للاندماج وباستثناء أراضي المدن الحرة فإن أغلب أراضي المنطقة كانت ملكا لكبار الملاك حيث يعددهم " بلينيوس الصغير" (Plinius Minor) بأن بأنهم كانوا فقط ستة ملاك يستحوذون على تراب إفريقيا في عهد الإمبراطور "نيرون" [١٩].

وفي كل الأحوال فإن المغاربة بعضهم مهزومون بسبب مشاركتهم في الحرب ضد روما، أو محايدون أجانب لم يشاركوا في الحرب فاعتبروا تابعين وأرضهم ملكا للشعب الروماني المنتصر . وفي الحالتين لم يحصل المغربي على حقوقه المدنية ومن التسميات التي أطلقوها على المغاربة الخاضعين للإدارة الرومانية اسم " ستيبنديار" (STIPENDIARAE) والتي اشتقت من ضريبة التعويضات الحربية التي يدفعها المغلوبون للرومان وبذلك طُبعت صفة المهزوم على المغاربة.

والواضح أن الولايات الجديدة الرومانية تمتعت باستقلال ذاتي وربطت زعماءها بعلاقات تحالف وحسن جوار [٢٠]، ثم فتحت باب الارتقاء الاجتماعي لأعيان ووجهاء المغاربة وبالتالي الحصول على صفة المواطنة الرومانية مقابل الولاء وخدمة مصالح روما. وكثيرا ما حصلوا على ألقاب رومانية وكل ذلك يندرج في إطار دعم سياسة الرومنة ونشر الرومنة ونشر رسالة روما الحضارية [٢١] حيث لم تستفد الأغلبية الغربية من هذه الامتيازات ويلخص جوليان ذلك قائلا:" اعتمدت روما على ارستقراطية البلديات لتوطيد استعمارها لبلاد البربر من دون أن تكترث بالجماهير البربرية".[٢٢]

وكذلك الجندية فقد كانت مدخلا للمغاربة للحصول على صفة المواطنة لكن نظرا لطول مدتها ومحدودية قدرة الجيش الروماني على الاستيعاب، وحب المغاربة للحرية ورفضهم الخضوع جعل عناصر قليلة منهم تدخل الجيش النظامي الروماني عكس الفرق المساعدة التي لا تخضع لهذه الشروط ولا تنتفع بهذه الحقوق.

ويمكن حصر وضعية المغاربة بعد الاحتلال الروماني في:

١- سكان الأرياف المغربية تدخل ضمن الحدود الرومانية يعيشون في وضع الأعداء الخاضعين. وتجارهم داخل منشآت عسكرية رومانية حدودية (Limes) أو الحصون والقلاع و مستعمرات قدماء الجنود فكان بعضهم على اتصال بالرومان والبعض الآخر انعزل في الجبال طلبا للحرية ورفضا للاندماج الروماني وشكلت هذه المناطق معقلا للثورة ضد الرومان.

٢ – سكان مهادنون سواء كانوا داخل الأقاليم الرومانية أو على حدودها فهم ارتبطوا مع روما بمعاهدات سلم أو تحالف لضعفهم العسكري أمام روما.

٣- الفئة الأرستقراطية وهي سكان المدن الذين حصلوا على أراضي وعقارات فكانت قابلة للترويض والاندماج في الحياة الاجتماعية الجديدة، والارتقاء الاجتماعي لتثبيت نفوذ روما في المنطقة [٢٣]وازداد عدد هذه الفئة أكثر خاصة بعد التشريعات الجديدة التي فتحت المجال واسعا ليذوب سكان الولايات في المجتمع الروماني.

– السياسة الاستيطانية الرومانية في بلاد المغرب ودورها في سياسة الرومنة:

يؤكد المهتمون بدراسة الاستعمار الروماني في بلاد المغرب على الارتباط الوثيق بين هـذا الاستعمار واستغلال الأرض، ويتأكد ذلك بالتواجد الكثيف للاستعمار الروماني في المنـاطق الزراعية الداخلية والساحلية، وما رافق ذلك من اعتناء بالنشاط الزراعى وظهور مدن زراعية داخلية مزدهرة الاقتصاد فى الزراعة والتجارة، بل إن ازدهار الريف المغربي يعود ، بحسب رأى عدد من الباحثين إلى كثافة النشاط الزراعي الذي قام به الاستعمار الروماني في هـذا المجـال، وهو الاهتمام الذي جسده ظاهرة الاستيطان والعمران التي طبعت سياسة الرومـان بطـابع استغلالي.

وهنا لا يمكن التغاضي عن الاهتمام القرطاجي والمغرب بالنشاط الاقتـصادي الفلاحـي، والحضاري قبل الاستعمار الروماني الذي اتخذ من المدن الفلاحية القرطاجية والمغربيـة نـواة للمستعمرات والمدن الرومانية بعد ذلك.(٢٤)

والمؤكد لدى المؤرخين أن الرومان لم يفتحوا أبواب الاستيطان ببلاد المغرب أمام الفلاحين الرومان واللاتين قبل عام ١٢٣ق.م، وهي السنة التي تمكن فيها النائب الـشعبي " جـايوس جراكوس" (G. Gracchus) من إقناع مجلس الشيوخ (SENATUS) بإنشاء أول مـستعمرة رومانية بإقليم قرطاجة لإيواء ٦٠٠٠ من الفلاحين الرومان في إطار المشاريع الإصلاحية التي تقدم بها هذا النائب (٢٥). والواضح أن سياسة الاستيطان المنظم لدى الرومان لم تنل الاهتمام الكامل في المنطقة المغربية، وذلك نظرا لتركيز سياسة الجمهورية الرومانية على تحقيـق أمـن المنطقة و به تضمن استمرار مصالح روما ببلاد المغرب، وتـوفير الأوضـاع الـتي تـسمح بالاستغلال الجيد لخيرات المغرب الزراعية.

والملاحظ أن الرومان حاولوا الحفاظ على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحـضارية للمنطقة التابعة للرومان ببلاد المغرب. ورغم ذلك فالمؤكد أن مجلس الشيوخ الروماني كـان متحفظًا في سياسته الإفريقية خاصة سياسة مشاريع الاستيطان مثل مشروع " جراكوس" وهذا التحفظ يرتكز على سياسة التحالف مع الإمارات والممالك المحلية عن ضم تلك الممالك قبـل تهيئة كل الظروف لمنع أي فشل (٢٦) . من ذلك أن روما رغم انتـصارها علـى يوجورطـة (Iugartha) وتضحيتها الجسيمة في هذه الحرب إلا أنها لم تمد حدودها على المملكة النوميديـة

المهزومة رغم توفر أغلب شروط الظلم. وهذا ربما يفسر موقف مجلس الشيوخ، إضافة إلى تحكم الظروف الداخلية للسياسة الرومانية المقررة من قبل الشيوخ في المجال الخارجي. ويلاحظ أن عنصر الفلاحة جذب بقوة الرومان إلى الأرض فهي الأساس الذي تقوم عليه حركة الاستيطان وبالتالي يتمكن الفلاحون من استغلال أراضيهم بأنفسهم مباشرة دون الاعتماد على نظام الوكالة. (٢٧)

وزيادة على ذلك فإن وجود جموع الفلاحين الرومان في الأرض المغربية كان بإمكانه إيجاد بيئة اجتماعية رومانية تؤثر وتجذب الإنسان المغربي، وهو عامل هام في تجسيد الرومنة يدعم ويوسع سياسة الاستيطان الروماني.

والواضح أن لهذه السياسة علاقة وطيدة بأوضاع روما الاقتصادية والاجتماعية . ويؤكد المؤرخون أن أهم مشكل دفع مجلس الشيوخ إلى تبني مشاريع الإصلاح الزراعي، وإنشاء المستعمرات خارج الوطن هي مشاكل صغار الفلاحين، ذلك أن الريف الإيطالي تغير بشكل واضح باستحواذ الملاك الكبار على المساحات الزراعية وتناقص الملكيات الصغيرة لحساب الملكيات الكبرى.(٢٨) وكان اندفاع الفلاحين الصغار نحو روما طلبا للعيش واستغناء الملاك عنهم لحصولهم على أعداد كبيرة من العبيد نتيجة التوسعات العسكرية وبأقل تكلفة، وأمام فشل الإصلاحات الأولى بسبب قوة التيار المنتفع بالأراضي الذى أدى بحياة صاحبها تيبريوس جراكوس (Tiberius Gracchus) سنة ١٣٢ق.م، فإن أخاه " جايوس" أحيا الفكرة من جديد، لكن بشكل آخر وهي نقل الرومان والإيطاليين إلى أراضي الولايات الرومانية وتنظيمها في شكل مستعمرات زراعية وبذلك ساهم " كايوس" في حركات التوسعات الكبرى للاستعمار الروماني على حساب الشعوب الخاضعة لهم. وبالتالي استراحت روما من الجو السياسي والاجتماعي الخانق وقد كانت مستعمرة قرطاجة إحدى أهم المستعمرات التي استفاد من أراضيها ٦٠٠٠ مستوطن روماني وزع على كل منهم ما يعادل ٥٠هـ للمستعمر الواحد(٢٩).

ورغم فشل أنصار هذا النهج الإصلاحي الزراعي في روما ونجاح التيار المعارض لهم من كبار الملاك الذين مارسوا شتى أنواع الضغوط على المستوطنين الرومان ببلاد المغرب لكي

يتخلوا عن الأراضي التي وزعت عليهم فاغلبهم ظل متمسك بها. ولكن هذه الحركة الإصلاحية و سياسة الاستيطان الخارجي قد اتخذت أطوارًا أخرى بمجيء " يوليوس قيصر" إلى الحكم بعد انتصاره على أعدائه في إفريقيا، إذ أصبحت هذه السياسة سياسة رسمية، وتجلت في أمره ببناء مدينة رومانية على تراب قرطاجة " الملعون" معلنا بذلك عن حركة استعمارية جديدة، تجلت أكثر في خروجه عن سياسة التحفظ التي ميزت قرارات مجلس الشيوخ الروماني في استعمار إفريقيا، بحيث أمر" قيصر" ببناء خمسة أو ستة مستعمرات على إقليم قرطاجة وعلى الحدود النوميدية بدءا من سنة ٣٦ ق.م، حتى بعد مقتل قيصر ، وتم توسيع مساحة إفريقيا الرومانية حيث أصبحت تعرف باسم " إفريقيا القديمة" على حساب مملكة نوميديا التي ألحقت بالممتلكات الرومانية والتي أطلق عليه اسم" إفريقيا الجديدة" وشملت الأراضي القرطاجية التي سيطر عليها خلفاء " مسينيسا" ثم إقطاعية "سبيتيوس" شمال نوميديا [٣٠].

وبذلك وضع " قيصر" حزاما وقائيا من المستعمرات لحماية الولاية القديمة وتعد إقطاعية المرتزقة " السيتيان" أضخم مشروع استعماري نفذه " قيصر"، ذلك أنهم وسعوا حدود إقطاعية على حساب أراضي المغاربة المجاورين نحو سكيكدة (RUSUCADE)وميلة(MILEV) والقل (CHULLU) أي شمال وشرق وجنوب سيرتا.[٣١]

ورغم ذلك اعتبر المؤرخون هذه الإقطاعية أنها خرجت عن طابع المستعمرات الرومانية. ذلك لأن مهمة هؤلاء المرتزقة بحكم موقعهم الجبلي اقتضت إخضاع السكان والنهوض بالنشاط السياسي والاقتصادي للإقطاعية وبالتالي لعبوا دورا هاما في سياسة الرومنة.

والواقع أن المؤرخين يؤكدون أن ولايتي إفريقيا قد استوعبتا الكثير من المعمرين- الجنود المستوطنين- نظرا لأهميتها الزراعية التي تميزت بها الولايتان، بل عد ذلك تعبيرًا عن سخاء القيصر لجنوده المخلصين لذلك جاد عليهم بهذه الأراضي الخصبة.

إن المتتبع لسياسة الاستيطان الرومانية ببلاد المغرب يجد أنها شهدت توقفا نسبيا بعد مقتل القيصر إلى غاية حكم" أوكتافيوس أوغسطس" أي عام ٢٩ق.م وهي السنة التي تفوق فيها على خصومه وبدا حركة الاستيطان من جديد بإرساله ٣٠٠٠جندي من بلاده كمستوطنين جدد إلى إقليم قرطاجة ثم إلى سواحل نوميديا الموريتاني، بحيث ظهرت مستعمرات رومانية

جديدة على طول هذا الساحل من المحيط الأطلسي إلى خليج سرت. ولقد قدرها بعض المؤرخين بما لا يقل عن ٣٥ مستعمرة زيادة على مستعمرات أنشئت في شرق نوميديا وفي الولاية القديمة. (٣٢)

ولقد ورد أغلبها في كتاب " بلينيوس الكبير باسم" موريتانيا الموسعة"، وتعود معظمها إلى الإمبراطورية أغسطس الذي ركز على إنشاء مدينة رومانية على أنقاض المدينة " البونية" مع الاحتفاظ بالاسم البوني لما له من سمعة كبيرة وثقل حضاري أكسب قرطاجة احتراما، وتقديرا لدى الرومان. وهدف أغسطس من هذا العمل هو إرجاع للمدينة قوتها وإشعاعها الحضاري لكن على أساس المنبع الروماني، وبذلك تعكس قرطاجة الرومنة حضارة روما بذلك تعمل على تغلغلها في الوسط المغربي المتأثر لحضارة قرطاجة القديمة ذات المنبع الشرقي السامي، وبهذه السياسة يجسد أغسطس سياسة الرومنة في بلاد المغرب عمليا(٣٣).

والملفت للانتباه أنه أزال عدة مدن مغربية قديمة سواء كانت في إقليم الولاية الرومانية أو إقليم الممالك المغربية، في حين اتبع سياسة اللين والاستمالة اتجاه المدن التي قبلت الاندماج في الحضارة الرومانية الوافدة ومثال ذلك استمالة سكان مدينة " طنجة" ضد ملكهم" بوغود" بمساعدة حليف الرومان " بوكوس الثاني" فمنح سكان المدينة حقوقا رومانية، ونفس المعاملة لقيتها " ليكسوس القديمة" (LIXUS) "شالا" (SALA) حصلت على حقوق لاتينيه وحقوق مستعمرة رومانية أيام " كلاوديوس" عندما كثر بها العنصر الروماني، كذلك مدينة " وليلي" العاصمة الثانية للمملكة الموريتانية، وذلك رغم عمقا الجغرافي وأصالتها المغربية فلقد وصلها المد الاستعماري الروماني وأسس بها مستعمرة زراعية رومانية في عهد الإمبراطور " كاليجولا" الذي ألغى المملكة الموريتانية، ويعد ذلك أعلن عن نجاح سياسة " يوبا الثاني وابنه " بطليوس" في إقامة مستعمرات قرب تلك المدينة (٣٤).

رغم ذلك فإنه يظهر وأن السلطات الرومانية قد اتبعت سياسة التودد إزاء القبائل المغربية منها المرونة إزاء قبائل موريطانيا القيصرية للحصول على ثقتها والاطمئنان على المستعمرات، وذلك يعكس السياسة الرومانية الحذرة والجديدة، والتي اقتضت بعدم تغيير العلاقة القائمة بين المجتمع المدني والمجتمع الريفي، وبذلك على أراضي تلك القبائل بين أيدي أصحابها رغم ضم ممتلكات " بطليموس" وحاشيته(٣٥).

ولقد مكنت هذه السياسة إلى حد كبير من كبت الحركات الثورية بالمنطقة في مهد مثل حركة " إيدمون" (AEDMON) الذي ثار ضد الرومان عقب مقتل" بطليموس" سنة ٤٠م[٣٦]، بحيث لم يتمكن من تعبئة القبائل المغربية نظرا لما كان يربطها بالسلطة الرومانية من مصالح، ووجود مستعمرات لقدماء الجنود الرومان بالريف المغربي عرقل انتشار الثورات، إضافة إلى حملة أغسطس الكبرى على موريتانيا، وكذا سياسة إنشاء المستعمرات في أراضي الحلفاء ساعدت على تمهيد مجتمعات هذه الأخيرة لسياسة الرومنة.

وفي نفس الوقت تخلصت روما من مشاكلها الداخلية، ولقد تجلى رد الفعل الوطني ضد هذه السياسة الرومانية في سلسلة من الاضطرابات لكن كلها انتهت بالفشل أمام قوة إرادة الرومان في تجسيد سياسة الاستيطان عن طريق بناء المستعمرات حول المدن الموريتانية الكبرى مثل " بول" (JUL) (قيصرية)، وسيقا(SIGA)، ووليلي، وطنجة، وليكسوس وغيرها، ولم تأت سنة ٤٠م حتى كانت أهم الأراضي الزراعية الموريتانية في حوزة المستعمرين الرومان [٣٧]، وبذلك ألغيت مملكة موريتانيا، وتم تثبيت سياسة الرومنة في بلاد المغرب.

الهوامش

١ – محمد البشير شنيتي: الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة ١٤٦ق.م– ٤٠م) الطبعة المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – ١٩٨٥، ص٧٥.

٢ – نفس المرجع: ص٧٦ ، ALBERTINI (E) l'Afrique Romain Alger. 1938. P 15 أنظر ص٧٦.

٣ – محمد البشير شنيتي: المرجع لسابق ص ٧٦.

٤ – نفس المرجع: ص٧٧.

٥ – نفس المرجع: ص٧٧.

٦ – هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ج١، ص٢٩٧ وكذلك أنظر: عبد اللطيف أحمد علـي ، تـاريخ الرومـان ، ص٢٧٦– ٢٧٧.

٧ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص٧٧.

٨ – شارل أندريه جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية، ج١، تعريب كذلك أنظر: عبد اللطيف أحمد علي المرجع السابق، ص ٢٤٠– ٢٤١.

٩ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص٧٩.

١٠ – شارل أندريه جوليان: المرجع السابق ص ٢٠٧.

١١ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص ٠٦– ١٠– ٨٠.

١٢ – شارل أندريه جوليان: المرجع السابق، ص١٧٨– ٢٠١.

١٣ – نفس المرجع: ص ٢٠١.

١٤ – AMINE A. BRIGON J. HISTOIRE DU MAROC, P30.

١٥ – IBID P32-33 - GSELL 87 ATLES ARCHEOLOGIAUE DE L'ALGERIE TOME2 ET AMINE OP. CIT.P.33-37.

١٦ – ١٧ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص ٨٨ –٨٩.

١٨ – ١٩– نفس المرجع: ص٨٩ وكذلك أنظر GSELL ST. H. A. A. NP 47.

٢٠ – IBID. T6. P48. وكـذلك أنظـر GAFROT (F) DICTIONNAIRE LATIN FRANÇAIS. P 1479.

٢١ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص ٨٩، محمود ابراهيم السعدني : تـاريخ وحـضارة الرومـان ، الـدار الدولية، ط١ ، القاهرة ٢٠٠٧ ، ص ص ٦١–٦٢ .

٢٢ – شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

٢٣ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص٩٤ – ٩٥.

GSELL (ST) ATLAS ARCHEOLOGIQUE DE L'ALGERIE TOME 2 ET AMINE OP. CIT. T. 7 P57. – ٢٤

٢٥ – IBIDEMوكذلك أنظر شارل أندريه جوليان المرجع السابق، ص ١٥٠.

٢٦ – ٢٧ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص١١٨.

٢٨ – هشام الصفدي: المرجع السابق، ج١، ص ١٠٤.

٢٩ – عبد اللطيف أحمد علي المرجع السابق ص ٢٥ وكذلك أنظر هشام الصفدي المرجع السابق ص ٢٥١.

MESNAGE J) RAN P 37. P101. – ٣٠

GSELL ST) T8. OP. CIT.P 161. – ٣١

MRSNAGE P.J) OP. CIT. P 46. – ٣٢

٣٣– محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص ١٣٣– ١٣٤.

CARCOPINO J) . LE MAROC ANTIQUE P 171. – ٣٤

٣٥ – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ص ١٣٥،٠

٣٦ – نفس المرجع: ص ١٣٥

PONSICHE (J) .R ATR P224. – ٣٧

المراجع العربيــــة:

١ – محمد البشير الشنيتي: الاحتلال الروماني لبلاد المغرب – الجزائر – ١٩٨٥.

٢ – محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني – الجزائر – ١٩٨٤.

٣ – محمد البشير الشنيتي: التوسع الزراعي الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة مجلة التاريخ تصدر عن المركــز الوطني للدراسات التاريخية عدد ٢٣ – ١٩٨٤.

٤ – هشام الصفدي: تاريخ الرومان الجزء الأول، بيروت ١٩٦٧.

٥ – عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني (عصر الثورة) القاهرة ١٩٦٧.

٦– شارل أندريه جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية– الجزء الأول – ترجمة محمد مزالي تونس – ١٩٦٩.

المصادر والمراجع الفرنسية:

1- ALBERTINI (EU), L'AFRIQUE ROMAINE, ALGER.

2- AMINE (A), BRIGNON (J) HISTOIRE DU MAROC, CASA BLANCA 1968.
3- GSELL (ST), ATLAS ARCHEOLOGIQUE DE L'ALGERIE 2 VOL ALGER. 1911.

4- GSELL (ST) HISTOIRE ANCIENNE DE L'AFRIQUE DU NORD, 08 TOMES PARIS 1928.

5- GAFIOT (F), DICTIONNER LATIN FRANÇAIS, HACHETTE, PARIS 1934.
6- MENSNAGE (P.J) LA ROMANISATION DE L'AFRIQUE DU NORD PARIS 1913.

7- CORCOPINE (J) LE MAROC ANTIQUE, PARIS 1948.

8- PONSISICH (M) RECHERCHE ARCHEOLOGIQUE A TINGER ET DANS SES REGION, PARIS 1970.

د. فايزة صالح سجيني (*)

ثورة القسطنطينية الشعبية عام ٦٠٢ م

"يا للأسى أن ترى مدينة الوئام والوفاق تتحول إلى بحر من الخلافات،.. وكما أن النار الكامنة تحت كوم من الهشيم لا تحتاج إلا لنفخة لتتحول إلى آتون يحرق كل ما حوله، هكذا كانت المدينة التي ربض فيها الشيطان، لم يعوزها إلا من يشعل الفتنة فتحترق وتتحول إلى هشيم"(١).

تلك كلمات رثاء جاءت على لسان كاتب سيرة القديس السالونيكي ديمتريوس St. Demitrius of Thessaloike أخذ يرثي بها مدينة القسطنطينية وما حل بها من فتنة داخلية وحرب أهلية أنتجت في النهاية ثورة القسطنطينية الشعبية عام ٦٠٢م التي أنهت عصر الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م) وأذنت بميلاد عصر جديد هو عصر الإمبراطور فوقاس (٦٠٢-٦١٠). ويهدف البحث الحالي إلى عرض تفاصيل هذه الثورة وما صاحبها من عنف ودموية ظاهرة، خاصة وأن أهميتها تكمن في كونها الثورة الأولى التي تنجح في الإطاحة بالجالس

* أستاذ مساعد - جامعة الملك عبد العزيز - جدة

على العرش البيزنطي. كما يهدف إلي تسليط الضوء على رد الفعل الشعبي، كما عكسته المصادر التاريخية البيزنطية، تجاه سقوط الإمبراطور موريس واعتلاء فوقاس العرش.

لاشك في أن سوء قدر موريس جعله يرتقي العرش البيزنطي بعد فترة عصيبة من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فقد ورث عن جستنيان وخلفائه إمبراطورية مثقلة بالهموم بعد استنزاف طاقاتها المالية والبشرية طيلة سبعين عاما منصرمة. فذلك الصرح الذي سعى جستنيان جاهدا، ومضحيا بكل طاقات الإمبراطورية، في سبيل إقامته[٢] وهذه المحاولات المضنية من قبل خلفائه لإنقاذ الإمبراطورية، رغم تفاوت درجات نجاحها وفشلها.[٣] ولا شك أيضا في أن الحروب المتواصلة التي لم تغب عن سماء الإمبراطورية طيلة سبعين عاما؛ هذا فضلا عن تلك الأموال الطائلة التي دفعتها بيزنطة صاغرة لتكاليف الحرب والسلام مع القبائل الجرمانية في الغرب والخطر الفارسي في الشرق واجتياح القبائل السلافية والآفارية لشبه جزيرة البلقان شمالا.[٤] كل هذه الأعباء المالية شكلت ضغطا شديدا على خزانة الإمبراطورية، وأنتجت من ناحية أخرى فسادا إداريا واضطرابا في السياسات المالية للإمبراطورية.

بالإضافة إلي ذلك كانت هناك حالة من الاستياء العام تجاه السياسات المالية والفساد الإداري، الذي نتج عنه ظهور عصبة من الموظفين المرتشين وجامعي الضرائب المتعسفين الذين شكلوا عبئا ثقيلا على سكان الإمبراطورية من المزارعين والتجار والصناع. ساهم في تقويته استمرار الصراع المذهبي بين الإمبراطورية وسكان الولايات الشرقية. كما مثلت الزلازل والأوبئة والطواعين، التي كان نصيب الإمبراطورية منها كبيرا خلال هذه الفترة الحرجة، عاملا إضافيا زاد من حدة السخط الشعبي الذي بات مؤهلا للانفجار في آية لحظة في وجه حكومته التي أظهرت عجزا واضحا في التعامل مع المشكلات والأزمات المتتالية، والأهم في توفير قدر من الأمن لمواطنيها.[٥]

وجاء موريس ليرتقي عرش إمبراطورية مثقلة بالمشكلات، ورغم ما تمتع به من ميول إصلاحية ورغبة في التغيير، إلا أن اهتمامه الإصلاحي انصب على الجيش والإدارة العسكرية[٦] دون أن يواكب ذلك إصلاح مالي واقتصادي، أو بعبارة أخرى دون محاولة السعي لإيجاد مصادر جديدة للدخل تعوض عجز موارد الدولة وإفلاس الخزانة. وسرعان ما اضطر موريس

أما كثرة نفقاته العسكرية إلى تخفيف العبء عن الخزانة الإمبراطورية باقتطاع نسبة الربع من مرتبات الجند في عام ٥٨٧م، الأمر الذي أنتج سخط واستياء عارم بين صفوفهم، ولجأ الكثيرون منهم إلى ترك الجندية واللجوء إلى الأديرة والكنائس، مما دفع موريس إلى إصدار مرسوم يحظر فيه قبول الكنائس والأديرة للجنود الفراين، ومن تقليدهم وظائف دينية، مما أدى إلى تصادم البابا جريجوري الأول معه، حيث احتج البابا بشدة على قرار الإمبراطور، ورغم أن هذا القرار لم يدخل حيز التنفيذ، إلا أنه زاد من رصيد الاستياء ضد موريس، وأضاف فئة رجال الدين إلى جانب الجنود في هذا الأمر.(٧)

على أن المصادر التاريخية البيزنطية تشير إلى أن السخط الشعبي العارم ضد موريس كان بسبب قيام خاقان الأفار عام ٦٠٠م بذبح اثنى عشر ألف أسير من الجنود البيزنطيين سبق أسرهم أثناء حروبه مع الإمبراطورية في جبهة البلقان، وقد أرسل الخاقان سفارة تعرض إطلاق سراحهم مقابل قطعة ذهبية لكل جندي، فرفض موريس لخلو الخزانة من هذه الأموال، فخفضها الخاقان إلى نصف قطعة ذهب للجندي، غير أن موريس أصر على الرفض بالرغم من تدخل أعضاء مجلس السناتو لإقناعه بقبول دفع الفدية، وعندئذ عرض الخاقان على موريس إطلاق سراح الجندي بأربعة قراريط(٨)، لكن الأخير رفض للمرة الثالثة، وهنا ثار غضب الخاقان وأمر بقتل كافة الأسرى البيزنطيين دون رحمة.(٩)

وتشير الحولية الفصحية Choronicon Paschale إلى أن اعتلاء فوقاس العرش تم دون مقاومة ووسط ترحيب شعبي كبير، ويبدو أن هذا الترحيب بررته الأحداث السابقة على اعتلاء فوقاس العرش، فبعيد عن الحسابات السياسية والمصالح الشخصية وتنافس الأحزاب السياسية-الخضر والزرق- نجد على المستوي الشعبي نوعا من الاستياء تجاه تصرفات موريس في أواخر أيامه. وفي هذا الصدد تشير المصادر البيزنطية إلى أن العامل الأساسي في إثارة هذا الاستياء هو رفض موريس دفع المال لفداء الأسرى البيزنطيين لدى خاقان الآفار، فيذكر نيقفور كاليستوس Nicephoros Kallistus أنه عندما "اجتاح الخاقان مقدونيا وأسر عددا لا يحصى من الجنود، وأصبح على مقربة من القسطنطينية، طلب فدية عن كل فرد جنيه ذهب. ولما استثقل موريس هذا الطلب ومنعه بخله من تلبيته، استشاط الرجل غيظا وقتل آلافا بحد

السيف. ... فكرهه جميع الناس وغضبوا عليه وراحوا يكيلون الشتائم له بسبب مصرع هذا العدد الهائل من الأسرى". [١٠] كذلك يشير حنا زوناراس Ioannis Zonaras إلي أن رفض موريس دفع فدية الأسرى جعله "مكروها من الجميع"[١١].

وقد عبر ثيوفانيس عن رد الفعل الشعبي المستاء من تصرف موريس، بأن روى قصة شخص بارز ممن ارتدى مسوح الرهبان استل سيفا وراح يجوب شوارع القسطنطينيةن من الميدان إلي البوابة الذهبية، وهو يهتف أمام الجميع معلنا بأن موت الإمبراطور قد بات وشيكا وأنه سيقتل بالسيف. كذلك يذكر ثيوفانيس أن موكب موريس كان يسير في ضاحية Karpianos متجها إلي كنيسة يوحنا المعمدان للصلاة، فهاجمه حشد من العامة وقذفوه بالحجارة، وكاد الإمبراطور أن يصاب لولا أن ابنه ثيودوسيوس دفع عنه الأذى بجسده، الأمر الذي جعلهما مضطرين إلي العودة للقصر وأداء الصلاة به. أما العامة فقد أتوا بشخص يشبه موريس في هيئته وألبسوه عباءة سوداء وتاجا من الثوم وأجلسوه على حمار وراحوا يطوفون به في شوارع القسطنطينية على ضوء المشاعل، وهم يسبون موريس بأفظع الشتائم ويطلقون صيحات السخرية وهم يقولون: "انظروا موريس، انظروا كيف بدا". وبالطبع لم يترك موريس الحدث يمر دون عقاب حيث أمر بالقبض عليهم، وتم معاقبة الكثيرين منهم.[١٢]

ولاشك في أن قتل هذا العدد الضخم من الجنود على يد خاقان الآفار أثار استياءً موازيا بين جنود وضباط الجيش البيزنطي، الذين حملوا هم أيضا إمبراطورهم مسئولية ما حل بهم، وزاد من حدة هذا الاستياء أنهم رأوا أن قائدهم كومنتيولس Komentiolus لم يحسن إدارة المعركة مع الأفار وعرضه لهزيمة ساحقة نتج عنها قتل الآلاف منهم، وفرار كومنتيولوس نفسه أثناء المعركة تاركا إياهم يواجهون نفس المصير. الأمر الذي دفع الجيش إلي إرسال وفد منهم إلي موريس للقصاص من قائدهم بتهمة الخيانة، وكان قائد المائة الاستراتيجوس فوقاس أحد أعضاء هذا الوفد. ويبدو أن النقاش احتد بين فوقاس والإمبراطور إلي حد أن اضطر أحد أعضاء مجلس السناتو إلي التدخل بتعنيف فوقاس وإلزامه بأدب الحوار مع الإمبراطور[١٣]. وقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يظهر فيها فوقاس على مسرح الساحة السياسية، ويبدو أن احتداده في حضرة الإمبراطور أكسبه شعبية بين أفراد الجيش المتذمرين من موريس، وجعلهم

يشعرون بأن فوقاس يمثلهم، أو على أقل تقدير يعبر عن آرائهم ومشاعرهم. ويبدو أن المحاكمة الصورية التي شكلها الإمبراطور لمحاكمة كومنتيولوس، والتي لم تسفر عن إدانة واضحة له لفراره من أرض المعركة، زادت من حدة الاستياء ضد موريس، الذي ظهر في أعينهم منحازا إلى جانب الخائن كومنتيولوس.(١٤)

وزاد من حدة استياء الجيش من تصرفات موريس، أنه عين شقيقه بطرس Petros قائدا للجيش الإمبراطوري في الغرب، بما فيها جبهة الدانوب، وعين كومنتيولوس رئيسا لفرق الحرس الإمبراطوري المسئولة عن حراسة أسوار القسطنطينية بما في ذلك القصر الإمبراطوري نفسه.(١٥) وكما يذكر نورويش Norwich "أدى تحيز موريس لأقاربه أن عهد إليهم بوظائف تفوق حدود إمكانياتهم، مما جعله يضع على رأس جهازه الإداري رجال أقل كفاءة"(١٦). ولا شك في أن أيا من بطرس أو سلفه كومنتيولوس لم ينل شعبية أو محبة بين أفراد الجيش. وساءهم أكثر إصرار موريس على تنصيب هؤلاء قادة للجيش، فبطرس عين مرتين رئيسا لجيش الدانوب، المرة الأولى في عام ٥٩٩م ثم سرعان ما عزل عندما ظهر عجزه عن إحراز أي تقدم يذكر على هذه الجبهة. لكن موريس لم يلبث أن أعاده للقيادة ثانية عام ٦٠٢م.(١٧) ومن ناحية أخرى لم يكن بطرس على نفس شاكلة قائد مثل بريسكوس Priscus، قائد جيش الدانوب (٥٨٨–٥٩٨م)، وهو القائد الكفء الذي عرف بحب الجند له وبحسن تصرفه، والذى ظهر عندما ثار الجيش على قرار الإمبراطور بأن يقضي فصل الشتاء على حدود العدو، فقام بريسكوس بتهدئة الجند، واستطاع إقناع الإمبراطور بخطورة تنفيذ هذا الأمر، مما دفع موريس إلي العدول عن قراره.(١٨)

ويبدو أن موريس لم يستفد من تجاربه السابقة، ولم يدرك طبيعة التذمر الذي يملأ صدور أفراد جيشه، حيث أصدر أمرا للجيش المرابط على حدود الدانوب بقضاء شتاء عام ٦٠٢م على الجبهة، وهنا تكرر رفض الجنود للأمر، ولكنهم هذه المرة أرسلوا وفدا، كان فوقاس قائد المائة أحد أعضائه، إلى بطرس قائد الجبهة، وأبلغوه رغبة الجنود في قضاء الشتاء مع ذويهم. غير أن بطرس رفض طلبهم وأعلن إصراره على تنفيذ مشيئة الإمبراطور.. فما كان من الجنود إلا أن أعلنوا الثورة ورفعوا فوقاس على التروس، وأعلنوه قائدا عليهم، الأمر الذي دفع بطرس

إلي مغادرة ساحة التمرد والإسراع بالعودة إلي القسطنطينية لينهي إلي الإمبراطور خبر تمرد جيش الدانوب.[١٩]

وبما أن أمر موريس بأن يقضي جيش الدانوب فصل الشتاء على الجبهة هو السبب المباشر والشرارة التي أشعلت نيران الثورة، فلابد من معرفة المبررات والاعتبارات العسكرية التي دفعت موريس إلي إصدار هذا الأمر. وأحد هذه الاعتبارات ذكرها موريس في مؤلفه العسكري "الاستيراتيجون"، إذ يذكر أنه من خلال خبرته الطويلة بقبائل الأفار والسلاف لاحظ أنها تلجأ في حروبها خلال الصيف إلي الاختباء وراء الأشجار الكثيفة، ومن ثم يصعب على الجيوش البيزنطية كشفهم أو النيل منهم، بينما يتيح لهم هذا الاختفاء مزية إطلاق سهامهم السامة على أعدائهم وإلحاق خسائر كبيرة بين جنودهم، أما في فصل الشتاء فإن الصقيع والثلوج والأشجار الجرداء تجعل من اليسير تعقب آثارهم.[٢٠] كذلك يرى براونينج Browning أن العامل العسكري والتكتيكي كان له اعتبارا في قرار موريس، حيث كانت الحالة على جبهة الدانوب في تحسن مستمر، خاصة بعد أن عقد موريس معاهدة صلح مع الفرس عام ٥٩١م، وبالتالي أصبح جل اهتمامه موجها لجبهة الدانوب بعد أن آمن حدوده الشرقية.[٢١]

ويبدو أن الجيش، المتذمر أصلا من موريس، لم يعر اهتماما لأية اعتبارات عسكرية قد يكون الإمبراطور قد رعاها عند إصداره هذا القرار، ورأى فقط أن دافع هذا القرار هو رغبة موريس في توفير نفقات عودتهم ومؤنهم. وكما يذكر ثيوفلاكت ثيموقطا Theophylact Simocatta أن رفض الجنود الأمر جاء بسبب "الغنائم ذاتها، وإنهاك الخيل الشديد، وحشود البرابرة التي تعسكر قبالتهم".[٢٢] يرى هيجيز Higgins أن الجنود شعروا بأن الإمبراطور يضحي بهم في أرض العدو، ويجعلهم عرضة للهجوم والقتل في أي وقت، ولهلاك جيادهم في البرد القارس، وأن ذلك دفعه إلي الاعتقاد بأن حرص موريس على المؤن والنفقات كان أكثر من حرصه على سلامتهم الشخصية[٢٣]. بينما يذهب نورويش Norwich إلي أن سبب رفض الجنود أنهم ظلوا يحاربون مدة ثماني شهور متواصلة على جبهة الدانوب، وبالتالي فقد بلغ منهم الإجهاد البدني والذهني مبلغه. ولأنهم كانوا يدركون أن الغنائم التي أحرزوها لن يصبح لها

قيمة إلا بعد بيعها في الأسواق، وبالتالي فإن بقائهم طيلة الشتاء قد يتلف جانبًا كبيرًا من هذه الغنائم، أو على أقل التقديرات سيبخس من قيمتها ويؤخر حصولهم على قيمتها المالية.[٢٤]

على أية حال؛ كان تمرد الجند على قرار موريس بداية لثورة حقيقية اجتاحت العاصمة الإمبراطورية تستهدف الإطاحة بشخص الإمبراطور ذاته، ولاشك في أن هذه الأحداث كانت تمثل لقائد المائة الاستراتيجوس فوقاس فرصة ذهبية لتحقيق طموحه بالقفز على العرش الإمبراطوري، ولذلك أخذ منذ اللحظة الأولى لتمرد جيش الدانوب يطرق على الحديد وهو ساخن، وراح يخطب في الجند محذرا إياهم من طاعة هذا الإمبراطور الذي أدى بضعفه وتراخيه في حكم البلاد إلي تشجيع العدو وإغرائه بالوثوب على ولايات الإمبراطورية، وأخذ يحثهم بأنه بات على عاتقهم تغيير هذا الوضع وإصلاح التلف الذي حل بإمبراطوريتهم. وقد لاقت عبارات فوقاس الثورية صدى لدى نفوس امتلأت بالعداء والكراهية لموريس، ومن ثم كانوا مؤهلين تماما للثورة.[٢٥]

وبمجرد أن علم موريس من أخيه بطرس نبأ ثورة جيش الدانوب، أسرع باستدعاء رئيسا حزبي الزرق والخضر ليستعلم منهما عن عدد أفراد كل حزب، فقدم سرجيوس Sergius زعيم حزب الخضر لائحة تضم ألفًا وخمسمائة عضو، أما كوزماس Kosmas رئيس الزرق فقد قدم قائمة تضم تسعمائة عضو، فأسند إليهم موريس مهمة حراسة العاصمة، أما الأسوار فقد عهد بحراستها إلي القائد كومنتيولوس وجنده.[٢٦] كذلك سعى موريس إلي محاولة تهدئة الجيش الثائر، الذي اتخذ طريق إلي القسطنطينية لخلعه، فأرسل وفدا لاستمالته، غير أن فوقاس رفض التفاوض مع الوفد، وأرسل من جانبه رسالة إلي ثيودوسيوس الابن الأكبر لموريس يعرض عليه عليه أن يتسلم مقاليد الحكم أو يسلمها إلي صهره جرمانوس Germanus.[٢٧]

ويرى نورمان بينز Norman Baynes أن رسالة فوقاس إلي ثيودوسيوس تدل على أنه لم يرغب في تغيير نظام الحكم برمته ، وأن ثورته كانت موجهة ضد شخص موريس وليست إلى أسرته.[٢٨] غير أن رسالة فوقاس ربما كانت تهدف إلي إيقاع الفرقة بين أفراد العائلة الإمبراطورية، وهذا ما حدث بالفعل، فقد تلقى ثيودوسيوس الرسالة أثناء وجوده في رحلة صيد بكاليكراتيا Kallicrateia، ولذلك بمجرد أن علم موريس بأمر رسالة فوقاس إليه حتى

أمر باستدعائه على الفور. كما أمر باستدعاء جرمانوس إلي بلاطه صبيحة يوم ٢٣ نوفمبر، واتهمه بالتحريض على هذا التمرد، وعبثا حاول جرمانوس درء الاتهام عن نفسه، لكن موريس أنهى المقابلة بقوله: "دعك من الثرثرة يا جرمانوس، ما أطيب الموت بحد السيف". فأدرك جرمانوس الخطر المحدق به فلجأ إلي كنيسة العذراء، وعندما حاولت قوات موريس إخراجه منها بالقوة، نجح في الفرار إلي كنيسة آيا صوفيا، وعندما حاصرها الجند، ثار عامة القسطنطينية وتجمهروا في ساحة الكنيسة وهم يسبون موريس ويصفونه بأقبح الصفات.[٢٩] على أن موقف موريس من جرمانوس هو العامل الأساسي الذى أثار العامة، بل يمكن اعتباره الشرارة التي فجرت غضبهم، فبالإضافة إلي سياسة موريس الاقتصادية، وموقفه من الأسرى البيزنطيين، أوجدت معاركه التي استمرت نحو عشرين عاما مع الفرس والسلاف والأفار مشكلات مجتمعية كاليتم والترمل والفقر.[٣٠]

ويبدو أن رد فعل موريس تجاه جرمانوس كان خطأً سياسيا فادحا في ظل ظروف عصيبة، إذ أن موقف العامة أثناء حصار الجنود لكنيسة آيا صوفيا أتاح الفرصة لاندلاع الفوضى وتزايدها بدرجة بات موريس عاجزا عن السيطرة عليها، ومن ثم وجد نفسه محاصرا من كافة الجهات، فجيش الدانوب يحاصر القسطنطينية من الخارج في مسعى جاد لعزله، والعامة في الداخل باتوا قاب قوسين أو أدنى من الثورة العارمة. وزاد من تفاقم الأوضاع ترك حزبي الزرق والخضر مهمة حراسة المدينة وانضمامهم للثوار، بحيث راح الجميع يحرقون ويخربون مباني العاصمة.[٣١]

وقد دل إحراق العامة لمنزل قسطنطين لاردوس Constantine Lardos ، الوالي البرايتوري للعاصمة، والذي عينه موريس من قبل قيما على جمع الضرائب في الشرق، أن ثورتهم كانت في جانب كبير منها ثورة على السياسة المالية لموريس. وقد عبروا عن رفضهم لهذه السياسة في شخص لاردوس.[٣٢] ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يثور فيها العامة بسبب سياسات موريس الاقتصادية، فقد ثاروا قبلا في عام ٦٠١م بسبب انتشار المجاعة في القسطنطينية لنقص كمية القمح الوافدة من مصر وإفريقية، وهي المجاعة التي كانت آثارها لازالت عالقة في أذهان العامة، وبالتالي كانت ثورة عام ٦٠٢م فرصة للتعبير عن ضيقهم، خاصة وأنهم شاهدوا

موريس أكثر من مرة يبيع حصة القسطنطينية من القمح للحصول على سيولة نقدية لخزائنه، وهو ما اضطره إلي وقف المنح المجانية التي توزع على فقراء العاصمة.[٣٣]

على أية حال، لقد قدم موريس لحزبي الزرق والخضر، بمشاركته إياهما حراسة القسطنطينية أثناء الثورة، سلاحا استخدموه ضده، حقيقة لقد أسند إليهم أمر حراسة العاصمة مرات متكررة قبلا، في عام ٥٨٦م لمواجهة غارات السلاف، وفي عام ٦٠٠م لصد هجوم الآفار على القسطنطينية، لكن العدو هذه المرة لم يكن أجنبيا، بل كان الجيش البيزنطي ذاته. وعلى ذلك أتاح لهم موريس نفسه الفرصة للمشاركة الإيجابية في أحداث الثورة. وهذا لا يعني أنه كان لكل حزب من الحزبين دافعه للمشاركة في الثورة، فقد ثار الخضر على موريس بسبب توانيه في أمر الشكوى التي تقدموا بها ضد قسطنطين لاردوس لعدم سماحه لهم بتعيين حنا كروكيس John Krokes ديمارخا (رئيسا) عليهم بدلا من سرجيوس الديمارخ الفعلي، ولذلك شاركوا العامة في الانتقام من لاردوس[٣٤]، ويبدو أن هذا الأمر كان له اعتبار عند الخضر، حيث نرى بعد تتويج فوقاس إمبراطورا تم تنفيذ رغبتهم بتعيين كروكيس رئيسا لهم. أما حزب الزرق؛ فرغم صمت المصادر عن مشاركتهم في بداية أحداث الثورة، لكنهم سرعان ما انضموا إليها بغية تنصيب جرمانوس، صهر ثيودوسيوس ابن موريس، على عرش الإمبراطورية.[٣٥]

وأيا كان الأمر؛ فقد أسهم تطور الأوضاع إلي إحباط موريس ويأسه من أن يجد له مساند في القسطنطينية، وعندما أسقط الأمر في يده، وأدرك أن عليه سرعة الفرار من العاصمة قبل أن يدخل الجيش ويتحد الجميع ضده، فجمع أفراد أسرته وقسطنطين لاردوس ولاذوا جميعا بالفرار. وعبر أستار الليل، وعلى ساحل مضيق خلقدونية بالقرب من كنيسة أوتونوموس St.Autonomos، أرسى موريس وأسرته، حيث سرعان ما ثارت الطبيعة عليه أيضا فأرسلت إليه رياح عاتية كادت تفتك بسفينته، ولم يكد ينج منها حتى هاجمه مرض التهاب المفاصل فبات طريح الفراش. وهناك أخذ يبحث عن قوة تعضده في مواجهة الأوضاع المتدهورة في القسطنطينية، وكأنه غريق يبحث عن طوق للنجاة، فلم يجد أمامه غير الجبهة الشرقية، حيث لاح الفرس له في الأفق كقوة يمكن أن يرتجى مساعدتها، خاصة وأنه يرتبط بهم بمعاهدة تصالح، فأرسل ابنه ثيودوسيوس إلى ملك فارس خسرو يطلب منه النجدة والمساعدة.[٣٦]

وهكذا ترك موريس بهروبه الساحة لخصومه السياسيين أو لغيرهم من الطامحين إلى السلطة، فأخذ جرمانوس يسعى جاهدا للحصول على تأييد الأحزاب، خاصة وأنه اعتبر نفسه المنافس الوحيد لموريس على عرش الإمبراطورية، ولما كانت رسالة فوقاس السالفة الذكر، التي أرسلها إلى ثيودوسيوس ويعبر فيها عن رغبة الجيش الثائر في إعتلاء أي منه أو جرمانوس، وطالما هرب ثيودوسيوس مع أبيه، فقد شعر جرمانوس أنه أقوى المرشحين للعرش، وأن تأييد الجيش له أمر مفروغ منه، وأن ما يتمتع به من نفوذ ومكانة لدى حزب الزرق يجعل تأييد الحزب له محسوم. ولم ينتظر ما ستسفر عنه تطورات الأحداث، بل أخذ يعمل بجد لتحقيق مآربه، ولضمان تأييد القوى السياسية المعارضة في العاصمة، والمقصود بها حزب الخضر. فأرسل إلى سرجيوس رئيس حزب الخضر يعرض عليه مبلغا من المال وامتيازا وتكريما مقابل دعم ارتقائه للعرش، وعندما عرض سرجيوس الأمر على أعضاء حزبه كان الرفض متوقعا، خاصة وأن انتماءات جرمانوس الحزبية ستجعل من حزب الزرق الأقوى سياسيا في حالة وصوله إلى السلطة.[٣٧]

ويبدو أن حزب الخضر قد خشي من نجاح جرمانوس في محاولاته للاستئثار بالعرش، فتسلل مجموعة من أعضائه ليلا إلى منطقة ريجيون Rhegion حيث يعسكر فوقاس وجنوده ، وأعلنوا تأييدهم له ورغبتهم في ارتقائه السلطة، وطلبوا منه التقدم نحو الهبدروم.[٣٨] ويبين هذا الموقف مدى العداوة المتأصلة بين حزبي الزرق والخضر، وكيف كان كل منهما يعمل من أجل مصلحته الخاصة دون النظر للمصلحة العامة للإمبراطورية، فالخضر يرفضون جرمانوس رجل السياسة والسناتو، ويفضلون عليه ضابط متواضع مغمور. وهكذا؛ ولأول مرة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، تنجح ثورة في الإطاحة بالإمبراطور الجالس على العرش، فرغم أن هناك ثورات سابقة أشهرها تلك التي اندلعت في عصر جستنيان، إلا أنها لم تنجح فيما نجحت فيه ثورة القسطنطينية الشعبية عام ٦٠٢م.[٣٩]

وكعادة المجتمع البيزنطي راح يبرر سقوط موريس بأنه نوع من العقاب الإلهي العادل تجاه ما ارتكبه من خطأ في حق الأسرى البيزنطيين، ونسج حول ذلك عددا من النبوءات والأساطير شاعت بين طوائفه ورددها المؤرخون البيزنطيون في كتاباتهم. فتشير المصادر البيزنطية إلى أن ثمة إشاعة سرت في شوارع القسطنطينية مفادها أن موريس أوشك على السقوط على يد شخص

يبدأ اسمه بحرف (φ) اليوناني، ويعادل في العربية حرف (الفاء). الأمر الذي دفـع مـوريس إلى الشك في صهره البطريرك فيليبكوس، فاستدعاه ولم يتركه إلا بعد أن أقسم له الأخير على أنه لم يفكر قط في مثل هذا الأمر.(٤٠)

كذلك تشير المصادر إلى حلم رآه موريس خُيل إليه فيه بمشاهدة جمهور غفير من النـاس محتشدين عند البوابة الذهبية تحت أيقونة المسيح الكبرى وهم يهتفون ضد الملـك. وسُـمع صوت صادر من الأيقونة يأمر بحضوره، وما إن حضر حتى سأله الصوت إن كـان يفـضل التكفير عن ذنبه في حق الأسرى في هذه الحياة أم في الآخرة. فأجاب: "في هذه الحياة سـيدي الرحيم". فسمع الصوت يقول: "سلموه إذن إلي فوقاس مع جميع أسـرته". وعندئـذ نهـض موريس من نومه مذعورا، وبعد أن استدعى فيليبكوس واعتذر له عن شكوكه الباطلة، سـأله إن كان يعرف جنديا اسمه فوقاس، فأجابه الأخير بأنه يعرفه، فسأله عن سنه وأخلاقه، فأجاب بأنه شاب وأخلاقه تتراوح بين التهور والجبن. فقال: "إذن جبان، فقاتل".(٤١)

ويبدو أن قصة الحلم التي رددتها المصادر التاريخية، قد شاعت بـين طوائـف المجتمـع في القسطنطينية بعد إعدام موريس وعائلته الملكية، وقت أن شاهد شعب القـسطنطينية جمـوح فوقاس ودمويته التي طالت الكثيرين، وحينها وضح له أن أخطاء موريس مهما بلغت لا يمكن مقارنتها بخطايا فوقاس، ولذلك عمد إلي تفسير ما حدث لموريس بأنه عقاب إلهي عادل علـى خطئه في حق الأسرى البيزنطيين، وفي ذات الوقت تكفيرا له. فقد فسر نيقفـور كاليـستوس Nicephoros Callistus ما لحق بموريس بأن "الله غضب على موريس بسبب هذا الإثم"(٤٢).

كذلك؛ رددت المصادر البيزنطية فكرة التكفير عن الخطأ حينما أظهرت موريس في ثـوب النادم الراغب في التوبة، فيذكر زوناراس أن موريس راح يتضرع إلي الله أن يعاقبه على ذنبـه في حق الأسرى في هذه الحياة، وطلب من الجميع أن تُرفع الصلوات لهذا الغرض.(٤٣) كذلك يشير كدرينوس إلي أن الحلم الذي رآه موريس في منامه جاء بعد صلوات كثيرة كانت تُرفـع من أجله(٤٤). ولا شك في أن الاعتراف بالخطأ والرغبة في التكفير عنه ارتبطا ارتباطـا وثيقـا بالمفهوم البيزنطي المسيحي عن فكرة الخلاص. ومن هنا جاءت رواية المصادر البيزنطية أنـه في ذات يوم رؤية موريس لذلك الحلم، أرسل إلي القديسين يستشيرهم في هذا الشأن، وجاءتـه

الإجابة التالية: "لقد قبل الله ندامتك ومنحك الخلاص وجعلك مع جميع أفراد أسرتك مع القديسين، لكنك ستفقد ملكك وسط المخاطر والعار".(٤٥)

وكما صاغت المصادر التاريخية قصة سقوط موريس في قالب التفسير الديني، عمدت أيضا إلي صبغ نهايته بذات الطابع، فيذكر زوناراس وكدرينوس أنه في ذات الليلة التي سقط فيها موريس "ظهر في السماء مذنب بشكل السيف"(٤٦)، كذلك تذكر المصادر البيزنطية أنه في ذات اللحظة التي أُعدم فيها موريس "أعلنت التماثيل القائمة في المكان المسمى Tychaeus بالإسكندرية، وبصوت أقترب من الصراخ، ما جرى لموريس"(٤٧). وفي ذات الصدد تذكر هذه المصادر أن رجلا صالحا من النساخ السكندريين لدى عودته إلي بيته في منتصف الليل سمع التماثيل تعلن من فوق مذابحها أن موريس قُتل مع أبنائه، وعند الصباح نقل الخبر إلي والي المدينة أوغسطاليس Augustalis وأسقفها بطرس، فأمراه بتكتم الخبر، وبعد تسعة أيام تأكد صحة ما سمع(٤٨).

وإذا كانت المصادر البيزنطية قد بررت سقوط موريس في ضوء مفهوم الخطيئة وما يستتبعها من عقاب إلهي عادل، فإن الظواهر الخارقة التي صاحبت موته ربما كانت لتأكيد فكرة خلاص موريس من خطيئته، أو ربما أيضا للتعبير عن المصير الذي آلت إليه الأمور بعد سقوطه. وهنا تعكس لنا تلك المصادر صورة شديدة السلبية عن عصر فوقاس، ولنبدأ بالتقرير الموجز الذي افتتح به البطريك نقفور كتابه "التاريخ المختصر" عن ذلك العصر، والذي جاء فيه: "عقب مقتل موريس، اعتلى فوكاس، الذي اقترف هذه الجريمة النكراء، العرش الإمبراطوري، مدعيا أحقيته بالسلطة، مما أدى إلي تدهور أحوال المسيحيين. وكان معروفا للجميع أنه في الوقت الذي كان الفرس يهددون الإمبراطورية الرومانية من الخارج تهديدا خطيرا، كان فوقاس يقترف تدميرا أسوأ أثرا في الداخل".(٤٩) أما كدرينوس فيصف بداية عصر فوقاس بقوله: "عندما اقتحم الخضر البلاط وأخذوا يهتفون للطاغية، وأوعزوا إليه أن يأتي إلي الهيبدروم، خرج البطريرك قيرياقوس Kyriacus والشيوخ لاستقباله، وطلبوا منه الحفاظ على الإيمان القويم والدفاع عن الكنيسة ضد الغوغائيين. وأعلنوا فوكاس إمبراطورا في كنيسة يوحنا المعمدان، وسلموا الصولجان لهذا الرجل الشرير الطاغية، وحلت الملمّات بالوطن الآمن، وكانت بداية سلسلة من الكوارث قضت على دولة الرومان".(٥٠)

وكعادة البيزنطيين راحوا يفسرون ارتقاء فوقاس العرش على أنه عقاب إلهي على ما ارتكبته أيديهم من أخطاء. فقد روي أن أحد الرهبان تساءل قائلا: لماذا ولي الله على النصارى إمبراطورا شريرا كهذا، فأجاب الرب: لأنه لم يوجد من هو أكثر شرّا منه على ما استحقت مآثم أهل القسطنطينية".(٥١) كذلك راح كاتب سيرة القديس ديمتريوس يعبر عن مفهوم العقاب الإلهي لتفسير أحداث هذه الفترة بقوله: "جميعكم تعرفون كم من فتنة أثارها الشيطان في المدينة في عهد سعيد الذكر موريس، فانطفأ دفء المحبة وزرع الحقد في الإمبراطورية بأسرها، حتى لم يكتف الأخوة بسفك الدماء في الميادين، بل هاجموا المنازل نفسها وقتلوا من فيها، وكل من لجأ إليها من نساء وأطفال ومرضى ليحتموا بها ألقوا من فوقها أرضا، وسلب بعضهم بعضا، الصديق صديقه والجار جاره، كما يفعل البرابرة. وهكذا اجتاحت المجازر الشيطانية جميع الجهات، فتحولت إلي مغارة للصوص، وكما ينتشر الحريق انتشرت الفتنة، وأعمى الطمع ونار الفتنة جميع القلوب إلي أن بلغ المدينة التي يحرسها القديسون".(٥٢)

كذلك يصف نيقفور كاليستوس اعتلاء فوقاس العرش بمن وجد نفسه "قاب قوسين من سدة الحكم، أو كمن ركب مركبا بلا أية دراية بالحكم"، ووصف مراسم تتويجه بقوله: "وسرعان ما استولى الخضر على البلاط وأخذوا يهتفون للطاغية كإمبراطور، فأرسل فوكاس أحد الأعيان، ويدعى ثيودور(٥٣)، يستدعي البطريرك وأعيان الشعب. فلما التئم جمعهم في كنيسة القديس يوحنا المعمدان، توجوا الوحش النجس بتاج الملك. وعلى الفور دخل فوكاس المدينة في موكب مهيب وراح يمطر الشعب بالذهب، فغابوا جميعا عن رشدهم بهجة بتلك الأبهة".(٥٤)

ولا ريب في أن الصورة السلبية التي عكستها المصادر البيزنطية عن فوقاس كانت نتاجا لسياسته الجامحة وسلوكه الدموي الذي بدا ظاهرا للعيان منذ اليوم الأول لوصوله إلي السلطة. وقد عكست المصادر البيزنطية هذا السلوك في الأسلوب الذي انتهجه للانتقام من خصومه السياسيين والتنكيل بهم، خاصة أفراد العائلة الملكية المنصرمة وكبار رجال القصر، فتشير إلي هروب موريس مع زوجته قسطنطينة وأبنائه التسعة فجر يوم الجمعة الثالث والعشرين من نوفمبر، وبعد يومين دخل فوقاس العاصمة عبر البوابة الذهبية Chalke gate دون أدنى مقاومة

بل ووسط تهليل الجميع[٥٥]. غير أن ما ذكرته لاحقا من تصرفاته كانت فيما يبدو سببا في إثارة استياء شعبي تجاهه، فقد قبض على موريس وزوجته وثمانية من أولاده بالقرب من كنيسة القديس St. Autonomus في Praenetus، وتم ذبح موريس أمام مرفأ Eutropius مع ثلاثة من أبنائه الذكور، وتم ذبح أحدهم أمام أعين موريس نفسه. وتشير المصادر البيزنطية إلي أن موريس تقبل نهايته بشجاعة ورباطة جأش، وأنه راح يردد عبارات عن العدالة الإلهية. أما زوجته قسطنطينة فقد أودعها أحد الأديرة إلي حين، ثم أعدمها خارج المدينة عند مرفأ Eutropius بخلقدونية "مع كل من تبقي من سلالتها وسلالة موريس" وكان ذلك في السابع من يونيو ٦٠٣م، وقد اجتمع العامة لمشاهدة جثث القتلى في مضيق خلقدونية، أما رؤوسهم فقد حملها الجنود إلى القسطنطينية، حيث مثل بها أمام العامة، الأمر الذى جعل الجميع، رغم كراهيتهم لموريس، يتعاطفون معه ويتأسون للطريقة البشعة التى قضى بها فوقاس عليه وعلى أبنائه[٥٦].

وترجع المصادر سبب إقدام فوقاس على مطاردة موريس وإعدامه، إلي أنه في يوم الاحتفال بتتويج ليونتيا زوجة فوقاس، دب خلاف في الهيبدروم بين حزبي الزرق والخضر، حيث جلس الخضر على المقاعد المخصصة للزرق. الأمر الذي أثار غضب الزرق فرفعوا أصواتهم معلنين لفوقاس: "اذهب وتعلم البروتوكول، فموريس لم يمت بعد."[٥٧] غير أنه من الصعب تصور أن هتاف الزرق وحده كان كفيلا بأن يثير ثائرة فوقاس ويدفعه إلي البحث عن موريس وأسرته للتخلص منهم. بل لقد رأى أنه لن يتسنى له توطيد حكمه إلا بعد القضاء على كل من يمت للنظام القديم بصلة، ولذلك أعقب مذبحة موريس وزوجته وأولاده بمجزرة أخرى أتى فيها على من تبقى من أقاربه وأعوانه، فقطع رؤوس بطرس قائد جيش الدانوب وشقيق موريس، وكومنتيولوس قائد الحرس الإمبراطوري، والقائد جورجيوس نائب فيليكوس صهر موريس، والقائد براسنتيوس مستشار بطرس وصديقه، وقسطنطين لاردوس الوالي البرايتوري للعاصمة، أما جرمانوس وفليبيكوس فقد أجبرهما على دخول الدير.[٥٨]

لقد عبر ثيوفلاكت ثيموقطا عن دموية فوقاس في آخر فقرة من مؤلفه التاريخي بقوله: "في هذه الأيام، حلت الخطيئة على العالم المأهول، فقد كانت الفرصة لكل الشرور العظيمة سانحة،

وكانت الإشاعة الزائفة كفيلة بأن تجرى بشأنها المذابح، ولم يقتصر الأمر على الأعداء، بل امتدت يد فوقاس لقتل شركائه في الطغوان، وراح يدير المذابح لحلفائه التابعين".[٥٩]

بقيت الإشارة إلي أن فوقاس بعد اغتصابه العرش، أرسل إلى القوى المجاورة يعلن تسلمه السلطة، فأرسل القائد ليليوس Lilios على رأس وفد محمل بالهدايا إلي خسرو ملك فارس، الذي رفض مقابلة الوفد، واتخذ من قتل موريس ذريعة لنقض معاهدة عام ٥٩١م، معلنا أنه لن يحارب الإمبراطورية، بل سيحارب قاتل موريس ليثأر منه، وعلى ذلك كانت إحدى النتائج المباشرة لثورة عام ٦٠٢م إشعال الحرب من جديد بين الطرفين.[٦٠]

وفي الخامس والعشرين من أبريل عام ٦٠٣م، وصل سفراء فوقاس إلي روما يحملون صورا لفوقاس وزوجته ليونتيا، وقد استقبلهم شعب روما بترحاب واحتفال كبيرين، حاملين البخور والشموع، وقادوهو إلي مقر السناتو الروماني، حيث تم الهتاف للإمبراطور الجديد: "الحياة المديدة للإمبراطور فوقاس وزوجته الأوجستا ليونتيا"، ثم سلم البابا جريجوري الأول الوفد البيزنطي رسالة تحمل تهنئته لفوقاس.[٦١]

هكذا، كان ظهور شخصية مثل فوقاس على عرش الإمبراطورية نتاجا أفرزته الظروف العصيبة التي مرت بها الإمبراطورية منذ عهد جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)، فأكثر من ثلاث أرباع قرن من الحروب المتواصلة، أمر أسهم في إنهاك الإمبراطورية وإصابة اقتصادياتها بالشلل، وهو الأمر الذي إنعكس على ارتباك سياسات أباطرتها بعد جستنيان، وألقى بظلاله على الأوضاع المجتمعية في الإمبراطورية، خاصة مجتمع القسطنطينية. وفي ظل هذه الظروف جاء فوقاس الذي لم يكن له سيرة تذكر، بل ضابط من أصل اجتماعي متواضع، ليحظى بتأييد شعبي جارف، وربما كانت أصوله الاجتماعية عاملا أدى إلي ارتباط العامة به. ومن ناحية أخرى؛ وجد حزبي الخضر والزرق في فوقاس قوة جديدة يمكن أن تحدث تغييرا وتنهي العهد البائد بسلبياته، وتزيل آثار حكم موريس. وربما ظن العامة أيضا أن معاناتهم الاقتصادية والاجتماعية ستزول بزوال موريس وحلول فوقاس، الشخص الذي لا ينتمي إلي الأصول الأرستقراطية والأقرب إلي فهم معاناة الفقراء والطبقات الكادحة. غير أن ما أظهرته السنوات القليلة التالية أثبتت خيبة أمل الجميع.

ولنختم بتعليق لفتشنكو Levtchinko على أحداث عام ٦٠٢م، إذ أطلق عليها صفة "الثورة"، واعتبرها صراعا اجتماعيا ونزاعا طبقيا بين الفلاحين والصناع وصغار الجند من جهة، وبين المقربين من السلطة من كبار الموظفين وأصحاب الثروات من جهة أخرى، ويرى أنها ثورة فاشلة من منظور الثوار أنفسهم، لأن من أتوا به إلي السلطة، أي فوقاس، لم يحرص على تحقيق آمالهم بقدر ما سعى إلي توطيد سلطته فقط.[٦٢]



الهوامش

([1]) Vitae Sanctorum, Suppelementum, S. Demetrii Martyris Acta, PG 116, cols.1081-1462. esp.col. 1259: ch.79.

(٢) هناك دراسات عديدة تناولت حروب جستنيان الإستردادية في الغرب الأوروبي وأوضاع الإمبراطورية في عهده، أحدثها:

Haldon, J., Economy and Administration: How did the Empire work? , in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006, pp.28-59; Lee, A.D., The Empire at War, in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006, pp.113-133.

وأنظر كذلك: محمد فتحي الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عصر الإمبراطور جوستنيان، القاهرة، ١٩٩٢م؛ محروس عبد القدوس سعيد، جوستنيان وسياسة الاسترداد، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧م.

(٣) كانت سياسات خلفاء جستنيان الاقتصادية والمالية، التي تراوحت ما بين الإسراف والتقطير، ومحاولة إرضاء العامة وتلبية احتياجات الإمبراطورية المالية دون إصلاحات مالية حقيقية، خير شاهد على ما بلغته الخزانة الإمبراطورية من أزمة حقيقية واضطراب في الميزان الاقتصادي عقب وفاة جستنيان. عن أوضاع الإمبراطورية البيزنطية في عهد خلفاء جستنيان، أنظر:

Turtledove, H.N, The Immediate Successors of Justinian: a study of the Persina problem and a continuity and change in internal secular affairs in the later Roman Empire during the reigens of Justin II and Tiberius I. Constantine (A.D.565-582), unpublished Ph.D. thesis, University of California, 1977.

ناصر عبد الحميد زيدان، الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطورين جستين الثاني وتيبريوس (٥٦٥-٥٨٢م)، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٤م.

(٤) أدى اجتياح القبائل السلافية ثم الأفارية لشبه جزيرة البلقان طوال القرن السادس الميلادي إلى تخريب وتدمير مدن وقرى البلقان، وبالتالي إلى هجرة الكثيرين من مواطنيها إلى أماكن أخرى من الإمبراطورية، مما أدى إلى مشاكل مالية واجتماعية خطيرة. أنظر:

Alexander, E.M., Early Slavic invasions and settlements in the Area of Lower Danube in the 6th through the 8th centuries, unpublished Ph.D. thesis, New York University, 1994, pp.165-173; Curta, F., Making an early Medieval ETHNIE: the case of the early Slavs (sixth to seventh century A.D.), unpublished Ph.D. thesis, Western Michigan University, 1998, pp.162-164, 202-225.

(5) Haldon, J., Byzantium in the seventh century, the transformation of a cukture, Cambridge, 1990, pp.35-37.

وأنظر كتاب "التاريخ السري" Anekdota لبروكوبيوس، الذي يقدم نقدا لاذعا لعصر جستنيان وسياسته: بروكوبيوس، التاريخ السري، ترجمة علي زيتون، دمشق، ٢٠٠٣؛ التاريخ السري لبروكوبيوس: حياة الإمبراطور جستنيان وثيودورا، ترجمة صبري أبو الخير، القاهرة، ٢٠٠١م. وعن الأوبئة والطواعين خلال هذه الفترة، أنظر:

Hordon, P., Mediterranean Plague in the age of Justinian, in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006, pp.134-160.

(٦) عن إصلاحات موريس العسكرية، أنظر: وفاء عبد الحميد محمد، الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م)، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٨م، ص١٥٨-١٦٠.

(7) Theophylact Simocatta, Historia, CSHB, Bonnae, 1834, 112-118. Eng. Trans, The History of Theophylact Simocatta, trans. Michael & Mary Whitby, Oxford, 1986, 74-75; Theophanes, Chrongraphia, Eng. Trans. The Chronicle of Theophanes the Confessor. Byzantine and Near Eastern History. A.D. 284-813, trans. C.Mango & R.Scott, Oxford, 1997, p.398; Higgins,J., Note on the Emperor Maurice's military administration, Analecta Bollandiana 16(Bruxelles,1940), p.398.

يذكر ثيوفانيس أن مرسوم موريس كان يقضي بتوزيع مرتب الجندي إلى ثلاثة أقسام متساوية، بحيث يتقاضى ثلثا من العملات الذهبية، والثلث الثاني من الأسلحة، والأخير من الملابس. أنظر كذلك: ليلى عبد الجواد اسماعيل، الدولة البيزنطية في عصر هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٨٧.

(٨) الجنيه الذهبي البيزنطي يعادل ٧٢ نوميزما Nomisms أو الصولدي solidus العملة الذهبية البيزنطية، وتساوي النوميزما الواحدة ٢٤ قيراطا keratia . أنظر:

Grierson, Ph., Byzantine Coinage, Washington, D.C., 1999, PP.57,59,60; Grierson, Ph.,The value of the Solidus in the fifth and sixth centuries A.D., Journal of Roman Studies 49(1959), pp.73-80.

ولعل هذا يفسر سبب غضب خاقان الأفار وأمره بقتل الأسرى البيزنطيين بسبب تدني قيمة عرضه على موريس.

(9) Chronicon Paschale, CSHB, vol.I, Bonnae, 1832, p.692; Theophanes, Chrongraphia, p.404.

(10) Nicephori Callisti Xanthopuli, Ecclesiasticae Historiae, libri 18, PG 147, col.403.

(11) Ioannis Zonaras, Epitomae Historiarum, libri 8, CSHB, Bonnae, 1897, p.193.

(12)Theophanes, Chrongraphia, p.408.

كذلك يذكر زوناراس أن أحد الرهبان رفع سيفا وسار من الميدان حتى البوابة الذهبية وهو يهتف بأن موريس سيسقط قريبا بالسيف. Zonaras, Epitomae Historiarum,, p.193.

(13) Theophylact Simocatta, Historia, p.294. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, pp.213-214.; Chronicon Paschale, p.694.

(14) heophanes, Chrongraphia, pp.403, 407. Stratos, A.N., Byzantium in the seventh century, vol.I, Amesterdam, 1968, p.44.

يقول ثيوفانيس أن موريس هو الذي أمر كومنتيولوس بخيانة الجيش بسبب عدم التزام الجنود بالنظام. ويقول أيضا أن "الإمبراطور لم يعر اهتماما للاتهامات الموجهة ضد كومنتيولوس". ويرى استراتوس أن استياء الجنود والعامة جاء نتيجة شعورهم بأن موريس لم يرفض افتداء الأسرى بسبب خلو الخزانة بل بسبب بخله، الأمر الذي دفعهم إلى الاعتقاد بأنه حريص على المال أكثر من حرصه على نفوس وأرواح جنوده. وأن هذا الاعتقاد تأكد لديهم بعد الموقف السلبي الذي أظهره موريس حيال ما رأوه من خيانة من قبل قائدهم كومنتيولوس.

(15) Theophylact Simocatta, Historia, p.260. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.214-215, 221.

(16) Norwich, J.J, Byzantium: the early centuries, New York, 1989,278.

(17)Theophylact Simocatta, Historia, p.260. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.214-215; Theophanes, Chrongraphia, p.409.

(18) Theophylact Simocatta, Historia, p.260. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta. p.179-180.

(19) Theophylact Simocatta, Historia, pp.324-325. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.218-220; Theophanes. Chrongraphia, pp.411-412.

(20) Stratos. Byzantium. I,pp.29-30.

(21) Browning. R., Byzantium and Bulgaria. London, 1977, p.37.

نجح القائد بريسكوس في إحراز عددا من الانتصارات المتالية على الأفار في الفترة بين عامي ٥٩٧-٥٩٩م، وبالرغم من فشل كومنتيولوس بعد ذلك في صد هجماتهم، إلا أن وباء الطاعون الذي اجتاح جيوشهم عام ٦٠١م وما نتج عنه من اضطرارهم عقد صلح. غير أن موريس سرعان ما نقض هذا الصلح وأمر أخيه بطرس بشن حملات ضدهم، ونجح في إحراز بعض الانتصارات، خاصة مع حدوث انقسامات في جيش الخاقان وفرار عدد من جنوده إلي الجيش البيزنطي، الأمر الذي دفع الخاقان إلي محاولة تهدئة الجبهة حتى يستطيع تنظيم قواته، وجعل موريس على الجانب الآخر يصر على مواصلة الحرب والإفادة من انقسامات الجيش الآفاري. ومن هنا جاء إصراره على أن يواصل الجيش حروبه خلال فصل الشتاء. أنظر:

Theophylact Simocatta, Historia, pp.297-323. Eng. Trans.History of Theophylact Simocatta, pp.216-220; Theophanes, Chrongraphia, p.407.

(22) Theophylact Simocatta, Historia, pp.324-325. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.218; Theophanes, Chrongraphia, pp.411-412.

(23) Higgins, Maurice's military administration. pp.445-446.

(24) Norwich, Byzantium, pp.275-276.

(25) Theophylact Simocatta, Historia. p.328. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta. p.220; Theophanes. Chrongraphia. p. 412.

(26) Theophylact Simocatta, Historia, p.327. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.220; Theophanes, Chrongraphia, p. 412.

(27) Theophylact Simocatta, Historia, p.329. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.221; Theophanes, Chrongraphia, p. 412.

كان جرمانوس حمو ثيودوسيوس، وكان عضوا بمجلس السناتو وعرف بولعه الشديد بالعلوم والآداب، ويبدو أنه كان ينتمي إلي حزب الزرق.

(28)Baynes. N., The Successors of Justinian, in: Cambridge Medieval History, vol. II, pp.263-301, 281-282.

(29) Theophylact Simocatta, Historia, p.330-331. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p. 223; Theophanes, Chrongraphia. p. 412-413: Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.406.

(٣٠) وفاء عبد الحميد، الإمبراطور موريس، ص١٦٢-١٦٣.

(31) Theophylact Simocatta, Historia, p.330-331. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.221-223; Theophanes, Chrongraphia, p. 413; Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.406.

(32) Theophylact Simocatta, Historia, p.330-331. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.223; Theophanes, Chrongraphia, p. 413; Nicephoros Callistus, op. cit., col.406.

(٣٣) يذكر ثيوفلاكت ثيموقطا أن هذا التمرد كان بسبب المجاعة ونقص الغذاء الذي حل بالقسطنطينية في شتاء هذا العام، ويروي أنه بينما كان موريس يحتفل بعيد الميلاد بين الناس في كنيسة آيا صوفيا، هاج العامة ضد الإمبراطور وطالبوه بالخبز بصراخ وأصوات عالية، وانهالوا عليه بالسباب والشتائم، وتطور الأمر إلي قذفه بالحجارة، وكادوا يصلون إليه لولا تدخل فرقة الحرس الإمبراطوري، حيث التفوا حوله حتى أخرجوه من الكنيسة. وهرب موريس إلي كنيسة العذراء التي تقع في حي بالشرناي حيث يقيم الزرق، وهذا يشير إلي أن مثيري الشغب كانوا من حزب الخضر.

Theophylact Simocatta, Historia, p.321-323. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p. 215-216.

وفاء عبد الحميد، الإمبراطور موريس، ص٥٧.

(٣٤) يخص ثيوفانيس حزب الخضر وحده بالمشاركة في حرق منزل لاردوس، بينما لم يحدد ثيوفلاكت مشاركة أي من الحزبين في ذلك.

Theophylact Simocatta, Historia, p.330-331. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.223; Theophanes, Chrongraphia, p. 413.

(35) History of Theophylact Simocatta, p. 224; Stratos, Byzantium, I, pp.46-48.

(36) Theophylact Simocatta, Historia, p.346. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p.223-224; Theophanes, Chrongraphia, p. 413.

(37)Theophylact Simocatta, Historia, p.346. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p. 224; Theophanes, Chrongraphia, p. 413.

(38)Theophylact Simocatta, Historia, p.346-347. Eng. Trans. History of Theophylact Simocatta, p. 224-225; Theophanes, Chrongraphia, p. 413.

(٣٩) عن ثورة عصر جستنيان، أنظر: رأفت عبد الحميد، الثورة الشعبية في القسطنطينية سنة ٥٣٢م، بحث منشور في كتاب بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٩٩-٢٤٩.

(40)Theophanes. Chrongraphia, pp.410; Zonaras, Epitomae Historiarum. pp.193-194.

(41)Theophanes, Chrongraphia, pp.410-411; Zonaras, Epitomae Historiarum, pp.194-195.

يذكر كيدرينوس نفس قصة الحلم، وإن اختلف بعض الشئ في تفاصيله، فيشير إلي أن هذا الحلم جاء بعد صلوات كثيرة كانت تُرفع من أجل موريس، وأنه خُيل إليه بأنه يقف أمام أيقونة المسيح وعدد كبير من الأسرى يوجهون إليه الاتهامات.

Georgii Cedreni Historiarum Compendium, CSHB, I, Bonnae, 1838, p.704.

أما نيقفور كاليستوس فقد أشار إلي قصة الحلم بإيجاز بقوله: "شاع في المدينة أن المسيح ظهر له في الحلم وأبلغه أنه أمسى تحت رحمة فوكاس. ولما نهض موريس من نومه، استدعى صهره فيليكوس من السجن، حيث كان يخشى من

الحرفين الأولين في اسمه على العرش ولذلك سجنه. ثم سأله إن كان يعرف فوكاس هذا، فأجابه نعم. فسأله عن أخلاقه، ولما علم أنه جبان قال: إن كان حقا جبانا فهو لا محالة قاتل".

Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.403.

(42)Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.403.

(43) Zonaras, Epitomae Historiarum, p.193

(44)Cedrenus, Historiarum Compendium, p.704.

(45) Theophanes, Chrongraphia, pp.410-411; Cedrenus, Historiarum Compendium, p.704; Zonaras, Epitomae Historiarum, p.195.

(46)Cedrenus, Historiarum Compendium, p.704; Zonaras, Epitomae Historiarum, p.195.

(47)History of Theophylact Simocatta, p.231; Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.411.

(48) History of Theophylact Simocatta, pp.231-232; Cedrenus, Historiarum Compendium, p.710.

(49) Nikephoros Patriarch of Constantinople, Short History, trans. C.Mango, Washington,D.C., 1990, P.35.

البطريرك نقفور، التاريخ المختصر، ترجمة هاني عبد الهادي البشير، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص.٥٧.

(50) Cedrenus, Historiarum Compendium, p.706.

وأنظر كذلك: History of Theophylact Simocatta, p.225; Theophanes, Chrongraphia, p.413.

(51) Mansi, Sacrorum Conciliorum, Tomus Decimus, p.503.

(52) S. Demetrii Martyris Acta, cols.1262-1263.

(٥٣) ينعته كل من ثيوفلاكت سيموقطا وثيوفانيس بالـ secretis ، مما يعني أنه كان سكرتيرا لفوكاس وكاتما لسره.

History of Theophylact Simocatta, p.225; Theophanes, Chrongraphia, p.413.

(54) Nicephoros Callistus, Ecclesiasticae Historiae, col.407.

لا شك في أن فوكاس باستدعائه أعضاء مجلس السناتو ورجال الدين وعلى رأسهم البطريرك وأعيان الشعب كان يهدف إلى وجود كافة العناصر التي تجعل تتويجه شرعيا، وتصبغه بالصبغة الدينية. غير أن تتويجا بهذا النحو يعني بروز دور الأحزاب السياسية على حساب الجيش ومجلس السناتو أصحاب الدور الفاعل قبلا في اختيار الأباطرة. وهو ما علق عليه كاميرون بقوله: "لقد توارى الجيش والسناتو أمام نفوذ الأحزاب الذي بدأ يتزايد في عصر خلفاء جستنيان، حيث استطاعوا عام ٦٠٢م أن يتوجوا إمبراطورا بعينه ويمنحونه مقاليد السلطة الإمبراطورية، خاصة وأن فوكاس جاء من الطبقة الدنيا في الجيش، ولم يكن ليطمح فيما أحرزه إلا عندما ساق إليه التنافس الحزبي العرش الإمبراطوري".

Cameron, A., Circus Factions, Blues and Greens at Rome and Byzantium, oxford, 1976, pp.31-32.

(55)Chronicon Paschale, p.693.

يذكر كاتب الحولية الفصحية أسماء أبناء موريس التسعة، وهم ستة ذكور: ثيودوسيوس وتيبريوس وبطرس وبولس وجوستين وجوستينيانوس، وثلاث إناث: أناستاسيا وثيوكتيستا وكليوباترة. Ibid, p.693.

(٥٦) عدم فوكاس في البداية أبناء موريس الكبار، بطرس وجوستين وجوستينيانوس، مع أبيهم، ثم أعدم قسطنطينة وبناتها الثلاث وزوجة إبنها ثيودوسيوس Chronicon Paschale,pp.694,695-697.; History of Theophylact Simocatta, p.227; Theophanes, Chrongraphia, p.414.

يشير ثيوفانيس إلى أن موريس أعدم مع خمسة من أبنائه الذكور.

(57)History of Theophylact Simocatta, p.226; Theophanes, Chrongraphia, p.413-414.

(58)Chronicon Paschale, p.693; History of Theophylact Simocatta, pp.230-231; Theophanes, Chrongraphia, p.414; Cedrenus, Historiarum Compendium, p.709; Zonaras, Epitomae Historiarum, p.197.

لم يبق من رجال موريس سوى القائد نارسيس الذى استولى على الرها بمساعدة خسرو ملك فارس عام ٦٠٣م، فأرسل إليه فوكاس قائده دومنتزيولوس لحصاره في الرها، وعرض عليه تسليم المدينة لقاء صفح فوكاس، وبالفعل عاد نارسيس إلى القسطنطينية ليحرق حيا في نهاية عام ٦٠٥م.

Theophanes, Chrongraphia, p.421; Cedrenus, Historiarum Compendium, p.710-711; Zonaras, Epitomae Historiarum, p.199.

(59)History of Theophylact Simocatta, p.236.

(60) History of Theophylact Simocatta, pp. 234-235; Theophanes, Chrongraphia, p.419; Chronicon Paschale, p.694; Cedrenus, Historiarum Compendium, p.709; Zonaras, Epitomae Historiarum, p.197.

(61) Oman, Ch., The Dark Ages 476-918, London, 1914, 157.

وعن العلاقات السيئة بين موريس والبابوية، أنظر: وفاء عبد الحميد، الإمبراطور موريس، ص٦٩-٧٥.

(٦٢) أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم، الجزء الأول، بيروت، ١٩٥٥، ص٢٠٩-٢١٠.

المصادر والمراجع

أولا. المصادر:-

Anonymous, Chronicon Paschale, CSHB, vol.I, Bonnae, 1832

Georgii Cedreni Historiarum Compendium, CSHB, I, Bonnae, 1838

Ioannis Zonaras, Epitomae Historiarum, libri 8, CSHB, Bonnae, 1897

Mansi, Sacrorum Conciliorum, Tomus Decimus, p.503.

Nicephori Callisti, Ecclesiasticae Historiae, libri 18, PG 147

Nikephoros Patriarch of Constantinople, Short History, trans. C.Mango, Washington,D.C., 1990

St. Demetrius of Thessalonike: Vitae Sanctorum, Suppelementum, S. Demetrii Martyris Acta, PG 116, cols.1081-1462. esp.col. 1259: ch.79.

Theophylact Simocatta, Historia, CSHB, Bonnae, 1834, 112-118. Eng. Trans, The History of Theophylact Simocatta, trans. Michael & Mary Whitby, Oxford, 1986

Theophanes, Chrongraphia, Eng. Trans. The Chronicle of Theophanes the Confessor. Byzantine and Near Eastern History. A.D. 284-813, trans. C.Mango & R.Scott, Oxford, 1997

ثانيا. المراجع الأجنبية:-

Alexander, E.M., Early Slavic invasions and settlements in the Area of Lower Danube in the 6th through the 8th centuries, unpublished Ph.D. thesis, New York University, 1994.

Baynes, N., The Successors of Justinian, in: Cambridge Medieval History, vol. II, pp.263-301

Browning, R., Byzantium and Bulgaria, London, 1977

Cameron, A., Circus Factions, Blues and Greens at Rome and Byzantium, oxford, 1976

Curta, F., Making an early Medieval ETHNIE: the case of the early Slavs (sixth to seventh century A.D.), unpublished Ph.D. thesis, Western Michigan University, 1998.

Grierson, Ph.,The value of the Solidus in the fifth and sixth centuries A.D., Journal of Roman Studies 49(1959), pp.73-80.

Grierson, Ph., Byzantine Coinage, Washington, D.C., 1999

Haldon, J., Byzantium in the seventh century. the transformation of a cukture, Cambridge, 1990.

Haldon, J., Economy and Administration: How did the Empire work? , in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006, pp.28-59; Lee, A.D., The Empire at War, in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006.

Higgins,J., Note on the Emperor Maurice's military administration, Analęcta Bollandiana 16(Bruxelles,1940)

Hordon, P., Mediterranean Plague in the age of Justinian, in: Age of Justinian, ed. M.Maas, Cambridge, 2006, pp.134-160.

Norwich, J.J, Byzantium: the early centuries, New York, 1989

Oman, Ch., The Dark Ages 476-918, London, 1914

Stratos, A.N., Byzantium in the seventh century, vol.I, Amesterdam, 1968

Turtledove, H.N, The Immediate Successors of Justinian: a study of the Persina problem and a continuity and change in internal secular affairs in the later Roman Empire during the reigens of Justin II and Tiberius I. Constantine (A.D.565-582), unpublished Ph.D. thesis, University of California, 1977.

ثالثا. المصادر والمراجع العربية والمعربة:-

أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم، الجزء الأول، بيروت، ١٩٥٥م.

بروكوبيوس، التاريخ السري، ترجمة علي زيتون، دمشق، ٢٠٠٣.

بروكوبيوس، التاريخ السري لبروكوبيوس: حياة الإمبراطور جستنيان وثيودورا، ترجمة صبري أبو الخير، القاهرة، ٢٠٠١م.

رأفت عبد الحميد، الثورة الشعبية في القسطنطينية سنة ٥٣٢م، بحث منشور في كتاب بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٩٩-٢٤٩.

ليلى عبد الجواد اسماعيل، الدولة البيزنطية في عصر هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م.

محروس عبد القدوس سعيد، جوستنيان وسياسة الاسترداد، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧م.

محمد فتحي الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عصر الإمبراطور جوستنيان، القاهرة، ١٩٩٢م.

ناصر عبد الحميد زيدان، الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطورين جستين الثاني وتيبريوس (٥٦٥–٥٨٢م)، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٤م.

نقفور البطريرك ، التاريخ المختصر، ترجمة هاني عبد الهادي البشير، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

وفاء عبد الحميد محمد، الإمبراطور موريس (٥٨٢–٦٠٢م)، ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٨م.



د.فرج الله أحمد يوسف*

التأثيرات الثقافية الأجنبية في الممالك العربية قبل الإسلام من خلال المسكوكات

أولاً: مسكوكات ممالك جنوب الجزيرة العربية:

١- مملكة قتبان

كانت مملكة قتبان أول مملكة عربية تضرب المسكوكات منذ أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، فقد عثر في جنوب شرق تركيا على ثلاث مسكوكات نقش على اثنين منها حرف الكاف بخط المسند، أما الثالث فقد نقش عليه حرف الباء بخط المسند، ويرجع تاريخ هذه المسكوكات للفترة ما بين سنتي ٤٧٥ – ٤٠٠ ق.م (سيدوف ودافيد ١٩٩٩: ١١٨)، وتعد هذه بمثابة المرحلة الأولى في تعريب المسكوكات الإغريقية قامت بها مملكة قتبان.

اختلف المؤرخون في تحديد بداية ظهور مملكة قتبان ونهايتها فقد قال البعض أن بدايتها كانت في القرن السابع قبل الميلاد ونهايتها سنة ٥٠ ق.م، بينما يري آخرون أن بدايتها كانت سنة ٦٤٥ ق.م ونهايتها في القرن الثالث قبل الميلاد (البكر ١٩٨٠: ١٩٢؛ آفانزيني١٩٩٩: ٩٨).

---

* باحث بدار القوافل – الرياض

وضربت المسكوكات القتبانية المبكرة تقليدًا للمسكوكات الإغريقية التي نقش على وجهها رأس المعبودة أثينا مرتدية خوذة مزينة بأوراق زيتون، أما على ظهرها فقد نقشت بومة وبجوارها هلال وغصن زيتون والشعار الإغريقي الدال على قيمة المسكوكة AOE (اللوحة رقم ١)، وكانت الإصدارات الأولى من السكة القتبانية مشابهة تمامًا للسكة الإغريقية وسجل عليها حروف بخط المسند على وجه المعبودة أثينا لتحديد القيمة النقدية للمسكوكات. (سيدوف ودافيد ١٩٩٩: ١١٨؛ Hay 2003: 42-43)

وفي أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ضرب طراز جديد من المسكوكات القتبانية تخلى كثيرًا عن التأثيرات الإغريقية فنقش على الوجه صورة الملك القتباني بدلاً من رأس المعبودة أثينا وسجل على صورة الملك حروف بخط المسند، بينما نقش على الظهر صورة البومة والشعار الإغريقي الدال على قيمة المسكوكة والمكتوب بالخط اليوناني AOE (اللوحة رقم ٢).

وبذلك فقد انحصرت التأثيرات الثقافية الإغريقية على المسكوكات القتبانية في حروف الشعار الإغريقي الدال على القيمة النقدية للمسكوكات، وصورة وجه المعبودة الإغريقية أثينا، والبومة الواقفة على قارورة، مما يرجح عدم تغلغل التأثير الثقافي الأجنبي في جنوب الجزيرة العربية، ثم ما لبثت المسكوكات القتبانية أن صارت عربية خالصة من حيث الرسوم والكتابات. (اللوحة رقم ٣)

٢- مملكة سبأ

ضرب السبئيون المسكوكات ويرجع أقدمها إلى النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت متأثرة بالطراز الإغريقي فنقش على وجهها رأس المعبودة أثينا مرتدية خوذة وحولها أغصان زيتون، أما الظهر فعليه صورة البومة مع غصن الزيتون والهلال، ونقش عليها حروف بخط المسند لتدل على القيمة النقدية للمسكوكة فحرف النون يرمز للوحدة النقدية الكاملة، وحرف التاء يرمز للنصف، وحرف الشين يرمز للربع.

(H ill 1922: 49-51)

ومنذ أواسط القرن الثاني قبل الميلاد نقشت أسماء الملوك على المسكوكات السبئية بخط المسند (يحيى ١٩٧٩: ١٤٤-١٤٥)، وفي أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الأول قبل الميلاد صدرت مسكوكات جديدة نقش على وجهها رجل ملتح على رأسه تاج وهو أما يمثل الملك

أو يرمز للمعبود المقه، أما على الظهر فتبدو البومة واقفة على قارورة، وعاد على بعض هذه المسكوكات الخط اليوناني مرة أخرى مثلاً في الرمز الإغريقي AOE لكنه فقد معناه الحقيقي في ظل التعبير عن القيمة النقدية للمسكوكات بخط المسند (يوسف ٢٠٠٢: ٧٩)، وبذلك فقد اقتصر التأثير الثقافي الأجنبي على كتابة حروف الشعار الإغريقي الدال على القيمة النقدية للمسكوكات.

وفي الفترة ما بين سنتي ٧٠ – ٤٠ ق.م صدرت مسكوكات نقش على وجهها صورة نصفية للملك وحوله أغصان الزيتون وعلى الظهر تبدو البومة واقفة على القارورة وحولها رمز المعبود المقه وبعض الحروف بخط المسند (اللوحة رقم ٤)، وفي الفترة ما بين سنتي ٤٠ – ٢٤ ق.م ضربت مسكوكات سجلت عليها كتابات بالخطين الآرامي واللحياني وهو الشيء نفسه الذي رأيناه على المسكوكات القتبانية.(اللوحة رقم ٥) (هاي ١٩٩٦: ١٦٣–١٦٤؛ سيدوف دافيد ١٩٩٩: ١١٩–١٢٠؛ قادوس ١٩٩٩: ١٨٨)

(Hill 1922: 53-5, Dembski 1988: 125-26, Pirenne 1988: 121)

ثم تأثرت المسكوكات السبئية بالمسكوكات الرومانية نتيجة للتبادل التجاري بين مملكة سبأ والرومان، وظهر التأثير الروماني واضحًا في رسوم الوجه، فقد ضربت مملكة سبأ مسكوكات عرف باسم مسكوكات أغسطس نسبة للإمبراطور الروماني أغسطس (٦٢ ق.م – ١٤م) لكن الكتابة ظلت بخط المسند. (اللوحة رقم ٦)

(Dembski 1988: 125-26, Pirenne 1988: 121, Sedov 2001: 32, Hay 2003: 47-49)

ثم ضربت مملكة سبأ مسكوكات تخلصت تمامًا من التأثيرات الإغريقية والرومانية، وضربت هذه المسكوكات في القرن الأول قبل الميلاد، ونقش عليها رأس رجل مجعد الشعر يتجه إلى اليمين أو إلى اليسار، ونقش حول رأس الرجل الذي ربما يرمز إلى الملك الهراوة وهي رمز المعبود المقه، وهناك رمز آخر يرجح أنه رمز المعبود عثتر، أما على الظهر فنقش رأس ثور بقرنين طويلين، ورمز المعبود المقه، وحرف الحاء أو حرف الميم والهراوة رمز المعبود المقه (اللوحة رقم ٧)، وبذلك تخلصت مسكوكات مملكة سبأ من التأثيرات الثقافية الأجنبية.

٣- مملكة حضرموت

ضربت مملكة حضرموت مسكوكاتها المبكرة على الطراز الإغريقي وترجع أقدمها إلى نحو سنة ٣٥٠ ق.م، وسجل عليها حرف النون بخط المسند ليدل على قيمتها النقدية (Hill 1922: 46-7)، واستمر تسجيل الشعار الإغريقي الدال على القيمة النقدية للمسكوكات (اللوحة رقم ٨)، ثم ضرب طراز جديد من المسكوكات الحضرمية جاءت نقوشها المسجلة بخط المسند كما يلي:

النوع الأول:

الوجه: صورة ثور سجل أعلاه اسم المعبود سين، وأمامه مكان الضرب "شقر"، وهو القصر الملكي الحضرمي.

الظهر: سجل عليه مكان الضرب "شقر". (اللوحة رقم ٩)

النوع الثاني:

الوجه: رأس شخص عليه تاج ربما يرمز إلى الملك.

الظهر: سجل عليه مكان الضرب "شقر". (هاي ١٩٩٦: ١٦١-١٦٢) (اللوحة رقم ١٠).

ضرب الملك "يشهر إل يهرعش" في مطلع القرن الأول الميلادي طرازًا جديدًا من المسكوكات الحضرمية نقش عليها:

الوجه: رأس رجل متجه نحو اليمين يرجح أنه يرمز للملك وبجواره حرف الميم بخط المسند، واسم المعبود سين.

الظهر: صورة نسر متجه إلى اليمين ناشرًا جناحيه وهو يرمز للمعبود سين، وإلى اليسار نقش مكان الضرب "شقر"، وسجلت إلى اليمين حروف الياء والشين والهاء، وهي الحروف الثلاثة الأولى من اسم الملك يشهر إل يهرعش (اللوحتان رقم ١١، ١٢). (هاي ١٩٩٦: ١٦١-١٦٢؛ Walker 1937: 262-79, Hay 2003: 49-50)، واستمرت هذه المسكوكات تضرب حتى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي، وبذلك فإن مملكة حضرموت تعد أقل تأثرًا بالثقافة الأجنبية من مملكتي: قتبان، وسبأ.

٤- مملكة حمير:

ضربت مملكة حمير المسكوكات ويرجع أقدمها إلى سنة ١١٠ ق.م وكانت متأثرة بالمسكوكات القتبانية، ونقشت كتاباتها بخط المسند، وسجل عليها اسم "ريدان"، ثم ضربت مسكوكات أخري تقليدًا لمسكوكات الإمبراطور الروماني أغسطس، وهذا هو التأثير الأجنبي الوحيد على مسكوكات مملكة حمير.

أما المسكوكات الحميرية الأكثر انتشارًا فهي التي عرفت بذات الرأسين نظرًا لنقش رأس رجل على وجه كل مسكوكة وظهرها، فنقش على الوجه صورة رأس رجل غير ملتح ربما تمثل هذه الصورة الملك، أما على الظهر فنقشت صورة مشابهة لكنها أصغر وكتب حولها "ريدان" واسم الملك ومكان الضرب وهو على أغلب المسكوكات الحميرية يعب (اللوحة رقم ١٣)، وحريب (اللوحة رقم ١٤)، ونقشت على بعض المسكوكات الحميرية رموز اختلف في تفسيرها، ويرى بعض الباحثين أنها تشير إلى الأسر الحاكمة. (اللوحة رقم ١٥) (الحوالي ١٩٧١: ٢١٧؛ سيدوف ودافيد ١٩٩٩: ١٢٠؛ قادوس ١٩٩٩: ١٨٨؛ Dembski 1987: 126, Sedov 2001: 33-34) بينما يري آخرون أنها ترمز للملوك، أو أماكن السك، أو قد ترمز إلى المعبودات. (علي ١٩٦٩: ٧/٤٩١)

وأصدرت مملكة حمير مسكوكات عربية خالصة وسجلت عليها أسماء الملوك مثل: "كرب إل يهنعم" (اللوحة رقم ١٦)، و"عمدان بين يهقبض" (اللوحة رقم ١٧)، و"شمر (شمدر) يهنعم" (اللوحة رقم ١٨)، و"ثأرن يعب يهنعم". (اللوحة رقم ١٩)

(هاي ١٩٩٦: ١٦٣-١٦٦؛ Hill 1922: 68-74, Hay 2003: 50-51, Morgan 1979: 267)

وظلت مملكة حمير تضرب المسكوكات حتى أوائل القرن السادس الميلادي فقد جاء في المصادر الحميرية أن الملك يوسف أسار عندما كان يحاصر نجران طلب من زعمائها نقش اسمه على المسكوكات التي تضرب بها (النعيم ٢٠٠٠: ٣٣٧) مما يدل على أن نجران كانت إحدى دور ضرب المسكوكات الحميرية، ويدل أيضًا على استمرار ضربت المسكوكات في مملكة حمير حتى سقوطها على يد مملكة الحبشة سنة ٥٢٥م.

٥ – مملكة كندة:

أسست قبيلة كندة مملكة كانت عاصمتها قرية (الفاو) التي امتدت حضارتها ما بين القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي، ومن ملوكها الملك معاوية بن ربيعة ملك قحطان ومذحج الذي عثر على قبره في قرية (الفاو) (الأنصاري ١٩٧٩: ٨؛ الأنصاري ١٩٨٢: ٢٠)، وقد أشارت نقوش جنوب الجزيرة العربية (جام ٥٧٦، ٦٣٥، ٦٦٠، ٦٦٥؛ وركمانز ٥٠٩) إلى قرية باسم "قرية ذات كهل" كما أشارت إلى ملك كندة، وترجع تواريخ هذه الكتابات إلى ما بين القرنين الأول والخامس الميلاديين. (الأنصاري ١٩٧٩: ٨؛ الأنصاري ١٩٨٢: ١٦؛ عفيف ١٩٩٢: ١٩٠)

ومنذ سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م بدأت جامعة الملك سعود بإجراء حفريات علمية في قرية (الفاو) تحت إشراف عبدالرحمن الطيب الأنصاري تم خلالها العثور على مسكوكات ضربت في قرية (الفاو) من أهمها مجموعة من القطع الفضية والبرونزية نقش على وجهها اسم "كهل" معبود كندة أو رمزه وعلى ظهرها صورة لشخص جالس أو واقف تحيط به أحرف بخط المسند، وربما يرمز هذا الشخص إلى المعبود كهل، وقد ضربت المسكوكات بقرية منذ مطلع القرن الأول قبل الميلاد وحتى سنة ٣٢٥م (الأنصاري ١٩٨٢: ٢٨؛ الأنصاري ١٩٨٤: ٤٤؛ الأنصاري ٢٠٠١: ٢١) (اللوحة رقم ٢٠)،ولا تعكس مسكوكات مملكة كندة أية تأثيرات ثقافية أجنبية، فقد سجلت كتاباتها بخط المسند، أما الصور التي نقشت عليها فإنها ذات طابع عربي صرف.

ثانيًا – مسكوكات ممالك شمال الجزيرة العربية:

١– مملكة الأنباط

يعد الملك حارثة الثاني (١٢٠ – ٩٦ ق.م) أول من ضرب المسكوكات من ملوك الأنباط، وكانت مسكوكاته متأثرة بالمسكوكات الإغريقية فقد نقشت عليها صورة (تيكة Tyache) وحرف A وهو الحرف الأول من اسم حارثة الثاني (Arethas)، لكن الثقافة الإغريقية لم تكن طاغية على مسكوكات حارثة الثاني إذ أنه ضرب مسكوكات نقش عليها حرف الحاء بالخط الآرامي. (عباس ١٩٨٧: ٤٠؛ الرواحنة ٢٠٠٢: ٦٠؛ يوسف ٢٠٠٦: ٢٣ – ٢٤).

تمكن الملك حارثة الثالث (٨٥ – ٦٢ ق.م) من ضم دمشق في السنة الأولى من حكمه بعد أن اتصل به أهلها وأبدوا رغبتهم في أن تكون مدينتهم تابعة لمملكة الأنباط بعد أن سئموا من النزاعات المستمرة بين السلوقيين، وتحرش بطليموس بن معن (٨٥ – ٤٠ ق.م) ملك اليطوريون (الأيتوريون)، فانضمت دمشق لمملكة الأنباط حتى سنة ٧٠ ق.م، وكانت دمشق قد سقطت في أيدي الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٣ق.م، ثم صارت بعد وفاته جزءاً من المملكة السلوقية، وكان يقيم بدمشق آنذاك جاليات يونانية ومقدونية هي التي فضلت أن تكون دمشق تحت حكم الأنباط فقامت باستدعاء الملك حارثة الثالث. (عبدالعليم ١٩٨٦: ٨-٩؛ عباس ١٩٨٧: ٤٢؛ مقداد ٢٠٠٤: ٦٧؛ سارة ٢٠٠٧: ٤٨-٥٠)

ضرب الملك حارثة الثالث سلسلة من المسكوكات في دمشق، وتميزت مسكوكاته بأنها أول مسكوكات نبطية يسجل عليها اسم الملك النبطي وصورته، قد نقش على وجه تلك المسكوكات صورة نصفية للملك، وعلى الظهر صورة المعبودة تيكة وهي جالسة على عرش وتمد يدها اليمنى إلى الأمام، وحولها كتابة بالخط اليوناني تتضمن اسم الملك ولقبه (محب الهلينية – محب اليونان)(Philhellenos) (اللوحة رقم ٢١) (النل ١٩٨٣: ٣٦؛ عباس ١٩٨٧: ٤٢؛ قادوس ١٩٩٩: ١٨٧؛ Kammerer 1929:531, Morgan 1979: 256)

وفي عهد الملك عبادة الثاني (٦٢ – ٥٩ق.م) اقتصر التأثير الهلنستي على الصور التي نقشت على المسكوكات من حيث ملامح الوجه، وطريقة تصفيف الشعر، وصورة الصقر البطلمي، ونقش على مسكوكات عبادة الثاني عبارة: (عبادة الملك ملك الأنباط) بالخط النبطي (يوسف ٢٠٠٦: ٢٥؛ M organ 1979: 256)، وكان أول ملك نبطي يسجل اسمه على المسكوكات بالخط النبطي بعد أن كان أسلافه يسجلون أسماءهم بالخط اليوناني أو يرمزون لأسمائهم بحروف بالخط الآرامي. (اللوحة رقم ٢٢)، وهكذا فإن عهده شهد نهاية التأثيرات الثقافية الأجنبية، ولم يعد لها وجود على مسكوكات خلفائه حتى سقوط مملكة الأنباط، وخلفاء عبادة الثاني هم:

الملك مالك الأول (٥٩ – ٣٠ ق.م) ومن مسكوكاته فلس نقش به على الوجه صورة الملك وعلى الظهر راحة يد وعبارة "مالك الملك ملك الأنباط" بالخط النبطي. (يوسف ٢٠٠٦: ٢٦-٢٧)(اللوحة رقم ٢٣)

الملك عبادة الثالث (٣٠ – ٩ ق.م) ومن مسكوكاته فلس نقش به على الوجه صورة الملك وعبارة "عبادة الملك ملك الأنباط، وعلى الظهر صورة الملك والملكة. (يوسف ٢٠٠٦: ٢٧-٢٩) (اللوحة رقم ٢٤)

الملك حارثة الرابع (٩ ق.م – ٤٠م) الذي تلقب بلقب: (محب أمته – شعبه)، ومن مسكوكاته درهم من الفضة نقش على الوجه صورة الملك وحولها عبارة: حارثة ملك الأنباط محب أمته،وعلى الظهر صورة الملكة خلدة (خليدة) وحولها عبارة: الملكة خلدة ملكة الأنباط. (يوسف ٢٠٠٦: ٢٩-٣٢) (اللوحة رقم ٢٥)

الملك مالك الثاني (٤٠ – ٧٠م) ومن مسكوكاته فلس نقش به على الوجه صورة الملك، وعلى الظهر صورة زوجته الملكة شقيلة. (يوسف ٢٠٠٦: ٣٢-٣٣) (اللوحة رقم ٢٦)

الملك رب إل الثاني (٧٠ – ١٠٦م) ومن مسكوكاته درهم من الفضة نقش على الوجه صورة الملك، وعلى الظهر صورة والدته الملكة شقيلة. (اللوحة رقم ٢٧)

(يوسف ٢٠٠٢: ٨٩ – ٩٢ ؛ يوسف ٢٠٠٦: ٣٣-٣٤؛ Yousef 2004:54-64)

٢– مملكة تدمر :

كان للمسكوكات دور مهم في الصراع الذي دار بين الملكة زينب والرومان، وكانت الملكة زينب قد انتهزت فرصة النزاعات الداخلية في روما فأحكمت سيطرها على سورية ثم استولت على مصر سنة ٢٧٠م ووقعت اتفاقًا مع الرومان يقضي بأن يكون حكم مصر مشتركًا بين الرومان ومملكة تدمر، واستمر هذا الاتفاق خلال عهد الإمبراطور كلوديوس وخلفه أورليان (٢٧٠ – ٢٧٥م)، ويتجلى هذا الاتفاق في نقوش المسكوكات التدمرية التي ضربت في الإسكندرية فيما بين سنتي ٢٧٠ و٢٧١م. (علي ١٩٦٩: ٣/١١٥؛ الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ١٩٢-١٩٥)

ومن تلك المسكوكات التي ضربت في الإسكندرية نماذج نقش على وجهها صورة نصفية للملك وهب اللات وكتب حولها عبارة بالخط اليوناني نصها: (أورليوي أورياتيوس سبتيموس وهب اللات أثينادوروس هيباتوس أوتو كراتور استراتيجوس روميون)، ونقش على الظهر

صورة نصفية للإمبراطور الروماني أورليان وكتب حولها عبـارة بـالخط اليونـاني نـصها: (الأتوكراتور الإمبراطور لوكيوس أوليوس سيباستوس). (اللوحة رقم ٢٨) (الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ١٩٧-١٩٨ Morgan 1979: 231)

ومن المسكوكات التدمرية المضروبة في الإسكندرية أيضًا مسكوكة نقش بها على الوجـه صورة الملكة زينب وحولها كتابة بالخط اليوناني (اللوحة رقم ٢٩)، ومن المسكوكات التدمرية المضروبة في الإسكندرية مسكوكة برونزية نقش بها على الوجه صورة نـصفية للإمبراطـور أورليان، والملك وهب اللات تقفان وجهان لوجه، وكتب حولهما بالخط اليوناني عبارة نصها: (أورليانوس واثينادوروس)، ونقش على الظهر إكليل غار في الهـامش، وفي المركـز تـاريخ الضرب وهو السنة الأولى من حكم الإمبراطور أورليان، والسنة الرابعة من حكم الملك وهب اللات (الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ١٩٨)، وانقطع ضرب المسكوكات التدمرية بالإسكندرية بنهاية أغسطس سنة ٢٧١م. (علي ١٩٦٩: ٣/١١٧)

وبينما سجلت الكتابات على المسكوكات التدمرية المضروبة في الإسكندرية بالخط اليوناني فقد سجلت الكتابات على المسكوكات التدمرية المضروبة في أنطاكية وحمص بالخط اللاتيني، ومنها مسكوكة نقش على وجهها صورة نصفية للملكة زينب، وكتب حولها الرمز الخاص بها وهو:

CEПТIMIA. ZHNOBIA. CEB(سبتيموس زنوبيا) أي زنوبيا المعظمة وعلى الظهـر صورة امرأة واقفة ربما ترمز لإحدى المعبودات سجل تحت ذراعها الأيمـن الحرفـان: L.E، وتحمل بيدها اليسرى سنبلتين رمز الوفرة والرخاء. (اللوحة رقم ٣٠) (Morgan 1979: 230, Hoyland 2001: 76)

ومن المسكوكات التدمرية المضروبة في أنطاكية مسكوكة فضية نقش بها على الوجه صورة نصفية للإمبراطور أورليان، وعلى الظهر صورة نصفية للملك وهب اللات وحوله كتابة بالخط اللاتيني تتضمن ألقابه، ومنها لقب الإمبراطور Imperator مما جعله في منزلـة واحـدة مـع الإمبراطور أورليان. (الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ١٩٩)

وفي الفترة الأخيرة من حكم الملك وهب اللات ضـربت مـسكوكات في كـل مـن: الإسكندرية، وأنطاكية، وحمص نقش عليها صورة الملك وهب اللات مع لقـبي (الإمبراطـور

والأوغست)، وصورة الملكة زينب مع لقبي (الأوغستا والمعظمة)، ومن هـذه المسكوكات مسكوكة ضربت في حمص نقش على وجهها صورة نصفية للملكة زينب وهي ترتدي اللباس العسكري والخوذة وكتب حولها عبارة بالخط اللاتيني نصها: (سبتيميا زنوبيا أوغستا) أما ظهر المسكوكة فمطموس، والمسكوكة محفوظة في متحف تدمر (رقم ٩١١٤ لعام ١٩٩١م). (الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ١٩٩)

ورغم تأثر مملكة تدمر بالثقافة الأجنبية نظرًا لاحتكاكها المستمر مع الرومان إلا أن حضارة مملكة تدمر كانت حضارة عربية خالصة، ويكفي أن نقف عند شهادة المؤرخ الفرنسي فـولني الذي زار تدمر في القرن الثامن عشر الميلادي وقال عنها: (يجب أن نعترف ويصدق أن كل ما خلفه اليونان والرومان ليس شيئًا أمام عظمة تدمر). (الأسعد وهانسن ٢٠٠٦: ٢٢٣)

٣- مملكة الحضر:

ضربت مملكة الحضر نوعين من المسكوكات الأول ضرب من النحاس، نقش على وجـه المسكوكات رأس المعبود شمش بوضع جانبي متجه إلى اليمين، تحيط به كتابات بالآرامية نصها: "حطر دي شمس" أي الحضر مدينة الشمس أو مدينة المعبود شمش، وعلى الظهر صورة نسر ناشر جناحيه، أما النوع الثاني من مسكوكات مملكة الحضر فقد نقش على وجهها رأس المعبود شمش، وعلى الظهر نسر واقف على غصن مورق وهو ناشرٌ جناحيه (دفتـر ١٩٩٨: ١٥-١٦)، وتمثل مسكوكات مملكة الحضر غلبة الثقافة الآرامية التي انتشرت في بلاد الشرق الأدنى القديم منذ القرن السابع قبل الميلاد.

٤- مملكة الرها:

ومن ملوك الرها الذين ضربوا المسكوكات:

١ - الملك وائل شهرو (١٦٣ - ١٦٥م)، نقش على وجه مسكوكاته صـورة نـصفية للملك، وكتب حولها بالخط الآرامي عبارة: الملك وائل، ويحف بالصورة والعبارة غصنا زيتون، وأما على الظهر فقد نقشت صورة لمعبد (إل) في الرها وكتب حولها بالخط الآرامي اسم المعبود (إل)، ويحف بصورة المعبد غصنا زيتون. (اللوحة رقم ٣١) (Morgan 1979: 235)

٢ – الملك أبجر الثامن (١٦٥ – ١٦٧م)، وضرب في عهده نوعان من المسكوكات الأول سجلت كتاباته بالخط الآرامي، نقش على الوجه صورة نصفية للملك أبجر، وعلى الظهر عبارة: الملك أبجر (اللوحة رقم ٣٢) (Morgan 1979: 235)، أما النوع الثاني فنقش على الوجه صورة نصفية للملك أبجر، وحوله اسمه بالخط اليوناني ، وعلى الظهر صورة نصفية للملك معنو (معن) الثامن، واسمه بالخط اليوناني. (اللوحة رقم ٣٢) (Morgan 1979: 235)، ومن الغريب أن يسجل اسما الملكين أبجر الثامن، ومعنو الثامن على هذا النوع من المسكوكات، والجدير بالذكر أن معنو الثامن تولى الحكم لفترتين الأولى كانت ما بين سنتي ١٣٩ – ١٦٣م أي قبل حكم الملك أبجر الثامن، ولا تعرف له مسكوكات تعود إلى تلك الفترة، ومسكوكاته المعروفة تعود لفترة حكمه الثانية الممتدة ما بين سنتي ١٦٧ – ١٧٩م.

٣ – الملك معنو (معن) الثامن (١٣٩ – ١٦٣م؛ ١٦٧ – ١٧٩م) ، ضرب نوعين من المسكوكات سجلت الكتابات على النوع الأول بالخط الآرامي، ونقش على الوجه صورة نصفية للملك، وعلى الظهر عبارة: الملك معنو (اللوحة رقم ٣٣) (Morgan 1979: 237)، وسجلت الكتابات على النوع الثاني بالخط اليوناني، ونقش على الوجه صورة نصفية للملك وحولها اسمه بالخط اليوناني. (اللوحة رقم ٣٣) (Morgan 1979: 236)

٤ – الملك أبجر التاسع (٢١٤ – ٢١٦م)، في عهده طغت الثقافة الإغريقية على مملكة الرها، وسجلت الكتابات على المسكوكات بالخط اليوناني فقط واختفى الخط الآرامي، ومن أمثلة ذلك مسكوكة سجل عليها اسم الرها كما يلي: M.A.K. AVP EDECC (اللوحة رقم ٣٤).

(Morgan 1979: 237)

تبرز مسكوكات مملكة الرها الصراع الحضاري بين الثقافة الإغريقية التي يمثلها انتشار الخط اليوناني، والثقافة العربية التي يمثلها استخدام الخط الآرامي، فقد غلبت الثقافة العربية على مسكوكات مملكة الرها خلال عهد الملك وائل شهرو (١٦٣ – ١٦٥م)، ثم بدأت الثقافة الإغريقية تغزو مملكة الرها منذ عهد الملك أبجر الثامن (١٦٥ – ١٦٧م)، فظهر الخط اليوناني جنبًا إلى جنب مع الخط الآرامي، واستمر الحال كذلك خلال عهد الملك معنو (معن) الثامن

(١٣٩ – ١٦٣م ؛ ١٦٧ – ١٧٩م)، وتغلبت الثقافة الإغريقية تمامًا في عهد الملك أبجر التاسع وتجلى ذلك في انتشار الخط اليوناني وانحسار الكتابة بالخط الآرامي (٢١٤ – ٢١٦م).

وبالرغم من أن اللغة الآرامية أضحت هي اللغة الدبلوماسية واللغة الدولية عوضًا عن الأكدية منذ نهاية القرن السابع قبل الميلاد(سومر ٢٠٠٧: ١١٢) إلا أن غزو الإسكندر للشرق (أدخل اللغة اليونانية كلغة رسمية عوضًا عن الآرامية، وبعد موته سنة ٣٢٣ ق.م ظلت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية لخلفائه "السلوقيون في سورية، والبطالمة في مصر"، أما اللغة الآرامية التي انحطت عن مرتبتها الرفيعة، ونتج عن احتكاك الآرامية باليونانية أن تلقت عددًا غير يسير من الكلمات اليونانية). (سومر ٢٠٠٧: ١٢٣ – ١٢٤)

لكن الخط اليوناني تأثر بالخط الآرامي وأخذ منه أشكال الحروف وترتيبها، ويشرح ذلك روفائيل بابو إسحق بقوله: (إن أقدم الأقلام الآرامية ذكرًا قلم أهل الجهات الشرقية من أقطار بابل وهو قلم مقطع الحروف مربعها على الأغلب قد تعلمه اليهود الذين جلاهم بختنصر "٦٠٤ – ٦١٥ ق.م" من سكان بابل وحفظوه إلى يومنا ويسمي الآن الخط الآشوري المربع. وتعلم هذا الخط نفسه أو أصله اليونان. ومما يؤيد ذلك أن حروف اللغة اليونانية مرتبة ترتيب الحروف الآرامية أصلاً وإن أسماءها في كليهما واحدة إلا أنهم وضعوا في أواخرها ألف الإطلاق وغيروا بعضها تغييرًا يسيرًا فضلاً عن أن صور الحروف اليونانية في أوائلها تشبه كثيرًا الحروف الآرامية القديمة). (إسحق ٢٠٠٧: ٢٠)

ثالثًا – مسكوكات ممالك شرق الجزيرة العربية:

١– مملكة ميسان

من الملوك الميسانيين الذين ضربوا المسكوكات:

الملك هايسباوسنيس (١٢٥–١٢٤ ق.م): نقش على مسكوكاته في الوجه صورته، أما على الظهر فقد نقش صورة المعبود هرقل جالسًا على العرش وبيده اليمنى يمسك صولجان وحوله كتابات بالخط اليوناني (Morgan 1979: 214) (اللوحة رقم ٣٥)، واستمر الخط اليوناني على المسكوكات الميسانية في عهد كل من: الملك تيرايوس الأول (٩٥ – ٨٨ ق.م)، والملك تيرايوس الثاني (٦١–٥٢ ق.م).

وفي عهد الملك أتامبيلوس الأول (عطا الله – تيم بعـل) (٤٧ – ٢٧ ق.م): سـجلت الكتابة على المسكوكات الميسانية بالخط الآرامي بدلاً من اليوناني. (الحسيني ١٩٨٦: ٣١–٣٢).

لكن الخط اليوناني عاد مرة أخرى منذ عهد الملك ثيو نيسيوس الأول (٤٠ – ٣٩ ق.م)، وظلت المسكوكات الميسانية تضرب على هذا المنوال طوال عهد خلفاء الملك ثيو نيـسيوس الأول.

ومنذ عهد الملك ابينيرجاوس "ابنيرجلوس" (١٦٥ – ١٨٠م) اختفى الخط اليوناني مـن المسكوكات الميسانية وصارت الكتابات تسجل بالخط الآرامي فقط، واستمر الحال كذلك في عهد الملك ماجا (١٩٥ – ٢١٠م) الذي ضربت في عهده أغلـب المـسكوكات الميـسانية المكتشفة إلى الآن (Morgan 1979: 224-225) (اللوحة رقم ٣٦).

وكان يوجد في المتحف العراقي ببغداد نحو أربعمائة مسكوكة ضربت في عهد تسعة مـن ملوك مملكة ميسان، لكنها غيبت ضمن محتويات المتحف العراقي على يد قوات الحملة الصليبية الصهيونية على العراق في أبريل ٢٠٠٣م. (يوسف ٢٠٠٧: ١٨–١٩)

كانت مملكة ميسان على العكس من مملكة الرها فقد عكست مسكوكاتها المبكرة مـدى تغلغل الثقافة الإغريقية ممثلة في نقش صور المعبود الإغريقي هرقل، وتسجيل الكتابات بالخط اليوناني منذ عهد الملك هايسباوسنيس (١٢٥–١٢٤ ق.م)، وإذا كانت مسكوكات الملـك أتامبيلوس الأول (٤٧ – ٢٧ ق.م) قد أشارت إلى انحسار الغزو الثقافي الإغريقي فإن الثقافة الإغريقية ما لبثت أن استعادت سيطرتها على مملكة ميسان في عهد الملك ثيو نيـسيوس الأول (٤٠ – ٣٩ ق.م)، إلا أن الملك ابينيرجاوس "ابنيرجلوس" (١٦٥ – ١٨٠م) وخلفائه نجحوا في التصدي للغزو الثقافي الإغريقي ويؤكد ذلك استخدام الخط الآرامي علـى المـسكوكات الميسانية حتى انتهاء عصر المملكة.

٢ – مسكوكات مدن شرق الجزيرة العربية

أ – عُمانا (الدور): يقع ميناء عمانا (الدور) في إمارة أم القيوين بدولة الإمارات العربيـة المتحدة، ونقش على المسكوكات التي ضربت بعُمانا (الدور) حروف بخط المـسند بـالخطوط

التالية: المسند، والآرامي، واليوناني، واللاتيني ومن المسكوكات التي ضربت في عمانا (الدور) مسكوكة نقش على وجهها رأس المعبود هرقل، وعلى ظهرها المعبود زيوس جالسًا على عرشه ويسند على ذراعه اليمنى الممتدة حصانًا بينما تلتف يده اليسرى حول صولجان وأمامه نخلة وحرفي H E (اللوحة رقم ٣٧). (القيسي ١٩٧٥: ١٢١-١٢٤؛ بوتس ١٩٩٨: ٣٦-١٣٧؛ بن صراي ٢٠٠٠: ٤١-٤٢).

ب – مليحة: عثر بها على مسكوكات ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد نقش عليها اسم (أب إل) بالخط الآرامي، ويعتقد أن أب إل اسم ملك من ملوك مدن شرق الجزيرة العربية، أو أنه الاسم المحلي للمعبود هرقل الذي نقشت صورته على المسكوكات المضروبة في شرق الجزيرة العربية. (بن صراي ٢٠٠٢: ١١٣-١١٤)، وربما تكون تعويذة مثل (ود أب) التي سجلت على العديد من مباني مدينة نجران القديمة (الأخدود). (يوسف ٢٠٠٧: ١٢)

ج – ثاج: عثر بها على العديد من المسكوكات التي ضربت على النمط الشائع في شرق الجزيرة العربية كما عثر بها على مسكوكات نقش عليها اسم (أب إل) بخط المسند(Potts1990: 63)، وكانت ثاج من مراكز ضرب المسكوكات إذ وجد بها قالب سك من الطين قطره حوالي ٢ سم نقش عليه صورة شخص جالس على عرشه وبيده صولجان وبجواره نسر (بوتس ١٩٩٨: ١٨).

د – كنزان: عثر بها على مسكوكات نقش عليها اسم (أب إل) ، واسم المعبود (سن)، واسم المعبود (شمس)، وقد كتبت بخط المسند. (Potts 1990: 66)

هـ– البحرين (تايلوس): بعد وفاة الإسكندر الأكبر أصدر خلفائه مسكوكات تم تداولها في البحرين وغيرها من مدن شرق الجزيرة العربية، ومن أمثلتها: مسكوكة فضية نقش على وجهها صورة المعبود زيوس جالسًا على العرش ويحمل في يده اليمنى صولجان، ونقش على الظهر صورة أسد.

وفي سنة ١٩٧٠م عثرت البعثة الدانماركية على كنز من المسكوكات في قلعة البحرين منها مسكوكات نقش عليها اسم المعبود (شمس) بخط المسند، بينما نقش على مسكوكات أخرى حرف الشين الحرف الأول من اسم المعبود (شمس) بخط المسند. Potts1990: 63, (Callot 1999: 203)

كما عثرت البعثة نفسها على مسكوكات نقش عليها اسم (أب إل) بخط المسند، وأرجع مارخولوم Morklolm تاريخ هذه المسكوكات إلى ما بين سنتي ٢٤٥ – ٢٤١ ق.م، بينما يرى روبين Robin أنها تعود إلى الفترة ما بين سنتي ١٥٠ – ١٤٠ ق.م. (Potts 1990: 63)

و – فيلكا (إيكاروس): عثرت البعثة الدانمركية التي قامت بالتنقيب في فيلكا سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م على ثلاثة عشر قطعة مسكوكة منها مسكوكة برونزية نقش على وجهها صورة الملك السلوقي أنطيوخوس الثاني وعلى الظهر معبودة النصر (تيكة – فورتونا) واقفة في قارب على شكل بطة (جمال ١٩٩٩: ١٨)، كما عثرت البعثة على مسكوكة فضية ترجع لعهد الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث(٢٢٣– ١٨٧ ق.م)نقش على وجهها صورة الملك أنطيوخوس وعلى الظهر المعبود أبوللو حامي الأسرة السلوقية جالسًا على عرشه وبيده اليمنى سهم وأمام المعبود أبوللو نقش اسم الملك أنطيوخوس وخلفه نقش ختم الضارب بالخط اليوناني (اللوحة رقم ٣٨)، (زبال ١٩٨٤: ٧–٨؛ الشتلة ١٩٨٧: ٤٥؛ Carrdice: 51)

وفي سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م عثرت البعثة الفرنسية على العديد من المسكوكات في فيلكا ومنها: مسكوكة فضية نقش على وجهها صورة الإسكندر الأكبر وعلى الظهر المعبود زيوس جالسًا على عرشه ويسند على ذراعه اليمنى الممتدة طائر بينما تلتف يده اليسرى حول صولجان (اللوحة رقم ٣٩)، ومسكوكة فضية نقش على وجهها صورة سلوقس الأول وعلى الظهر المعبود زيوس جالسًا على عرشه ويسند على ذراعه اليمنى الممتدة طائر بينما تلتف يده اليسرى حول صولجان. (جمال ١٩٩٩: ١٨)

تمثل المسكوكات المضروبة في مدن شرق الجزيرة العربية التمازج بين ثقافة ممالك جنوب الجنوب الجزيرة العربية وشمالها وذلك من خلال استخدام الخطين المسند والآرامي، بالرغم من طغيان الثقافة الأجنبية التي فرضتها السيطرة الإغريقية ثم السلوقية على أجزاء واسعة من شرق الجزيرة العربية، التي تظهر في المسكوكات التي ضربها الملوك السلوقيين في المنطقة، والسيطرة السياسية والاقتصادية الكاملة على المنطقة.

خاتمة:

١ – انحصر التأثير الثقافي الأجنبي على المسكوكات المبكرة لممالك جنوب الجزيرة العربية في استخدام الخط اليوناني الذي تمثل في الشعار الإغريقي الدال على القيمة النقدية

للمسكوكات AOE ، ونقش صورة المعبودة الإغريقية أثينا، ونقش صورة البومة الواقفة على قارورة.

٢ – نظرًا للتنافس التجاري بين مملكة سبأ والإمبراطورية الرومانية فقد ضربت مملكة سبأ طرازًا من المسكوكات على نمط المسكوكات الرومانية، وهو الطراز الذي عرف باسم مسكوكات أغسطس، وسجلت الكتابات على هذه المسكوكات بخط المسند.

٣ – اقتصر التأثير الثقافي الأجنبي على مسكوكات مملكتا حضرموت وحمير على تأثر المسكوكات الحضرمية بنقش الشعر الإغريقي الدال على القيمة النقدية بالخط اليوناني، وتأثر المسكوكات الحميرية بالمسكوكات الرومانية التي ضربت في عهد الإمبراطور أغسطس، وتأثرت بها أيضًا المسكوكات السبئية.

٤ – تجلت غلبة الثقافة العربية وتبادلها بين ممالك جنوب الجزيرة العربية وشمالها في قيام الممالك الجنوبية (قتبان، وسبأ) بإصدار مسكوكات نقش عليها كتابات بالخطين اللحياني والآرامي، وهما المستخدمان في شمال الجزيرة العربية.

٥ – صار الملك النبطي حارثة الثالث بمثابة حامي الثقافة الإغريقية بعد أن ضم دمشق إلى حكمه سنة ٨٥ ق.م، فلم يسجل على مسكوكاته إلا الخط اليوناني، ونقش عليها لقبه (محب الهلينية – محب اليونان)، لكن خليفته الملك عبادة الثاني كان أول ملك نبطي يستخدم الخط النبطي على المسكوكات، وبذلك وضع حدًا لانتشار الثقافة الهلينية في مملكة الأنباط التي لم تستخدم على مسكوكاتها إلا الخط النبطي منذ عهده وحتى سقوطها على أيدي الرومان سنة ١٠٦م.

٦ – بدأت مملكة الرها تضرب مسكوكاتها بعيدًا عن التأثيرات الثقافية الأجنبية لكنها ما لبثت أن دخلت تحت السيطرة الثقافية الأجنبية بعد أن تخلت عن الخط الآرامي لصالح الخط اليوناني، أما مسكوكات مملكة ميسان المبكرة فقد أظهرت أن المملكة كانت واقعة تحت التأثير الثقافي الأجنبي باستخدام الخط اليوناني لكنها ومنذ عهد الملك ابنيرجاوس (١٦٥ – ١٨٠م) تخلصت من التأثيرات الثقافية الأجنبية وصارت مسكوكاتها عربية الطابع تسجل كتابتها بالخط

الآرامي حتى عهد الملك ماجا (١٩٥ – ٢١٠م)، وهو آخر ملك وصلتنا مسكوكاته حتى الآن.

٧ – لم تتأثر مسكوكات مملكتا الحضر وكندة بأية تأثيرات أجنبية فقد غلب على مسكوكات مملكة الحضر استخدام الخط الآرامي، بينما غلب على مسكوكات مملكة كندة استخدام خط المسند.

٨ – وقعت مسكوكات مملكة تدمر تمامًا تحت مظلة الثقافية الأجنبية ويبدو ذلك من خلال استخدام الخط اليوناني على مسكوكتها المضروبة في الإسكندرية، والخط اللاتيني على مسكوكاها المضروبة في أنطاكية وحمص، إلا أن حضارة مملكة تدمر كانت حضارة عربية خالصة، ويكفي أن نقف عند شهادة المؤرخ الفرنسي فولني الذي زار تدمر في القرن الثامن عشر الميلادي وقال عنها: (يجب أن نعترف ونصدق أن كل ما خلفه اليونان والرومان ليس شيئًا أمام عظمة تدمر).

٩ – مزجت مسكوكات ممالك المدن في شرق الجزيرة العربية بين الثقافة العربية، والثقافة الإغريقية، فظهر على مسكوكاها الخط اليوناني، والخط اللاتيني إلى جانب خط المسند، والخط الآرامي، كما نقش عليها صور المعبودات الإغريقية، والسلوقية إلى جانب المعبودات العربية.

١٠ – إذا كان غزو الإسكندر قد أدخل للشرق اللغة اليونانية وفرضها لغة رسمية بدلاً من الآرامية، فإن الخط اليوناني تأثر بالخط الآرامي وأخذ منه أشكال الحروف وترتيبها.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

إسحق، روفائيل ٢٠٠٧ الآراميون لسانهم وأقلامهم ص ص ٧ – ٢٢ (الآراميون، دار الوراق للنشر المحدودة، بغداد)

الأسعد، خالد؛ و فيين.أوفه ويدبرغ – هانسن ٢٠٠٦ زنوبيا ملكة تدمر والشرق. (الطبعة الأولى، دمشق)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب ١٩٧٩ أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها. ص ص ٣ – ١١ (الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م – مصادر تاريخ الجزيرة العربية – كلية الآداب – جامعة (الرياض) الملك سعود – الكتاب الأول – الجزء الأول مطابع جامعة (الرياض) الملك سعود)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب ١٩٨٢ قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية. (جامعة الرياض)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب ١٩٨٤ أثر الفنون العربية قبل الإسلام في الفن الإسلامي. ص ص ٣٩ – ٤٨ (المجلة العربية للثقافة – السنة الرابعة – العدد السابع – ذوالحجة ١٤٠٤هـ/سبتمبر ١٩٨٤م – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب وآخرون ٢٠٠١ الدليل الموجز لأشهر المواقع الأثرية وفنون الوطن العربي. (الإصدار الأول – لمحات من تاريخ الجزيرة العربية القديم من خلال الاكتشافات الأثرية – جمعية الآثاريين العرب – القاهرة)

البكر، منذر عبدالكريم ١٩٨٠ دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام – تاريخ الدول الجنوبية في اليمن. (جامعة البصرة)

بوتس، دانيال ١٩٩٨ مسكوكات ما قبل الإسلام في شرق الجزيرة العربية. (ترجمة صباح عبود جاسم – دائرة الثقافة والإعلام – الشارقة – الطبعة الأولى)

التل، صفوان خلف ١٩٨٣ تطور المسكوكات في الأردن عبر التاريخ. (البنك المركـزي الأردني – عمان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)

الحوالي، محمد علي الأكوع ١٩٧١ اليمن الخضراء مهد الحضارة. (الطبعة الأولى، القاهرة)

دفتر، ناهض عبدالرزاق ١٩٩٨ المسكوكات وكتابة التاريخ. (الطبعة الأولى – بغداد)

الرواحنة، مسلم ٢٠٠٢ عهد الحارث الرابع دراسة في مجموعة خاصة من المسكوكات النبطية. (مشروع بيت الأنباط للتأليف والنشر "١" البتراء – الأردن)

سارة، خليل ٢٠٠٧ العولمة في العصر الهللينستي، عصر الإسكندر وما بعده ص ص ٣٨ – ٥١. (المعرفة، العدد ٥٢١، السنة ٤٥، محرم ١٤٢٨هـ – شباط ٢٠٠٧م، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية)

سومر، دوبونت ٢٠٠٧ الآراميون (ترجمة البير أبونا، دار الوراق للنشر المحدودة، بغداد)

بن صراي، حمد محمد ٢٠٠٠ موقع ميناء عمانا ودوره الحضاري والاقتصادي في منطقة الخليج العربي. ص ص ٣٣ – ٥٨ (أدوماتو – العدد الثاني – ربيع الثاني ١٤٢١هـ/يوليو ٢٠٠٠م)

بن صراي، حمد محمد ٢٠٠٢ أسماء الأعلام الواردة على العملات المكتشفة في شرقي الجزيرة العربية ص ص ١٠٩ – ١٢٥ (اللقاء العلمي لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، مسقط، محرم – صفر ١٤٢٢هـ/أبريل ٢٠٠١م)

عباسٌ، إحسان ١٩٨٧ تاريخ دولة الأنباط. (الطبعة الأولى – عمان)

عبدالعليم، مصطفى كمال ١٩٨٦ الايتوريون عرب لبنان القدماء ص ص ٧ – ٢٠. (العصور، المجلد الأول، الجزء الأول، جمادى الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

عفيف، أحمد جابر وآخرون ١٩٩٢ الموسوعة اليمنية. (الطبعة الأولى – بيروت)

علي، جواد ١٩٦٩ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. (الطبعة الأولى – بيروت)

قادوس، عزت زكي حامد ١٩٩٩ العملات اليونانية والهللنستية. (الطبعة الأولى – الإسكندرية)

القيسي، ربيع ١٩٧٥ تحريات وتنقيبات أثرية في دولة الأمارات العربية المتحدة ص ص ٧٥ – ١٥٥ (سومر، المجلد الحادي والثلاثون، الجزء الأول والثاني، وزارة الإعلام، بغداد)

مقداد، خليل ٢٠٠٤ بصرى عاصمة الأنباط. (الطبعة الأولى، دمشق)

النعيم، نورة عبدالله علي ٢٠٠٠ التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير. (مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض)

هاي، ستورات منرو ١٩٩٦ عملات شبوة وعملات متحف عدن الوطني. ص ص ١٦٠ – ١٦٦ (شبوة عاصمة حضرموت القديمة – نتائج أعمال البعثة الفرنسية اليمنية – المركز الفرنسي للدراسات اليمنية بصنعاء – الطبعة الأولى صنعاء)

يحيى، لطفي عبدالوهاب ١٩٧٩ العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام (دار النهضة العربية، بيروت).

يوسف، فرج الله أحمد ٢٠٠٢ مسكوكات ممالك الجزيرة العربية قبل الإسلام. ص ص ٧٣ – ١٠٢ (أدوماتو، العدد الخامس ذو القعدة ١٤٢٣هـ/يناير ٢٠٠٢م)

يوسف، فرج الله أحمد ٢٠٠٦ مسكوكات مملكة الأنباط. (الطبعة الأولى، دار القوافل للنشر والتوزيع، الرياض)

يوسف، فرج الله أحمد ٢٠٠٧ مسكوكات من شرقي الجزيرة العربية قبل الإسلام. ص ص ٧ – ٥٣ (العصور، المجلد السابع عشر، الجزء الأول ذو الحجة ١٤٢٧هـ/يناير ٢٠٠٧م)

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

Dembski,G. 1987. The Coins of Arabia Felix. PP.125-28 (Yemen 3000 Years of Art and Civilization in Arabia Felix at the Staatiliches Museum fur Volkerkund Munchen 29 April 1987 to April 1988)

Hay, S.M. 2003. Coinge of Arabia Felix. The pre-Islamic Coinage of the Yemen. (Mare Erythraeum, VI, Milano)

Hill,G.F. 1922. Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia. (London)

Holand, R.G. 2001 Arabia and Arabs from the Bronze Age to the Coming of Islam (London & New York)

Kammerer, A 1929. Petra et La Nabatene. (Paris)

Morgan, J 1979. Manual de Numismatique Orientale L'antiquite et du Moyen Age. (Chicago)

Pirenne,J. 1988. The Cronology of Ancient South Arabia Diversity of Opinion. PP.116-22 (Yemen 3000 Years of Art and Civilization in Arabia Felix at the Staatiliches Museum fur Volkerkund Munchen 29 April 1987 to April 1988)

Potts, T 1990. The Arabian Gulf in Antiquity, Vol. II from Alexander the Grate to the Coming of Islam.(Oxford)

Sedov,A.V. 2001. The Coins of Pre-Islamic Yemen: General Remarks.PP.28-38 (Adumatu – issue No.3 Jan 2001)

Walker, J. 1937. A New Type of South Arabian Coinge PP. 260-79 (Numismatic Chronicle 17, 5th ser.)

Yousef, F.A. 2004. Coinage of Nabataeans.PP. 51- 70 (Adumatu, Issue No. 10)



نموذج من المسكوكات الإغريقية التي تأثرت بها المسكوكات القتبانية المبكرة



اللوحة رقم ٣









مسكوكتان قتبانيتان من ضرب أوائل القرن الثاني ق.م

اللوحة رقم ٣





مسكوكة قتبانية نقش عليها مكان الضرب (حريب)



اللوحة رقم ٤





نموذج من المسكوكات السبئية التي ضربت فيما بين سنتي ٧٠ ـ ٤٠ ق.م

اللوحة رقم ٥




نموذج من المسكوكات السبئية التي ضربت فيما بين سنتي ٤٠ - ٢٤ ق.م، وسجل عليها كتابات بالخطين الآرامي واللحياني



اللوحة رقم ٦




نموذج من المسكوكات السبئية المتأثرة بالمسكوكات الرومانية

اللوحة رقم ٧









مسكوكات سبئية يعتقد أنها ضربت في شبوة عاصمة مملكة حضرموت



اللوحة رقم ٨





نموذج من المسكوكات الحضرمية التي ضربت سنة ٣٥٠ ق.م

اللوحة رقم ٩





رسم تخطيطي لمسكوكة حضرمية (هاي ١٩٩٦: ١٦٢)

اللوحة رقم ١٠





رسم تخطيطي لمسكوكة حضرمية (هاي ١٩٩٦: ١٦٢)

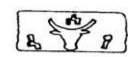
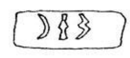
اللوحة رقم ١١




نموذج من المسكوكات التي ضربها الملك الحضرمي يشهر إل يهرعش في مطلع القرن الأول الميلادي



اللوحة رقم ١٢

رسم تخطيطي لمسكوكة ضربت في عهد الملك الحضرمي يشهر إل يهرعش في مطلع القرن الأول الميلادي (عاي ١٩٩٦ : ١٦٥)

اللوحة رقم ١٣





مسكوكة حميرية من نوع ذات الراسين نقش عليها مكان الضرب (يمنة)



اللوحة رقم ١٤





رسم تخطيطي لمسكوكة حميرية من نوع ذات الراسين نقش عليها مكان الضرب

(حريب) (هاي ١٩٩٦، ١٦٥)

اللوحة رقم ١٥





مسكوكة حميرية من نوع ذات الرأسين



اللوحة رقم ١٦





رسم تخطيطي لمسكوكة سجل عليها اسم الملك كرب إل يهنعم
(هاي ١٩٩٦ : ١٦٥)

اللوحة رقم ١٧





مسكوكة من نوع ذات الرأسين سجل عليها اسم الملك عمدان بن يهقبض
(القرن الأول الميلادي)

اللوحة رقم ١٨





رسم تخطيطي لمسكوكة سجل عليها اسم الملك شمر يهنعم
(هاي ١٩٩٦: ١٦٥)

اللوحة رقم ١٩





رسم تخطيطي لمسكوكة سجل عليها اسم الملك ذارن يعب يهنعم
(هاي ١٩٩٦ : ٦٥)

اللوحة رقم ٢٠





نموذج من مسكوكات مملكة كندة
(الأنصاري ١٩٨٢ : ١٢٥)

اللوحة رقم ٣١



رسم تخطيطي لفلس من عهد الملك حارثة الثالث نقشت عليه كتابة بالخط اليوناني

([illegible])



اللوحة رقم ٣٢



رسم تخطيطي لفلس من عهد الملك عبادة الثاني نقشت عليها كتابة بالخط النبطي

([illegible])

اللوحة رقم ٣٢



فلس من النحاس للملك مالك الأول نقش عليه عبارة:
"مالك الملك ملك الأنباط" بالخط النبطي

اللوحة رقم ٩٤



رسم تخطيطي لفلس من عهد الملك عبادة الثالث
(Meshorer 1975: 23)

اللوحة رقم ٣٥



رسم تخطيطي لكتابات درهم من عهد الملك حارثة الرابع نقش عليه كتابة بالخط النبطي على الوجه نصها: "حارثة ملك الأنباط محب أمته"، وعلى الظهر عبارة نصها: "الملكة خلدة ملكة الأنباط"

([illegible])



اللوحة رقم ٣٦





فلس للملك مالك الثاني

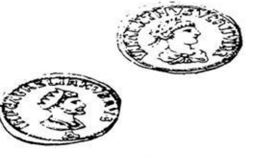
اللوحة رقم ٢٧




درهم للملك رب إل الثاني ووالدته الملكة شقيلة



اللوحة رقم ٢٨



رسم تخطيطي لمسكوكة تدمرية ضربت بالإسكندرية، ونقش عليها صورة كل
من: الملك وهب اللات، والإمبراطور الروماني أورليان
([illegible])

اللوحة رقم ٢٩



وجه درهم ضرب بالإسكندرية عليه صورة الملكة زنوبيا وحولها كتابة بالخط اليوناني

اللوحة رقم ٣٠



رسم تخطيطي لمسكوكة تدمرية تظهر على وجهها صورة الملكة زنوبيا ، ونقش على الظهر صورة إحدى المعبودات

(Browning 1979: 240)

اللوحة رقم ٣١



رسم تخطيطي لمسكوكة ضربت في عهد الملك وائل شهرو

(Morgan 1979: 233)

اللوحة رقم ٣٢





رسم تخطيطي لمسكوكتين ضربتا في عهد الملك أبجر الثامن سجلت الكتابات

على الأولى بالخط الآرامي، وعلى الثانية بالخط اليوناني

(Morgan 1990: 253)



اللوحة رقم ٣٣





رسم تخطيطي لسكوكتين ضربتا في عهد الملك معن الثامن سجلت الكتابات على الأولى بالخط الآرامي، وعلى الثانية بالخط اليوناني

(Morgan 1979: 286: 7)

اللوحة رقم ٣٤



رسم تخطيطي لسكوكة ضربت في عهد الملك أبجر التاسع وسجل عليها مكان الضرب "الرها" بالخط اليوناني

(Morgan 1979: 237)



اللوحة رقم ٣٥





رسم تخطيطي لمسكوكة ضربت في عهد الملك هايسباوسنيس وسجلت عليها الكتابات بالخط اليوناني

(Georges 1978, 214)

اللوحة رقم ٣٦



رسم تخطيطي لمسكوكة ضربت في عهد الملك ايبتيرجاوس وسجلت عليها الكتابات بالخط الآرامي

(Georges 1978, 224)


اللوحة رقم ٣



مسكوكة عمريتية في حماة (الجوز)

اللوحة رقم (٤)



مسكوكة عثر عليها في فيلكا

اللوحة رقم (٣)





دراخما للملك السلوقي أنطيوخس الثالث عشر عليها فيلكها



د. خالد حسين محمود (*)

جوانب من التسامح وقضايا العيش المشترك بين اليهود والمسلمين فى المغرب الأدنى خلال عصري الفاطميين وبني زيري

٢٩٦-٥٥٧هـ / ٩٠٨- ١١٦١م

لا تعوزنا القرائن الدالة على انطواء الشرع الاسلامى - ذي الأبعاد العالمية- على مبادئ قويمة للتعايش السلمى وإنماء العلاقات الودية بين جميع الشعوب على اختلاف الانتماءات الدينية والمذهبية والعرقية والطائفية،تعزيزاً للعمل الجماعي المشترك لما فيه الخير والسعادة للإنسانية،تلك المبادئ التى ربى عليها الإسلام أتباعه أول الأمر بشكل نظري،ثم ما لبث أن جرى تطبيقها واقعياً بعد حركة الفتوحات الإسلامية وانضواء شعوب الأراضي المفتوحة تحت لواء الحكم الاسلامى،فأُعطىَ بموجبها غيرُ المسلمين عهود الأمان داخل دار الإسلام،عاشوا بمقتضاها تحت مظلة الحكم كرعايا ومواطنين يسرى عليهم ما يسرى على المسلمين من التمتع بالحقوق والالتزام بالواجبات دون تفرقة أو تمييز،باستثناء ما تستوجبه أمور العقيدة الإسلامية أو يحتمه أمن الدولة المسلمة[1].

*مدرس التاريخ الاسلامى- كلية الآداب- جامعة عين شمس

هكذا،ظل العالم الاسلامى خلال معظم عصوره يشكل أنموذجاً للتسامح والتعايش[٢] بين المسلمين واليهود وغيرهم من الطوائف التي وفدت من مختلف الأصقاع،لتنصهر ضمن وحدة اجتماعية تميزت بخصائص حضارية مشتركة وانسجام اجتماعي ملحوظ،رغم ما كان يظهر أحيانا من نعرات التعصب والتحيز،إلا أنها ظلت فى التحليل الأخير استثناءات ونتوءات في هذا التاريخ[٣].

لم تشذ بلاد المغرب الأدنى خلال العصرين الفاطمى والزيري عن تلك القاعدة،حيث عاش فيها اليهود مع غيرهم من المسلمين حياة التمازج والتداخل والتلاقي بشكل لافت للانتباه،والتى اكتسبوا من خلالها وضعية أهل الذمة التى أطرت سلوك المسلمين تجاههم،ذلك السلوك القائم على الاحترام وعدم الاعتداء والتعامل بالمعروف وعدم التدخل فى شئون اليهود الداخلية دينية أو قضائية أو وقفية،وهو ما تسعى تلك الدراسة إلى كشفه وتبيانه،من خلال رصد بعض مظاهر التعايش السلمى بين اليهود والمسلمين فى المغرب الأدنى وطبيعة العلاقات بينهما،منذ بداية القرن الثالث إلى منتصف القرن السادس الهجريين،حيث تمثل تلك الفترة أنموذجا أسمى للتسامح الدينى والتعايش السلمى بين اليهود والمسلمين.فمعلوم أن السلطتين الفاطمية ثم نائبتها الزيرية قد تجلت معهما صور التسامح السياسى مع أهل الذمة على نحو عام واليهود على نحو خاص،وهو ما حدا بباحث يهودى[٤] إلى الاعتراف بان ثمرة الحكم الفاطمى كانت بالنسبة لليهود والنصارى فترة اندماج حقيقى فى الحياة العامة للدولة حيث عاشوا امنين،مندمجين فى البيئة من حولهم ،وهو ما أكده باحث آخر[٥] حين رأى أن التسهيلات التى وفرتها الدولة الفاطمية لليهود كانت فرص لم يسبق لها مثيل للمشاركة الاجتماعية والتجارية والثقافية.وهو ما دفع البعض[٦] إلى أن يصف فترة الحكم الفاطمى بأنها العصر الذهبى لليهود لما تمتعوا به من ألوان التسامح وأشكال التعايش وعلى شتى المستويات.

يبدو أن علاقةً من نوع خاص قد ربطت الفكر الشيعي باليهود،لا سيما القرائيين منهم،حيث ذهب البعض[٧] إلى أن تأثراً مشهوداً بالتشيع قد عرفته فرقة القرائيين،لا سيما وان نشأة تلك الفرقة كان بالعراق –حيث التواجد الشيعي– مما جعلها تتشرب بعض معتقدات الشيعة وأرائهم .وكان ذلك التقارب وراء احتلال القرائيين أماكن بارزة فى البلاط الفاطمي،وشغل مناصب رفيعة داخل الدولة كمستشارين،وكتاب للدواوين وجباة للضرائب،وأطباء للخلفاء والأمراء

والمتنفذين[٨]،لا سيما إذا ما أخذنا فى الاعتبار ما اشتهر به أبناء هذه الفرقة اليهودية من الغنى والثراء[٩].وربما كان تمتع اليهود بتلك المكانة المرموقة لدى السلطة وانخراطهم فى الوظائف العامة،وراء تجرأ بعضهم أحياناً على معتقدات المسلمين والتمادى فى إيذاء مشاعرهم الدينية دون خوف من نزول العقوبة،كما تشهد بذلك تلك الرواية التى تتحدث عن عجز القاضي القيرواني محمد بن أبي منظور(ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) عن إقامة حد القتل على يهودي سب النبي عليه السلام،لأن الفاطميين حرموه تلك السلطة[١٠].ولقيت وضعية يهود افريقية المتميزة خلال العصر الفاطمي استهجان بعض فقهاء المالكية الذين وقفوا من اليهود –المتعاونين مع أعدائهم الفاطميين– موقفا عدائياً دون النصارى[١١]،حتى أفتى بعضهم بعدم إعطاء الزكاة للفاطميين لأنهم ينفقونها على اليهود[١٢].ولعل حميمية العلاقة التى ربطت اليهود بالفاطميين كانت وراء الربط بين الفاطميين واليهود على ألسنة فقهاء أهل السنة [١٣]،والتمادى فى الأمر بشكل اشد من خلال القدح فى نسب العبيديين والتأكيد على يهوديته [١٤] حتى وُصفت دولتهم فى بعض المصادر بـ"الدولة اليهودية"[١٥].وهو ما دعي الشاعر الحسن بن خاقان(ق٥هـ/١١م) أن يوجه نصيحته الساخرة إلى الرعايا المسلمين تحت حكم الفاطميين أن يتهودوا إذا أرادوا الغنى وتولى المناصب الرفيعة [١٦].

كان بديهياً أن تصبح افريقية مقصداً لليهود خلال الحكم الفاطمي الشيعي،وقد تسامعوا عن أشكال التسامح الذى اشتهرت به السلطة الحاكمة تجاههم[١٧]،وأن ينال بعض الحكام الفاطميين مدح اليهود وثناءهم،فحسب وثائق الجنيزة امتدح اليهود احد الحكام الفاطميين واعتبروه أشبه بالمسيح فى العدالة[١٨].كما سعى اليهود من جانبهم إلى إرضاء السلطة الفاطمية والتقرب إليها بكل وسيلة،والتفاني فى الإخلاص لها،وهو ما تؤكد عليه تلك الرواية،التى تتحدث عن ذلك اليهودى الذى بادر إلى المعز الفاطمى(٣٤١هـ – ٣٦٥هـ / ٩٥٣م – ٩٧٥م) ليطلعه على ما بيته بعض إباضية جبل نفوسة ضده من الثورة والتمرد،ليفشى بذلك سراً خطيراً قد ائتمنه عليه صديقه الفقيه الإباضى يزيد بن مخلد،مقدماً عليه الرغبة فى التقرب للسلطة الفاطمية وإظهار الولاء لها[١٩].وشبيه بهذا الموقف ذلك الدور الذى لعبه يهودى آخر كان مقرباً للمعز الفاطمى والذى حاول من خلاله إثبات غاية الولاء للسلطة الفاطمية عبر السعى الحثيث

للكشف عن تورط الفقيه الإباضي أبي نوح في مراسلة أمراء بني أمية بالأندلس ضد الدولة الفاطمية[٢٠]

لم تشذ مكانة اليهود في دولة بني زيري عن سابقيهم من الفاطميين،فقد استخدمهم الأمراء داخل البلاط،واشتغلوا بالطب والتجارة،وتمتعوا بكامل رعاية الدولة[٢١].وبلغ الأمر ببعض الأمراء أن جاروا اليهود في أخذ الجزية حسب رغبتهم،عن طريق دفعها جماعياً بدل أدائها حسب عدد الرؤوس،رغم مخالفة ذلك للشريعة الإسلامية،وهو ما تفصح عنه تلك النازلة التي رُفعت تفاصيلها إلى الفقيه اللخمي(ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) والتي سُئل فيها عما درجت عليه السلطة من اخذ الجزية من يهود أفريقية "جملة لو مضت على عددهم جاءت أقل من أربعة دنانير"،فجاءت إجابة الفقية مؤكدةً على مخالفة ذلك لصريح الشريعة وما كان عليه السلف[٢٢].ومن ثم فلا عجب أن ينال بعض أمراء بني زيري حب اليهود وتقديرهم،فقد وصف الأمير باديس بن منصور(٣٨٦-٤٠٦هـ/٩٩٦-١٠١٦م) في متن رسالة بعث بها أحد يهود القيروان إلى الجاؤون حاي بالفسطاط بأنه مبارك من الرب الذي منحه القدرة على حماية اليهود من بعض اعتداءات زناتة[٢٣] وهو ما يفهم من رواية ابن حوقل[٢٤] التي تذكر أن زعماء صنهاجة أنزلوا العقوبة الشديدة ببعض القبائل الساكنة بمدينة قابس لأنها كانت تقطع الطريق وتعتدي على أموال أهل الذمة وتجارهم .

تبدو صورة التسامح و التعايش السلمي خلال عصري الفاطميين وبني زيري أكثر تجلياً إذا ما أجريت مقارنة بين وضعية اليهود قبل هذين العصرين وبعدهما.فعلى سبيل المثال،مثلت السلطة الأغلبية نموذجا شبيهاً بسلطة بغداد،تلك التي وقفت من اليهود موقفا متصلبا[٢٥]،ولا أدل على ذلك من تلك الإجراءات القاسية التي اتخذت ضد اليهود من قبل القاضي الأغلبي ابن طالب(ت٢٧٦هـ/٨٨٩م) الذي كتب إلى بعض قضاته في اليهود والنصارى"أن تكون الزنانير عريضة صغيرة مخالفة للون وجوه ثيابهم ليعرفوا بها،فمن وجدته تركها بعد نهيك فاضربه عشرين سوطـاً مجرّداً ، ثمّ صيّره في الحبس، فإن عاد فاضربه ضرباً وجيعاً بليغاً وأطل حبسه"[٢٦]،وحين طلب الثائر منصور الطنبذي من الفقيه أبي محرز الخروج معه ضد زيادة الله الأغلبي(٢٠١ - ٢٢٣هـ /٨١٧ - ٨٣٩ م) محتجا بظلمه للمسلمين أجابه الفقيه " نعم وظلم اليهود والنصارى"[٢٧]

وفي عصر الموحدين خَيَّرَ عبد المؤمن بن علي (٤٨٧ – ٥٥٨هـ /١٠٩٤ – ١١٦٣م) اليهود والنصارى بين الإسلام أو الخروج من البلاد،وقدر لهم فى ذلك مدة من الزمن[٢٨] وإلا قتل رجالهم وسبي نساءهم وذراريهم وجعل أموالهم غنيمة للمسلمين[٢٩].كما فُرض على يهود المغرب زيًّا خاصًا في أواخر عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب(٥٨٠-٥٩٦هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م)الذى"أمر أن يُميَّز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك ثيابٌ كحيلة، وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريبٍ من أقدامهم، وبدلاً من العمائم كلوتات على أشنع صورة، كأنها البراديع تبلغ إلى تحتِ آذانهم، فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب"[٣٠].وكانت تلك الإجراءات المتشددة ضد اليهود مادة ثرية للفخر والتباهي من قبل مؤرخ الموحدين الشهير عبد الواحد المراكشي[٣١]،وإنكاره ذلك التهاون الذي عومل به اليهود من قبل السلطات السابقة،حيث يقول" ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة".

يجب الاعتراف بأن الارتكان إلى علاقة التسامح التى جمعت السلطتين الفاطمية والزيرية باليهود لا تعبر حقيقةً عن ذلك التعايش السلمى الذى نبغى تأكيده من خلال تلك الدراسة،لأنها تظل فى التحليل الأخير إرادة سلطانية فوقية،فلا شك أن النخبة الحاكمة التى تراوح فضاؤها بين المجالين الدينى والسياسي كان يحكمها منطق التوظيف المتبادل القائم على أساس المصلحة والمردود النفعي[٣٢]،فى الوقت الذى رحب فيه اليهود بتلك العلاقة لاستغلال علاقتهم بالسلاطين للتحايل على أمر الجزية والالتفاف على ما تحظره وضعية أهل الذمة من الانخراط فى المناصب وتسهيل مصالح بنى جلدتهم.الأمر الذى يدفعنا إلى اختزال تلك الزاوية من البحث،وتفادى مزلق الاستناد إليها وحدها كدليل على جوانب التسامح وصور التعايش السلمي لليهود،والذى لا يُمَكِّنُ من الخروج بنتائج دقيقة،وإنما يتطلب الأمر التركيز بشكل أقوى على الزاوية الأخرى والتى تتعلق بعلاقة اليهود بالقاعدة العريضة من عموم المسلمين،والتى تبدو أكثر تعبيراً وأبلغ إفصاحاً عن الظاهرة المذكورة.

كذلك،تستلزم دراسة التسامح والتعايش بين الشعوب والأديان الاحتياط و التحفظ مما جاء في بعض المرجعيات الفقهية،والتي تلون خطابها–فى الغالب الأعم– بنبرة من التعصب والتشدد تجاه بعض الطوائف الدينية،والتى لا تنم عن طبيعة الدين السمحة،بقدر ما ترتبط بعوامل هيكلية

فرضت موقفاً صارماً متشددا [٣٣]،وتستوجب فى المقابل الاحتكام إلى الواقع التاريخي الذي يثبت أن المجتمع المغربي تجاوز الخطوط الحمراء التي وضعها الفقهاء،وتعامل المسلمون مع كل الطوائف الأخرى على أساس مبدأ الانفتاح على الآخر،بعيدا عن كل أشكال الاستعلاء والتميز،متجاوزين التحذيرات الفقهية التى تشدد على عدم التعامل مع اليهود أو التداخل معهم[٣٤].وهو ما ينسحب أيضا على اليهود الذين تجاهلوا القيود[٣٥] التى فرضها رجال الدين اليهود،واندمجوا فى المجتمعات الإسلامية التى عاشوا فيها.

لا يمكن قبول دراسة وضعية اليهود فى المغرب الأدنى – خلال فترة البحث– باعتبارهم أقلية فى مواجهة أغلبية مسلمة،أو القول بانعزالهم فى أحياء خاصة عن المحيط الاسلامى،بل خلافاً لذلك،ونتيجة عمق الوجود التاريخي،عاش يهود المنطقة باعتبارهم جزء من الرعية،فتمتعوا بكامل الحقوق وبكافة الامتيازات[٣٦]،واندمجوا مع غيرهم من السكان فى منظومة النشاط الاقتصادي،وشاركوهم فى مناحي الحياة الاجتماعية وألوان العطاء الفكري والمعرفي،وهو ما اعترف به وأكد عليه باحثون يهود،فقد أخ شوراكى [٣٧] على أن اليهود قد عاشوا فى مدينة القيروان منذ تأسيسها فى حماية وأمن العرب،ويرى آشتور [٣٨] أنه فى ظل هذا المناخ المتسامح وتحت لواء الإسلام عاش اليهود جنبا إلى جنب مع المسلمين الفاتحين،ونعموا بخيرات هذا الفتح المبين،وأخذ عددهم يزداد،وغدا بمقدورهم أن يتنقلوا من مدينة إلى أخري،بعد أن كانت إقامتهم قد حددت في أماكن معينة في الماضي.وأكد الباحث ذاته فى موضع آخر على أن اليهود كانوا يمثلون عنصرا وطنيا اندمج مع محيطه الاجتماعي واعتنق عادات السكان الآخرين وتقاليدهم[٣٩].وأخ مناحم بن ساسون[٤٠] على أن مدن أفريقية لم تعرف خلال العصر الإسلامى أحياء يهودية خالصة،بل أحياء بها كثافة يهودية، وهو ما ذهب شتليمان[٤١] حين ذكر أن انعزال اليهود فى أحياء قاصرة عليهم لم تعرف إلا أواخر العصور الوسطى نتيجة عوامل خارجية.

لا يمكن إدراج تلك الأحكام السابقة فى دائرة العبارات الإنشائية التى تفتقد إلى الواقع التاريخى المدعم بالمعطيات المصدرية،تلك التى أكدت على تعايش اجتماعي مشترك ربط بين المسلمين واليهود،امتزجوا من خلاله فى كل الأماكن المستوطنة بالمغرب الأدنى [٤٢].ولعلّ نظرة فاحصة فى خريطة إقامة اليهود ما يؤكد على ذلك ويكشف عن أنهم كانوا يحتلون مكانة

اجتماعية متميزة،فقد انتشر اليهود بين قرى ومدن المغرب الأدنى،واختاروا الأماكن التى تتناسب وطموحاتهم الاقتصادية.ففى المنطقة الشرقية ترد إشارات عن استقرارهم فى مدينة درنة بين باجة وطبرقة[٤٣] ومدينتى الرمادة[٤٤] وطلمثية[٤٥] الواقعتين على الساحل. كما تواجد اليهود بإقليم طرابلس وربما بأعداد كثيفة[٤٦] حتى نسبت إليهم أسماء بعض مدنه،مثل مدينة اليهودية أو اليهودتين الواقعة على الطريق الساحلى بين برقة وطرابلس[٤٧] والتى عرفت خلال فترة الدراسة بمرسى اليهودية[٤٨]ونسب إليهم أيضا تلك المدينة التى دارت عندها المعركة بين جيش زيادة الله الأغلبى والثائر فضل بن أبى العنبر وعرفت بـ"مدينة اليهود"[٤٩].كما سكنوا قرية صرمان[٥٠] و مدن سرت[٥١] ولبدة[٥٢] وزويلة[٥٣] وجزيرة جربة[٥٤] واجدابية التى كان الغالب على أهلها يهود[٥٥]،ومنطقة جبل نفوسة[٥٦]،لا سيما مدينتى شروس[٥٧]وجادوا[٥٨]، واستوطنوا المدن الكبرى بأفريقية مثل تونس[٥٩]قفصة[٦٠]وقابس[٦١]ونفزاوة[٦٢] وصفاقس[٦٣] والقيروان[٦٤] والمهدية[٦٥] وسوسة[٦٦] وبلزمة وطبنة[٦٧]ورقادة[٦٨].

لم يعرف يهود المغرب الأدنى خلال العصر الفاطمى والزيرى الانعزال فى أحياء خاصة بهم[٦٩]،أو التمسك بتلك الخصوصية التى سعوا من خلالها إلى التأكيد على سمو جنسهم،وربما كان للتسامح الذى عوملوا به،والتعايش السلمى الذى اعتادوه،وعدم فرض السلطة عليهم أماكن خاصة لسكناهم،وتوفير حرية التنقل والاستقرار لهم،دور كبير فى ذلك،حيث تؤكد المصادر المتاحة أنهم اندمجوا واختلطوا بالسكان من عرب وبربر وتداخلوا معهم وتأثروا بهم وأثروا فيهم، وهو ما كان وراء إلحاح فقهاء المالكية بأفريقية على تمييز اليهود بزى خاص "لاختلاطهم بالمسلمين فى تصرفاتهم ومخاطباتهم وخصومتهم وبياعاتهم"[٧٠].وهكذا ومن البداية،عاش اليهود والبربر فى منطقة برقة متعاونين فيما بينهم فى أمور الفلاحة والتجارة[٧١]،وامتزجوا برابطة المصاهرة مما أدى إلى اعتناق بعض البربر اليهودية[٧٢]،ولعل فى استنكار الفقيه الاباضى عثمان بن خليفة(٥٠٠-٥٥٠هـ) إقبال الوهبية على الزواج من اليهوديات ما يؤكد ذلك[٧٣].وارتبط يهود القيروان بغيرهم من المسلمين نتيجة الاشتغال بالفلاحة وزراعة الأرض"[٧٤]والعمل بالتجارة والجزارة[٧٥]وصناعة الخبز[٧٦] والبيع والشراء بالأسواق[٧٧].وفضل العالم الشهير اليهودى حنانيل السكنى عند احد أبواب القيروان بجوار

المسلمين[٧٨].وحين باع الفقيه المالكي حماس بن مروان (ت٣٠٣هـ/٩١٥م) أمة له سوداء لبعض جيرانه،عادت إليه الأمة تعاتبه أنه باعها لقوم يهود[٧٩].وفى زويلة المهدية باع أحد اليهود حجرة تقع عند حدود ملك لأحد المسلمين[٨٠].وعاش يهود مدينة قابس مختلطين بغيرهم من سكان المدينة[٨١]،وهو ما تدعمه فتوى القابسي الذى سئل فيها عن رجل مسلم يسكن بجواره يهودي[٨٢].وفى مدينة تونس أبدى الفقيه والزاهد محرز بن خلف(ت٤١٣هـ/١٠٢٣م) تحفظه على انعزال طائفة من اليهود خارج أسوار المدينة فى حى يعرف بحي المرضى،فعمد إلى إدراجهم ضمن سكان المدينة وخصهم بشارع كامل قرب المسجد الجامع للمدينة مما جعل يهود المدينة يعتبرون أنفسهم فى حماية "سيدى محرز"[٨٣].

ترد إشارات تؤكد على تواجد اليهود فى أحياء ذات أكثرية إسلامية وسكنى المسلمين فى أحياء يهودية،ففضلا عما سبق ذكره،تشير وثائق الجنيزة إلى استنكار رجال الدين اليهود ما كان سائدا فى القيروان خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين من ظاهرة سكنى المسلمين فى منازل اليهود،وطالبوا بمنع اليهود من التأجير لغير اليهود[٨٤]. وسئل الفقيه السيورى (ت٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) عن يهودي كان يسكن دربا ليس فيه إلا المسلمين[٨٥]،وترد نازلة تخص وصيا باع دارا ليتيم مسلم كانت داخل دور اليهود[٨٦].ولعل فى إصدار بعض قضاة أفريقية خلال تلك الفترة أوامرهم بأن تسمر على أبواب دور اليهود ألواح بها صور معينة[٨٧]ما يدعو إلى الرغبة فى تمييز دورهم عن دور المسلمين نتيجة التلاصق والتجاور الذى كان يصعب معه التفريق بين دور المسلمين ودور اليهود.كما صارت تلك المجاورة أمراً مألوفاً ومعتاداً أجاز معه الفقهاء لليهود بناء دورهم بجوار دور المسلمين شريطة ألا ترتفع عليها[٨٨]،وأجازوا أن يكرى المسلم داره لنصراني أو يهودي شريطة ألا يبيع فيها الخمر أو الخنزير[٨٩].وأفتى اللخمى بجواز أن يكرى المسلم داره ليهودي يرابى فيها لأن ذلك من دينهم ولا يجوز إخراجه منها[٩٠].وسعى الفقهاء من جانبهم إلى تقنين حقوق ذلك الجوار،وألزموا المسلمين باحترامها[٩١]،وفى المقابل ألزموا أهل الذمة الذين يسكنون مع المسلمين بعدم بيع الخمر لهم أو حملها إليهم[٩٢].

تقود تلك المعطيات إلى دحض الزعم القائل بأن يهود الشمال الأفريقي أُجبروا على العيش فى أحياء خاصة بهم داخل المدن منذ الفتح الإسلامي[٩٣]،وخلافا لذلك أكد جواتياين[٩٤]ومن

خلال دراسته لوثائق الجنيزة أن " بيوت اليهود كانت متاخمة لبيوت المسلمين وبيوت المسيحيين، فلم يكن هناك جيتو،ولكن على العكس من ذلك كانت هناك فرص كثيرة للاختلاط اليومي".

هكذا،نتوفر على إشارات عدة تؤكد على الامتزاج السكاني والتجاور المكاني بين اليهود وجيرانهم المسلمين،فغضلا عن الأمثال الشعبية التي تشير دلالاتها إلى تأكيد ذلك المعنى[٩٥]،تكشف النصوص عن اعتياد مسلمي المغرب الأدنى حضور حفلات زواج جيرانهم من اليهود[٩٦]،وكانوا يخرجون معهم إلى العيون والأنهار والآبار لاستقاء الماء وغسل الثياب[٩٧]،وبات أمراً مألوفاً أن يتم بين الجيران المسلمين واليهود استعارة الآنية والملابس[٩٨]،وترد نازلة عن يهودى بجواره مسلمون كان " يتقاضى منهم الحوائج ويتقاضون منه"،والتى أفتى فيها الفقيه القابسى(ت٤٠٣هـ/١٠١٢م)بأنه" لا إثم فيها فلا بأس"[٩٩] لما يقتضيه ذلك من حق الجوار[١٠٠]،وكان مشايخ جبل نفوسة يلبسون ثياباً من عمل جاراتهم اليهوديات[١٠١]،وذكر المالكى[١٠٢]فى ترجمته للزاهد القيروانى السبائى(ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) أن امرأة مسلمة كانت تتردد على جيران لها من اليهود كانت قد أصيبت صبية لهم ببياض فى عينها وعجز الأطباء عن معالجتها فمضت بها المرأة إلى زاهد مسلم فرقاها فى جملة من يرقى.وناقش الفقهاء مسألة شهادة نساء أهل الذمة على ولادة النساء المسلمات من جيرانهن[١٠٣].واعتاد اليهود دخول بيوت جيرانهم المسلمين[١٠٤]،وإجابة دعوتهم[١٠٥] واختلط أولادهم بأولادهم،وتربوا معهم[١٠٦]كما كانوا يستضيفون المسلمين فى بيوتهم[١٠٧]فيدور بينهم " حديث وابتسام وكلام لين"[١٠٨].

يمكن تقدير هذا التفاعل الاجتماعي بين اليهود والمسلمين من خلال نازلة رُفعت إلى الفقيه القابسى، تتعلق بأسرة مسلمة كان لها جار يهودى وصف عندهم بالوفاء والمروءة وحسن العشرة ولين الجانب فكانوا معه على درجة قوية من الاختلاط والتمازج وتبادل المنافع والهدايا وقضاء الحوائج والدخول فى المعاملات المالية [١٠٩]، ولما كان ذلك أمرا مألوفا وطبيعيا فى افريقية، مالت الفتوى إلى التهاون ومجاراة الحال وعدم التشدد،وهو ما تكشف عنه إجابة الفقيه القابسى للنازلة الآنفة بأنه لا إثم ولا بأس فى ذلك انطلاقا من حق الجوار[١١٠]،فى الوقت الذى

كانت فتاوى فقهاء الأندلس فى مثل هذه الحالات على درجة كبيرة من التشدد والتغليظ والإنكار وربما وصل إلى حد التحريم [١١١]

استلزم ذلك التجاور والتداخل الاجتماعي احترام المسلمين لحقوق اليهود الاجتماعية،واستغلال المرافق الاجتماعية الضرورية،فقد سمح لليهود بصناعة الخمر وشربها والمتاجرة فيها[١١٢]،و ترد نازلة سئل فيها الفقيه اللخمى عن حكم منع مجموعة من اليهود من الاستقاء وغسل ملابسهم من نهر فى وسط بلدة للمسلمين،فأفتى بأنه لا حق للمسلمين فى منعهم من ذلك لأن لهم ما للمسلمين من الاستقاء وغسل الثياب حتى وإن كانت نجسة،لأن جريان النهر يحول دون فساد الماء ونجاسته[١١٣]بل سُمح لبعض اليهود الاستفادة من مياه آبار حفرت فى صحن مسجد مجاور لدورهم[١١٤] .وحتى فى حالة تعدى اليهود بالأذى أو التطاول على جيرانهم المسلمين لم يتخذ الفقهاء من ذلك ذريعة لمنعهم من الانتفاع من تلك المرافق،وهو ما تكشف عنه فتوى الفقيه السيورى الذى رفعت إليه نازلة تخص يهوديا اشترى دارا من مسلم فى درب ليس فيه إلا المسلمون من أهل العافية والخير فآذاهم اليهودى بشرب الخمر والتجاهر بذلك والإقدام على فعل مالا يجوز فعله،وكان يشاركهم فى الانتفاع من ماء بئر كانت بذلك الدرب،فتحرز المسلمون عنه فى ذلك،وحاولوا منعه،فصدرت الفتوى بأنهم لا حق لهم فى ذلك[١١٥].ولا يخفى ما تكشف عنه النازلة من تمتع اليهود من الأمان وعدم التعدى عليهم من قبل المسلمين حتى فى حالة عدم مراعاتهم لحقوق الجوار،حيث لم يقدم المسلمون على إخراج ذلك اليهودى من بينهم أو منعه بالقوة من الانتفاع من تلك البئر،واكتفوا برفع المسألة إلى دائرة الفقه،وألزموا انفسهم باحترام الفتوى وعدم مخالفتها.

انعكس هذا الذوبان في النسيج الاجتماعي في مشاركة مسلمي المغرب الأدنى لليهود في معظم احتفالاتهم الدينية،وهي مشاركة روحية أفرزتها قرون عديدة من التعايش رغم المحاذير الدينية التي كانت تطلقها أفواه بعض الفقهاء الذين اعتبروا مشاركة اليهود في أعيادهم بدعة[١١٦]،وجرت عادة اليهود على توزيع الفطير على جيرانهم المسلمين فى عيد الفطير اليهودى[١١٧]، كما تكشف وثائق الجنيزة عن زيارات قام بها اليهود إلى جيرانهم وشركائهم المسلمين وتهنئتهم فى أيام المواسم والأعياد[١١٨]

بلغت درجة التمازج هذه أن اتخذ اليهود من جيرانهم المسلمين شهودا يستندون إليهم فى القضايا التى تتعلق بخصومات ضد إخوانهم اليهود،وهو ما تكشف عنه نازلة عرضت على الفقيه ابن العطار(ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م) وتتعلق بجماعة من اليهود طالبوا شخصا منهم بمظالم ودعاوى اعتمادا على شهود من اليهود فى حين اعتمد المدعى عليه إلى شهود مسلمين[١١٩].وبالمثل،استعان المسلمون باليهود واحتكموا إلى خبرتهم الطبية فى فض ما يدب بينهم من نزاع،وهو ما تكشف عنه نازلة سئل فيها الفقيه المازرى(ت ٥٣٦هـ/١١٤١م) عن نزاع دب بين بائع ومشتر حول خادمة وجد فيها المشترى عيبا يوجب الرد،وقد شهد له بذلك رجل يهودى خبير بتلك العيوب[١٢٠].

مثلت عملية السلف والدين التى كانت تتم بين المسلمين واليهود صورة من صور هذا التعايش والتمازج ،فترد فى وثائق الجنيزة إشارة عن يهودى كعكى أعاد لمسلم فران قرضا كان قد أخذه منه[١٢١]،وسئل الفقيه المازرى عن ذمى أسلف مسلما من أهل السوق دنانير[١٢٢]،وحسب إشارة عند الشماخى[١٢٣] استدانت أم الفقيه الإباضى أبى هارون التملوشانى شعيرا من جار لها يهودى،وماتت دون أن تقضيه،ولم يسع اليهودى إلى طلبه،احتراماً منه لحسن الجوار،ولكنه أُضطر إلى أخذه أمام إلحاح الفقيه أبى هارون.

شكل التكافل الاجتماعي صورة جلية للتعايش الإسلامى اليهودى[١٢٤]،ففى ترجمته للفقيه الإباضى أبى المهاصر موسي بن جعفر(ت ق٤هـ/١٠م) ذكر الدرجينى[١٢٥] أنه تفاعل بشكل إيجابى مع أهل منزلته الذين انتابهم فقر وحرمان أثر جدب حل بهم،فراح يبعث إليهم بالعطايا والصدقات،دون تفرقة بين مسلم ويهودى،فكان من بينهم"يهودى ضعيف كان معهم ساكنا فأناله من ذلك وقال اليهودى:وأنا أيضا لم ينسني اللهم لا تنسه من رحمتك".وفى المقابل اعتاد يهود جبل نفوسة ترك ما تبقى من حصادهم للفقراء والمساكين،وتعاون بعضهم ذات مرة فى جمع مبلغ أربعين دينارا وتقديمه دعما للقاضى أبى يحيي زكريا الأرجانى الذى بلغ به الفقر درجة كبيرة جعلته يتخذ من الدقيق المخلوط بالماء طعاما له[١٢٦].وتصدى بعض فقهاء أفريقية لظاهرة إعطاء فقراء أهل الذمة من الزكاة وصدقة الفطر[١٢٧]،وأبدى آخرون استنكارهم لما شاع فى البلاد من تصدق المسلمين على فقراء اليهود ومساكينهم وحبس بعض الأوقاف عليهم بل

والوصية لهم[١٢٨]،فى حين نالت الظاهرة رضى فقهاء آخرين فأجازوا الصدقة والحبس على فقراء اليهود والنصارى،واعتبروا الصدقة على الذمى القريب أفضل فى الأجر من المسلم البعيد[١٢٩].كما أفتى فقهاء القيروان بجواز أن يسلف الإمام اليهود مالاً من بيت مال المسلمين لأداء ما عليهم من التزامات مالية كالديات وغيرها وألا يشق عليهم فى ذلك[١٣٠]،ولعل فى إلحاح الفقهاء على عدم جواز إطعام مساكين أهل الذمة من الكفارات[١٣١] ما يدل على وجوده فى المجتمع المغربى خلال تلك الفترة. وبالموازاة،سئل الفقيه ابن سحنون عن يهودى حبس على مساكين المسلمين عقارا له[١٣٢]،وبلغ الأمر ببعض اليهود أن أوقفوا أحباسا لهم على بعض المساجد وهو ما لم يجزه بعض الفقهاء[١٣٣].

بلغت العلاقة بين اليهود والمسلمين درجة عالية من الثقة والأمان بحيث حمل بعضهم الرسائل الخاصة والبضائع لبعض،فقد ذكر الشنتريني[١٣٤] أن رسالة وصلت إلى الكاتب أبي المغيرة عبدالوهاب بن حزم الأندلسى (ق٥هـ/١١م) من أحد أصدقائه المغاربة عن طريق يهوديٍّ أوصلها إليه،حيث ردَّ أبو المغيرة على الرسالة بقوله:"وأبدأ بحديث اليهودي موصل كتاب"[١٣٥].وتذكر إحدى وثائق الجنيزة أن يهوديا كان يسكن إحدى قرى القيروان قد أرسل مع بعض المسلمين جبناً لبيعه فى سوق المدينة[١٣٦] وسجل جواتيان[١٣٧] ومن خلال فحصه لتلك الوثائق أن أموال اليهود وبضائعهم كانت تودع طرف رجال الأعمال المسلمين الذين كانوا يسافرون بها مع القوافل أو بالسفن،كما حوت أوراق الجنيزة أدعية وتمنيات طيبة للتجار المسلمين،وورد فى إحدى وثائق الجنيزة نص رسالة أرسلها أحد يهود المغرب إلى يهودى آخر جاء فيها:" إذا كانت هناك قافلة،وكان يسافر فيها مسلمون مؤتمنون، تكرَّمْ بإرسالِ البضائع معهم"[١٣٨].

كان من مظاهر التعايش بين المسلمين واليهود علاقة الصداقة والمحبة التى جمعت بين أفرادهم،فقد لقى الزاهد أبى إسحاق الجبنيانى(ت٣٩٩هـ/١٠٠٨م) فى طريقه ذات مرة رجلين صديقين أحدهما "مسلم والآخر يهودى"[١٣٩]،وكان للفقيه الإباضى أبو القاسم بن مخلد (ق٤هـ/١٠م) صديق يهودى،بلغ من ثقته به،أن أطلعه على نيته فى تدبير تمرد ضد المعز الفاطمى[١٤٠]،وحسب رواية الدرجينى[١٤١] كان للفقيه أبى نوح الإباضى صديق يهودى" يتخدم له ويجد فى حاجته"،وكان له ناصحاً ومرشداً،فحين أعلمه الفقيه بكراهيته مصاحبة المعز الفاطمى

وتنفيذ أمره بالمسير معه إلى مصر،أشار عليه اليهودى بالتمارض،ودله على طريقة مثلى للخروج من المأزق،عن طريق غسل وجهه بشراب الشعير المنقوع والشرب منه،ونجحت الحيلة،حيث تركه المعز لما رأى اصفرار وجهه وظنه مريضا.وجمعت صداقة بين يهودى والفقيه الإباضى إبان ابن وسيم اليغوى،فكانا يكثران من اللقاء،وحين دخل عليه اليهودى ذات يوم ورآه مغضباً أرشده الفقيه أن الغضب ليس من سماته،ونصحه بالزهد فى الدنيا،وتوطين نفسه على الصبر على مصائبها[١٤٢].وكشفت المصادر أن اتجاه الفقيه المالكى المازرى للاشتغال بالطب كان نتيجة نصيحة وُجهتْ له من قبل طبيب يهودى ربطت بينهما علاقة مودة.[١٤٣].وكان ببلاط المعز الفاطمى يهودى كان شديد الإعجاب بالفقيه والزاهد القيروانى إبراهيم بن أحمد السبائى[١٤٤]،حتى إنه نصح المعز بعدم التعرض له بالإيذاء.وهكذا تذكر مصادر الفترة أن المغاربة المسلمين كانوا على استعداد أن يدافعوا عن أصدقائهم اليهود بكل ما أوتوا من قوة[١٤٥].

شكل الزي وجها آخر للتعايش المشترك بين المسلمين واليهود،فعلى الرغم من استنساد الفقهاء في فرض بعض الأزياء على اليهود،ومنعهم من ارتداء بعضها،فإن الواقع التاريخي أثبت أن هؤلاء قلدوا أزياء المسلمين،متجاوزين بذلك كل المحاذير الفقهية،وهو ما ألحت على تأكيده مصادر الفترة،فقد اختلط يهود القيروان مع المسلمين فى ملابسهم[١٤٦]،واعتاد المسلمون دخول أسواق المدينة لشراء الملابس القديمة التى كان يرتديها اليهود والنصارى[١٤٧]،وتناقضت آراء المالكية حول حكم الصلاة فى هذه الثياب[١٤٨].وكان زى يهود قرية صرمان بطرابلس " زى قبائل ذلك القطر"[١٤٩]،وترد فى كتب النوازل إشارات عن يهودى " تشبه بزى المسلمين..ليس عليه رقاع ولا زنار"[١٥٠]،وآخر اعتاد أن " يعمم ويختتم ويركب السروج على فاره الدواب ويقعد فى حانوته من غير غيار ولا زنار[١٥١]وثالث "تزيي على رأسه بزى المسلمين"[١٥٢].و تجلى الأثر البربري على ملابس رجال الدين من اليهود،أولئك الذين كانوا يرتدون مع الجلباب برنسا مفتوحة أكمامه من عند الكوع إلى المعصم[١٥٣]،وتشابه لباس النساء اليهوديات بلباس المسلمات إلى حد بعيد حيث لم يكن لليهوديات زى يعرفن به من المسلمات[١٥٤]،وهو ما أكدته وثائق الجنيزا التى ذكرت أن النساء اليهوديات كن يرتدين الثوب والحجاب والخمار

والبرنس[١٥٥] .ولعل فى فتوى الإمام المازرى بضرورة إلزام اليهود لا سيما فى الأمصار الكبار بتغيير " أطرافهم أو اتخاذ علم يتميزون به" ما يؤكد على أن الواقع كان خلاف ذلك،وهو ما تدعمه الروايات التاريخية،فقد صافح عيسي بن مسكين (ت٢٩٥هـ/٩٠٧م) رجل فصافحه فاتضح أنه ذمى فاستعوذ من ذلك ودعى عليه[١٥٦]،وذكر اللبيدى[١٥٧]أن أبي إسحاق الجنبيانى لقى فى طريقه رجلين لا يتميز احدهما عن الآخر فى اللباس،فكان أحدهما مسلم والآخر يهودى،وترد عند الدباغ[١٥٨] رواية تشير إلى أن المعز بن باديس بعث طبيبه ابن عطاء اليهودي لمقابلة الفقيه أبي عمران الفاسي"فلما دخل على الشيخ في داره ظنه الشيخ بعض رجال الدولة إلى أن قال بعض الحاضرين: أكرمك الله إنه من خيارِ أهل مِلّته، فقال الشيخ: وما مِلّته؟ فقال: هذا ابن عطاء اليهودي، فغضب أبو عمران ... وأمره بالخروج وهو يرعد، وكان غير معلَّم، فأمر الشيخ بصبغ طرف عمامته لشهرته"[١٥٩].

هكذا،تشى تلك النصوص بأن إلزام اليهود بلباس معين يميزهم عن المسلمين لم يتجاوز الإطار النظرى ولم يجد له تطبيقا على أرض الواقع[١٦٠]، مما يدعو إلى ضرورة إعادة النظر فى رواية المالكى[١٦١] ومن نقل عنه[١٦٢] والتى تتحدث عن إجبار اليهود والنصارى فى افريقية بلبس رقاع بيضاء على أكتافهم وفى كل رقعة منها قرد وخنزير.بل خلافا لذلك استنكر الفقهاء ما تمتع به اليهود من ارتداء الملابس الفاخرة وركوب الخيل والسروج الثمينة والتحلى بحلية المسلمين فى لبس الأخفاف والعمائم[١٦٣].

كان الطعام مظهرا آخر من مظاهر المشاركة بين اليهود والمسلمين،فقد نقل المالكى[١٦٤]عن أبي سليمان ربيعة الجزرى أنه كان مع صحبة له قد اجتمعوا على طعام وشاركهم فى هذا الطعام يهودى كان قد دخل عليهم.واستنادا إلى ما سبق ذكره من مشاركة المسلمين لليهود فى أعيادهم وذهابهم إليهم للتهنئة،نرجح اجتماع المسلمين واليهود للطعام يوم عيد الفصح أو عيد الفطير،حيث كان يقدم اليهود للمسلمين الفطير المحشو بقطع الدجاج،والهريسة المصنوعة من الدقيق واللحم المقطع،[١٦٥].ويبدو تأثر المغاربة باليهود فى مجال الطعام من شيوع ألوان خاصة من الأطعمة تنسب إليهم منها:"لون من فروج يهوديّ "[١٦٦]،"ولون يهودي محشو مدفون"[١٦٧]، و"حجلة يهودية"[١٦٨]، و"لون من حجلة يهودي"[١٦٩].كما أن إلحاح الفقهاء على معاقبة اليهود الذين كانوا يخرجون من بيوتهم حاملين الخمور والنبيذ،تجعلنا نتكهن أنهم

خرجوا بها لمشاركة بعض جيرانهم المسلمين فى شربها،وهو ما تدعمه رواية أندلسية تتحدث عن الزاهد أبو علي بن هود المرسى الذى حمله الجند ذات مرة إلى والي البلد بعد أن رأوه خارجا من حارة اليهود وهو سكران[١٧٠].ويبدو أن فريقا من أتباع الشهوات قد عمدوا إلى إكراء أشخاص من اليهود بيوتا لهم ليسهل عليهم الاجتماع معهم على شراب الخمر بعيدا عن أعين السلطة،لا سيما وأن الفقه لم يمنع أهل الذمة من إدخال الخمور إلى بيوتهم[١٧١]، وهو ما يستشف من تلك النازلة التى سئل فيها السيورى عن يهودى اشترى دارا من مسلم فى حى كله مسلمون،وآذى الجيران بشرب الخمر[١٧٢]،ولعل السبب فى رفع النازلة هو أن جيران ذلك اليهودى كانوا "من أهل العافية والخير"،مما يعنى أن غيرهم من أهل الشهوات قد لا يستنكرون الأمر،وربما شاركوا اليهود فيه،وهو ما تكشف عنه نازلة أخرى تتحدث عن اجتماع أهل الشر والفساد بدور اليهود لتعاطي الخمور[١٧٣]. ويبدو أن ذلك كان وراء أحداث العنف ضد اليهود فى فترات لاحقة بسبب "بيعهم الخمر للمسلمين وتمالئهم عليه"[١٧٤]

كان بديهيا أن تترتب على تلك العلاقات الاجتماعية المشتركة بين المسلمين واليهود تأثيرات متبادلة،فقد كان من نتائج التجاور المعيشى تجذر أواصر الحضارة المشتركة على المستوى الاجتماعي وتبادل العادات والتقاليد المشتركة،فضلا عن تحدث اليهود بلهجات الشعوب التى عاشوا معها[١٧٥]،تأثر اليهود ببعض العادات البربرية،مثل استخدام التعاويذ والتمائم كوصفات طبية،وكتابة اسم الأم فى الأحجبة والتمائم،واستخدام الرموز الزخرفية للوقاية من الحسد والسحر،والامتناع عن أكل مؤخرة الحيوانات المذبوحة[١٧٦]،وحمل يهود تونس أسماء بربرية،وحفظوا أمثالا عامية مغربية واستشهدوا بها فى خطاباتهم[١٧٧].وفى المقابل تأثر البربر ببعض عادات اليهود منها عدم النظر إلى المرأة الحائض ولا محادثتها ولا أكل ما مسته يديها ولا المشى على الأرض التى وطئتها قدماها[١٧٨]

ظهر التأثير الإسلامى واضحا فى عقود الزواج اليهودية مثل تقسيم عملية الدفع إلى مقدم يدفع للزوجة عند العقد ومؤخر فى حالة الترمل أو الطلاق[١٧٩]،كما تماثلت عقود زواج اليهود مع عقود الزواج الإسلامية فيما يخص اشتمالها على شروط تتعلق بعدم اتخاذ الزوج زوجة أخرى على زوجته أو التسرى عليها،أو السفر بها دون رضاها[١٨٠]، مما حدا بفقهاء المالكية إلى الفتوى بأنه يكره أن يعقد "نكاح أهل الكتاب على شروط المسلمين"[١٨١].كما طبق النظام

الاسلامي على عقود الزواج اليهودية بأن كانت تكتب وثيقتان للزواج الأولى يهودية والثانية إسلامية[١٨٢]،وبرزت التأثيرات البربرية على بعض عادات الزواج اليهودى،مثل إعداد منزل مؤقت للعريس قبل مراسم الزواج يحترس فيه من الاتصال بالأقارب الذكور،وعدم رؤية الأب لابنته العروس مدة تتراوح بين ١٥-٢٠ يوما قبل تركها منزله[١٨٣].

كان من صور التسامح الإسلامي مع اليهود احترام مقدساتهم والسماح لهم بصون أماكن العبادة وحرية المعتقد وإظهار الشعائر،فقد أكد باحث يهودى[١٨٤] أن الجاليات اليهودية قد عظم شأنها تحت حكم الإسلام،واستشعر اليهود الأمن والأمان،فعاشوا حياتهم في حرية تامة،ومارسوا شعائرهم الدينية كاملة،وفى الإطار ذاته ذكر شتيلمان[١٨٥]أن يهود القيروان قد أقاموا المعابد ومارسوا شعائرهم الدينية فى حرية تامة.

ثمة شواهد تاريخية تؤكد على ما تمتع به يهود المغرب الأدنى من حرية دينية بلغت ذروتها أيام الفاطميين وبنى زيرى،كان من أهم مظاهرها حرية بناء المنشآت الدينية وتجديدها والزيادة فيها.فقد سُمح لليهود بإنشاء المعابد والمحاكم والحمامات الطقسية فى الأماكن التى ترتفع فيها كثافتهم السكانية[١٨٦]، وحسب مرسوم أميري صدر من الأمير الصنهاجي باديس بن منصور سُمح ليهود القيروان بإتمام بناء بيعة جديدة فضلا عن صيانة مبنى قديم والزيادة فى ارتفاع أبوابه وتهيئته من الداخل حسب مشيئتهم[١٨٧] ،وهو ما يمكن تفسيره بالأهمية الاقتصادية والاجتماعية للطائفة اليهودية بالقيروان والتى عادت ببعض المردودات النفعية على السلطة الزيرية.ويبدو أن ذلك المرسوم قد وجد تدعيماً فقهياً من خلال فتوى الفقيهين التونسى(ت٤٤٣هـ/١٠٥١م) واللخمى واللذين أفتيا بعدم منع أهل الذمة من بناء دور العبادة بالبلاد التى يعيشون بها طالما اقروا بالحكم الاسلامى ودفعوا الجزية[١٨٨]،وهى فتوى تحمل بين طياتها معاني التسامح والتعايش،وان جاءت مخالفة لإجماع فقهاء الأندلس والذين ذهبوا إلى منع "إحداث أهل الذمة من اليهود والنصارى كنائس ولا شنوغات فى مدائن الإسلام ولا بين ظهرانيهم"[١٨٩] مما يدفع إلى التأكيد على الخصوصية الفقهية للمنطقة محل الدراسة فى التعامل مع أهل الذمة.ولعل فى افتخار المؤرخ الموحدى المراكشى[١٩٠]بأنه لم تبن فى عصر دولة الموحدين بالمغرب بيعة ولا كنيسة،ما يدعو إلى القول بأنهم أبطلوا أمراً كان معتاداً لدى السلطات التى حكمت المنطقة قبل قيام دولتهم.

سُمح لليهود بتأليف الكتب الدينية فى حرية تامة،فقد ألف أبو سهل دوناش بن تميم شرحاً وافياً لسفر التكوين عام ٣٤٤هـ/٩٥٥م،وكان للحاخام حوشيعيل بن الهنن القادم إلى القيروان عام ٣٨٠هـ/٩٩٠م دور كبير فى إثراء الدراسات التلمودية،وكان لولده حننعيل (ت ٤٤٢هـ/١٠٥٠م) شرح معتبر للتلمود ،ونسب الى نسيم بن يعقوب شرحه الشهير للتلمود الذى حمل عنوان مفتاح مغالق التلمود وضعه عام٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م،وكتاب آخر بعنوان قصص أخلاقية وثالث مفقود تحدث فيه عن الطقوس اليهودية القيروانية[١٩١].ودخل القيروان خلال العصر الزيري العالم إسحق بن يعقوب الذى بلغ درجة كبيرة من التبحر فى اللاهوت مكنته من تولى قيادة الدراسات التلمودية فى المدينة[١٩٢].كما استقبلت أفريقية خلال فترة البحث الكثير من علماء الدين اليهود الذين أسهموا فى الحركة الدينية اليهودية مثل صمويل بن حفنى(ت ٤٠٤هـ/١٠١٣م) الذى درس فى مدارس القيروان والعراق وتولى رئاسة مدرسة سورا،وسلمون بن يهوذا(ت ٤٤٣هـ/١٠٥١م)) الذى وصل الى منصب رئيس جاؤونية القدس عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م.

تُرك لليهود تنظيمهم الطائفى الخاص بهم،وكان لهم بالقيروان رئيسا يسمى"ناجد"،تمتع بوافر الصلاحيات التى تتيح له تمثيل اليهود أمام السلطات الإسلامية،وحق توجيههم الدينى والإرشادي،وتعيين القضاة للجماعات اليهودية فى القرى والأقاليم وتوقيع أحكام المحكمة اليهودية،والإشراف على جمع الضرائب ومراقبة العقود الرسمية،وزيارة التجمعات اليهودية خارج الحاضرة[١٩٣].وقد بلغت مكانة بعض هؤلاء الرؤساء درجة كبيرة خلال العصر الزيري،مثل أبراهام بن عطا الذى كان من حاشية الأمير باديس بن المنصور،وكان يرافقه فى رحلاته الحربية،وبعد وفاته عمل طبيبا خاصا لابنه المعز بن باديس[١٩٤] وكان مبعوثه الخاص إلى الفقهاء والعلماء[١٩٥] مما مكنه من استخدام نفوذه لصيانة مصالح بنى طائفته[١٩٦].

كما تُرك لليهود نظامهم القضائي كما كان دون تدخل أو إكراه،فقد اختصت المحكمة اليهودية العليا فى القيروان بمهمة الفصل بين اليهود فى قضاياهم وكانت تعرف ببيت الدين ورأسها أحد الأحبار عرف بديان اليهود كان يساعده اثنان من كبار المجتمع اليهودى يشكل ثلاثتهم مجلس الفصل فى القضايا المرفوعة أمامه من أفراد المجتمع اليهودى[١٩٧]،وهو ما تلح على تأكيده وثائق الجنيزة التى كشفت أن غالبية القضايا المدنية فى العصر الفاطمى كانت تنظر أمام

محاكم يهودية[١٩٨]. كما أشارت المصادر اليهودية إلى وجود هذا المجلس القضائى بالمهدية حوالى سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م وحتى بعد ذلك التاريخ [١٩٩].بيد أن الفقه الإسلامى قد استجاب إلى رغبة اليهود فى التقاضى فيما بينهم أمام القضاء الإسلامى[٢٠٠]،شريطة موافقة رؤسائهم[٢٠١]، لا سيما فى الحالات التى يثبت فيها احد طرفى الخصومة أن قضاة اليهود وفقهاءهم على عداوة معه أو مع عائلته[٢٠٢]،وهو ما حدا بالفقهاء إلى إلزام القاضى بعقد مجلس القضاء فى رحبة المسجد"ليصل إليه اليهودى والحائض" [٢٠٣]،وأن يجعل لهم يوما حسب أعدادهم [٢٠٤]. وترد بهذا الخصوص نازلة من القيروان تتعلق بأشخاص من اليهود طالبوا شخصا منهم بمظالم وأقاموا ضده الدعوى أمام محكمة يهودية،فى حين أصر المدعى عليه رفع القضية إلى الحكم الإسلامى،فجاءت فتوى الفقيه ابن العطار بأن لليهودى ذلك،شريطة امتلاكه الوثيقة التى فيها حجته،وأن يكون شهوده من المسلمين العدول[٢٠٥].

وتجلت عدالة القضاء الإسلامى فى حماية اليهود من اعتداء بعض المسلمين وجورهم،ففى نازلة دالة رفع لأحد قضاة القيروان مخاصمة بين مسلم وذمى،ادعى فيها الذمى أنه أسلف المسلم مبلغا من المال على سبيل القرض والسلف،وأنه ماطل فى رده،فى حين أنكر المسلم وادعى أن الذمي أعطاه المال لشراء زيت وأنه أوصله إليه،فرفع القاضى المسالة إلى الفقيه المازرى الذى أفتى بأن اعتراف المسلم بأخذ المال يوجب عليه رده،وأن القول فى المسالة هو قول الذمى[٢٠٦]. وفى نازلة أخرى رُفع إلى احد قضاة مدينة قفصة يهودي بيده حرير يذكر أنه يبيعه،فى حين ادعى خصومه من المسلمين أنه انتهبه من قافلة معروفة،فجاء الحكم بتبرئة اليهودى مما نسب إليه،بعد أن أتى بشهود عدول من المسلمين من قفصة شهدوا بأمانة اليهودى وأنه ليس ممن يتهم بالسرقة[٢٠٧].ولا يخفى ما تشير إليه الرواية من تلك العلاقة الحميمية التى ربطت ذلك اليهودى بهؤلاء الشهود،والذين سارعوا إلى القاضى لأداء الشهادة لمساندة اليهودى ضد بنى دينهم،وإنقاذه من مأزق خطير،وهو ما وجد قبولا وإنصافا عند القاضى الذى احترم تلك الشهادة وارتكن إليها فى إصدار الحكم دون بينة واضحة.

سُمح لليهود بممارسة ما اعتادوا عليه من معاملات دينية وإن كانت محرمة فى شرع الإسلام،فقد سئل أحد فقهاء المالكية عن تعامل اليهود بالربا فأفتى بأنه لا يجوز التعرض لهم فى ذلك[٢٠٨]،وسجل الفقهاء موقفهم القائم على أنه ليس للإمام الحق فى الحكم بين أهل الذمة فى

معاملتهم بالربا أو التدخل بينهم[٢٠٩].كما سمح لليهود بالزواج على طريقتهم،ولم يُعارَضُوا حتى في الزواج من المحارم،فقد سئل احد المالكية:"أرأيت أهل الذّمّة إذا كانوا يستحلّون في دينهم نكاح الأمهات والأخوات وبنات الأخ أنخليهم وذلك.قال: أرى أنه لا يعرض لهم في دينهم،وهم على ما عوهدوا عليه، فلا يُمنعون من ذلك إذا كان ذلك مما يستحلون في دينهم"[٢١٠]

ومن المنظور ذاته احترم الفقه الإسلامي عادات اليهود الدينية ومنها تعظيم يوم السبت،وعليه فقد ناقش الفقهاء مسالة تحليف اليهودى فى ذلك اليوم،وكراهة إحضاره إلى ساحة القضاء تعظيما له،كما ألزموا الأشخاص المالكين للرقيق اليهود أن يحترموا واجبهم الدينى نحوه،بأن لا يستعملوهم فى ذلك اليوم،وأن يجعلوه عطلة لهم[٢١١].

واستناداً إلى دخول أهل الذمة فى دائرة المواطنين أعطى الفقهاء للحاكم الحق فى إجبار أهل الذمية على انكاحها إن أرادت ذلك ومنعوها،لأن منعهم لها من الظلم،الواجب على الحاكم رفعه عنها،شريطة ألا يكون زواجها ذلك من مسلم،ففى تلك الحالة ليس للحاكم الحق فى هذا الإجبار،لأنه ليس من التظالم إذ قد لا يجيزونه فى دينهم[٢١٢].كما أطلق الفقهاء يد الحاكم فى منع اليهود من التفريق بين الأولاد والأمهات لأنه نوع من التظالم[٢١٣]،وهو ما تؤكده وثائق الجنيزة[٢١٤].ومن المنظور ذاته جاءت فتوى أحد فقهاء المالكية بعدم التفريق بين صبى يهودى ابن ثمانى سنوات كان قد أسلم وبين أمه أو أبيه،إلى أن يبلغ حد الاعتماد على ذاته وعندها يعرض عليه الإسلام مرة أخرى[٢١٥].

وانطلاقاً من الوحدة المعيشية والمصير المشترك لكل عناصر السكان دون تفرقة،أفتى الفقهاء المالكية بجواز خروج أهل الذمة مع المسلمين لأداء صلاة الاستسقاء غير منفردين عنهم[٢١٦] كما لم يمنعوهم من المشاركة مع المسلمين فى القتال ورد الهجوم عن البلد الذى يعيشون به[٢١٧].

كان من ألوان التسامح الإسلامى احترام المقدسات اليهودية والضرب على أيدى كل من حاول السخرية منها أو توجيه الإهانة لها،فقد دب خلاف بين أحد مسلمى القيروان وبين يهودى لعن المسلم على أثره التوراة،فرفع اليهودى الأمر إلى القضاء الإسلامى،مستندا إلى أحد الشهود من المسلمين كشاهد إثبات،فجاءت فتوى الفقيه القابسى بتوقيع العقوبة على الرجل

المسلم،بعد أن أسقط عنه حد القتل لغياب الشاهد الثاني[٢١٨].وانطلاقا من ذلك الاحترام لكتاب اليهود المقدس وتعظيمه،أفتى ابن أبي زيد القيرواني وغيره من فقهاء القيروان بوجوب الكفارة على من حلف بالتوراة ثم حنث في يمينه[٢١٩].

كان لليهود مقابرهم الخاصة بهم تمشيا مع عوائدهم وتقاليدهم في دفن موتاهم،فقد كان لهم بالقيروان مقبرة خاصة بهم تسمى" اليهودية" تقع وراء باب أبي الربيع[٢٢٠]،وكانت توجد بتونس مقبرة خاصة لليهود احتوت على آلاف الموتى،كانت من ممتلكات الرابطة اليهودية[٢٢١]،ووقعت مقابر منطقة الحارط بجبل نفوسة إلى الجنوب عند قصر يسمى آت مان كان نصفها لليهود ونصفها الآخر للبربر[٢٢٢].

والراجح أن التسامح الديني الذي أبداه مسلمو أفريقية،والسلوكات الحضارية التي تعاملوا بها مع اليهود،حملت هؤلاء على ردود أفعال ايجابية،كان من أهمها حبس بعض أملاكهم لصالح المساجد والإنفاق على طلاب العلم وفقراء المسلمين[٢٢٣] بل لم يتردد بعضهم عن الإقبال على الإسلام واعتناقه حيث ترد في المصادر إشارات عن يهود كانوا يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد[٢٢٤]،وعمن ساقته الهداية من مذهب اليهود إلى الإسلام[٢٢٥]،وعمن انتقل من اليهودية إلى الإسلام "وحسن إسلامه"[٢٢٦] وعمن أسلم على يديه يهودي وحسن إسلامه[٢٢٧]،وعمن كان "يهوديا فأسلم"[٢٢٨]و عمن كان يهوديا "ثم إنه أسلم..ولزم الصلاة ودراسة القرآن"[٢٢٩]،وحسب نازلة فريدة أسلم صبي يهودي لم يتجاوز عمره عشر سنوات وسعى البعض إلى كفالته بعيدا عن أمه اليهودية فصدرت الفتوى بأنه لا يحال بينه وبين أمه أو أبيه[٢٣٠]،مما يعكس جانب الرحمة الذي ألحت عليه شريعة الإسلام.كما لم يأنف بعض اليهود من الإقبال على قراءة القرآن بل وحفظ بعض آياته،وهو ما تكشف عنه رواية ابن عربي[٢٣١] التي تتحدث عن مشاورة مسلم قيرواني لرجل يهودي حول استخدام البر أم البحر في أداء فريضة الحج،فأشار عليه بأن يبدأ بما بدأ الله به،متأولاً قوله تعالى "هو الذي يسيركم في البر والبحر"[٢٣٢]،وحسب شهادة البيذق[٢٣٣]صلى ابن تومرت على جثمان يهودي بتونس صلاة الجنازة أثناء مروره عليها لأنه كان في حياته يصلي مثل المسلمين.

يندرج ضمن صور التعايش وألوان التسامح مع اليهود السماح لهم بالمشاركة العلمية والفكرية،فرغم هيمنة المسلمين على أفريقية،إلا أنهم أشاعوا ثقافة متسامحة أساسها الاختلاف والتنوع،حتى أن الفكر اليهودي لم يعرف نهضة مثلما عرفها في الغرب الإسلامي وهو ما اعترف به متخصص يهودى[٢٣٤] فى الأدب اليهودى الوسيط حيث يقول: لقد ذابت أو كادت تذوب الحدود بين اليهود والعرب في المغرب والأندلس،وكانت تلك هي المرة الأولي والأخيرة في التاريخ الثقافي العبري التي أثمرت نتاجاً أدبياً يمتزج فيه أدب اليهود بأدب أمة أخري.

هكذا،شارك اليهودُ المسلمينَ فى الإقبال على مراكز العلم والثقافة،ففى العصر الفاطمى تصدى الفقيه ابن سحنون[٢٣٥] (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)لظاهرة مشاركة أولاد النصارى واليهود أولادَ المسلمين فى دخول الكتاتيب لتعلم القرآن والكتابة.وحسب شهادة المراكشى[٢٣٦] كان اليهود والنصارى ببلاد المغرب"يقرئون أولادهم القرآن"،ولعل حضورهم بالكتاتيب كان وراء مناقشة الفقهاء حكم أخذ المعلم هدية من أبناء أهل الذمة فى أيام أعيادهم كالنيروز والمهرجان والفصح[٢٣٧].كما تمتع اليهود بالحرية التامة فى تعليم أولادهم علوم التوراة والكتابة بالعبرية،فضلا عن العلوم الأخرى كالحساب والرياضيات والتى درسوها على أيدى شيوخ مسلمين[٢٣٨].وعرفت بلاد الغرب الإسلامى المدارس التى كان يجتمع للعلم فيها المسلمون واليهود والنصارى[٢٣٩]،وسئل الفقيه ابن سحنون عن حكم أخذ المسلم القرآن وتعلمه على يد يهودي أو نصراني[٢٤٠]،مما يعنى أن فريقاً من اليهود أجادوا قراءة القرآن وتجويده،وهو ما تفصح عنه رواية السموْأل[٢٤١] اليهودى الذى كان قبل إسلامه يقرأ القرآن فاتضح له إعجازه اللغوى وأنه ليس من أساليب البشر.

تأسست فى القرن الرابع الهجرى- العاشر الميلادي - مدارس تلمودية فى المدن ذات التجمعات اليهودية الكبرى مثل القيروان التى أُسست فيها مدرستان،أسس الأولى الرابى يعقوب بن نسيم (ت٣٩٨هـ/١٠٠٧م)،والثانية أسسها الرابى حوشيل(ت٤٠٣هـ/١٠١٢م) بهدف تعليم اللاهوت،ضمت أقوى هيئة كهنوتية ذات تنظيم فى الشمال الإفريقي،ومن هاتين المدرستين تخرج الكثير من علماء الدين اليهودى[٢٤٢].

وقد حرص اليهود على تعلم العربية والتحدث بها والكتابة وعرفوا قيمتها واثنوا عليها وفى ذلك يقول يهودا الحريزى صاحب المقامات العبرية المشهورة الأديب اليهودى فى العصر الوسيط(ق ٦ هـ/١٢م)"اعلموا أن الشعر الرائع الذي يمتلئ بالروائع والنفائس هو من ممتلكات العرب في البداية، فقد برعوا في نظمه ووزنوه بميزان الصدق ونصبوه في مكانه، وأقاموا مسكنه،وقال أيضاً " عاش كثير من أبناء شعبنا مع العرب في بلادهم، واعتادوا الحديث بلغتهم ،وباندماجهم معهم تعلموا صنعة الشعر منهم "(٢٤٣).

وكان التفاعل على جميع المستويات بين الجانبين،ونتج عن هذا الموقف أن مارس اليهود حياتهم باعتبارهم من رعايا الدولة,لا باعتبارهم غرباء، بحيث استطاع علماؤهم أن ينتجوا الفكر الديني الذي أعاد الحيوية إلى الديانة اليهودية بعد طول ركود،وبالشكل الذي جعل المتخصصين يطلقون على هذه الفترة من تاريخ الفكر الديني اليهودي في المنطقة العربية اسم "العصر الجاءوني" أو" عصر الجاءونيم"،أي العباقرة والمجددين"(٢٤٤) .ولا غرو فقد برزت أسماء العديد من المفكرين اليهود في شتى مناحي المعرفة،خلال العصرين الفاطمى والزيرى(٢٤٥).

صفوة القول،إن بلاد المغرب الأدنى مثلت خلال العصرين الفاطمى والزيري بوتقة انصهرت فيها عناصر السكان على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ودياناتهم على أساس وحدة المواطنة والانتماء،مما جعلها مثلاً صادقاً للتعايش والتسامح بين المسلمين واليهود،سواء على مستوى التعايش الاقتصادي- الاجتماعي وتبادل العلاقات والتأثير والتأثر،أو على مستوى احترام العقائد والمقدسات وصيانة دور العبادة،أو على مستوى المشاركة الفكرية والعلمية.مما يدحض تلك التخريجات التى تلح على انعزالية اليهود اجتماعيا ودينيا وفكريا واقتصاديا داخل المجتمعات الإسلامية واعتبارهم أقلية يهودية فى مواجهة أغلبية مسلمة،وتنفى تلك التحاليل المرتكزة على أطروحة معاناة اليهود بالمغرب الإسلامى،وحالة الذل والهوان التى كانوا يرزحون فى ظلها،والتى تهدف فى التحليل الأخير إلى توظيف التاريخ المغربي سياسيا لمصلحة المشروع الصهيوني الاستيطاني.

الهوامش

(١) عديدة هي الدراسات الحديثة التي تناولت الحديث عن هذه القضية انطلاقا من النصوص الدينية ورصد الظاهرة في التاريخ الإسلامي.انظر على سبيل المثال عبد العظيم المطعني:مبادئ التعايش السلمي في الإسلام منهجا وسيرة،دار الفتح للإعلام العربي،القاهرة ،١٩٩٦، ترتون :أهل الذمة في الإسلام،ترجمة حسن حبشي،ط٥ القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٤,ادوار غالي الذهبي:معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي،مكتبة غريب،القاهرة،١٩٩٣،فهمي هويدي:مواطنون لا ذميون،دار الشروق،١٩٨٥،ناريمان عبد الكريم:معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٦.

(٢) عن الدلالة اللغوية لهذا اللفظ تذكر كتب المعاجم أن لفظ تعايشوا:عاشوا على الألفة والمودة،ومنه التعايش السلمي، وعايشه عاش معه.انظر الزمخشري:أساس البلاغة،تحقيق محمد باسل،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨،ج١،ص٦٨٩،المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية بالقاهرة،دار الفكر،ج٢،ص ص ٦٣٩-٦٤٠.

(٣) هوبكنز:النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى،تونس،١٩٨٠،ص١٢٤،سليم شعشوع:صفحات من التعاون اليهودي العربي في الأندلس،مطبعة دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر،شفا عمرو،١٩٩٠،ص ص٤٣،٥١،

David Nirenberg:" What can Medieval Spain teach us about Muslim-Jewish Relations?", Central Conference of American Rabbis, 2002,pp.18-20.

(٤) مارك كوهين:المجتمع اليهودي في مصر الإسلامية في العصور الوسطى،ترجمة نسرين مرار وسمير نقاش،جامعة تل أبيب،المعهد اليهودي العربي،١٩٨٧،ص ص ٩-١٠.

(٥) Ashtor, E:The Jews and Mediterranean Economy, London ,1983 ,pp.55-56.

(٦) قاسم عبده قاسم:اليهود في مصر،دار الشروق،القاهرة، ١٩٩٣،ص ص ١٣٨، ١٤٢.

(٧) محمد جلاء إدريس:التأثير الاسلامي في الفكر الديني اليهودي- دراسة نقدية مقارنة لطائفة اليهود القرائين،مكتبة مدبولي،القاهرة،١٩٩٣،،ص ص ٤١،٣٣.وعن هذه الفرقة انظر جعفر هادي حسن:فرقة القرائين اليهود- دراسة في نشأة الفرقة وعقائدها وتاريخها إلى العصر الحديث،بيروت،مؤسسة الفجر،١٩٨٩،حسن ظاظا:الفكرالديني الإسرائيلي- أطواره ومذاهبه،معهد البحوث والدراسات العربية،١٩٧١, ص ص ٢٤٣-٣٢٢،مراد فرج :القراءون والربانون,القاهرة،١٩١٨.

(٨) الدرجيني:طبقات المشائخ بالمغرب،تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، ١٩٧٤،ص١٣٢،ابن حماد:اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم،تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس،الرياض،١٩٨١،ص ص ٤٩،٤٨،الدباغ:معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح وآخرين،مكتبة الخانجي،مصر،١٩٦٨،ج٣،ص١٦١،الصفدي: الوافي بالوفيات،تحقيق احمد الارناؤوط وتركي مصطفى،دار إحياء التراث،بيروت،٢٠٠٠م ،ج٩، ص ١٧٥،ج١٣، ص ٦٨،المقريزي:اتعاظ الحنفا في ذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال،ط.دار الفكر العربي،،١٩٤٨،ج٢،ص ص ٨٣،٧٣،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي،

مكتبة مدبولي،ج٢،١٩٩٧،ص ٥٣٩،السيوطي:حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة،المطبعة الشرقية مصر،١٩٠٩،ج٢،ص١١٦ ،

Mann, M.A.:The Jews in Egypt and Palestine Under The Fatimed caliphs, press,1920,1,p.11-16,47,123-124,144,250-257. Goitein:A Mediterranean Society the Jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo geniza, University of California,Paress,1983,1,pp.33-34,175, Stillman M.A: The Jews of Arab Lands: A History and Source Book, The Jewish Publication Society of America, Philadelphia 1979 p.43.

(٩) قاسم عبده قاسم:اليهود في مصر،ص ٤٨، Adler,(ed.):Jewish Travelers,(London ,n.d.),pp.226-228 .

(١٠) عياض:ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك،ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، منشورات دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٨،ج٢،ص ٤٣ .

(١١) نجم الدين الهنتاتي:مواقف علماء المالكية من أهل الذمة بافريقية الى منتصف القرن الخامس الهجري، مجلة معهد الاداب الشرقية،تونس،العدد ١٨٦، ٢٠٠٠، ص٧٠(هامش٦٠).

(١٢)الفارسي:مناقب محرز بن خلف،تحقيق روجيه ادريس،باريس،١٩٥٩،ص ١٥٦، عياض:المدارك،ج٢،ص ٢٨٨.

(١٣) يؤكد على ذلك محمد بن مالك اليماني حين ذكر أن الطعن في نسب الفاطميين جاء بسبب " استعمالهم اليهود في الوزارة والرياسة وتفويضهم إليهم تدبير السياسة ما زالوا يحكمون اليهود في دماء المسلمين وأموالهم وذلك مشهور عنهم" انظر كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة، تحقيق محمد بن علي الجوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني،صنعاء،١٩٩٤،ص ٧٧، المالكي:رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية،تحقيق بشير البكوش،دار الغرب الاسلامي،ط٢ ١٩٩٤،ج٢،ص ص ٣٤٦،٤٩٤،ابن حزم:الفصل في الملل والاهواء والنحل،تحقيق محمد إبراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة،دار الجيل، بيروت،د.ت،ج٥،ص ٣٧، ٤٢،ثم تابع دراسة إبراهيم عامر الرحيلي:بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود،مكتبة الغرباء الأثرية،د.ت.

(١٤) ابن عذاري:البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنسال،دار الثقافة ،بيروت،د.ت،ص ١٥٩، ابن الأثير : الكامل في التاريخ،تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية،بيروت،ط٢ ١٤١٥هـ،ج٦، ص ٤٤٧،ياقوت الحموي : معجم البلدان،دار الفكر،بيروت،د.ت،ج٥،ص ٢٣٠.

(١٥) الذهبي:تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،تحقيق عمر عبد السلام تدمري،دار الكتاب العربي،بيروت،١٩٩٦،ج٣٩،ص ٢٧٥.

(١٦) السيوطي:حسن المحاضرة ،ج٢،ص١١٦.

(١٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق احسان عباس،دار الثقافة،لبنان،(د.ت)،ج٧،ص ٢٩،

Goitein: A Mediterranean Society ,1,p.32.

(١٨)جواتياين:دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية،ترجمة عطية القوصي،الكويت،وكالة المطبوعات،ط١،١٩٨٠،ص ٢٠٠ .

Adler,(ed.),Jewish Travellers,pp.226-228,Man: The Jews in Egypt,p.435.

(١٩) الدرجيني:الطبقات،ص١٢٤.

(٢٠) الدرجيني: الطبقات،ص ١٣٢.

(٢١) Stillman M.A .:The Jews of Arab ,pp.183-184.

(٢٢) البرزلي:فتاوى البرزلي،تحقيق محمد الحبيب الهيلة،دار الغرب الاسلامي،ج٢،ص ٤٢.

(٢٣) Stillman M.A.:The Jews of Arab ,pp.183-184

(٢٤) المسالك والممالك،ليدن،١٨٧٣ ص ٤٧.

(٢٥) عن وضعية اليهود في العراق تحت السلطة العباسية انظر:الطبري:تاريخ الرسل والملوك،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،القاهرة ،١٩٦٣،ج٩،ص ١٧١،ومشاهدات ابن العربي ببغداد التي وردت في نازلة شهيرة عند الونشريسي:المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب،تحقيق مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي،نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية،المملكة المغربية،١٩٨١،ج٢،ص ص ٢٥٤- ٢٥٦،يحيى عبد الهادي:أهل الذمة في العراق في العصر العباسي،عالم الكتب الحديث،٢٠٠٤.

(٢٦) المجليدي:كتاب التيسير في أحكام التسعير،تقديم وتحقيق موسى لقبال،الجزائر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧١م،ص٧٨-٧٩،ثم تابع إشارة شبيهة عند المالكي:رياض النفوس،ج١،ص ٤٧٧، عياض: المدارك،ج١،ص ٤٨٧،البرزلي:فتاوى،ج٢،ص٤٤.

(٢٧) المالكي:رياض النفوس،ج١،ص ٢٧٠،عياض:المدارك،ج١، ص ٢٧٨.

(٢٨) ابن الأثير:الكامل،ج٩،ص٤٢٩،القفطي:أخبار العلماء بأخبار الحكماء،مطبعة السعادة،مصر، ١٣٢٦هـ،ص ص ٢٠٩ ، ٢٥٧ .

(٢٩) المراكشي:المعجب في تلخيص أخبار المغرب،تحقيق محمد سعيد العريان و محمد العلمي،مطبعة الاستقامة،القاهرة،١٣٦٨هـ،ص ٣٠٥.

(٣٠) المراكشي:المعجب،ص ٣٠٤.

Hirschberg, J.W. :A history of the Jews in North Africa, Leiden. E. J. Brill 1974,1,p.370.

(٣١) المعجب،ص ٣٠٥.

(٣٢) على سبيل المثال:نظراً إلى الشهرة التي صارت للصناع والتجار اليهود في الصياغة والصيرفة،فقد أصبحوا محببين لدى حكام المغرب، لاسيما بعد ما اتسعت رقعة الدولة واستحكمت سلطة المخزن،فبات الحكام والسلاطين يرغبون في الظهور بمظهر الأبهة والعظمة، تجسيدا للرهبة والأنفة من خلال الأمتعة النادرة والمقتنيات الثمينة المصنوعة من الذهب والفضة،والمكللة بالأحجار النفيسة الرفيعة.انظر علي بن يوسف الحكيم:"الدوحة المشتبكة في ضوابط دار

السكة "،مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٨،ص ص ١١٧-١١٨.كما نشير إلى الرواية التي تذكر أن يهوديا دل اليسع بن مدرار على المهدي الفاطمي فكان سببا في سجنه.والتي تناسها الفاطميون فيما بعد انطلاقا من المنفعة العائدة من اليهود.انظر الحميري:الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس،مؤسسة ناصر للثقافة،بيروت،١٩٨٠،ص ٣٠٦ .وحسب رؤية جواتيان اضطر الفاطميون إلى التسامح مع الأقليات غير الإسلامية باعتبارهم أقلية داخل محيط سني كبير.انظر: Goitein: A Mediterranean Society,1,p. 31.

(٣٣) انظر مثلا كيف أمر ابن أبي زيد القيرواني بعدم السلام على اليهود والنصارى وأن من سلم على ذمي فلا يستقيله وإن سلم عليه اليهودي أو النصراني فليقل عليك ومن قال عليك السلام بكسر السين وهي الحجارة فقد قيل ذلك.الرسالة،دار الفكر ،بيروت،١٩٨١،ص ٣١٧،النفراوي:الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني،تحقيق رضا فرحات،مكتبة الثقافة الدينية،د.ت،ج١، ص ٩٨.وحين سال احدهم سفيان الثوري أصافح اليهود والنصارى،قال:برجلك نعم". ابن خلكان:وفيات الأعيان،ج٢،ص ٣٨٨.وهو ما يخالف أعمال الصحابة وأقوالهم،فقد كان الصحابي أبو أمامه الباهلي لا يمر بمسلم ولا يهودي ولا نصراني إلا بدأه بالسلام،وروي عن ابن مسعود وأبي الدرداء وفضالة بن عبيد أنهم كانوا يبدءون أهل الذمة بالسلام،وكتب ابن مسعود إلى رجل من أهل الكتاب السلام عليك . انظر ابن عبد البر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد تحقيق مصطفى العلوي ومحمد البكرى،وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية، المغرب،١٣٨٧هـ،ج١٧،ص ٩١.

(٣٤) عن موقف فقهاء الرقابة المتشدد تجاه اليهود انظر ابن أبي زيد القيرواني:النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات،ج٣،تحقيق محمد حجي،دار الغرب الاسلامي،١٩٩٩،ص٣٧٥،الدباغ:معالم الإيمان،ج٣،ص١٦١،الدرجيني:الطبقات،ج٢،ص٤٠١،البرزلي:فتاوي،ج١،ص ص٣٤٦،١٥٧،القرافي:الذخيرة في الفقه المالكي،تحقيق محمد حجي، دار الغرب الاسلامي،بيروت،١٩٩٤م،ج٨،ص ٢٠، ج١٣،ص ٣٤٣.

(٣٥) تابع تلك القيود عند حسن ظاظا:الفكر الديني اليهودي،ص ص ١٩٠-٢٠٠،زبيدة عطا:يهود العالم العربي دعوى الاضطهاد،دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية، ٢٠٠٤،ص ص٢٣-٣٥.

(٣٦) Nirenberg (David):" What can Medieval Spain teach us about Muslim-Jewish Relations?,p.22.

ثم انظر كيف فهم أهل الفكر الإسلامي ذلك فذهبوا إلى أن دفع أهل الذمة للجزية " لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا لأنهم من جملة الرعية" انظر الصفدي:أعيان العصر وأعوان النصر،تحقيق على أبو زيد واخرون،دار الفكر المعاصر،بيروت،١٩٩٨،ج٤،ص ١٧ .وصرح الفقيه المالكي ابو بكر بن العربي ان الواجب يتطلب المساواة بين المسلمين وأهل الذمة باعتبارهم جزء من سكان دار الإسلام..الونشريسي:المعيار،ج٢،ص ٢٥٤ .واستنادا إلى المساواة بين المسلم واليهودي في المكانة الاجتماعية اسقط مالكية افريقية الحد عن المسلم الذى يقول لأخيه " يا يهودي" ابن فرحون : تبصرة الحكام في أصول الاقضية والأحكام،المطبعة العامرة الشريفة، مصر،١٣٠١هـ،ج٢،ص١٧٨.ثم تابع نظرة الإسلام إلى رابطة الأخوة التي تجمع المسلم بغيره داخل حدود الدولة عند:يوسف القرضاوي:من فقه الدولة في الإسلام:مكانتها ..معالمها..طبيعتها..موقفها من الديمقراطية والتعددية والمرأة وغير المسلمين،دار الشروق،١٩٩٧،ص ١٩٧-١٩٨.وعن مواطنة أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي انظر فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون،دار الشروق،ط٣ ،١٩٩٩.

(٣٧) Chouraqui, N.: Between East and West. A History of The Jews of North Africa, New York.1973,,p.79.

(٣٨) اشتور : تاريخ اليهود فى بلاد المسلمين،القدس،(باللغة العبرية)،ص ٨٢ .

(٣٩) Ashtor(E): The Jews of Moslem Spain. Philadelphia, 1979,2,p.285.

(٤٠) Menahem Ben-Sasson 'The Jewish Community of Gabes in the 11th Century' in: M. Abitbol (ed.), Communaut s juives des marges sahariennes du Maghreb, J rusalem 1982,pp.264-266.

(٤١) "The Jews in The Medieval Islamic city", in Jews of Medieval Islam: Community, Society, & Identity: Proceedings of an International Conference Held by the Institute of Jewish Studies, University of London, 1995,p.3

(٤٢) استنادا إلى وثائق الجنيزة نسب يهود المغرب الأدنى إلى المدن التى نشئوا بها،مثل الطرابلسى والقيروانى والقابسى والصفاقصى والسرتى والتونسى واللبدى....الخ. انظر :مارك كوهين:المجتمع اليهودى،ص ص ٣٣،٥٢-٥٣،٧٣،

Stillman M.A.:The Jews of Arab Lands,pp.33-47, Mann: Texts and studies in Jewish History and literature, New york,1972,p.452. Moshe Gil :Jews in Islamic Countries in the Middle Ages, Brill,2004,pp.687 Hirschberg: A history of the Jews in North Afrrica,1,p.184, Hirschfeld:Family of The Qabisi from Kairowan,(J.Q.R.),16,1904,p.575 .

(٤٣) ابن سعيد المغربي:كتاب الجغرافيا،تحقيق اسماعيل العربى،بيروت،١٩٧٠،ص ١٤٧ .

(٤٤) Mann: The Jews in Egypt and in Palestine ,1,p.87.

(٤٥) ابن سعيد المغربي:كتاب الجغرافيا،ص ١٤٦ .

(٤٦) البرزلى: فتاوى،ج٢،ص ٤٤.

(٤٧) اليعقوبى:كتاب البلدان،ملحق بكتاب الاعلاق النفيسة لابن رستة ،ليدن،١٨٩١، ص ٣٤٤؛ابن خرداذبة:المسالك والممالك،مكتبة المثنى ،بغداد،د.ت،ص ٢٤، البكرى:المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب،دار الكتاب الإسلامى ،القاهرة،د.ت، ص ٨٥.

(٤٨)، الإدريسي: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق،عالم الكتب،بيروت،١٩٨٩،ج١،ص ٣١٤ .

(٤٩) ابن الأثير :الكامل،ج٦،ص ١٤.

(٥٠) البرزلى:الفتاوى،ج٢،ص ٤٤.

(٥١) Mann: Texts and studies ,p.465.

(٥٢) Goitein: Mediterranean society.4,p.37.

(٥٣) أبو زكريا: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربى،اصدرات المكتبة الوطنية، الجزائر،١٩٧٩، ص ١٦٢، الإدريسي:نزهة المشتاق،ج١،ص٣١١، الحميرى: الروض المعطار،ص ١١.

(٥٤) حاييم زعفراني:ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب،ترجمة أحمد شعلان وعبد الغني أبو العزم، د.م،١٩٨٧، ص٢٤.

(٥٥) الإدريسي: نزهة المشتاق،ج١،ص ٣١١،الحميري:الروض المعطار،ص ١٢.

(٥٦) الدرجيني:الطبقات،ص ص ١٢٣، ١٢٤،الشماخي:تراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس الهجري،تحقيق ودراسة محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، م ٣٠، ١٩٩٥ ،ص١٧١.

(٥٧) الدرجيني:الطبقات،ص ص٤٧٢، ٤٨٤، الشماخي :تراجم،ص ٢٥٢.

(٥٨)البكري:المغرب،ص ٩،الحموي: معجم البلدان،ج٢،ص ٩٢.

(٥٩) Hirschberg: A History of the Jews in North Afrrica,1,p.373-374 .

(٦٠) البرزلي:الفتاوى،ج٤،ص ١٦٦.

(٦١) ابن حوقل:المسالك والممالك، ص ٤٧،

Menahem Ben-Sasson 'The Jewish Community of Gabes in the 11th" ,pp.264-284" .

(٦٢) مجهول الاستبصار،ص ١٤٤.

(٦٣) حاييم زعفراني:ألف سنة من حياة اليهود،ص ٢٤ , Mann: Texts and studies,,p.344 .

(٦٤) أبو العرب تميم:طبقات علماء أفريقية وتونس،تحقيق علي الشابي و نعيم اليافعي،ط٢. الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥،ص ١٣٠،ابن جلجل:طبقات الأطباء والحكماء،تحقيق فؤاد سيد،دار الكتب والوثائق القومية،القاهرة،٢٠٠٥،ص ٨٥،الرقيق القيرواني:قطعة من تاريخ أفريقية والمغرب،تحقيق المنجى العكى، تونس، ص١٦٧، المالكي:رياض النفوس،ج٢، ص ٢٧٣.

(٦٥) Goitein: : A Mediterranean Society.,1,p.276.

(٦٦) Stillman: "The Eleventh Century Merchant House of Ibn Awkal". Journal of the Economic and social History of the orient, 16.1973.pp.17,30 .

(٦٧) ابن عذارى:البيان المغرب ،ج١،ص١٤١ .

(٦٨) ابن الأبار: الحلة السيراء،تحقيق حسين مؤنس،دار المعارف ،القاهرة، ط٢ ١٩٨٥،ج١،ص ١٧٦.

(٦٩) لم يفرض على يهود المغرب الانعزال فى أحياء خاصة إلا خلال العصر المريني حيث أسس لهم حي عرف بالملاح كان بالقرب من قصر الحاكم ،لحمايتهم من تعصب السكان المحليين، نتيجة أحداث دموية نشبت بينهم.انظر مجهول:قصة البلديين أهل فاس،مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب ، تحت رقم ١٨٩٣ تاريخ.

(٧٠) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص٤٢.

(٧١) ابن خلدون:تاريخ ابن خلدون المعرف بالعبر،دار القلم،بيروت،١٩٨٤،ج٢،ص ٣٦٩.

(٧٢) ابن خلدون :تاريخه،ج٦،ص ١٤٠.

(٧٣) الدرجيني:الطبقات،ص ٤٨٤.

(٧٤) ابن خلدون: تاريخه،ج٦،ص ٧٢، Chouraqui :A History of The Jews of North Africa,79.

(٧٥) البرزلي: فتاوى،ج١،ص ٦٣٣.

(٧٦) المالكي:رياض النفوس،ج٢، ص ٢٧٣،الدباغ:معالم الإيمان،ج٣،ص١٩.

(٧٧) البرزلي: فتاوى،ج١،ص١٥٧،ج٢،ص٢١.

(٧٨) جوايتاين:دراسات في التاريخ الإسلامي،ص٢٣٢.

(٧٩) المالكي :رياض النفوس،ج٢،ص ١١٩،عياض: المدارك،ج٢، ص ٧٥.

(٨٠) جوايتاين:دراسات في التاريخ الإسلامي،ص٢٣٢.

(٨١) Menahem Ben-Sasson 'The Jewish Community of Gabes in the 11th Century' ,pp. 283-284.

(٨٢) البرزلي:ج٦،ص٢٣٢، الونشريسي:المعيار،ج١١،ص ٣٠١.

(٨٣) الهادي روجيه إدريس:الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي،دار الغرب الاسلامي،١٩٩٢،ج٢،ص٣٨٤.

(٨٤) زبيدة عطا:اليهود في العالم العربي،دراسة تاريخية في قضايا الهوية-الاندماج-القدس،دار عين للدراسات والبحوث النسانية والاجتماعية،٢٠٠٣،ص١٤١.

(٨٥) الونشريسي:المعيار،ج٨،ص٤٣٧

(٨٦) ابن سهل:الإعلام بنوازل الأحكام، المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد عب العزيز التويجري، المملكة العربية السعودية ١٩٩٥م ،ج١،ص ١٠٦.

(٨٧) المالكي:رياض النفوس،ج١،ص٤٧٧ .

(٨٨) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص١٩. الجرسيفي، رسالة في الحسبة، نشرت ضمن كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب"، تحقيق: إ. ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥م، ص١٢٢، ١٥١.

(٨٩) ابن أبي زيد القيرواني:كتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والتاريخ وغير ذلك، تحقيق عبد المجيد تركي،ط. دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠،ص ١٩١.ذهب اشتور إلى أن كثيراً من المنازل التي يسكنها اليهود في

الغرب الاسلامي تعود ملكيتها إلى مسلمين أو نصارى، وأنهم قد استأجروها منهم استحجارا". انظر: Ashtor(E): The Jews ,3. P. 59

(٩٠) القرافي :الذخيرة ،ج٥،ص ٣٩٧.

(٩١) الونشريسي:المعيار،ج١١،ص٣٠١.

(٩٢) ابن أبي زيد:النوادر والزيادات،ج٣،ص ٣٧٦.

(٩٣) Chouraqui: A history of The Jews of North Africa,p.48. ومن المنظور ذاته كتب مارك كوهين كتابه: Jewish Self-Government in Medieval Egypt: The Origins of the Office of Head of the Jews, Ca. 1065-1126. Princeton University Press,1980.

(٩٤) دراسات في التاريخ الإسلامي ص١٥١.

(٩٥) مثل قولهم" سير مع اليهود، وخلي الجيران شهود" وقولهم " كل طعام اليهودي، ونعس فـا فراش النصراني". مأمون المريني:اليهود في الأمثال المغربية،مجلة فكر ونقد،ع ٣٥،

(٩٦) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص ٢٩٣- ٢٩٤.

(٩٧) الونشريسي:المعيار،ج٨،ص ص٤٣٤، ٤٣٧ .

(٩٨) ابن ابي زيد: النوادر والزيادات،ج٣،ص ٣٧٥،البرزلي: فتاوى،ج١،ص ٢٨٠ .

(٩٩) البرزلي: فتاوى،ج٦،ص٢٣٢.

(١٠٠) الونشريسي:المعيار،ج١١،ص٣٠١.

(١٠١) البغطوري: سير نفوسة، نسخة منقولة عن الأصل الموجود في مكتبة جربة، الجزائر، ورقة ٧٨.

(١٠٢) رياض النفوس،ج٢،ص ص ٥٠١-٥٠٢.

(١٠٣) سحنون وآخرون: المدونة الكبري تحقيق زكريا عميرات،دار الكتب العلمية،بيروت،د.ت،ج٢،ص ٩٤.

(١٠٤) الدباغ:معالم الإيمان:ج٣،ص ٦٨

(١٠٥) المالكي:رياض النفوس،ج١،ص ٣٣٦-٣٣٧.

(١٠٦) الونشريسي:المعيار،ج١١،ص ٣٠١.

(١٠٧) ابن أبي زيد القيرواني:النوادر والزيادات،ج٣،ص ٣٧٤.

(١٠٨) الونشريسي:المعيار،ج١١،ص ٣٠١.

(١٠٩) البرزلي:الفتاوى،ج٦،ص٢٣٢ .

(١١٠) نفسه.

(١١١) الونشريسي:ج١١،ص ١١٢

(١١٢) البرزلي: فتاوى،ج٤،ص٥٥٧.

(١١٣) الونشريسي:ج٨،ص٤٣٤

(١١٤) الونشريسي:ج٧،ص٥٢

(١١٥) الونشريسي:ج٨،ص٤٣٧

(١١٦) ردد الفقهاء أحاديث فى هذا الصدد منها"لا تقربوا اليهود والنصارى في أعيادهم فإن السخطة تنزل عليهم" ابن حجر:لسان الميزان،تحقيق دائرة المعارف النظامية،الهند،مؤسسة الاعلمي للمطبوعات،بيروت،ط٣ ١٩٨٦،ج١،ص ١٣٣. وألف بعضهم رسالة بعنوان "النهي عن المشاركة في أعياد النصارى واليهود" الصفدى:الوافى بالوفيات،ج٧،ص ١٩.

(١١٧) البرزلي: فتاوى،ج٣،ص ٥٧٣، الونشريسي:المعيار،ج١١،ص١١١.

(١١٨) جوايتاين:دراسات فى التاريخ ،ص ٢٣٨.

(١١٩) الونشريسي:المعيار،ج١٠،ص٥٦.

(١٢٠) البرزلي: فتاوى،ج٣،ص ٢٧٥.

(١٢١) زبيدة عطا:اليهود فى العالم العربى،ص١٨١

(١٢٢) البرزلي:فتاوى،ج٤،ص٢٨٤،ج١٠،ص ٤٠٩.

(١٢٣) تراجم،ص٢٥٢.

(١٢٤) تابع نموذجا شديد الدلالة حول هذا المعنى فى مصر الفاطمية عند الصفدى:الوافى بالوفيات،ج٢٤، ص١٤.

(١٢٥) الطبقات،ص٣٠٧.

(١٢٦) الشماخي: تراجم،ص١٧١-١٧٢.

(١٢٧) سحنون:المدونة،ج١، ص ص ٣٩٢،٣٤٥.

(١٢٨) البرزلي: فتاوى،ج٥،ص ص ٤٤٢-٤٤٣.

(١٢٩) نفسه.

(١٣٠) القرافى:الذخيرة،ج١٢، ص ٣٩٠.

(١٣١) سحنون:المدونة،ج١،ص ٥٩٣، النفرى:الفواكه الدوانى،ج٢، ص ٩١٧،الآبي الأزهري:الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني،المكتبة الثقافية، بيروت،د.ت،ص ٤٢٦.

(١٣٢) الشماخي: تراجم،ص١٧١-١٧٢.

(١٣٣) البرزلي: فتاوى،ج٥،ص٤٤٢،الونشريسي:المعيار،ج٧،ص ٦٥.

(١٣٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس،ط. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨- ١٩٧٩، ق١، م١، ص١٦١.

(١٣٥) الشنتريني:الذخيرة، ق١، م١، ص١٦١.

(١٣٦) Hirschberg: A history of the Jews in North Afrrica,1,p.296.

(١٣٧) دراسات في التاريخ، ص٢٣٨.

(١٣٨) نفسه، ص٢١٨.

(١٣٩) اللبيدى:مناقب الجبنياني،تحقيق هادى روجيه ادريس،الجزائر،١٩٥٩،ص٧٤.

(١٤٠) الدرجيني: الطبقات،ص ١٢٤.

(١٤١) الدرجيني: الطبقات،ص ١٣٨.

(١٤٢) الشماخي:تراجم،ص١٣٨.

(١٤٣) الذهبي :سير اعلام النبلاء،ج٢٠،ص١٠٥.

(١٤٤) عياض: المدارك،ج٢، ص ٦٦.

(١٤٥) الونشريسي:ج٢،ص ٢٤٨.ثم تابع تلك الرواية التي تمكن الاستئناس بها وان خرجت عن إطار البحث والتي تتحدث عن الفقيه الاندلسي طالوت بن عبد الجبار المعافري والذى تمكن من الإفلات من بطش أمير قرطبة الحكم بن هشام لمشاركته فى ثورة الربض، لأنه اختبأ سنة كاملة فى دار صديق له يهودي،حتى ظن البعض انه من أهله. انظر عياض:المدارك،ج١،ص ٢٩٣، المقرى:نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب،تحقيق إحسان عباس،دار صادر،بيروت،١٣٨٨هـ ،ج٢، ص ٦٣٩.

(١٤٦) البرزلي: فتاوى،ج١، ص ٢٨٠.

(١٤٧) البرزلي: فتاوى،ج١،ص ٢٨٠

(١٤٨) سحنون:المدونة،ج١،ص ١٤٠،البرزلي: فتاوى،ج١، ص ٢٨٠.

(١٤٩) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص٤٤.

(١٥٠) الونشريسي:المعيار،ج٦، ص ٦٩.

(١٥١) البرزلي: فتاوى،ج٢، ص ٤٤.

(١٥٢) الدباغ:معالم الإيمان، جـ٣، ص١٦١.

(١٥٣) عبد الرحمن بشير:اليهود في المغرب العربي،ص ١٢٣،

Chouraqui ,A History of The Jews of North Africa ,p. 65.

(١٥٤) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص ص، ٤٢، ٤٤.

(١٥٥) Goitein : A Mediterranean Society,4,p.191.

(١٥٦) عياض :مدارك،ج١،ص ٤٩٧.

(١٥٧) مناقب الجنبياني،ص ٧٤.

(١٥٨) معالم الإيمان، جـ٣، ص١٦١.

(١٥٩) الدباغ:معالم الايمان، جـ٣، ص١٦١.

(١٦٠) ويبدو أن عدم إلزام يهود المغرب عامة بزى خاص خلال تلك الفترة كان وراء استحضار الفقيه المالكي ابن العربي شواهد تاريخية من مدينة بغداد دون بلاد المغرب أو الأندلس للتدليل بها على قيام الحكام بمنع اليهود والنصارى من التشبه بزى المسلمين وإلزامهم زيا خاصا.انظر تفصيلا لذلك عند الونشريسي:المعيار،ج٢ ،ص ٢٥٤.

(١٦١) رياض النفوس،ج١،ص ٤٧٦.

(١٦٢) عياض:المدارك،ج١،ص ٤٨٧.

(١٦٣) الونشريسي:ج٢ ،ص ٢٤٨.

(١٦٤) رياض النفوس،ج١،ص٣٣٦.

(١٦٥) Ashtor :The Jews,3,p.158.

(١٦٦) مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، "صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، م٩، ١٠، (مدريد، ١٩٦١-١٩٦٢م)، ص٦٨

(١٦٧) نفسه، ص٧٤.

(١٦٨) نفسه، ص٦٧.

(١٦٩) م.ن، ص٧٠

(١٧٠) الصفدي:الوافي بالوفيات،ج١٢،ص٩٧. حيث ورد ما نصه: "اليهود نالهم منه أذىً، وأسلم على يده منهم جماعةً، منهم: سعيد وبركات، وكان الشيخ يحب الكوارع المغمومة، فدعوه إلى بيت واحد منهم، وقدموا له ذلك، فأكل ثم غاب ذهولاً على عادته، فأحضروا الخمر، فلم ينكر حضورها، وأداروها، ثم ناولوه منها قدحاً فاستعمله تشبهاً بهم، فلما سكر أخرجوه على تلك الحال".

(١٧١) ابن ابي زيد القيرواني: كتاب الجامع، ص١٩١.

(١٧٢) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص ٤٣٧.

(١٧٣) ابن سهل: نوازله، ج١، ص ١٠٦، البرزلي: فتاوى، ج٤، ص٥٥٧.

(١٧٤) الونشريسي: المعيار، ج٢، ص ٢٥٠.

(١٧٥) حسن ظاظا: الفكر الديني اليهودي، ص ٢٠٣، Hirschberg :A history of the Jews in North Afrrica,1,p147.

(١٧٦) زعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ص ٦٤، عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي، دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ٢٠٠١، القاهرة، ص ١٢٥.

(١٧٧) جوايتاين: دراسات في التاريخ، ص ٢٤٧-٢٤٨.

(١٧٨) التادلي: ص ٣٠٧ روجيه ادريس، ٤٢٦

(١٧٩) محمد جلاء ادريس : التاثير الإسلامي في الفكر الديني اليهودي، الاسكندرية، د.ت، ص ١١٦، Hirschberg :A history of the Jews in North Afrrica,1,p.184

(١٨٠) Goitein (S.D): "Slaves and slave girls in the Cairo Geniza Records", Arabica, t.9, Fas.1, Leiden, 1962, p. 12. وعن ورود مثل هذه الشروط في عقود الزواج الإسلامية انظر ابن العطار: الوثائق والسجلات، تحقيق شالميتا وكورينطي، مجمع الموثقين المجريطي والمعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٣، ص ص ٧، ١٥، ابن سلمون: العقد المنظم للحكام فيما يجري بين ايديهم من العقود والاحكام " علي هامش كتاب تبصرة الحكام لابن فرحون "، المطبعة العامرة الشرفية، مصر، ط١ ١٣٠١هـ ، جـ١، ص ص ١٦، ١٧، ٦٨.

(١٨١) البرزلي: فتاوى، ج٢، ص٢٩٣.

(١٨٢) عبد الرحمن بشير: يهود المغرب، ص١١٥، محمد شكري سرور: نظام الزواج في الشرائع اليهودية والمسيحية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨-١٩٧٩، ص٢١٨-٢١٩.

(١٨٣) Hirschberg: history of the Jews in North Afrrica,1,p.171

(١٨٤) مناحم بن ساسون: فصول التاريخ اليهودي في القرون الوسطى (باللغة العبرية)، تل ابيب، ١٩٦٢، ص ٩٠.

(١٨٥) The Jews in Medieval Islam City", P.10.

(١٨٦) Goitein (S.D.): A Mediterranean Society,2,pp.289-293.

(١٨٧) الهادي روجيه: الدولة الصنهاجية، ج٢، ص٣٨٣.

(١٨٨) البرزلي: فتاوى، ج٢، ص١٨.

(١٨٩) الونشريسي: المعيار، ج٢، ص ص٢٤٦، ٢٣٣. ثم تابع نقاشا طويلا للمسألة ص ص ٢٢٠-٢٤٦.

(١٩٠) المعجب، ص ٣٠٥.

(١٩١) روجيه ادريس: الدولة الصنهاجية، ج٢، ص ص ٤٣٢ - ٤٢٥.

(١٩٢) عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي، ص١٤١.

(١٩٣) حاييم زعفراني: الف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ١٩٨٧، ص١٢٦.

Mann: The Jews in Egypt and in Palestine .1 ,p. 255,256, Ashtor :The Jews, .3, P.79.

(١٩٤) Stillman M.A.: The Jews of Arab Lands .p.183.

(١٩٥) الدباغ: معالم الإيمان، جـ٣، ص١٦١.

(١٩٦) البرزلي: فتاوى، ج٢، ص ١٩.

(١٩٧) Mann: The Jews in Egypt and Paletine, I, pp.246, 265

(١٩٨) جوايتاين: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص١٩٤.

(١٩٩) روجيه ادريس: الدولة الصنهاجية، ج٢، ص ٣٨٤،

Mann: The Jews in Egypt and Paletine, I, p. 264

(٢٠٠) ابن ابي زيد: النوادر والزيادات، ج٣، ص ٢٨٢، الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص ص٥٦، ١٢٩.

(٢٠١) ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج١، ص٦٨.

(٢٠٢) الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص ص ١٢٨-١٢٩.

(٢٠٣) القرافي: الذخيرة، ج١٠، ص٦٠

(٢٠٤) ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج١، ص ٢٨.

(٢٠٥) الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص ٥٦.

(٢٠٦) البرزلي: فتاوى، ج٤، ص ٢٨٤.

(٢٠٧) البرزلي: فتاوى، ج٤، ص ١٦٦.

(٢٠٨) سحنون: المدونة، ج٣، ص ٣٠٨.

(٢٠٩) البرزلي: فتاوى،ج٦،ص١٤٨.

(٢١٠) سحنون، المدونة،ج٢،ص ٢٢٤.

(٢١١) سحنون :المدونة،ج١،ص ٢٣٤،خليل بن إسحاق:مختصر العلامة خليل،تحقيق أحمد جاد،دار الحديث،القاهرة،٢٠٠٥،ص ٢١٩،النفراوي:الفواكه الدواني،ج٢،ص ٦٢٠،

Goitein (S.D): "Slaves and slave girls in the Cairo Geniza Records"p.8.

(٢١٢) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص ٢٩٤.

(٢١٣) ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢،ص ١٤٢.

(٢١٤) Goitein (S.D): "Slaves and slave girls in the Cairo Geniza Records",pp.9-10.

(٢١٥) الونشريسي:المعيار،ج٢،ص ٣٥٤.

(٢١٦)النفراوي:الفواكه الدواني،ج٢، ص ٦٦٠ الآبي الأزهري: الثمر الداني، ص ٢٥٩.كان خروج اليهود مع المسلمين في صلاة الاستسقاء أمرا مألوفا في دار الإسلام فقد ذكر آدم ميتز ان العادة قد جرت بخروج مواكب تقصد الأماكن العامة للصلاة والدعاء تجمع المسلمين والنصارى واليهود معهم النافخون في الأبواق.الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،١٩٧٧،ج١، ص ٣٨ .

(٢١٧) ابن أبي زيد القيرواني: النوادر والزيادات،ج٣، ص ص ١٨٩، ١٩٩، ٢٠١.

(٢١٨) الونشريسي:المعيار،ج٢،ص٣٦٣ .

(٢١٩) البرزلي: فتاوى،ج٢،ص ٤٨.

(٢٢٠) المالكي :رياض النفوس،ج٢،ص ٣١٠،روجيه إدريس:الدولة الصنهاجية،ج٢،ص ٢٤.

(٢٢١) محمود ذكار:السلطة والأقلية اليهودية في تونس، القانون والممارسة،مجلة معهد الآداب الشرقية، عدد١٩٩٤،١٧٤،ص٣٤١.

(٢٢٢) إبراهيم سليمان أشماخي: قصور ومسالك جبل نفوسة،تحقيق وتعريب محمد حمام،المعهد الملكي للثقافة الامازيغية،الرباط،٢٠٠٤، ص ص ١٣٨-١٣٩.

(٢٢٣) البرزلي: ج٥،ص ص ٤٤٣،٤٤٥ ،الونشريسي:ج٧،ص٦٥ .

(٢٢٤) المراكشي:المعجب،ص ٣٠٥.

(٢٢٥) السموأل :إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل،تحقيق محمد عبدالله الشرقاوي،دار الجيل ،بيروت،١٩٨٣،ص ٤٥.

(٢٢٦) وفيات الأعيان،ج٧،ص٣٤ .

(٢٢٧) الضبي،:بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٧م ، ص٨٣-٨٦.

(٢٢٨) الصفدى:الواق بالوفيات،ج١٥،ص ٢٧٦.

(٢٢٩) ابن خلكان:وفيات الاعيان،ج٧،ص ٢٨.

(٢٣٠) الونشريسي:المعيار،ج٢،ص٣٥٤ .

(٢٣١) الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والملكية،ط بولاق ،مصر،١٢٧٣هـ،ج١،ص ٥٦٢.

(٢٣٢) سورة يونس: آية ٢٢ .

(٢٣٣) أخبار المهدي بن تومرت،طبعة دار المنصور بالرباط ١٩٧١،ص ١١.

(٢٣٤) عزرا فلايشر:الأيام العبرية المقدسة،(باللغة العبرية)،القدس،١٩٧٥،ص ٣٣٤.

(٢٣٥) آداب المعلمين، ص ١١٢.

(٢٣٦) المعجب،ص ٣٠٥.

(٢٣٧) البرزلى: فتاوى،ج٣، ص ص ٥٧٢-٥٧٣.

(٢٣٨) السموأل:افحام اليهود ،ص ٤٨.

(٢٣٩) ابن الخطيب:الإحاطة فى أخبار غرناطة،تحقيق محمد عبدالله عنان،مكتبة الخانجى،القاهرة،١٩٧٥،ج٣،ص ٦٨ ،المقرى:نفح الطيب،ج٤،ص ١٣٠.

(٢٤٠) البرزلى: فتاوى،ج٣، ص ٥٨٤.

(٢٤١) إفحام اليهود ،ص ٥٤.

(٢٤٢) عبد الرحمن بشير:اليهود فى المغرب العربى،ص١٣٩.

(٢٤٣) شعبان محمد سلام : أثر البلاغة العربية في الشعر العبري – سلسلة الأدب المقارن – الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٨٦،ص .

(٢٤٤) عبد الرازق قنديل:أثر الشعر العربي في الشعر العبري الأندلسي (مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة ٢٠٠٢) , ص٢١- ص ٢٣.

(٢٤٥) انظر عن العطاء الفكرى والثقافى ليهود المغرب الادنى خلال العصرين الفاطمى والزيرى عبد الرحمن بشير:اليهود فى المغرب العربى ص ص ١٤٤-١٥٤،روجيه إدريس:الدولة الصنهاجية ،ج٢،ص ص ٤٢٠-٤٢٧.

قائمة المصادر والمراجع

اولا:المصادر المخطوطة والمطبوعة:

١. ابن الأبار(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي،ت ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م):الحلة السيراء،تحقيق حسين مؤنس،دار المعارف ،القاهرة، ط٢ ١٩٨٥.

٢. الأزهري(صالح عبد السميع الأبي الأزهري):الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني،المكتبة الثقافية، بيروت،د.ت.

٣. ابن الأثير(عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ،تحقيق عبدالله القاضي،دار الكتب العلمية، بيروت،ط٢ ١٤١٥هـ.

٤. الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس، ت ٥٥٨ هـ/١١٦٢م):نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،عالم الكتب،بيروت،١٩٨٩.

٥. البرزلي [أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي، ت ٨٤١هـ/١٤٣٧م]:جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٢م.

٦. ابن بسام(أبو الحسن على بن بسام الشنتريني ت ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م):الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تحقيق إحسان عباس،ط. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨- ١٩٧٩.

٧. البغطوري [مقرين بن محمود، كان حيًا عام ٥٩٩هـ/١٢٠٢م]:سير نفوسة، مخطوط نسخة منقولة عن الأصل الموجود في مكتبة جربة،الجزائر.

٨. البكرى(أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م):المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب،دار الكتاب الإسلامى ، القاهرة،د.ت.

٩. البيذق (أبو بكر بن على الصنهاجى ،ألفه منتصف ق٦هـ/١٢م):أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ١٩٧١.

١٠. الجرسيفي(عمر بن عثمان بن العباس، من أهل ق٦هـ/١٢م):رسالة في الحسبة،نشرت ضمن كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب"، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥م.

١١. ابن جلجل (أبو داوود سليمان بن حسان الأندلسي، ت ٣٧٧هـ /٩٨٧م):طبقات الأطباء والحكماء،تحقيق فؤاد سيد،دار الكتب والوثائق القومية،القاهرة،٢٠٠٥.

١٢. ابن حجر(أبو الفضل أحمد بن على بن محمد العسقلانى، ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م):لسان الميزان،تحقيق دائرة المعارف النظامية،الهند،مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت،ط٣ ١٩٨٦.

١٣. ابن حزم(أبو محمد على بن أحمد بن سعيد، ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٣م):الفصل فى الملل والأهواء والنحل،تحقيق محمد إبراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة،دار الجيل، بيروت،د.ت.

١٤. ابن حماد (أبو عبد الله محمد بن على بن عيسى، ت ٦٢٦هـ /١٢٢٨م): أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم،تحقيق التهامى نقرة وعبد الحليم عويس،الرياض،١٩٨١.

١٥. الحميري(محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، ت ق ٩هـ/١٥م):الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس،مؤسسة ناصر للثقافة،بيروت،١٩٨٠.

١٦. ابن حوقل(أبو القاسم محمد بن على النصيبى،ت٣٨٠هـ/٩٩٠م):المسالك الممالك،ليدن،١٨٧٣.

١٧. الحموى:شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى الرومى،ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م):معجم البلدان،دار الفكر،بيروت،د.ت.

١٨. خرداذبة(أبو القاسم عبيد الله بن عبيد الله،ت حوالى ٣٠٠هـ/٩١٢م):المسالك والممالك،مكتبة المثنى ،بغداد،د.ت.

١٩. ابن الخطيب(: لسان الدين محمد السليمانى ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م):الإحاطة فى أخبار غرناطة،تحقيق محمد عبدالله عنان،مكتبة الخانجى،القاهرة،١٩٧٥.

٢٠. ابن خلدون(ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمى، ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م):تاريخ ابن خلدون المعرف بالعبر،دار القلم،بيروت،١٩٨٤.

٢١. ابن خلكان:(شمس الدين أبو العباس أحمد ،ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢م):وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق احسان عباس،دار الثقافة،لبنان،(د.ت).

٢٢. خليل بن إسحاق المالكي،ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م:مختصر العلامة خليل،تحقيق أحمد جاد،دار الحديث،القاهرة،٢٠٠٥.

٢٣. الدباغ(أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، ت ٦٩٦ هـ/١٢٩٦ م):معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق إبراهيم شبوح وآخرين،مكتبة الخانجي، مصر،١٩٦٨.

٢٤. الدرجيني(أبو العباس أحمد، ت منتصف ق ٧هـ/١٣م):طبقات المشائخ بالمغرب،تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، ١٩٧٤.

٢٥. الذهبي(شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ،ت ٧٤٨هـ/،١٣٧٤ م):سير أعلام النبلاء،تحقيق:شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط٩ ١٤١٣هـ.

٢٦. الذهبي:تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،تحقيق عمر عبد السلام تدمرى،دار الكتاب العربي،بيروت،١٩٩٦.

٢٧. الرقيق القيرواني(إبراهيم بن القاسم القيرواني، ت النصف الأول من ق ٥ هـ/١١م): قطعة من تاريخ أفريقية والمغرب،تحقيق المنجي الكعبي،تونس،١٩٦٨.

٢٨. أبو زكريا(يحيى بن ابي بكر، ت النصف الثاني من ق٤هـ/١٠م): كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي،إصدارات المكتبة الوطنية،الجزائر،١٩٧٩.

٢٩. الزمخشرى(أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله،ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م):أساس البلاغة،تحقيق محمد باسل،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

٣٠. ابن أبي زيد القيرواني(أبي محمد عبد الله، ت ٣٨٦هـ/ ٩٢٨م) الرسالة،دار الفكر ، بيروت،١٩٨١.

٣١. ابن أبي زيد القيرواني:النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الامهات،ج٣،تحقيق محمد حجي،دار الغرب الإسلامي،١٩٩٩.

٣٢. ابن أبي زيد القيرواني:كتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والتاريخ وغير ذلك،تحقيق عبد المجيد تركي،ط. دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠.

٣٣. سحنون(أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، ٢٤٠ هـ /٨٥٤ م وآخرون):المدونة الكبري تحقيق زكريا عميرات،دار الكتب العلمية،بيروت،د.ت.

٣٤. ابن سعيد المغربي(على بن موسى بن محمد، ٦٨٥ هـ ١٢٨٦ م):كتاب الجغرافيا،تحقيق إسماعيل العربي،بيروت،١٩٧٠.

٣٥. ابن سهل(أبو الأصبع عيسى، ت٤٨٦هـ/١٠٩٣م):الإعلام بنوازل الأحكام، المعروف بالأحكام الكبرى،تحقيق نورة محمد عب العزيز التويجري،المملكة العربية السعودية ١٩٩٥م.

٣٦. ابن سلمون الكناني(أبي القاسم سلمون بن على ت ٧٦٧ هـ/١٣٦٥م): العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام " علي هامش كتاب تبصرة الحكام لابن فرحون "،المطبعة العامرة الشرفية، مصر، ط١، ١٣٠١هـ.

٣٧. السموال المغربي(شموائيل بن يهوذا بن آبوان،ت٥٧٠هـ): إفحام اليهود وقصة إسلام السموال،تحقيق محمد عبدالله الشرقاوى،دار الجيل ،بيروت،١٩٨٣.

٣٨. السيوطى(جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ/١٥٠٤م):حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة،المطبعة الشرفية ،مصر،١٩٠٩.

٣٩. الشماخي(أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، ٩٢٨ هـ/١٥٢٢ م): كتاب السير"الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلي نهاية القرن الخامس الهجري "،تحقيق محمد حسن،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،تونس السلسلة٤ ،المجلد٣٠، ١٩٩٥.

٤٠. الصفدى(صلاح الدين خليل بن أيبك، ت ٧٦٤هـ /١٣٦٢م):الوافى بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركى مصطفى،دار إحياء التراث،بيروت،٢٠٠٠م.

٤١. الصفدى:أعيان العصر وأعوان النصر،تحقيق على أبو زيد وآخرون،دار الفكر المعاصر،بيروت،١٩٩٨.

٤٢. الطبرى(أبو جعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م):تاريخ الرسل والملوك،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ،١٩٦٣.

٤٣. ابن عبد البر(أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، ت ٤٦٣هـ /١٠٧٠م)التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق مصطفى العلوى ومحمد البكرى،وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية، المغرب،١٣٨٧هـ.

٤٤. ابن العطار(محمد بن أحمد الاموى، ت ٣٩٩هـ/١٠٠٨م):الوثائق والسجلات، تحقيق شالميتا وكورينطي، مجمع الموثقين الجريطي والمعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٣.

٤٥. عبد الواحد المراكشي(ت ق٦هـ /١٢م): المعجب فى تلخيص أخبار المغرب،تحقيق محمد سعيد العريان و محمد العلمي،مطبعة الاستقامة،القاهرة،١٣٦٨هـ .

٤٦. ابن عذارى(أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشي ت٧١٢ هـ/١٣١٣ م):البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب،تحقيق ج.س كولان وليفى بروفنسال،دار الثقافة،بيروت،د.ت.

٤٧. أبو العرب تميم (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، ت ٣٣٣ هـ/٩٤٢ م): طبقات علماء أفريقية وتونس،تحقيق علي الشابي و نعيم اليافعي،ط٢. الدار التونسية للنشر،١٩٨٥.

٤٨. علي بن يوسف الحكيم:"الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة "،مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٨.

٤٩. عياض(القاضى عياض بن موسى بن عياض السبتى، ت ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م):ترتيب المدارك وتقريب المسالك،لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، منشورات دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٨.

٥٠. الفارسى (أبو الطاهر محمد بن الحسين):مناقب محرز بن خلف،تحقيق روجيه إدريس،باريس،١٩٥٩.

٥١. ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن فرحون المالكي، ت ١٣٩١/٧٩٤م): تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٠١هـ.

٥٢. القرافي(شهاب الدين أحمد بن ادريس بن عبد الرحمن الصنهاجي، ت٦٨٤هـ / ١٢٨٥): الذخيرة في الفقه المالكي،تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي،بيروت،١٩٩٤م.

٥٣. القفطي(جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، ت ٤٦ هـ/١٢٤٨ م):أخبار العلماء بأخبار الحكماء،مطبعة السعادة،مصر، ١٣٢٦هـ.

٥٤. اللبيدي(أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد،ت٤٤٠هـ/١٠٦٠م):مناقب الجنبياني،تحقيق هادي روجيه إدريس،الجزائر،١٩٥٩

٥٥. المالكي(عبد الله بن أبي عبد الله، ت ق٤هـ/١٠ م): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية، تحقيق بشير البكوش،دار الغرب الاسلامي،ط٢ ١٩٩٤.

٥٦. المجليدي (أحمد بن سعيد، ت١٠٩٤هـ/١٦٨٣م): المجليدي: كتاب التيسير في أحكام التسعير، تقديم وتحقيق موسى لقبال،الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧١م.

٥٧. مجهول:الاستبصار في عجائب الأمصار،تحقيق سعد زغلول عبد الحميد،ط. الدار البيضاء، ١٩٨٥.

٥٨. مجهول:قصة البلديين أهل فاس،مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب،تحت رقم ١٨٩٣ تاريخ.

٥٩. مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين،"صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، م٩، ١٠، (مدريد، ١٩٦١-١٩٦٢م).

٦٠. المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، ت ١٠٤١ هـ/١٦٣١م):فح الطيب في غصن الأندلس الرطيب،تحقيق إحسان عباس،دار صادر،بيروت،١٣٨٨هـ.

٦١. المقريزى(تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م):اتعاظ الحنفا في ذكر الأئمة الفاطميين الخلفا،تحقيق جمال الدين الشيال،ط.دار الفكر العربي،،١٩٤٨.

٦٢. النفزاوى(أحمد بن غنيم بن سالم،ت ١١٢٦هـ) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيروان،تحقيق رضا فرحات،مكتبة الثقافة الدينية،د.ت.

٦٣. الوسياني(أبو الربيع سليمان بن عبد السلام ٤٧١هـ/١٠٧٨م):سير أبي الربيع الوسياني، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب، تحت رقم ٩١١٣ح،ميكروفيلم ٣٢٧١.

٦٤. الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى، ت ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط. دار الغرب الإسلامي،بيروت، ١٩٨١م.

٦٥. اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م):كتاب البلدان، ملحق بكتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة ،ليدن،١٨٩١.

٦٦. اليمانى (أبي عبدالله محمد بن مالك المغافرى،ت أواسط القرن الخامس الهجرى/١١م): كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق محمد بن على الجوالى، مركز الدراسات والبحوث اليمنى،صنعاء،١٩٩٤

ثانيا: المراجع العربية والعبرية والمعربة:

١. إبراهيم سليمان أشماخي:قصور ومسالك جبل نفوسة،تحقيق وتعريب محمد حمام،المعهد الملكى للثقافة الإمازيغية،الرباط،٢٠٠٤.

٢. إبراهيم عامر الرحيلى:بذل المجهود فى إثبات مشابهة الرافضة لليهود،مكتبة الغرباء الأثرية،د.ت.

٣. آدم ميتز:الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجري،ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة،مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر،القاهرة،١٩٧٧.

٤. ادوار غالى الدهى: معاملة غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى،مكتبة غريب، القاهرة،١٩٩٣.

٥. اشتور : تاريخ اليهود فى بلاد المسلمين (باللغة العبرية)،القدس،د. ت.

٦. ترتون:أهل الذمة فى الإسلام،ترجمة حسن حبشى،ط٥ القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٤ .

٧. جعفر هادي حسن:فرقة القرائين اليهود– دراسة في نشأة الفرقة وعقائدها وتاريخها إلى العصر الحديث،بيروت،مؤسسة الفجر،١٩٨٩.

٨. جوايتاين:دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية،ترجمة عطية القوصي،الكويت،وكالة المطبوعات، ط١،١٩٨٠.

٩. حاييم زعفرانى:ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب،ترجمة احمد شعلان وعبد الغنى ابو العزم، د.م،١٩٨٧.

١٠. حسن ظاظا:الفكر الديني الإسرائيلي– أطواره ومذاهبه،معهد البحوث والدراسات العربية،١٩٧١ .

١١. زبيدة عطا:يهود العالم العربي دعوى الاضطهاد،دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية، ٢٠٠٤.

١٢. زبيدة عطا:اليهود فى العالم العربى،دراسة تاريخية فى قضايا الهوية–الاندماج–القدس،دار عين للدراسات والبحوث النسانية والاجتماعية،٢٠٠٣.

١٣. سليم شعشوع:صفحات من التعاون اليهودى العربى فى الأندلس،مطبعة دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر،شفا عمرو،١٩٩٠.

١٤. عبد الرازق قنديل:أثر الشعر العربي في الشعر العبري الأندلسي ،مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة، ٢٠٠٢.

١٥. عبد الرحمن بشير:اليهود فى المغرب العربى،دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية،٢٠٠١،القاهرة.

١٦. عبد العظيم المطعنى:مبادئ التعايش السلمى فى الإسلام منهجا وسيرة،دار الفتح للإعلام العربى،القاهرة ،١٩٩٦.

١٧. عزرا فلايشر:الأيام العبرية المقدسة(باللغة العبرية)،القدس،١٩٧٥.

١٨. فهمى هويدى:مواطنون لا ذميون،دار الشروق،١٩٨٥.

١٩. قاسم عبده قاسم:اليهود فى مصر،دار الشروق،القاهرة، ١٩٩٣.

٢٠. مارك كوهين:المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى،ترجمةنسرين مرار وسمير نقاش،جامعة تل أبيب،المعهد اليهودى العربى،١٩٨٧.

٢١. مأمون المرينى:اليهود فى الأمثال المغربية،مجلة فكر ونقد،ع ٣٥.

٢٢. محمد جلاء إدريس:التأثير الاسلامى فى الفكر الديني اليهودي– دراسة نقدية مقارنة لطائفة اليهود القرائين،مكتبة مدبولى،القاهرة،١٩٩٣.

٢٣. محمد شكري سرور:نظام الزواج في الشرائع اليهودية والمسيحية،دار الفكر العربي،،القاهرة، ١٩٧٨-١٩٧٩.

٢٤. مراد فرج :القراءون والربانيون،القاهرة،١٩١٨.

٢٥. مناحم بن ساسون:فصول التاريخ اليهودى فى القرون الوسطى(باللغة العبرية)،تل ابيب،١٩٦٢.

٢٦. ناريمان عبد الكريم:معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٦.

٢٧. نجم الدين الهنتاتى:مواقف علماء المالكية من أهل الذمة بافريقية الى منتصف القرن الخامس الهجرى، مجلة معهد الآداب الشرقية،العدد ١٨٦، ٢٠٠٠.

٢٨. الهادى روجيه إدريس:الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادى الساحلى،دار الغرب الاسلامى،١٩٩٢.

٢٩. هوبكنز:النظم الإسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى،تونس،١٩٨٠.

٣٠. يحيى عبد الهادى :أهل الذمة فى العراق فى العصر العباسى، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٤.

٣١. يوسف القرضاوى:من فقه الدولة فى الإسلام:مكانتها ..معالمها..طبيعتها..موقفها من الديمقراطية والتعددية والمرأة وغير المسلمين،دار الشروق،١٩٩٧.

ثالثا:المراجع الأجنبية:

1- (Ashtor(E): The Jews of Moslem Spain,Philadelphia, 1979.

2- Ashtor, E:The Jews and Mediterranean Economy,London ,1983 .
Adler,(ed.):Jewish Travelers,(London ,n.d.)
Chouraqui, N.: Between East and West. A History of The Jews of North Africa, New York,1973,,p.79.

David Nirenberg :can Medieval Spain teach us about Muslim-Jewish Relations?, CCAR Journal, 2002 .
Goitein(S.D):A Mediterranean Society the Jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo geniza ,University of California,Paress,1983 .

3- Goitein (S.D): "Slaves and slave girls in the Cairo Geniza Records", Arabica, t.9, Fas.1, Leiden, 1962.

4- Mann,J.: The Jews in Egypt and Palestine Under The Fatimed caliphs, oxford university press,1920 .

5- Mann, J.: Texts and studies in Jewish History and literature, New york,1972.

6- Menahem Ben-Sasson: 'The Jewish Community of Gabes in the 11th Century' in: M Abitbol (ed.), Communaut s juives des marges sahariennes du Maghreb, J rusalem 1982.

7- Stillman M.A.: The Jews of Arab Lands A History and source book, The Jewish Publication Society of America, 1979.

8- Stillman M.A :"The Jew in The Medieval Islamic city", in Jews of Medieval Islam: Community, Society, & Identity: Proceedings of an International Conference Held by the Institute of Jewish Studies, University of London, 1995.



د.عبدالله بن محمد علي بن حيدر علي[*]

علماء بلاد المغرب والأندلس الذين جاوروا مكة المكرمة

من خلال كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين

للإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي

المتوفى سنة ٨٣٢هـ

المقدمـــة :

كان من أسباب النهضة العلمية والحضارية عند المسلمين رحلات العلماء وطلاب العلم بين أرجاء العالم الإسلامي ، ولـذا نرى في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، أهل المغرب والأندلس من العلماء والطلاب يفدون لبلاد الحجاز " مكة والمدينة " للمجاورة أو لطلب العلم أو للتجارة ومنهم من استقر به المقام ، وقد ذكر المقري قائمة بأسماء ممن رحل من الأندلس للمشرق [1]، وكانت هذه الرحلات لها أثر طيب في العلم أو التدريس بل تبوؤوا مناصب عليا كإمامة الحرمين والفتيا ولذا استقر رأيي لتسليط الضوء على هؤلاء الأشخاص من

* كلية الشريعة والدراسات الإسلامية –قسم التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة أم القرى

خلال كتاب عظيم فريد من نوعه ترجم لهم وهو كتاب " العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين " لمؤلفه الإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي " المتوفي سنة ٨٣٢ هـ فقد ذكر في مقدمة كتابه أنه " تشوقت نفسي كثيراً إلى معرفة تراجم الأعيان من أهل مكة وغيرهم ممن سكنها مدة سنين ، أو مات بها ... " [٢] والكتاب عبارة عن تراجم لمن سكن مكة وولاتها وقضاتها وخطبائها وأئمتها ومؤذنيها من أهلها وغيرهم [٣] والمؤلف اعتمد في تراجمه على نقولات من كتب تراجم مثله أو شفاهية ممن عاصرهم أوكان قريب من عصره أو من بعض الآثار كشواهد القبور في " قبور المعلاة " المؤرخة لوفاة بعض المترجم لهم ، كما نقل المؤلف من بعض المصادر التى فقدت ككتاب " تاريخ مصر للقطب الحلبي وكتاب مختصر التكملة لابن الأبار "

ترجمة المؤلف :

نسبه : محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن ... بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، يكنى : أبا عبدالله ، وأبا الطيب وبها اشتهر أخيراً ويلقب تقي الدين الحسيني ،الفاسي المكي ،المالكي قاضي المالكية بمكة ،مؤلف هذا الكتاب [٤]

مولده : ولد سنة خمس وسبعين وسبعمائة بمكة وانتقل مع والدته إلى المدينة النبوية عند خاله قاضي الحرمين محب الدين النويري

رحلاته : رحل تقي الدين الفاسي مؤلف العقد الثمين الى مختلف البلاد لطلب العلم فرحل إلى مصر ودمشق مراراً والاسكندرية وغزة والقدس والرملة ونابلس واليمن وجاور مكة والمدينه النبوية .

شيوخه : سمع بالمدينة على أم الحسن فاطمة بنت الشيخ شهاب الحرازي ثم عاد إلى مكة وسمع على أبي اسحاق إبراهيم بن محمد بن صديق الدمشقي والقاضي نور الدين على بن أحمد النويري والشيخ شهاب الدين بن الناصح القرافي المصري وسمع من ابن عم أبيه الشريف عبدالرحمن بن أبي الخير الفاسي وسمع من المحدث شمس الدين بن سكر والقاضي برهان الدين إبراهيم فرحون وعلى بن عبدالقادر الحجار والقاضي زين الدين خلف بن أبي بكر التحريري المالكي وقرأ على مفتى الحرم وقاضيها جمال الدين أبي حامد محمد بن ظهيرة القرشي الشافعي ثم رحل إلى الديار المصرية وقرأ بها على البرهان إبراهيم بن أحمد بن عبدالواحد البعلي والزين

عبدالرحمن بن أحمد العربي وأم عيسى مريم بنت أحمد بن القاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم الأذرعي وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني والإمام سراج الدين عمر بن أبي الحسن الأنصاري والحافظين زين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي ونورالدين على بن أبي بكر الهيثمي وأبي المعالي عبدالله بن عمر الحلاوي وأحمد بن حسن السويداوي ، ثم رحل إلى دمشق وسمع بها على علي بن محمد بن أبي المجد الدمشقي وأبو هريرة عبدالرحمن بن الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي وبالقدس على أبي الخير أحمد بن الحافظ صلاح الدين خليل بن كليكلدي العلائي وبغزة على أحمد بن محمد بن عثمان الخليلي وقدم القاهرة مرة أخرى فسمع بها على علي ابن أبي المجد وحضر دروس القاضي تاج الدين بهرام بن عبدالله بن عبدالعزيز المالكي ورجع إلى دمشق وسمع على أم القاسم خديجة بنت إبراهيم بن سلطان البعلي وحج ورجع إلى القاهرة وسمع بها على أبي المعالي عبدالله بن عمر الحلاوي وفي الاسكندرية سمع على الهزبز رئيس المؤذنين بالجامع الغربي ورحل إلى دمشق وسمع على الإمام صدر الدين الأبشيطي ورحل الى غزة وسمع على أحمد بن عثمان الخليلي ورحل إلى الرملة وسمع على المحدث شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بالمهندس والمفتي عبدالله بن سلمان المصري المالكي ورحل إلى دمشق وسمع بها على فاطمه بنت ابن المنجا ، ورحل لليمن وسمع بها على الوجيه عبدالرحمن بن حيدر الشيرازي والمقرىء شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن عياش الدمشقي ، ثم رجع الى مكة ورحل إلى دمشق وسمع بها على خطيبها ومفتيها شهاب الدين أحمد بن حجي ورجع إلى القاهرة فسمع بها على الحافظ نور الدين الهيثمي [٥]. وقال المؤلف عن شيوخه نحو خمسمائة شيخ بالسماع والإجازة [٦].

مؤلفاته : ألف الفاسي مايزيد عن الثلاثين كتاباً من كتب التاريخ خصص أغلبها لتاريخ مكة ورجالها [٧]، وقد ذكرها عند ترجمته لنفسه [٨]، منها : أربعون حديثا ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحفة الكرام من تاريخ البلد الحرام ، تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام ، هادي ذوي الأفهام إلى تاريخ البلد الحرام ، الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى ، بغية أهل البصارة في ذيل الإشارة ، ارشاد ذوي الفهام الى تكميل كتاب الأعلام بوفيات الأعلام للحافظ الذهبي ، مطلب اليقظان من كتاب الحيوان ، إرشاد الناسك إلى معرفة المناسك ، الإيقاظ من الغفلة والحيرة في مسألة إقرار ظهيرة .

وفاته : مات المؤلف في ليلة الأربعاء ثالث شوال سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة بمكة المشرفة وصلى عليه بعد صلاة الصبح عند باب الكعبة ، ودفن بالمعلاة [٩].

التراجم :

١- محمد بن أحمد بن أسعد، الإمام أبو عبدالله بن الفراء المعافري الأندلسي الجياني المقرئ : أخذ القراءات عن مكي بن أبي طالب، وقرأ عليه جماعة . ومات بمكة سنة تسع وستين وأربعمائة بعد الحج والمجاورة ، ذكره الذهبي في طبقات القراء [١٠] وتاريخ الإسلام [١١].

٢- محمد بن أحمد بن عثمان بن عجلان القيسي الأشبيلي : ولد سنة ثمان وأربعين وستمائة في صفر. وأجاز له - باستدعاء أبيه- مسند تونس أبو الحسين أحمد بن محمد بن السراج، وحدث عنه ببعض الروض الأنف للسهيلي عنه [١٢]. وذكر ابن سيد الناس أنه توفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة بمكة بعد الحج [١٣]. وذكر القطب الحلبي في تاريخه : أنه توفي بمكة في آخر عام أربع وعشرين وسبعمائة أو في أوائل عام خمسة وعشرين وسبعمائة .

٣- محمد بن أحمد بن عثمان بن عمر التونسي العلامة المفتي البارع أبو عبدالله المعروف بالوانوغي المعروف: بابن نزيل الحرمين الشريفين ولد - في غالب ظني- سنة تسع وخمسين وسبعمائة بتونس، ونشأ بها . وسمع بها من مسندها ومقرئها أبي الحسن بن أبي العباس البطرني في خاتمة أصحاب الإسناد أبي جعفر بن الزبير بالإجازة. وله من البطرني إجازة بجميع ما يرويه وقد درس بالحرمين وأفتى فيهما كثيراً.وأول قدومه إليها سنة ثمانمائة فحج فيها وعاد إلى مصر [١٤]. كان شديد الذكاء سريع الفهم وكان يعاب عليه إطلاق لسانه في العلماء ومراعاة السائلين في الإفتاء [١٥] أدركه الأجل بمكة - بعد علة طويلة بالإسهال والاستسقاء - في سحر يوم الجمعة تاسع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وثمانمائة . وصلى عليه بالحرم الشريف عند باب الكعبة، وذهب به إلى المعلاة من باب بني شيبة [١٦].

٤- محمد بن أحمد بن ميمون بن قاسم التونسي ، المالكي، المعروف : بابن المغربي [١٧].

٥- محمد بن ثابت الأنصاري ، المراكشي : كانت له معرفة بالقراءات السبع، قرأها على : الشيخ برهان الدين المسروري، وسراج الدين الدمنهوري بمكة، ولم يكمل عليه. وكان يؤدب

الأطفال بمكة عند باب أجياد من الحرم الشريف. توفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة بمكة ذكر الذهبي: أنه مات سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة. وقيل: في آخر سنة أربعين. وذكر : أنه ولد سنة خمس وأربعين ومائتين [١٨] .

٦- محمد بن حجاج بن إبراهيم الحضرمي، أبو بكر ، أبو عبدالله وبها اشتهر ابن الوزير ابن محمد المعروف بابن مطرف الإشبيلي ، نزيل مكة، وشيخها، الولي العارف، ذو الكرامات الشهيرة. ذكر جدي أبو عبدالله الفاسي: أنه ولد سنة ثمان عشر وستمائة، وحج سنة ثلاث وخمسين . وسمع من ابن مسدي: الشفا للقاضي عياض، والشمائل للترمذي ، ثم عاد إلى الاسكندرية. ثم عاد إلى مكة في سنة ستين، ثم توجه إلى عدن، وأقرأ بها العربية، ولم يزل مقيماً بها إلى سنة تسع وستين. فتوجه إلى مكة وأقام بها إلى أن مات . [١٩]

٧- محمد بن أبي الضوء التونسي : جاور بمكة، وبها توفي ، وحدث عن أبي الوليد محمد بن عبدالله بن حزم، سمع منه بمكة عن أبي بحر سفيان بن العاص الأسدي وكان مشهوراً بالخير والزهد [٢٠]

٨- محمد بن عبدالله بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد شمس الدين الإستجي المصري : نزيل مكة. جاور بها مدة سنين، مستوطناً بها متأهلاً فيها. ولي مباشرة في الحرم، وكان يسمع صحيح البخاري على محمد بن صبيح المكي شيخ رباط غزي، والقاضي أبي الفضل النويري قبل ولايته، ثم صحبه ، واشتهر بصحبته ومدحه بقصائد، ورثاه بعد موته بمرثية بليغة ، وسمع بمكة من الكمال بن حبيب الحلبي وبالمدينة من : قاضيها بدر الدين بن الخشاب، وتوفي في العشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة بمكة، ودفن بالمعلاة [٢١]

٩ - محمد بن عبدالله بن محمد الأندلسي ، أبو عبدالله ، العلامة المفسر، شرف الدين، المعروف بابن أبي الفضل المرسي السلمي : ولد في ذي الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة بمرسية، وسمع بالمغرب من جماعة ، منهم أبو محمد عبدالله الحجري. سمع عليه : الموطأ، رواية يحي بن يحي ، ثم رحل من المغرب في سنة ثلاث وستمائة، وسمع بمصر ودمشق وواسط وبغداد ونيسابور وهراه وبمكة: من الشريف يونس بن يحي الهاشمي وطبقته. وحدث بالكثير بأماكن عدة، منها مكة. وتردد إليها مرات، وجاور بها كرات سمع منه الحفاظ والأعيان من العلماء، في

الثناء عليه[٢٢] ، وكان من الفضلاء في جميع فنون علم الحديث وعلوم القران والفقه والخلاف والاصلين والنحو واللغه [٢٣] قال الذهبي : قرأ وجمع من الكتب النفيسه كثيراً ، ومهما فتح به عليه صرفه في ثمن الكتب ، وكان متضلعاً من العلم ، جيد الفهم ، متين الديانه ، وكان بحر معارف رحمه الله [٢٤]. قال صاحب التكمله : توفي المرسي في ربيع الاول سنه خمس وخمسين وست مئه في منتصفه بالعريش وهو متوجه الى دمشق فدفن بتل الزعقه ، وكان من أعيان العلماء ذا معارف متعدده ، وله مصنفات مفيده [٢٥].

١٠- محمد بن عبدالله الشاطبي ويكني أبا عبدالله : كان رجلاً صالحاً جليلاً. ذكره القطب القسطلاني في "ارتقاء الرتبة" وقال: كان كثير الخدمة للفقراء، والإيثار لهم، وجاور بمكة في آخر عمره حتى مات بها. ولم يذكر له وفاة. توفي يوم الثلاثاء الثالث من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بمكة، ودفن بالمعلاة. نقلت وفاته واسم أبيه من حجر قبره، وترجم بالشيخ الصالح السعيد الشهيد. [٢٦] قال أبوشامه : كان متفنناً محققاً ، كثير الحج ، مقتصداً في أموره كثير الكتب محصلاً لها ، وقد أعطي قبولاً في البلاد [٢٧].

١١- محمد بن عبد الرحمن بن محمد الصنهاجي أبو عبدالله الفاسي، المعروف بابن الحداد: ولدفي النصف من جمادي الآخرة سنة اثنين وسبعين وستمائة بفاس وتفقه بتونس وسمع على جماعة. وكتب عن صاحبنا أبي عبدالله محمد بن عمر بن رشيد، ورحل وقدم إلى ديار مصر. وسمع بها على بعض شيوخنا المتأخرين، ورحل إلى دمشق، فسمع بها ، وحصل أصولاً وكتباً، وكتب بخطه. وكان له قليل معرفة بالحديث وغيره، مائلاً إلى طريقة التصوف، عارفاً بكلام أهل الطريق[٢٨] .كان يميل للتصوف ويعرف طرفاً من الحديث مع حسن الخلق ولطف الشمائل وحلو المفاكهة .[٢٩]وتوفي بعلة الإسهال سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة بمكة. ودفن بالمعلاة.[٣٠]

١٢- محمد بن عبد الرحمن بن أبي الخير بن أبي عبدالله محمد بن عبد الرحمن الحسني الشريف أبو الخير الفاسي المكي المالكي ،حضر على القاضي عز الدين بن جماعة، وسمع من ابن عبد المعطي، وابن حبيب الحلبي بمكة وغيرها. وتفقه على الشيخ موسى المراكشي، وعلى أبيه، وخلفه في تصديره بالمسجد الحرام، فأجاد وأفاد، وكان من الفضلاء الأخيار،وله حظ من العبادة

والخير، والثناء عليه جميل.وتوفي في ثالث شوال سنة ست وثمانمائة بطيبة، ودفن بالبقيع وقد جاوز الأربعين بيسير، وعظمت الرزية بفقده، فإنه لم يعش بعد أبيه إلا نحو سنة [٣١] .

١٣– محمد بن عبدالرحمن بن أبي الخير محمد بن أبي عبدالله محمد محمد بن عبدالرحمن الحسني،الشريف أبو عبدالله الفاسي المكي المالكي أخو أبي الخير السابق وهو أبو عبدالله الصغير ويلقب بمحب الدين ولد في سنة أربع وسبعين وسبعمائة.بمكة وسمع على غير واحد من شيوخها،وسمع معي بالقاهرة وبقراءتي على جماعة من شيوخنا وله أجازه من عمر بن أميلة،وكان يحضر تدريس أبيه بمكة توفي سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة بمكة [٣٢] .

١٤– محمد بن عبدالرحمن بن أبي الخير بن أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحسني الفاسي المكي المالكي الشريف القاضي رضى الدين أبو حامد ، شقيق أبي الخير ، وأبي عبدالله ولد في رجب سنه خمس وثمانين وسبعمائة وسمع بها ظناً على العفيف عبدالله بن محمد النشاوري والشيخ جمال الدين إبراهيم الأميوطي ، وسمع يقيناً على جماعة من شيوخنا بالحرمين وحفظ عدة من المختصرات في فنون من العلم وتفقه بوالده ، وأخذ العربية عن إمام الحنفيه بمكة الشيخ شمس الدين الخوارزمي والشيخ شمس الدين البوصيري ، وأذن له شيخنا القاضي زين الدين خلف في التدريس ، وذكر لي صاحب الترجمة أنه أذن له في الإفتاء ، وقد ناب في الحكم بمكة عن قاضيها شيخنا العلامة جمال الدين بن ظهيره ، توفي سنة أربع وعشرين وثمانمائه ودفن بالمعلاة.[٣٣]

١٥– محمد بن عبد الصمد المغربي المعروف بالتازي : جاور بمكة سنين كثيرة، واشتغل بالفقه قليلاً، وكان يذاكر من حفظه بمواضع من موطأ مالك، رواية يحيى بن يحيى، ويفهم أنه يحفظه وسمع بمكة على النشاوري، وشيخنا ابن صديق، وغيرهما من شيوخنا. ولم يكن بالمرضى في دينه، والله يغفر له وتوفي في آخر ذي الحجة سنة خمس وثمانمائة، برباط السدرة بمكة، وكان يسكن به، ودفن بالمعلاء[٣٤] .

١٦– محمد بن عبدالمؤمن بن خليفة الدكالي الملقب بالبهاء المكي أجاز له أبو العباس الحجار وجماعة من دمشق باستدعاء خاله الشريف أبي الخير الفاسي وسمع منه الموطأ وعلى الزين الطبري وعثمان بن الصفي والآقشهري سنن أبي داود وعلى جماعه بمكة وبالمدينه ، وسمع من القاضي

ناصر الدين التونسي بالقاهرة وتردد إليها مرات وبها توفي في سنة تسع وستين وسبعمائة وكان باشر الحسبة بمكه نيابةً [٣٥].

١٧- محمد بن علي بن عطية المكناسي ، أبو عبدالله قال شيخنا القطب القسطلاني : هذا ابن عطية سافر وساح ، وجاور بمكه دفعات ودخل الشام والحجاز واليمن وكان فيه صدق وإيثار [٣٦].

١٨- محمد بن علي بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله الطائي الحاتمي الأندلسي المرسي ، أبو بكر الملقب محي الدين المعروف بابن عربي الصوفي هكذا نسبه الحافظ ابن مسدي في معجمه وذكر أنه قرأ القرآن بالروايات على نجبة بن يحي واختص به سمع من أبي عبدالله محمد بن سعيد بن زرقون وأبي بكر بن الجد ومن أبي بكر محمد بن خلف بن صاف المقرى وغيرهم وبسبتة من أبي محمد عبيدالله الحجري وغيره وبأشبيلية من أبي محمد عبدالمنعم بن محمد الخزرجي وبملاسية من القاضي أبي بكر بن أبي حمزة وغيره ، وكان جاور بمكة مدة سنين وألف فيها كتابه الذي سماه بالفتوحات المكية وله تواليف أخرى منها : كتاب فصوص الحكم وشعر كثير إلا أنه شابه بتصريح فيه بالوحدة المطلقة وصرح بذلك في كتبه [٣٧]. قال ابن كثير [٣٨] عن كتابه الفتوحات المكية فيها ما يعقل ومالايعقل ، ماينكر ومالاينكر ، ومايعرف ومالايعرف وله كتابه المسمى بفصوص الحكم فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح . وقال الذهبي [٣٩] : ومن أردأ توالفيه كتاب الفصوص فإن كان لاكفر فيه ، فما في الدنيا كفر ، نسأل الله العفو والنجاة فواغوثاه بالله وذكر ابن حجر بسنده عن الشيخ عبدالسلام السلمي قال : هو شيخ سوء شيعي كذاب [٤٠]

١٩- محمد بن علي بن محمد بن علي بن عبدالله بن محمد بن يوسف بن يوسف بن أحمد الأنصاري الحارثي الخزرجي أبو عبدالله المعروف بابن قطرال الأندلسي ثم المراكشي نـــزيل مكة. هكذا وجدت نسبه بخطه وسمع بمصر من علي بن هارون الثعلبي، وسمع بمكة الكثير، بقراءته غالباً على الفخر التوزرى، والرضى الطبري، وأخيه الصفى وغيرهم، وحدث. سمع منه جماعة من الأعيان، وأثنوا عليه، منهم الجد أبو عبدالله الفاسي [٤١] ذكر ابن حجر عن ابن الخطيب كان فاضلاً محدثاً من أهل الخيرة ذا ثروة واسعة وتخلى ولازم العبادة . [٤٢] توفي بمكة، في سادس جمادي الأولى سنة عشر وسبعمائة برباط الخوزي – بخاء معجمة– طلع أعلاه لنشر ثيابه، فوقع به الدرابزين ، فسقط إلى الأرض، فمات [٤٣] .

٢٠- محمد بن علي بن أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسني الفاسي المكي يلقب بالمحب وبالجمال ، سمع من إبراهيم بن النحاس الدمشقي، والحافظ العلائي بمكة. وعلى غير واحد من شيوخهما. وباشر في الحرم نيابة عن أبيه، حتى توفي في شوال سنة ثلاث وستين وسبعمائة بمكة، عن أربع وعشرين . وسبب موته – على ما قيل-: إنه شرب شيئاً وضع له في ماء وهو لايشعر [٤٤].

٢١- محمد بن علي بن يحيى بن علي الأندلسي أبو عبدالله الغرناطي المعروف بالشامي لقدوم والده الشام ولد سنة إحدي وسبعين وستمائة بأحواز غرناطة، وسمع بها، وتلا بالسبع على أبي جعفر بن الزبير. وسمع بتونس من أبي محمد عبدالله بن هارون الطائي: الموطأ، رواية يحيى بن يحيى، ثم قدم القاهرة في سنة سبعمائة، ولم يقم. وحج، وتوجه إلى الحجاز، و هذا يدل على أنه استوطن مكة، ولا ريب في ذلك؛ لأنه تأهل فيها بابنه النفيس البهنسي، ورزق منها بنتين، إحداهما: تزوجها جدى على الفاسي، وأولدها عمي محمداً، وعمق منصورة، وهي أم الحسين، والأخرة: تزوجها القاضي شهاب الدين الطبري وعمه الزين الطبري، وهي أم كلثوم، وذكر البرزالي: أنه أقام بالحرمين نحو خمسة عشر سنة. ومعظم إقامته بالمدينة. وذكر أنه توفي بها، يوم الاثنين سادس صفر سنة عشرة وسبعمائة [٤٥].

٢٢- محمد بن عمر بن يوسف بن عمر بن نعيم الأنصاري أبو عبدالله القرطبي الفقيه المالكي المقري أخذ القراءات بالمغرب عن جماعة، منهم : أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبيدالله الحجري، وبمصر عن أبي القاسم الشاطبي، وبدمشق من أبي جعفر العتكي، وسمع منهم ومن أبي القاسم بن موقا، وأبي الفضل بن الدليل وغيرهما بالإسكندرية قرأ عليه القطب القسطلاني رحمه الله، ختمة واحدة بالمدينة وسمع منه، وقد سمع عليه جماعة من الأعيان، منهم : الحافظ عز الدين أبو الفتح بن الحاجب الأميني ؛ وقال بعد أن نسبه كما ذكرنا: كان شيخ الحرمين في زمانه، لزهده وعلمه ورفعه مكانه، وذكر أنه كان كثير الاعتكاف والمجاورة لبيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه السلام، وقد أم بالحرم الشريف النبوي وتوفي سنة إحدي وثلاثين وستمائة، ودفن بالبقيع [٤٦].

٢٣- محمد بن غالب بن يونس بن محمد بن غالب الأنصاري الأندلسي الجياني شمس الدين أبو عبدالله المعروف بابن شعبة سمع من أحمد بن عبد الدايم مشيخته، تخريج ابن الظاهري، وحدث بها وبالأربعين للنووى عنه. ثم رأيت له ثبتاً بسمعات كثيرة على جماعة كثيرين، منهم:

أحمد بن أبي الخير الحداد الدمشقي، سمع عليه المعجم الكبير للطبراني ، ووجدت بخط جدى أبي عبدالله الفاسي، أنه توفى ، سنة اثنتين وسبعمائة. وهذا أصح إن شاء الله تعالى، لأن جدى أقعد بمعرفته لسكونه بالحجاز ، وأما مولده، أنه في سنة سبع وعشرين، وقيل: سنة خمس وثلاثين بجيان(٤٧) .

٢٤- محمد بن قاسم بن قاسم بن مخلوف الحسني الصقلي الشريف أبو عبدالله المعروف بالبزرتي المالكي نزيل الحرمين الشريفين هكذا أملي على نسبه(٤٨) ، وذكر لي أنه ولد سنة ست وثلاثين وسبعمائة، وأنه سمع بدمشق: جامع الترمذي، وسنن أبي داود، على عمر بن أميلة، وعلى محمود بن خليفة المنبجي : سنن النسائي بفوت معين، في أصل السماع، وعلى إبراهيم بن عبدالله الزيتاوي: سنن ابن ماجه بنابلس ، وكان قدم إلى المدينة، في حدود سنة سبعين وسبعمائة، وسكنها مدة سنين، ولازم قراءة الحديث النبوي عند الحجرة، وصار يتردد إلى مكة، فأدركه الأجل، في سنة أربع وتسعين وسبعمائة ودفن بالمعلاة، وشهدت الصلاة عليه ودفنه(٤٩) .

٢٥- محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن علي الحسني الإدريسي ، أبو عبدالله الفاسي ، نزيل مكة سمع بمصر القطب القسطلاني : جامع الترمذي ، وعوارف المعارف للسهروردي وكتاب الفصول في أخبار الشيخ أبي عبدالله القرشي وغيره من المشايخ استوطن مكه ، وسمع بها على جماعة من شيوخها مع أولاده . وعلى العز الفاروثي مسند الشافعي مسند الشافعي ، وكتب عن جماعة من العلماء والصالحين وأخذ عنهم ، وصار قدوه في العلم والعمل وكانت وفاته سنة تسع عشرة وسبعمائه بمصر(٥٠) .

٢٦- محمد بن أبي الخير محمد بن عبدالرحمن بن أبي الخير محمد بن أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحسني الفاسي المكي المالكي ، يكنى أبا البركات ، ويلقب بالجمال ولد سنة إحدى وتسعين وسبعمائة بمكة وبها نشأ وحفظ المختصرات في فنون من العلم واشتغل بالعلم ، وناب عني في الحكم مرتين وولي إمامة المالكية بالمسجد الحرام بتفويض من السلطان بمصر مات سنه ثلاث وعشرين وثمانمائه بمكة ودفن بالمعلاة(٥١) .

٢٦- محمد بن محمد بن عبدالمؤمن بن خليفة الدكالى أبو الخير ابن البهاء المكي سمع من القاضي عز الدين بن جماعة واشتغل بالعربية على الشيخ أبي العباس بن عبدالمعطي بمكة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها نحو عشرة أعوام حتى مات في أوائل سنة إحدى وتسعين وسبعمائة(٥٢) .

٢٧- محمد بن محمد بن عبد المؤمن بن خليفه الدكالي أبو الفضل بن البهاء المكي يلقب بالكمال ، ولد في سنة أربع وستين وسبعمائة أو قبلها بقليل، وهو الظاهر، لما يأتي ذكره. وسمع على القاضي عز الدين بن جماعة بمكة، وأجاز له ابن أميلة، وصلاح الدين بن أبي عمر، وغيرهما من أصحاب ابن البخاري، وأحمد بن عساكر، وعمر بن القواس وغيرهم، وأدب الأطفال بمكتب بشير الجمدار بالمسجد الحرام مدة سنين ، وتوفي سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة بمكة. ودفن بالمعلاة ، وخلف ولدين وثلاث بنات سامحه الله تعالى[٥٣] .

٢٨- محمد بن محمد بن ميمون الجزائري ، أبو عبدالله ، المعروف بابن الفخار لكون جده كان يبع ذلك أصله من الأندلس ومولده بالجزائر من بلاد المغرب قرأ بها القرآن والفقه ثم انتقل إلى تلمسان وأقام بها وثابر على قراءة العلم على جماعة من شيوخها ثم وصل تونس ثم ارتحل إلى مصر فأقام بها أشهراً ثم حج ، وأقام بالمدينه خمسة أعوام يؤدب الأطفال ، توفي سنة إحدى وثمانمائة ودفن بالمعلاة وكان جاور من عام ثمانمائة [٥٤]

٢٩- محمد بن محمد بن الجديدي المالكي ، الشيخ الصالح أبو عبدالله القيرواني ولد بالقيروان ونشأ بها وتفقه على الفقيه القاضي أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبد خليل بن فيراز المرادي ، سافر إلى الحج فحج وأقام بمكة في عام اثنين وثمانين وسبعمائة على اجتهاد وعباده ، كان رحمه الله من الزهد على جانب عظيم ومن الورع على شيء صالح مع جلالة مقداره وطول صمت وحسن سمت ، توفي في أوائل سنة ست وثمانمائة غريقاً وهو متوجه إلى اليمن . [٥٥]

٣٠- محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن على الحسني ، الشريف أبو الخير بن أبي عبدالله الفاسي المكي المالكي ، يلقب بالمحب ولد سنة ثمان وسبعين وستمائة بمكة وسمعَ بها باعتناء أبيه على يحي الطبري وعلى الظهير بن منعة وعلى غيرهم من شيوخ مكة والقادمين إليها ، ورحل به أبوه إلى مصر فسمع بها إلى ابن هارون الثعلبي وعلى ابن أبي الفتوح القرشي وعلى لمحمد بن عبدالحميد ثم طلب بنفسه فسمع بدمشق من أبي العباس الحجار وعلى النجم العسقلاني ، وتلا بالروايات بمكة على مقرئها العفيف الدلاصي وعلى الشيخ أبي عبدالله محمد بن إبراهيم القصري توفي يوم الجمعة سنة سبع وأربعين وسبعمائة بالمدينة . [٥٦] أثني عليه ابن فرحون نشأ في عباده الله وارتحل إلى الاسكندرية وأدرك بها من أهل العلم والصلاح وكسب من أخلاقهم وصفاتهم [٥٧] .

٣١- محمد بن محمد بن محمد بن علي بن إبراهيم بن حريث العبدري السبتي خطيب سبته وأمامها ولد سنه إحدى وأربعين وستمائه بمدينة سبتة ونشأ بها وحصل وصار خطيبها ولزم الإقراء في الفقه ثلاثين سنة كان حسن الهيئة منور الوجه كثير البشر ، مع كثرة الخشوع والبكاء خرج من بلده بغية الحج والمجاورة إلى الموت . وكانت أقامته بالحرمين نحو سبع سنين وكان كثير الإيثار والشفقة على الغرباء وحدث بمكة والمدينة سمع منه أعيان من بها ، ووفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة بمكة ودفن بالمعلاة (٥٨)

٣٢- محمد موسى بن علي بن عبدالصمد بن محمد بن عبدالله المراكشي ، الحافظ المفيد جمال الدين أبو البركات المكي الشافعي سبط الشيخ عبدالله اليافعي ولد سنة سبع وثمانين وسبعمائة بمكة المشرفة ونشأ بها قرأ على جماعة في الفقه والأصول والعربية والمعاني والبيان والعروض والفرائض والحساب وبرع في هذه العلوم من شيوخه بمكة قاضي قضاتها جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة والشيخ شمس الدين محمد بن محمود الخوارزمي وفي العربية الشيخ خليل بن هارون الجزائري وبالمدينه مسند الحجاز أبي بكر بن الحسين المراغي رحل للرواية والدراية إلى دمشق وبعلبعك وحلب ومصر والقدس والخليل واليمن وتوجه من اليمن لقصد الحج وركب فرساً ليدرك الحج حتى مات بعد الحج من سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة بمكة المشرفة ودفن بالمعلاة (٥٩) قال ابن حجر كان حافظاً ذا مروءة وقناعة وصبر على الأذى باذلاً لكتبه وفوائده موصوفاً بصدق اللهجة وقلة الكلام (٦٠).

٣٣- محمد بن موسى بن عائذ أبو عبدالله الغماري المغربي الوانوغي المالكي نزيل مكة شيخ رباط الموفق بمكة كان كثير العبادة وأفعال الخير معظما عند الناس متواضعاً لهم ، قاضياً لحوائجهم ، وكان قدومه إلى مكة، وفي سنة ثمانية وسبعمائة، أو قربها، وله من العمر أربع وعشرون سنة. دخل بلاد اليمن، وجال في بلدانها، كصنعاء وما يليها، وشاهدته بمكة بعد سنة تسعين وسبعمائة بقليل، ولم يزل بها حتى مات، إلا أنه في سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة، توجه لزيارة المدينة النبوية، وجاور بها أشهراً، وولى مشيخة رباط الموفق بمكة، والنظر في مصالحه سنين كثيرة، ولم يكن يعارضه فيما يختاره في ذلك أحد من قضاة مكة ، وكان صاحب مكة الشريف حسن بن علان، ويكرمه ويشفعه كثيراً، وكذلك نوابه، ولما مات، كثر ازدحام الخلق من القضاة والعلماء والأعيان وغيرهم، على حمل نعشه، لحسن معتقدهم فيه، ودفن بالشبيكة رحمه الله (٦١).

٣٤- محمد بن النعمان بن منصور بن أحمد بن حيون بن القاضي أبي عبدالله بن أبي حنيفة قاضي الحرمين وغيرهما [٦٢] ذكر ابن خلكان : أنه ولي القضاء بتقليد من العزيز العبيدي، صاحب مصر، بعد موت أخيه أبي الحسن علي،سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وكان في سجل أخيه: القضاء بالديار المصرية والشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز، والخطابة والإمامة، والعيار بالذهب والفضة، والموازين والمكاييل. ولم يزل على ذلك، حتى مات سنة تسع وثمانين وثلاثمائة[٦٣].

٣٥- محمد بن يوسف بن موسى بن يوسف بن موسى بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالله ابن المغيرة الأزدي المهلبي جمال الدين أبو بكر ويقال : أبو المكارم بن أبي أحمد الشهير بابن مسرى ، ويقال : ابن مسد الأندلسي الغرناطي نزيل مكة وخطيبها، وإمام المقام الشريف. ولد يوم عيد الأضحى سنة تسع وخمسمائة بوادي آش من الأندلس ، وقرأ على جماعة، منهم: قاضي الجماعة بقرطبة أبو قاسم بن بقي المخلدي، وجماعة بالمغرب، ثم رحل بعد العشرين وستمائة، فسمع بالثغر، من محمد بن عمار الحراني وغيره، وبمصر من الفخر الفارسي، وأبي القاسم عيسى ابن عبد العزيز بن عيسى اللخمي، وقرأ عليه بالروايات، وأبي الحسن بن المقير وأكثر عنه، وجماعة بمصر، وبدمشق من أبي القاسم الحسين بن هبة الله بن محفوظ بن صصري، وغيره، وبحلب من الموفق عبد اللطيف بن يوسف البغدادي وغيره، ومن أبي البركات عبد الرحمن بن عبد اللطيف الصوفي، وجماعة بمكة وكانت وفاته سنة ثلاث وستين وستمائة بمكة، ودفن بالمعلاة، قدم المدينة سنة ست وأربعين وستمائة من مصر، وكنت مجاوراً بها، وتوجه إلى مكة، فحج ذلك العام، وأقام بها، إلى أن توفي بها، بعد أن ولي خطابة الحرم، وإمامه المقام [٦٤]. قلت: وليهما بعد الفقيه سليمان بن خليل العسقلاني. وذكر الذهبي عن العفيف المطري: أنه كان يداخل الزيدية، فولوه خطابة الحرم، وكان ينشئ الخطب في الحال. [٦٥].

٣٦- أحمد بن علي بن أبي بكر بن عيسى بن محمد بن زياد العبدري الشيخ الجليل أبو العباس الميورقي كان عالماً فاضلاً، كتب بخطه تعاليق كثيرة مشتملة على فوائد جمة، ووقفها مع كتبه بوج الطائف، وكان سكنه مدة سنين، حتى مات. وسكن مكة أيضاً، وأخذ عن فضلائها، وأخذوا عنه، وكان جميل الثناء مشهوراً بالصلاح والخير كبير القدر، ووجدت بخط محمد بن عيسى قاضي الطائف، أنه توفي بعد الحج من سنة ثمان وسبعين وسبعمائة بوج [٦٦].

٣٧- أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحسني السيد الشريف القاضي شهاب الدين أبو العباس بن السيد نور الدين بن السيد القدوة أبي عبيدالله الفاسي المكي المالكي والدي تغمده الله برحمته ولد سنة أربع وخمسين وسبعمائة بمكة وسمع على قاضيها شهاب الدين الطبري وعلى الشيخ خليل المالكي والشيخ عبدالله اليافعي وعلى القاضي موفق الدين الحنبلي وسمع بالقاهرة من قاضيها أبي البقاء السبكي وسمع بحلب وكان ذا فضل ومعرفة تامة بالأحكام والوثائق وله نظم كثير ونثر وأذن له في الإفتاء ، ناب عني في الحكم بأخرة وقبلي عن ابن أخته القاضي سراج الدين عبداللطيف بن أبي الفتح الحنبلي ، وولي مباشرة الحرم بعد أبيه في سنة إحدى وسبعين كان كثير المروءة والإحسان إلى الفقراء وغيرهم توفي سنة تسع عشرة وثمانمائة بمكة (٦٧)

٣٨- أحمد بن محمد بن عبدالله التونسي المالكي شهاب الدين أبو العباس المعروف بالمرجاني سمع بمكة على القاضي عز الدين بن جماعة سنن النسائي، رواية ابن السنة، وسمع معظمها على الشيخ فخر الدين النويري، مع ابن جماعة، سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة بالحرم الشريف، والسماع بخط شيخنا ابن سكر. ومنه نقلت نسبة هذا، وسمع غير ذلك على ابن جماعة ، وسبب معرفته بالمرجاني، أنه كان تزوج خديجة بنت الشيخ أبي محمد المرجاني، وهي أم أولاده، على ما ذكر إلى شيخنا السيد تقي الدين عبد الرحمن الفاسي، وذكر أنه يعمل ميعاداً بالحرم، وأنه قام بمكة سنين، وبها مات (٦٨) .

٣٩- أحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن أحمد بن علي الحسني ، أبو المكارم بن أبي عبدالله الفاسي المكي ، ولد بالمدينة النبوية سنة أربع وسبعمائة كذا وجدت مولده بخط أبيه وسمع عليه عدة كتب وعلى غيرهم من الشيوخ القادمين إلى مكة ، وأجاز له جماعة من مصر ، وذكر أنه توفي في سنة ثلاث وخمسين بمكة والصحيح أنه توفي بمصر ودفن عند أبيه بالقرافة وكانت له مكارم سامحه الله (٦٩) .

٤٠- أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق التلمساني ، أبو العباس ذكر ابن فرحون في كتابه "نصيحة المشاور " وقال:كان له من الكرامات والأحوال الجليلة العزيزة اليوم في الناس مالا يحصر ولايعد . وذكر أنه جاور بالمدينة ومكة وبها توفي في سنة أربعين أو في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة (٧٠)

٤١- أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجيبي أبو العباس المعروف بالأقليشي :[٧١]

ذكر ابن الأبار:[٧٢] أن أباه أصله من أقليش، وسكن داني. وبها ولد أبو العباس هذا ونشأ. فسمع أباه وأبا العباس بن عيسى، وتتلمذ له. ورحل إلى بلنسية، فأخذ العربية والأدب عن أبي محمد البطليوسي. وسمع الحديث من صهره أبي الحسن طارق، وابن يعيش، وأبي بكر بن العربي، وأبي محمد العلبي، وعباد بن سرحان، وأبي الوليد بن الدباغ، وأبي الوليد بن خيرة. ولقي بالمدينة أبا القاسم بن ورد، وأبا محمد عبد الحق بن عطية، وأبا العباس بن العريف، فروى عنهم ورحل إلى المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وأدي الفريضة، وجاور بمكة سنين. وسمع بها من أبي الفتح الكروجي" جامع الترمذي" وحدث بالأندلس والمشرق. وروى عنه: أبو الحسن بن كوثر بن بيش على ما ذكر ابن الأبار، وقال: كان عالماً عاملاً متصوفاً شاعراً مجوداً، مع التقدم في الصلاح والزهد، والعروض عن الدنيا وأهلها، والإقبال على العلم والعبادة ، وله تصانيف كثيرة مفيدة. منها: كتاب الكوكب، وكتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم، عارض به كتاب "الشهاب" للقضاعي- وقد رويته- وكتاب: الغرر من كلام سيد البشر، وكتاب ضياء الأولياء، وهو أسفار عدة، حدث عنه معشراته في الزهد ، وقال ابن الأبار: توفي في صدوره عن المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر، في عشر الخمسين وخمسمائة ، وقال: قال أبو عبدالله بن عباد: توفي سنة خمسين أو إحدي وخمسين بعدها، وقد نيف على الستين. توفي بمكة .وقد حزم بوفاته بمكة: الحافظ منصور بن سليم الإسكندري[٧٣]

٤٢- إسماعيل بن عمر المغربي المالكي نزيل مكة. كان فقيهاً صالحاً ورعاً زاهداً، كبير القدر: لم أر مثله بمكة على طريقته في الخير، انتقل إلى الإسكندرية وسكنها مدة سنين، ثم انتقل إلى مكة، وجاور بها من سنة إحدي وثماني مائة إلى حين وفاته، إلا أنه ذهب في بعض السنين إلى المدينة النبوية زائراً، وأقام بها وقتاً. وكانت سكناه بمكة برباط الموفق في الغالب، وبه توفي سنة عشر وثماني مائة بمكة، ودفن بالمعلاة. شهدت الصلاة عليه ودفنه،وقد بلغ الستين ظناً[٧٤] .

٤٣- جعفر بن عبد الرحمن بن جعفر بن عثمان بن عبدالله السلمي الصقلي المحتد البجاني المولد نزيل مكة، المكي المقرئ، الفقيه المحدث، يكنى أبا الفضل. ولد ببجاية سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وتوفي بمكة في ذي الحجة سنة أربع وأربعين وستمائة ، روى عن القاضي أبي نصر محمد بن هبة الله بن مميل الشيرازي. وجدت عنه بالمدرسة المنصورية بمكة، سمع منه بها الحافظ شرف الدين الدمياطي،ومن معجمه لخصت ما ذكرته من خاله[٧٥] .

٤٤- جميل أبو الزين محمد بن لغر الحبيبي القيرواني : شيخ القيروان : كان جميل رجلاً صالحاً. توفي بمكة، ودفن بالمعلاة، قرب قبر الضباء المالكي، جد الشيخ خليل المالكي، وكانت وفاته في سنة إحدي وخمسين وستمائة. كما وجدت بخط الميورقي [٧٦].

٤٥- حسن بن أحمد بن ميمون بن أبي الفتوح قاسم التونسي المكي المعروف بالمغربي أجاز له التوزري وله نظم كثير، إلا أنه متلاش إلى الغاية. وأجاز لي باستدعاء شيخنا ابن سكر. وليس هو أهــلاً للرواية لتظــاهره باللعب. وكــان بزازاً بالقيسارية المعــروفة بدار الإمــارة بمكة، وبــها مات في أثناء عشر التسعين وسبعمائة سامحه الله تعالى [٧٧].

٤٦- الحسن بن عبدالله بن عمر بن علي خلف القيرواني أبو علي بن أبي محمد المكي المعروف بابن العرجاء المقرئ الفقيه [٧٨]. ذكر السلفي في "معجم السفر" له أنه قرأ على أبيه، وتفقه على مذهب الشافعي. وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالحرم الشريف، وكان يفتي ويسمع الحديث على إسماعيل الشاوي وطريف الحيري، وأبي محمد بن غزال وغيرهم، قال: وكتب عن أبي الأصبغ الأندلسي عني [٧٩]. وذكره الذهبي في طبقات القراء [٨٠]، وقال: الإمام أبو علي القيرواني، قرأ على والده تلميذ أبي معشر، وأجاز له أبو معشر، وقد قيل: إنه قرأ على أبي معشر نفسه، وذلك خطأ. طال عمره وقصده القراء. ثم قال: عاش أبو علي إلى حدود الأربعين وخمسمائة، وقيل: عاش إلى سنة سبع وأربعين وخمسمائة. قلت: جزم بوفاته سنة سبع وأربعين القطب الحلبي، كما وجدته بخطه ، قال: وقيل سنة ثمان وأربعين. انتهي .والصواب سنة سبع وأربعين؛ لأني وجدت في حجر قبرة بالمعلاة، أنه توفي يوم الأحد ثامن من شهر رمضان سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وترجم فيه: بالفقيه الإمام العالم مفتى الحرمين ومقرئهما [٨١].

٤٧- الحسن بن محمد بن علي بن الجزائري إمام المالكية بمكة بالمسجد الحرام ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر في معجمه [٨٢].

٤٨- خالد المغربي المالكي : جاور بمكة أوقاتاً كثيرة، من سنين كثيرة، وكان في أثناء السنين التي جاور فيها بمكة، يقيم أشهراً من كل سنة، بوادي لية ويحج في غالب السنين، وربما زار المدينة النبوية غير مرة، وكان له حظ من العلم والعبادة والخير، حسن السمت، وللناس فيه اعتقاد حسن .توفي بمكة في أوائل سنة سبع وعشرة وثمانمائة، ودفن بالمعلاة، وهو في سن الكهولة فيما أحسب، والله أعلم [٨٣].

٤٩- خليل بن عبد المؤمن بن خليفة الدكالي سبط الشريف أبي عبدالله الفاسي ، جد أبي: أجاز له في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة من دمشق: الحجاز وجماعة ، وسمع الكثير بمكة على الحجي، والزين الطبري، وعثمان بن الصفي، والآقشهري وغيرهم وبالمدينة من الزبير الأسواني، والجمال المطري، وخالص البهائي، وغيرهم ، توفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة بمكة، ودفن بالمعلاة في ذي القعدة، أو في ذي الحجة (٨٤) .

٥٠- داود بن موسى الغماري الفاسي المالكي: نزيل الحرمين، عنى في شبابه بفنون من العلم، وتنبه في ذلك، وصار على ذهنه فوائد ونكت حسنة يذاكر بها، ثم أقبل على التصوف والعبادة وجد فيها كثيراً ، وسكن الحرمين مدة سنين، نحو عشرين سنة، وإقامته بالمدينة أكثر من مكة بيسير ، وكانت وفاته بالمدينة، في يوم الخميس مستهل المحرم سنة عشرين وثمانمائة، على مقتضى رؤية الناس لهلال المحرم في غير الحرمين، وعلى مقتضى رؤيته فيهما، سلخ الحجة من سنة تسع عشرة، والأول أصوب (٨٥) . وله بمكة ابنة وملك، وكان كثير الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وله في ذلك إقدام على الولاة وغيرهم، وبيني وبينه مودة ومحبة، تغمدة الله تعالى برحمته، وأظنه مات في عشر الستين (٨٦) .

٥١- رزين بن معاوية بن عمار العبدري الأندلسي السرقسطي أبو الحسن إمام المالكية بالحرم (٨٧) سمع بمكة من أبي مكتوم بن أبي ذر الهروي: صحيح البخاري. ومن الحسين بن على الطبري: صحيح مسلم. وحدث ، روى عن قاضي مكة أبو المظهر الشيباني، والحافظ أبو موسى المديني، والحافظ أبو القاسم بن عساكر، قال: وكان إمام المالكية في الحرم، وأجاز للحافظ السلفي، وذكره في كتابه"الوجيز" . وقال: شيخ عالم، لكنه نازل الإسناد، قال: وله تواليف، منها: كتاب جمع فيه ما في الصحاح الخمسة، والموطأ، ومنها، كتاب في أخبار مكة ، وذكر لي أبو محمد عبدالله بن أبي البركات الصدفي الطرابلسي: أنه توفى - رحمة الله - في المحرم سنة خمس وعشرين، يعني: وخمسمائة بمكة، وأنه من جملة من صلى عليه وحضر جنازته (٨٨) .

٥٢- السائب بن عبدالله بن السائب الأنصاري الخزرجي القاضي أبو الغمر - بغين معجمة وراء مهملة- الطنجي: نزيل الحرمين، سمع بمكة على الصفي الطبري، وأخيه الرضى، بقراءة الوادي آشي مع الأقشهري. ومن خط الأقشهري، نقلت نسبه هذا (٨٩) ، وقد ذكره ابن

فرحون في كتابة "نصيحة المشاور" قال: كان من كبار الأولياء المتجلين بالعلم والعمل والزهد. وذكر أنه قرأ عليه الفرائض والحساب، وأنه أقام بالمدينة مدة طويلة، وسكن بالحجرة التي هي مسكن الأولياء والأخيار، برباط دكالة، ثم انتقل إلى مكة، فأقام بها على عبادة وكثرة طواف، حتى أنه لا يكاد يوجد إلا فيه ، يعني الطواف. وذكر أنه طاف يوماً، ثم خرج من المطاف، ودخل دهليز الفقيه خليل- يعني المالكي- عند باب إبراهيم، ثم دعا بفراش واستقبل الكعبة، ثم قضي- رحمه الله تعالى- وذلك في رمضان سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وصلى عليه القاضي نجم الدين الطبري. وذكر أنه لم ير جنازة كثر تابعها من رجال ونساء وكبار وصغار ، مثل جنازته رحمه الله [٩٠].

٥٣- سعادة المغربي [٩١].ذكره ابن فرحون في كتابه "نصيحة المشاور" قال: كان لنا شيخ عظيم القدر. كاشف لأسرار الحقيقة، كانت إقامته بمكة والمدينة، يتردد بينهما توفي بمكة سنة ثلاثين وسبعمائة [٩٢]

٥٤- سعيد بن سلام المغربي، كنيته أبو عثمان : أصله من القيروان، أقام بالحرم مدة، وصحب أبا علي بن الكاتب، وحبيباً المغربي، وأبا عمرو الزجاجي، ولقي النهر جوري، وأبا الحسن بن الصائغ الدينوري، وغيرهم من المشايخ، وكان أوحد وقته، وهو بقية المشايخ الأولين، ورد بغداد وأقام بها مدة ، ثم خرج منها إلى نيسابور واستوطنها، ومات بها، وأوصى أن يصلي عليه الإمام أبو بكر بن فورك، وجاور بمكة سنين فوق العشر. وكان لا يظهر في الموسم. ومات أبو عثمان بنيسابور سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، رحمة الله عليه [٩٣].

٥٥- عبدالله بن سعيد بن لباج مولاهم الأموي أبو محمد الشنتجالي الأمويُ [٩٤] سمع بقرطبة من أبي محمد. وحج في سنة إحدي وتسعين وثلاثمائة، فسمع من أحمد ابن فراس، وعبدالله بن محمد السقطي. وصحب أبا ذر الهروي، ولقي أبا نصر السجزي، وأخذا عنه صحيح مسلم، وجاور بمكة دهراً، وحج خمساً وثلاثين حجة، وزار مع كل حجة زورتين، ورجع إلى الأندلس في سنة إحدي وثلاثين وأربعمائة. وحدث بصحيح مسلم في نحو جمعة بقرطبة. وتوفي في رجب سنة ست وثلاثين وأربعمائة. وكان رجلاً صالحاً خيراً زاهداً، لم يكن للدنيا عنده قيمة ، عاقلاً، وكان يسرد الصوم، ويكتحل بالإثمد كثيراً [٩٥].

٥٦- عبدالله بن طلحة الأندلسي أبو بكر توفي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة بمكة، ذكره ابن الفضل في وفياته، وقال: ذو معارف، وذكره الذهبي في وفياته في مختصر التكملة لابن الأبار فقال : عبدالله بن طلحة بن محمد اليابري يكنى أبا بكر وأبا محمد نزيل إشبيلية كان ذا معرفة بالنحو والأصول والفقه وكان بارعاً فيه وله رد على ابن حزم [٩٦] .

٥٧- عبدالله بن عبد الحق السوسي أبو محمد ذكره الجد أبو عبدالله القاسي في تعاليقه التي وجدتها وقال عنه : إنه أخذ نفسه في آخر أمره بطريق من الورع، لم أسمع أن أحداً تعاطاها ممن سكن الحجاز، فيمن تأخر، ولم يزل عليها إلى أن مات في رجب سنة ثلاث وتسعين وستمائة. ووجدت بخطه في موضع آخر: أنه توفي بمكة، ودفن بالمعلاة [٩٧] .

٥٨- عبدالله بن عبد السلام بن عبد الرحمن الدكالي نزيل مكة أبو لكوط ، ذكره القطب القسطلاني في " ارتقاء الرتبة "فقال : ورأيت سيدي الشيخ العارف أبا لكوط الدكالي ، وكان من رجال الله تعالى وأرباب المجاهدات والمكاشفات والأحوال والمنازعات ، توفي الشيخ أبو لكوط سنة تسع وعشرين وستمائة بمكة ودفن بالمعلاة [٩٨]

٥٩- عبدالله بن عمر بن علي بن خلف القيرواني أبو محمد المعروف بابن العرجاء عبدالله بن عمر بن علي بن خلف القيرواني المقرئ، أبو محمد المعروف بابن العرجاء: إمام مقام إبراهيم الخليل عليه السلام بالمسجد الحرام، ذكره السلفي في معجم السفر [٩٩] له، وكان هو من أصحاب أبي معشر الطبري، قرأ عليه القرآن بروايات. ثم بلغني أن ابنه أبا علي قال: قرأ أبي على عبد الباقي بن فارس الحمصي، وعلى أحمد بن نفيس الطرابلسي وغيرهما بمصر. وقرأت ذلك بخطه، لكنه لم يذكره لنا. وسمع معنا من غير واحد من شيوخ الحرم، وكان شافعي المذهب رحمه الله تعالى. ومولده بالقيروان. وكان إمام مقام إبراهيم، وأول من يصلي من أئمة الحرم، قبل المالكية والحنفية والزيدية، وسمع منه: أبو طاهر السلفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة. وقال: انتهت إليه رئاسة الإقراء [١٠٠]

٦٠- عبدالله المغربي المعروف بالبجائي : كان رجلاً مباركاً كثير التلاوة للقرآن العظيم، يجهر بذلك في المسجد، وعلى قراءته أنس. توفي في أوائل سنة ثلاث وثمانمائة بمكة، ودفن بالمعلاة، بعد أن جاور بمكة سنين كثيرة، على طريقة حسنة [١٠١]

٦١- عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن نصر المرسى الرقوطي المعروف بابن سبعين نسبة إلى رقوطة، وهي حصن منيع بقرب مرسية، يلقب بالطقب، ويعرف بابن سبعين الصوفي . ذكر أبو حيان، نقلا عن القسطلاني، أنه اشتغل بمرسية في مبدأ أمره بعلوم الأوائل، من المنطق، والإلهي، والطبيعي، والرياضي، الذي مجموع الحكمة عليه، التي تدعى الفلسفة، ونظر في شيء من أصول الدين، على طريقة الأشعرية المتقدمين، ومهر فيما ظهر به من المعتقد، وأظهر أن ما قال به هو عين التحقيق، وأنه فوق التصوف رتبة، وصنف كتباً مشتملة على شرح ما ادعاه، منتظمة في سلك الوحدة، وأكثرها: كتاب "فكر المعارف" وسماه "النور اللامع في الكتاب السابع" وله مختصرات، منها: الرضوانية، والفقيرية، والإحاطة، وهي عنده الغالية القصوي، فيما قرره من هذا المذهب... وما زال تلفظه البلاد، حتى استقر بمكة عند واليها أبي نمي، وتقدم عندها، وكان قد جرح جرحاً شديداً، فعالجه ابن سبعين حتى برئ ، وقد سمعت قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العبد يقول: رأيت ابن سبعين بمكة، وهو يتكلم للناس بكلام ألفاظه معقولة المعنى، وحين تركيبها لا تفهم لها معنى . ووجدت بخط الميورقي: أنه توفى سنة تسع وستين وستمائة، وعمره نحو خمس وخمسين سنة ، وكانت وفاته بمكة ، بعد أن جاور بها سنين كثيره ودفن بالمعلاة (١٠٢)

٦٢- عبدالرحمن بن أبي الخير محمد بن أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحسني الفاسي المكي ، يكني أبا زيد ويلقب بالتقي شيخ المالكيه بمكة ذكره لي أنه ولد سنة إحدى وأربعين وسبعمائة بمكة وأن أباه استجاز له بإثر مولده من جماعة ، وأنه أسمعه بالمدينه شيئاً من آخر الشفا للقاضي عياض على الزبير بن على الأسواني وسمع على والده بعض الموطأ ، وسمع على الشيخ إبراهيم بن الكمال محمد بن نصر الله بن النحاس وعلى الإمام نور الدين على بن محمد الهمداني والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسين الهكاري وتاج الدين أحمد بن عثمان بن على والقاضي عز الدين بن جماعة والشيخ خليل المالكي والشيخ موسى المراكشي المالكي ، وتصدى بعده للتدريس والفتوى بمكة ودام على ذلك نحو خمس عشرة سنة ، وانتفع الناس به في ذلك كثيراً ، وكان جيد المعرفة بالفقه ، وكان حسن التدريس والفتوى جليل القدر له وقع في النفوس ، ذا ديانة وعبادة ، ومحاسن كثيرة ، وهو من شيوخي الآذنين لي في الإفتاء والتدريس ، توفي سنة خمس وثمانمائة بمكة ودفن بالمعلاة (١٠٣)

٦٣- عبد الرحمن الغماري الفاسي عبد الرحمن الغماري الفاسي: ذكره جدي أبو عبدالله الفاسي في تعاليقه، وقال: كان كثير التصوف كثير الكرامات ، ووجدت بخط جدي: أن أمين الدين القسطلاني، أخبره عمن لقي من شيوخ مكة، أن الشيخ عبد الرحمن هذا، كان ينفق كل يوم في مكة على ثلاثمائة فقير، وكان مجرداً [١٠٤] .

٦٤- عبد العال بن على بن الحسن المراكشي عبد العال بن على بن الحسن المراكشي: توفي ليلة التاسع والعشرين من شهر رجب، سنة إحدي وسبعين وسبعمائة، ودفن بالمعلاة [١٠٥] .

٦٥- عبد القادر بن أبي الفتح محمد بن أبي المكارم أحمد بن أبي عبدالله محمد بن محمد عبد الرحمن الفاسي المكي الحنبلي القاضي محي الدين بن السيد شهاب الدين: نائب الحكم بمكة، ونائب الإمامة بمقام الحنابلة بالمسجد الحرام، ولد في سنة إحدي وتسعين وسبعمائة، وعنى بدرس القرآن. فلما بلغ، أكثر من تجويده وقراءاته وكان قرأ حفظاً في "العمدة" في الفقه، الشيخ موفق الدين بن قدامه الحنبلي، ولعله أكملها، أقبل كثيراً على النظر في كتب فقه الحنابلة وغيرها، فتنبه في الفقه وغيره، وأفتي في وقائع كثيرة وتوفي وقت الظهر، من يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان المكرم، سنة سبع وعشرون وثمانمائة بمكة، وصلى عليه عقيب صلاة العصر، خلف مقام الحنابلة بوصية منه. ودفن بالمعلاة، سامحه الله تعالى، وهو ابن عم أبي ، رحمهم الله تعالى [١٠٦] .

٦٦- عبد القوى بن محمد بن عبد القوى البجائي، المغربي أبو محمد : نزيل مكة، قدم إلى ديار مصر في شبيبته، فأخذ بها عن الشيخ يحيى الرهوني، وغيره من علمائها، وسكن الجامع الأزهر، ثم انتقل إلى مكة، وأخذ بها عن الشيخ موسى المراكشي وغيره. وسمع بها من النشاوري، وسعد الدين الإسفراييني، وغيرهما . ، ودرس بالحرم الشريف، وأفتي باللفظ قليلاً، تورعاً. وكان ذا معرفة بالفقه، يستحضر كثيراً من الأحاديث والحكايات والأشعار المستحسنة، وله حظ من العبادة والخير ، جاور بمكة أزيد من ثلاثين سنة، إلا أنه كان يخرج في بعض الأوقات إلى الطائف، ويقيم بها قليلاً، ثم ترك ذلك. وولد له بمكة عدة أولاد ، توفي سنة ست عشرة وثمانمائة بمكة، ودفن بالمعلاة، وحمل نعشه الأعيان من أهل مكة للتبرك به [١٠٧] .

٦٧- عبد اللطيف بن أبي المكارم أحمد بن أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسني الفاسي المكي ، يلقب بالسراج إمام الحنابلة، أخو الشريف أبي الفتح السابق ، سمع من عثمان بن الصفى سنن أبي داود، ومن جماعة بعده، وولي الإمامة بعد صهره الجمال محمد بن القاضي جمال الدين الحنبلي، في سنة تسع وخمسين وسبعمائة. واستمر عليها حتى مات سنة اثنتين

وسبعين وسبعمائة شهيداً مبطوناً بمكة ودفن بالمعلاة، أخبرني بوفاته والدى أعزه الله تعالى، وسألت عنه ابن عمه، شيخنا العلامة السيد عبد الرحمن بن أبي القاسي، فذكر أنه حفظ مختصر الخرقي. وكان ذكياً، وله شعر (١٠٨) ، ووجدت بخط شيخنا القاضي جمال الدين بن ظهيرة: أنه توفي سنة سبع وخمسين ، ومولده سنة أربع وثمانين وستمائة بتونس، كذا وجدت مولده بخط شيخنا القاضي جمال الدين بن ظهيرة. وذكر أنه رآه بخط المذكور (١٠٩) .

٦٨- عبد الملك بن عبدالله بن محمد بن محمد البكري أبو مروان بن الشيخ الولي العارف ابن محمد المعروف بالمرجاني التونسي : نزيل مكة، صحب الشيخ نجم الدين عبدالله الأصبهاني ، وروى عنه ، توفي الشيخ عبدالملك المرجاني سنة أربع وخمسين وسبعمائة بمكة ودفن بالمعلاة نقلت وفاته من حجر قبره ، ومولده سنة أربع وثمانين وستمائة بتونس. (١١٠)

٦٩- عبدالملك بن علي الصنهاجي المكناسي توفي في شهر شوال سنة أحدى وسبعين بمكة ودفن بالمعلاة ومن حجر قبره لخصت هذا وترجم فيه بالشيخ الصالح . (١١١)

٧٠- عبد المؤمن بن خليفه بن عبد الملك الدكالي : نزيل مكة، سمع بمكة في سنة إحدي وثلاثين وسبعمائة، على عيسى الحجي، والزين الطبري، ومحمد بن الصفي، وبلال عتيق ابن العجمي، والجمال المطرى: جامع الترمذي، وعلى غيرهم وكان رجلاً صالحاً، عابداً فقيها ، وناب في العقود عن القاضي شهاب الدين الطبري، وعن الشيخ خليل المالكي في الإمامة سنة إحدي وأربعين وسبعمائة، ودفن بالمعلاة (١١٢)

٧١- عبد الواحد بن الحسن الدرعي المغربي الصهاجي : كذا هو منسوب في حجر قبره بالمعلاة. وقبره إلى الجانب قبر الشيخ موسى المراكشي، وهو الشيخ عبد الواحد، الذي كان يجاور بالمدينة ومكة؛ لأن والدى ذكر لي أن الشيخ موسى دفن إلى جانبه ، وقد سألت عنه شيخنا السيد عبد الرحمن بن أبي الخير الفاسي، فقال: كان رجـلاً صالحاً كثير الميل والإحسان إلى الفقراء، جاور بالحرمين مدة طويلة. ومات بمكة. (١١٣)

٧٢- عبد الواحد القيرواني : ذكره الشيخ صلاح الدين الصفدي في كتابه " أعون النصر، وأعيان العصر" . قال: أخبرني شيخنا أثير الدين- يعنى أبا حيان الأندلسي- قال: كان عندنا بالقاهرة، وله نظم حسن، ورحل إلى الحجاز واستوطن مكة، وصحب ملكها أبا نمى الحسنى وله فيه أشعار حسنة أجاد فيها غاية ونظم فيها نظماً كثيراً (١١٤) .

٧٣- عبدالواحد التونسي المالكي المعروف بابن الكاتب ، ذكره لي هكذا شيخنا أبوبكر بن قاسم بن عبدالمعطي ، وقال : كان إماماً فاضلاً علامة ، يفتي مع الزهد والأدب ، أقام بمكة مدة وكان يسكن في رباط الموفق وكان يشتغل فيه وفي الحرم ، توفي في عشر الستين وسبعمائة بالناصرية من أعمال مصر [١١٥].

٧٤- عتيق بن أحمد بن عبد الرحمن الأندلسي الأريولي : نسبة إلى بلدة في بلاد الأندلس. يقال لها: أريولة، ذكره هكذا، أبو سعد بن السمعاني الحافظ في معجمه، وقال: شيخ صالح مميز حسن السيرة، جاور بمكة قريباً من خمسين سنة، سمع النقيب أبا الفوارس طراد الزينبي

كتبت عنه في النوبة الأولى مجلساً، أملاه النقيب بمكة، وسألته عن ولادته فقال: في المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة. وأريولة من بلاد الأندلس، وتوفي بمكة سنة نيف وثلاثين وخمسمائة [١١٦].

وذكره السلفي في معجم السفر [١١٧] وقال: كان من أهل القرآن، والصلاح الظاهر، والجد في طلب الحديث، ولما قدم الثغر، كان يحضر عندي، وسمع علي وعلى غيري سنة وعشرين وخمسمائة، ومضى إلى مكة وجاور بها سنين كثيرة، يؤذن أحياناً في الحرم احتساباً للمالكية، ثم رجع إلى ديار مصر، وتوجه إلى الأندلس وانقطع عنا خبره. وكان كبير السن .

٧٥- عطية بن علي بن عطية بن علي بن الحسن بن يوسف القرشي القيرواني الطنبي المعروف بابن لاذخان : جاور بمكة مع والده سنين، وسمع من عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد الطبري، وقدم بغداد، وكان أديباً، توفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة، ذكره هكذا الشيخ صلاح محمد بن شاكر الكتبي في تاريخه، وأظنه نقل هذه الترجمة، من تاريخ صلاح الدين الصفدي [١١٨].

٧٦- علوان بن الحسن الأغلبي ،يكنى أبا عقال المجاور بمكة كان من ملوك بني الأغلب وهم من ملوك المغرب ، فانقطع وصحب الشيخ أبا هارون الأندلسي ثم لحق بمكة شرفها الله تعالى ومات بمكة شرفها الله تعالى في سنة ست وتسعين ومائتين [١١٩].

٧٧- علي بن حميد بن عمار الأطرابلسي أبو الحسن المكي : سمع صحيح البخاري من أبي مكتوم عيسى بن أبي ذر الهروي، وتفرد به عنه، ورواه عنه جماعة، آخرهم عبد الرحمن بن أبي

حرمي، قال الذهبي: حدث به في سنة إحدي وسبعين وخمسمائة، وترجمة بالمقرى النحوي . وتوفي في شوال سنة ست وسبعين وخمسمائة بمكه[١٢٠]

٧٨- علي بن خلف بن معرور بن علي بن عبدالله الكومي المحمودي العنبروسى التلمساني أبو الحسن الفقيه المالكي تفقه على مذهب مالك بن أنس رحمه الله ونظر في الأصلين مع ورع وزهد وكان يحاضر عند صاحب المغرب وله منه جانب وآثر الآخرة على الدنيا ورحل وقدم مصر قديماً واشتغل بالإسكندريه على الإمام أبي صالح بن أسماعيل المعروف بابن معاف مدة وجاور بمكة سنين ، توفي بمصر سنة تسع وتسعين وخمسمائة [١٢١]

٧٩- على بن عبدالله بن حمود الفاسي، أبو الحسن المكناسي : إمام المالكية بالحرم الشريف، حج سنة اثنى عشرة، وأخذ عن أبي بكر الطرطوشي: سنن أبي داود، وصحيح مسلم - أخذه عن ابن طرخان- وجامع أبي عيسى بن المبارك، ودخل الأندلس مرابطاً، ثم حج ثانياً، وجاور وأم بالحرم، وأصله من مكناسة الزيتون . ذكره ابن الأبار في تكملة الصلة لابن بشكوال، وقال: كان زاهداً ورعاً محسناً إلى الغرباء، توفي بمكة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، عن سبع وثمانين سنة [١٢٢] . وألفيت حجراً بالمعلاة مكتوب فيه: إن هذا قبر أبي الحسن على بن حمود المكناسي. وأنه: توفي ليلة الاثنين في العشر الأوسط من جمادي الآخرة، سنة إحدي وسبعين وخمسمائة. وترجم فيه: بالفقيه الزاهد، إمام المالكية بالحرم الشريف [١٢٣].

٨٠- على بن عبدالله بن عيسار السوسي أبو الحسن : توفي في العشر الأخير من ذي القعدة سنة ثمان وستين وخمسمائة بمكة، ودفن بالمعلاة، ومن حجر قبره كتبت ما ذكرته من حاله، وترجم فيه: بالشيخ الفاضل العابد المقري [١٢٤] .

٨١- على بن عبدالله بن محمد بن عبد النور التلمساني، القاضي أبو الحسن بن أبي محمد: قدم إلى مكة حاجاً في سنة أربع وستين وسبعمائة، وطاف بالبيت الحرام وسعى في يوم قدومه وتوفي إثر ذلك ودفن بالمعلاء [١٢٥].

٨٢- علي بن عبداللطيف بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحسني الفاسي المكي ، يلقب نور الدين إمام مقام الحنابلة بالمسجد الحرام ولد قي العشر الأخير من شوال سنة اثنين وسبعين وسبعمائة قبل موت أبيه ، واستقر عوضه بالإمامة بمقام الحنابلة بالحرم الشريف وباشر

ذلك عنه عمه الشريف أبو الفتح الفاسي مدة سنين حتى مات في ليلة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وثمانمائة ببلاد اليمن [١٢٦]

٨٣- عمر بن محمد بن مفرج القابسي إمام المالكيه بالحرم الشريف سمع منه أبو بكر يحي ابن سعدون القرطبي [١٢٧]

٨٤- عيسى بن يحيى الريغي المغربي المالكي : نزيل مكة، كان خيراً متعبداً، معتنياً بالعلم وإفادة، وله في النحو وغيره نباهة، وكان كثير السعي في مصالح الفقراء الطرخي، وجمعهم من الطرقات إلى المرستان المستنصري، بالجانب الشامي من المسجد الحرام، وربما حمل الفقراء المنقطعين بعد الحج إلى مكة من منى ويحصب، حاشية المطاف بالمسجد الحرام، ويحصب، حاشية المطاف بالمسجد الحرام، ويقوم بما يجب في ذلك، لمن يحمل الحصباء لهذا المحل ، وقد جاور بمكة سنين كثيرة، تقارب العشرين، وتأهل فيها بنساء من أعيان مكة، ورزق بها أولاداً، وبها توفي ليلة الاثنين سلخ المحرم، أو مستهل صفر، سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ودفن بالمعلاة، وهو في عشر الستين ظناً، وقد سمع الحديث بمكة على جماعة من شيوخها والقادمين إليها [١٢٨] .

٨٥- غالب بن عيسى بن أبي يوسف الأنصاري أبو التمام الأندلسي : كتب عنه السلفي أبياتاً لأبي العلاء المعري عنه، في المحرم سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، وذكر أنه جاور بمكة سنين كثيرة، بعد أن جاوز الستين وأنه سمع من أبي يعلى بن الفراء، وابن المهندس، وابن المأمون، ونظرائهم.وروى عنه أبو بكر الطرطوشي، وأثنى عليه، وكان من أعيان فقهاء المالكية، لخصت هذه الترجمة من معجم السفر للسلفي [١٢٩] قال الذهبي [١٣٠] طاف الشام والعراق واليمن وجاور بمكة .

٨٦- القاسم بن علي بن أحمد بن على بن عبد المعطي الأنصاري الأندلسي أبو محمد : سمع بمصر والشام من جماعة، وحج وأقام بمكة حتى مات بها، في ذي الحجة سنة ستين وستمائة. ذكره الشريف أبو القاسم الحسيني في وفياته [١٣١] .

٨٧- منصور بن حمزه بن عبدالله المحاصي أبو علي المكناسي ، أمام المالكية بالحرم الشريف إمام المالكية بالحرم سمع من أبي عبدالله بن أبي الصيف [١٣٢]

٨٨- موسى بن علي بن عبد الصمد بن محمد بن عبدالله المراكشي العلامة القدوة العارف بالله أبو محمد وأبو عبدالله المالكي : نزيل مكة. صحب بها الشيخ عبدالله اليافعي مدة ، وسمع منه كتاب "الرسالة للقشيري" وحدث به عنه، ودرس وأفتى بالحرمين، مع غزارة العلم، وأهلية النظر والترجيح، والعبادة الكثيرة، والورع الشديد الدائم، وانتفع به في العلم جماعة كان كريم النفس، كثير الإيثار للفقراء، وذكر لي: أنه ورد مكة في سنة ثلاث وستين وسبعمائة حاجاً على طريق الصحراء، مع التكاررة، وتوجه بعد حجه إلى المدينة ، فأقام بها سنة أربع وستين، ثم رجع إلى مكة واستوطنها في سنة خمس وستين، وصار يتردد إلى المدينة، ومات بمكة في يوم السبت التاسع عشر، من محرم سنة تسع وثمانين وسبعمائة، ودفن بالمعلاة، وشهد جنازته، أمير مكة، عنان بن مغامس، ومشى فيها وقد شهدت جنازته بحمد الله (١٣٣) .

٨٩- يحيى بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيني الأندلسي المالقي المكي أبو زكريا : وجدت بخطه أنه قرأ القرآن العظيم، من أوله إلى آخره، بقراءات الأئمة السبعة، من طريق "التيسير" و"التبصير" و" الكافي" و "الإدغام الكبير" من طريق ابن شريح، على الشيخ أبي محمد عبدالله بن أيوب. وبلغني أن ابن صفوان، كان عارفاً بالقراءات، وأنه أم بمقام المالكية، نيابة عن الشيخ خليل المالكي، وأنه توفى في سنة اثنين وسبعين وسبعمائة بمكة، ودفن بالمعلاة، بالتربة المعروفة بتربة بيت القسطلاني. ذكره الحافظ غرس الدين خليل الأقفهسي، في مشيخة القاضي جلال الدين بن ظهيرة، وقال في ترجمته: قدم مكة، فجاور بها مدة، على طريقة حسنة مرضية، وأم بمقام المالكية عن شيخنا الإمام أبي الفضل خليل وغيره، وكان إماماً عالماً عارفاً بالقراءات الغريبة، صالحاً زاهداً (١٣٤) .

٩٠- يحيى بن محمد بن أحمد بن فتوح بن نصر بن سليمان بن المرحل الأنصاري الأندلسي : الفقيه، قاضي الطائف، وخطيب مشهد سيدنا عبدالله بن عباس رضى الله عنهما. رأيت جميع ذلك ، بخط الشيخ جمال الدين المرشدي المكي الحنفي، فيما نقله من خط الشيخ أبي العباس الميورقي، فإنه ذكر أن ولده أبا يوسف يعقوب، أنشده شيئاً لربيعة الرأي، شيخ الإمام مالك، وذكره ووصف والده صاحب الترجمة بما ذكرناه، ووصف ولده بالابن النجيب المبارك الحسيب، وولده محمد بالفقيه الإمام الصالح الورع، المهاجر إلى أقطار مكة شرفها الله تعالى، الأندلسي مولداً، اللقيمي موطناً، ذو الكرامات المذكورة، والبركات المشهورة (١٣٥) .

٩١- يحيى التونسي : صحب الشيخ أبا العباس المرسي، وتوجه بعد وفاته مع الشيخ نجم الدين الأصبهاني والشيخ عبد الحميد الموقاني إلى مكة ، فجاور بها مدة طويلة، ثم توجه الشيخ يحيى، والشيخ عبد الحميد، إلى المدينة، وناب الشيخ يحيى في الإمامة والخطابة بها، عن القاضي شرف الدين الأميوطي. وتوفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة بالمدينة (١٣٦).

٩٢- يحيى التونسي : ذكره لي شيخنا ابن عبد المعطي، وقال: قرأ على البرهان الجعبري، وعلى ابن وثاب. وقرأ بمكة على البرهان المسروري، وأجاز الإقراء بالسبع، وقرأ هو عليه لابن كثير. وتوفي بمكة في الفصل، يعنى سنة تسع وأربعين وسبعمائة، وكان تزوج زوجته الفخر التوزري (١٣٧)

٩٣- يعقوب بن يحيى بن محمد بن أحمد بن فتوح بن نصر بن سليمان بن المرحل الأنصاري الأندلسي أبو يوسف : ابن الفقيه الإمام الصالح، قاضي الطائف وخطيبها، ابن الفقيه الإمام الصالح الورع المهاجر إلى أقطار مكة، الأندلسي مولداً، اللقيمي موطناً، ذو الكرمات المذكورة، والبركات المشهورة (١٣٨)

٩٤- يوسف بن عيسى بن عباش التجيبي الأندلسي المالكي، المؤدب بالمسجد الحرام، سمع من العفيف النشاوري " السيرة" للمحب الطبري، وسمع عليه، وعلى الشيخ أبي العباس بن عبدالمعطي، والقاضي فخر الدين أبي اليمن محمد بن العلاء محمد بن الكمال محمد بن أسعد بن عبد الكريم الثقفي القاياتي الشافعي "الشفاء" للقاضي عياض، بالمسجد الحرام، في مجالس أخرها الرابع من شعبان سنة خمس وثمانين وسبعمائة . كان يؤم بمقام المالكية، نيابة عن القاضي نور الدين النويري، وأدب أولاده مع جماعة من أولاد أعيان الحرم، وكان خيراً ، توفي بمكة بعد أن جاور بها سنين كثيرة ، سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، ودفن بالمعلاة (١٣٩).

٩٥- يوسف بن محمد بن محمد بم محمد بن عمران الطنجي المؤدب بالحرم الشريف هكذا وجدته منسوباً بخط شيخنا ابن سكر ، وسألت عنه السيد العلامه تقي الدين الفاسي ، فذكر أنه كان فقيهاً صالحاً عابداً ورعاً زاهداً كريماً محسناً الى الفقراء ، ثم انتقل إلى المدينة بعد أقام بمكة أكثر من ثلاثين سنة ، ومات بها سنة خمس وسبعين وسبعمائة (١٤٠)

٩٦- أبو بكر بن عبد الرازق الدكالي المالكي : نزيل مكة، كان كثير الخير والصلاح والورع، مجتهداً في العبادة، بحيث يستغرق فيها أوقاته، جاور بمكة بضعاً وعشرين سن، ملازماً للصلاة والطواف والصيام، وتوجه في سنة عشر وثمانمائة أو قربها، إلى المدينة النبوية زئراً، فمكث بها أشهراً، ثم عاد إلى مكة، وكذلك في سنة اثنتين وثمانمائة، وعاد إلى مكة، وما خرج من مكة بعد ذلك لغير الحج والعمرة. وله معرفة بمذهب مالك، بالإسكندرية وسكنها مدة سنين ، وكان قدومه إلى مكة في سنة إحدي وثمانمائة، أو قبلها بقليل، ورزق بمكة من أمة تسرى بها ولداً وبنتاً، فماتا، ثم أمهما، وكثر أسفه على ابنه، فتعلل بعده نحو أربعة أشهر، حتى مات شهيداً مبطوناً، سنة سبع وعشرين وثمانمائة بمنـزلة بالخزامية بمكة المشرفة، وصلى عليه عند الكعبة المعظمة عقيب صلاة العصر، ودفن بالمعلاة، وكان الجمع وافراً في تشييعه وأظنه من أبناء الستين أوقربها [١٤١] .

٩٧- أبو عبدالله الشاطبي : خادم الشيخ أبي العباس المعروف بالرأس الإسكندري. ذكره القطب القسطلاني في "ارتقاء الرتبة" وقال: قد أقامه الله تعالى في خدمة الفقراء والإيثار لهم، وجاور بمكة في آخر عمره إلى أن مات بها، تغمده الله برحمته، وأعاد علينا من بركته [١٤٢] .

خاتمة البحث :

في نهاية هذا البحث الذى استعرضت فيه تراجم بعض علماء وأهل العلم من سكان أهل المغرب والأندلس الذين أستقروا في بلد الله الحرام وكان لبعضهم شأن ومكانة كبيرة وذلك من خلال الكتاب القيم : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لمؤلفه تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي توصلت من خلل البحث إلى بعض النتائج هي :

نتائج البحث :

١- انفتاح وتنقل المسلمين في العالم الإسلامي ساعد على نهضة علمية وحضارية .

٢- التعريف بأهمية كتاب العقد الثمين وأنه من مصادر أعيان البلد الحرام .

٣- سعة علم الإمام تقي الدين محمد أحمد الفاسي وكثره شيوخة ورحلاته.

٤- أهمية كتب التراجم في تأريخ وأخبار مكة المكرمة .

٥- تنوع مصادر الامام تقي الدين الفاسي في تراجم كتابه العقد الثمين .

٦- وصف طبعات كتب العقد الثمين وأنه بحاجه الى إخراجه بتحقيق دقيق .

٧- وقوع بعض الأخطاء في تحقيق وطبعات كتاب العقد الثمين .

٨- إظهار محتوى كتاب العقد الثمين في أجزائه الثمانية الذي يؤرخ لتراجم سكان مكة المكرمة .



الهوامش

(١) المقري ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب : ٥/٢

(٢) تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي ، العقد الثمين : ١/ ٣ أعتمدت في البحث على طبعة دار الرسالة بتحقيق محمدحامد الفقي وطبع طبعة أخرى بتحقيق محمد عبدالقادر أحمد عطا عن دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، مع ملاحـظه وجود أخطاء في ترقيم التراجم انظر العقـد الثمين : ٦/ ٢٣٧ .

(٣) المصدر السابق : ١/ ٣

(٤) العقد الثمين : ١/ ٣٣١ ترجم المؤلف لنفسه في كتابه العقد الثمين ضمن المترجم لـهم ، وانظر أيضاً درر العقود الفريده ، أحمد المقريزي : ١٢٣/٣ إنباء الغمر في بأبناء العمر ، ابن حجر العسقلاني : ١٨٧/٨ ، الضوء اللامع ، محمد السخاوي : ١٨/٧ شذرات الذهب ، عبدالحي العكري : ٩/ ٢٨٩ ، المنهل الصافي ، ابن تغري بردي : ٣٨١/٣

(٥) العقد الثمين : ٣٣١/١-٣٤١

(٦) المصدر السابق : ٣٣١/١-٣٤١

(٧) نيل المنى بذل بلوغ القرى ، النجم بن فهد ، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة : ١/ ١

(٨) المصدر السابق : ٣٤١/١-٣٤٦

(٩) المصدر السابق : ٣٦٣/١

(١٠) المصدر السابق : ١/ ٢٩١ (الترجمة رقم ١٨) شمس الدين الذهبي ، طبقات القراء : ٢/ ٦٦٣

(١١)شمس الدين اللذهبي ، تاريخ الاسلام تحقيق د.بشار عواد معروف : ٢٨٣/١٠

(١٢) العقد الثمين ١/ ٣٠٨ (الترجمة رقم ٣١)

(١٣) ابن سيد الناس : ١٥/١

(١٤) العقد الثمين : ٣٠٨/١ (الترجمة رقم ٣٢)

(١٥) محمد بن عبدالرحمن السخاوي : الضوء اللامع : ٧/ ٣ ، عبدالحي بن أحمد العكري ، شذرات الذهب : ٩/ ٢٠٣-٢٠٤

(١٦)المصدر السابق : ٣١٥/١

(١٧)المصدر السابق : ٣٨٧/١ (الترجمة رقم ٦٣)

(١٨)المصدر السابق ١/ ٤٣٥ (الترجمة رقم ١٢٣) وانظر عبدالرحمن بن المنـذر الـرازي ، الجـرح والتعـديل : ٢١٦/٧.

(١٩)العقد الثمين : ٤٥٢/١ (الترجمة رقم ١٣٨)

(٢٠)العقد الثمين : ٢٩/٢ (الترجمة رقم ١٩٥)

(٢١)العقد الثمين :٢/ ٤٢ (الترجمة رقم ٢٠٤) وانظر : ابن العماد ، شذرات الذهب :٥٢١/٨ ابن حجر ، إنباء الغمر :٢٤٢/٢ ابن حجر ، الدرر الكامنه :٤٦٦/٣ وفيه الآيجي

(٢٢)العقد الثمين :٢/ ٨١ (الترجمة رقم ٢٣٤) وانظر محمد بن عبدالله القضاعي ابن الأبار ، التكمله لكتاب الصله : ٢/ ٦٦٣-٦٦٤

(٢٣)الحافظ ابن النجار البغدادي ، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : ١٥/٢١

(٢٤)شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء : ٣١٣/٢٣-٣١٧

(٢٥)زكي الدين عبدالعظيم المنذري ، صله التكملة لوفيات النقلة : ص ٢٥٩-٢٦٠

(٢٦)العقد الثمين : ٢/ ٩٤ (الترجمة رقم ٢٤٤)

(٢٧)ابن أبي شامة ، ذيل الروضتين : ١٩٥-١٩٦

(٢٨) العقد الثمين : ٩٧/٢ (الترجمة رقم ٢٤٩)

(٢٩)ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة : ٣/ ٤٩٦

(٣٠) العقد الثمين : ٩٧/٢

(٣١) المصدر السابق : ١١٢/٢ (الترجمة رقم ٢٦٦) وانظر السخاوي ، الضوء اللامع : ٤٠/٨ المقريزي ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة : ٢١١/٣

(٣٢) المصدر السابق : ١١٣/٢ (الترجمة رقم ٢٦٧)

(٣٣) العقد الثمين : ٢/ ١١٥ ـــ ١١٨ (الترجمة رقم ٢٦٨)

(٣٤) المصدر السابق : ٢ / ٣٠٥-٣٠٧ (الترجمة رقم ٢٧٢) وانظر السخاوي ، الضوء اللامع : ٨/ ٥٨

(٣٥) العقد الثمين : ١٢٩/٢ ـــ١٣٠(الترجمة رقم ٢٨٧)

(٣٦) المصدر السابق : ١٥٩/٢ ، (الترجمة رقم ٣٢١)

(٣٧) المصدر السابق : ١٦٠/٢ (الترجمة رقم ٣٢٢) وانظر فوات الوفيات :٤٨٠/٢ ابن حجر ، لسان الميزان : ٥/ ٣١١ .

(٣٨) البداية والنهاية ، ابن كثير : ١٣/ ١٥٦

(٣٩) شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء : ٢٣ /٤٨

(٤٠) ابن حجر العسقلاني ، لسان الميزان : ٣١١/٥

(٤١)المصدر السابق : ٢/٢٠٧ (الترجمة رقم ٣٢٦).

(٤٢)الدرر الكامنة: ٤/ ٨٣

(٤٣)العقد الثمين : ٢/٢١١

(٤٤)العقد الثمين : ٢/ ٢١١ (الترجمة رقم ٣٢٧)

(٤٥) المصدر السابق :٢/ ٢١٨ (الترجمة رقم ٣٣١) الذهبي ، طبقات القراء : ١٢٩٦/٣ ابن الجزري ، طبقات القراء : ٢/ ٢١٢

الدرر الكامنة : ٩٦/٤

(٤٦) المصدر السابق : ٢٣٧/٢ (الترجمة رقم ٣٤٧) وأنظر التكمله لوفيات النقلة :٣/ ٣٥٨ ، سير أعلام النبلاء ١٧:/٣٧٢ خلف بن عبدالملك ابن بشكوال ، الصلة :٢/ ٥١٠ ابن الجزري ، طبقات القراء ٢١٩/٢

(٤٧) العقد الثمين : ٢٤٩/٢ (الترجمة رقم ٣٥٧) الدرر الكامنه : ١٣٣/٤

(٤٨) المصدر السابق ٢٥٧/٢ (الترجمة رقم ٣٦٨).

(٤٩) المصدر السابق ٢٥٧/٢ وأنظر شذرات الذهب : ٥٧٤/٨ ، ابن حجر ، أنباء الغمر : ١٤٣/٣

(٥٠) العقد الثمين : ٣/ ٢٩٨ (الترجمة رقم ٤٠٦)

(٥١) المصدر السابق ٣١٢/٢ (الترجمة رقم ٤٠٧)

(٥٢) المصدر السابق ٢١٣/٢ (الترجمة رقم ٤٠٨)

(٥٣) المصدر السابق ٢١٣/٢ (الترجمة رقم ٤٠٩) وأنظر الضوء اللامع : ٩/ ١٤٣ ، الدرر الكامنة : ٧١/٤

(٥٤) العقد الثمين : ٣٢٦/٢ (الترجمة رقم ٤٢٧) وانظر الضوء اللامع : ٢٤/١٠ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيده : ٣ / ١٦٩

(٥٥) المصدر السابق : ٣٢٩/٢ (الترجمة رقم ٤٣١) درر العقود : ١٦٩/٣

(٥٦) المصدر السابق :٣٣٤/٢ (الترجمة رقم ٤٣٧) الدرر الكامنة :٢٢٥/٤

(٥٧) ابن فرحون ، نصيحة المشاور : ١٥/١

(٥٨) العقد الثمين : ٣٣٦/٢ (الترجمة رقم ٣٣٦) وأنظر شذرات الذهب : ٨/ ١٠٦ الوافي بالوفيات : ٢٣٢/١ الطبعة الالمانية

(٥٩) المصدر السابق : ٣٦٤/٢ (الترجمة رقم ٤٦٥) وانظر الضوء اللامع : ١٠/ ٥٥

(٦٠) إنباء الغمر : ٤٠١/٧ وأنظر شذرات الذهب ٢٣٦/٩ الضوء اللامع : ١٠/ ٥٦

(٦١) المصدر السابق : ٣٧٥/٢ (الترجمة رقم ٤٦٩) وأنظر السخاوي ، الضوء اللامع : ١٠ / ٥٥

(٦٢) المصدر السابق : ٣٧٩/٢ (الترجمة رقم ٤٧٣) .

(٦٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ٥٨٦/٤ ، لسان الميزان : ١٦٧/٦ النجوم الزاهرة : ٤/ ١١١شذرات الذهب ٤:/٤٧٨ طبقات القراء : ١٣١٢/٣

(٦٤) المصدر السابق : ٤٠٣/٢ (الترجمة رقم ٤٩٣)

(٦٥) المصدر السابق : ٤٠٣/٢ وأنظر الذهبي ، تذكرة الحفاظ :١٦٠/٤-١٦١

(٦٦) المصدر السابق : ١٠٢/٣(الترجمة رقم ٥٩٦)

(٦٧) المصدر السابق : ١٠٩/٣(الترجمة رقم ٦٠٥) وانظر شذرات الذهب :١٩٨/٩ إنباء الغمر : ٢٩٩/٧ الضوء اللامع :٣٥/٢

(٦٨) المصدر السابق : ١٤٦/٣(الترجمة رقم ٦٣٣)

(٦٩) المصدر السابق : ١٧٠/٣(الترجمة رقم ٦٥١)

(٧٠) المصدر السابق : ١٧٣/٣(الترجمة رقم ٦٥٣)

(٧١) المصدر السابق : ١٨٢/٣(الترجمة رقم ٦٦٦)

(٧٢) ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة :ص ٨٨-٨٩

(٧٣) المصدر السابق : ٣/ ١٨٢

(٧٤) المصدر السابق : ٣/ ٣٠٣ (الترجمة رقم ٧٧٣) السابق وانظر شذرات الذهب : ١٣١/٩ الضوء اللامع : ٣٠٤/٢ إنباء الغمر : ٦/ ٧٣

(٧٥) المصدر السابق : ٣/ ٤٢٦ (الترجمة رقم ٨٩٤)

(٧٦) المصدر السابق : ٣/ ٤٤٣ (الترجمة رقم ٩١٤) وانظر عبدالرحمن الدباغ ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان : ٥/٤

(٧٧) المصدر السابق : ٤/ ٦٧ (الترجمة رقم ٩٨٧)

(٧٨) المصدر السابق : ٤/ ٨١ (الترجمة رقم ٩٨٨)

(٧٩) ابو طاهر احمد بن محمد السلفي ، معجم السفر : ص ١٢٩

(٨٠) الذهبي ، طبقات القراء : ٢ /٧٥٠-٧٥١

(٨١) المصدر السابق : ٤/ ٨١

(٨٢) المصدر السابق : ٤/١٨٠ (الترجمة رقم ١٠١٧)

(٨٣) المصدر السابق : ٤/ ٢٩٩ (الترجمة رقم ١١١٨) السخاوي ، الضوء اللامع : ١٧٣/٣

(٨٤) المصدر السابق : ٤/ ٣٢٨ (الترجمة رقم ١١٤٢)

(٨٥) المصدر السابق : ٤/ ٣٦١ (الترجمة رقم ١١٦٣)

(٨٦) المصدر السابق : ٤/ ٣٦١ الضوء اللامع : ٣/ ٢١٦ إنباء الغمر : ٧/ ٢٨٥

(٨٧) المصدر السابق : ٤/ ٣٩٨ (الترجمة رقم ١١٩٢) شذرات الذهب : ١٧٥/٦ الصلة :٢٩٦/١ بغية الملتمس :١/ ٣٦٩ سير أعلام النبلاء : ٢٠٥/٢٠

(٨٨) المصدر السابق : ٤/ ٣٩٨

(٨٩) المصدر السابق : ٤/ ٥٠٣ (الترجمة ١٢٤٤) التحفة اللطيفة ، شمس الدين السخاوي : ٢/ ١١٤

(٩٠) ابن فرحون ، نصيحة المشاور : ١٥/١

(٩١) المصدر السابق :٤/ ٥٣٠ (الترجمة ١٢٦٢)

(٩٢) ابن فرحون ، نصيحة المشاور : ١٥/١ شذرات الذهب :٣٩٤/٤ مرآة الجنان ، لليافعي : ٤٠١/٢-٤٠٢

(٩٣)المصدر السابق :٤/ ٥٦٧ (الترجمة ١٢٨٨) تاريخ بغداد تحقيق د بشار عواد : ١٦٢/١٠ عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : ٣٠٣/١٤ سير أعلام النبلاء : ٣٢٠/١٦

(٩٤)المصدر السابق :٥/ ١٧٠ (الترجمة ١٥٣٦)

(٩٥)تاريخ الاسلام : ٩/ ٥٥٤ وأنظر الصلة ، لابن بشكوال : ٢/ ٤١٦

(٩٦)المصدر السابق :١٨٢/٥ (الترجمة ١٥٥٢) تاريخ الاسلام : ٢٥٤/١١

(٩٧)المصدر السابق : ١٩٩/٥ (الترجمة رقم ١٥٦٣)

(٩٨)المصدر السابق :٢٠١/٥ (الترجمة رقم ١٥٦٩)

(٩٩) معجم السفر : ص ١٢٩

(١٠٠) العقد الثمين :٢١٧/٥ (الترجمة رقم (١٥٨٩) الذهبي ، طبقات القراء : ١ /١٥

(١٠١)المصدر السابق :٣٠٧/٥ (الترجمة ١٦٧٤) الضوء اللامع : ٥/ ٧٦

(١٠٢)المصدر السابق :٣٢٦/٥ (الترجمة ١٧٠٠) شذرات الذهب : ٥٧٠/٧ ، السوافي بالوفيات : ١٨/ ٦٠ ط الالمانية ، البداية والنهاية : ١٣/ ٢٦١

(١٠٣)المصدر السابق :٤٠٨/٥ (الترجمة ١٧٨٣) الضوء اللامع : ١٤٩/٤ شذرات الذهب : ٩/ ٧٩ أنباء الغمر : ١٠٤/٥

(١٠٤)المصدر السابق :٤١٩/٥ (الترجمة ١٨٠١)

(١٠٥)المصدر السابق :٤٤٣/٥ (الترجمة ١٨١٦)

(١٠٦)المصدر السابق :٤٧٠/٥ (الترجمة ١٨٤٠) وأنظر شذرات الذهب : ٢٦١/٩ ، الضوء اللامع : ٢٨٧/٤

(١٠٧)المصدر السابق :٤٧٢/٥ (الترجمة ١٨٤٢ وأنظر شذرات الذهب : ٩/ ١٧٩ ، إنباء الغمر : ٧/ ١٣٣ ، الضوء اللامع :٣٠٢/٤ ، درر العقود الفريدة : ٣١٧/٢

(١٠٨)المصدر السابق :٤٨٧/٥ (الترجمة ١٨٦١) الضوء اللامع : ٣٣٣/٤

(١٠٩)المصدر السابق :٤٨٧/٥

(١١٠)المصدر السابق :٥٠٣/٥ (الترجمة ١٨٧٨)

(١١١)المصدر السابق :٥١١/٥ (الترجمة ١٨٨٣)

(١١٢)المصدر السابق :٥١٩/٥ (الترجمة ١٨٩٧)

(١١٣)المصدر السابق :٥٢٢/٥ (الترجمة ١٩٠٢)

(١١٤)المصدر السابق :٥٢٨/٥ (الترجمة ١٩٠٦) الصفدي ، أعيان العصر وأعوان النصر : ٢/ ١٠٥٠ ، الدرر الكامنه : ٢/ ٤٢٢

(١١٥)المصدر السابق :٥٢٩/٥ (الترجمة ١٩٠٧)

(١١٦)المصدر السابق :١٤/٦ (الترجمة ١٩٣٨) تاريخ الاسلام : ٣١/١٢

(١١٧) معجم السفر :ص ٢٩٢

(١١٨)المصدر السابق :١٠٩/٦ (الترجمة ٢٠٠٧) الوافي بالوفيات ،الصفدي : ٥٦/٢٠ طبعة دار التراث .

(١١٩)المصدر السابق :١٢٨/٦ (الترجمة ٢٠٢٧) تاريخ الاسلام : ١١/ ٥٩٨

(١٢٠)المصدر السابق :١٥٦/٦ (الترجمة ٢٠٥٦) تاريخ الاسلام : ٥٥٦/١٢

(١٢١)المصدر السابق :١٥٧/٦ (الترجمة ٢٠٥٧) التكملة ، للمنذري : ١/ ٧٣٥ ، تاريخ الإسلام : ١١٧٧/١٢

(١٢٢)المصدر السابق :١٨١/٦ (الترجمة ٢٠٦٦)

(١٢٣)المصدر السابق :١٨١/٦ وأنظر ابن الابار : ٢٤٤/٣ ، تاريخ الاسلام : ٥٢٦/١٢

(١٢٤)المصدر السابق :١٨٣/٦ (الترجمة ٢٠٦٩)

(١٢٥)المصدر السابق :١٨٣/٦ (الترجمة ٢٠٧٠)

(١٢٦)المصدر السابق :١٨٧/٦ (الترجمة ٢٠٧٧) انظر الضوء اللامع : ٢٤٤/٥

(١٢٧)المصدر السابق :٣٦٠/٦ (الترجمة ٣٠٩٣)

(١٢٨) المصدر السابق :٤٧٢/٦ (الترجمة ٣١٩٤)

(١٢٩) المصدر السابق :٣/٧ (الترجمة ٢٢٩٦) معجم السفر للسلفي : ص ٣١٠

(١٣٠) تاريخ الإسلام : ٨٤٥/١٠ ، تكملة الصلة : ٥٠/٤-٥١

(١٣١) المصدر السابق :٢٧/٧ (الترجمة ٢٣٢١)

(١٣٢) المصدر السابق :٢٨٤/٧ (الترجمة ٢٥٢٢)

(١٣٣) المصدر السابق :٢٩٩/٧ (الترجمة ٢٥٤٣)

(١٣٤) المصدر السابق :٤٢٧/٧ (الترجمة ٢٦٨٥) طبقات القراء ، ابن الجزري : ٣٦٥/٢ الدرر الكامنة :٤١٠/٤

(١٣٥) المصدر السابق :٤٤٦/٧ (الترجمة ٢٧٠٨)

(١٣٦) المصدر السابق :٤٥٩/٧ (الترجمة ٢٧٢٠)

(١٣٧) المصدر السابق :٤٥٩/٧ (الترجمة ٢٧٢١)

(١٣٨) المصدر السابق :٤٧٨/٧ (الترجمة ٢٧٥٢)

(١٣٩) المصدر السابق :٤٨٩/٧ (الترجمة ٢٧٧٩)

(١٤٠) المصدر السابق :٤٩٥/٧ (الترجمة ٢٧٨٣)

(١٤١) المصدر السابق :١٤/٨ (الترجمة ٢٨١٦) السخاوي الضوء اللامع :

(١٤٢) المصدر السابق :٦٦/٨ (الترجمة ٢٩٣٢)

المصادر والمراجع

١- ابن الأبار ، محمد بن عبدالله القضاعي ، تحقيق ابراهيم الأبياري الطبعة الأولى دار الكتاب المصري القاهرة دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان ١٤١٠هـ/ ١٩٨٦م

٢- ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن موسى الأنصاري ، الصلة، تحقيق ابراهيم الأبياري ، الطبعة الاولى ، الطبعة الاولى دار الكتاب المصري القاهرة دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان ١٤١٠هـ/١٩٨٩م

٣- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين الطبعة الاولى دارالكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٣هـ/٢٠٠١م .

٤- ابن الدمياطي ، أبي الحسين أحمد بن أيبك بن عبدالله الحسامي ، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد للبغدادي ، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ، الطبعة الاولى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٧هـ/١٩٩٨م

٥- ابن الجزري ، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد ، غاية النهاية في طبقات القراء عني بنشره ج . برجستراسر طبع لأول مرة على نفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر ١٣٥١هـ/١٩٣٢م .

٦- ابن الجوزي ، ابي الفرج عبدالرحمن بن علي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، دراسة وتحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا راجعة وصححه نعيم زرزور دار الكتب العلمية بيروت لبنان

٧- ابن خلكان ، أبي العباس أحمد بن محمد ابراهيم بن أبي بكر ، وفيات الاعيان وأنباء الزمان ، حققه د. يوسف على طويل ، د. مريم قاسم طويل ، الطبعة الاولى ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

٨- ابن أبي شامة ، محمد عبدالرحمن بن إسماعيل ، الذيل على الروضتين تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ترجم للمؤلف محمد زاهد الكوثري ، عني بنشره السيد عزت العطار الحسيني ، الطبعة الثانية دار الجيل ١٩٧٤ م

٩- البغدادي ، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب ، تأريخ مدينة السلام " تاريخ بغداد" ، حققه وضبط نصه وعلق عليه د. بشار عواد معروف الطبعة الاولى دار الغرب الاسلامي بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

١٠- الدباغ ، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد الأنصاري ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه ابو الفضل ابوالقاسم بن عيسي بن ناجي التنوخي ، حققه وعلق عليه الشيخ محمد المجذوب و د.عبدالعزيز المجذوب طبع ونشر المكتبه العتيقة تونس

١١- الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام ، حققه وضبط نصه وعلق عليه د. بشار عواد معروف ، الطبعة الاولى ، دارالغرب الإسلامي ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

١٢- الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، تذكره الحفاظ ، وضع حواشية الشيخ عميرات ، الطبعة الاولى دارالكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

١٣- الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، سير أعلام النبلاء حققه مجموعة من العلماء الطبعة السادسة مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ١٩٨٠م

١٤- الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، طبقات القراء تحقيق د. أحمد خان ، الطبعة الاولى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية ١٤١٨هـ/١٩٩٧م

١٥- الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار ، تحقيق د. طيار آلتي قولاج استانبول ١٤١٦هـ/١٩٩٥م

١٦- الرازي ، أبي حاتم محمد بن ادريس بن المنذر التميمي الحنظلي ، الجرح والتعديل ، الطبعة الأولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن الهند ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م

١٧- السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .

١٨- السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ، التحفه اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة عني بطبعه ونشره أسعد طرابزوني الحسيني ، مطبة دار نشر الثقافة القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

١٩- السلفي ، ابو طاهر أحمد بن محمد السلفي ، معجم السفر قدم له وحقق نصوصه وعلق عليه وعمل فهارسة د. شير محمد زمان ، الطبعة الأولى مجمع البحوث الإسلامية الجامعة الإسلامية إسلام أباد باكستان ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

٢٠- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، الوافي بالوفيات ، الطبعة الثانية ، اعتناء هلموت ريتر ، جمعية المستشرقين الألمانية ألبرت ديتريش وهانس روبرت رويمر ، دار النشرفرانز شتايز بفيسبادن ١٤٠١هـ/١٩٨١م

طبعة ثانية تحقيق أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى الطبعة الأولى ، دار أحياء التراث العربي بيروت لبنان ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م

٢١- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، أعيان العصر وأعوان النصر ، تحقيق فالح احمد البكور دار الفكر بيروت لبنان الطبعة الاولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

٢٢- الضبي ، احمد بن عميرة ، بغية المتلمس في تاريخ أهل الاندلس تحقيق ابراهيم الأبياري، الطبعة الاولى دار الكتاب المصري القاهرة دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان ١٤١٠هـ/١٩٨٩م

٢٣- الفاسي ، تقي الدين محمد أحمد الحسني المكي ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق محمد حامد الفقي ، الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

طبعة ثانية بتحقيق وتعليق محمد عبدالقادر أحمد عطا الطبعة الاولى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

٢٤- العكري ، ابن العماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، أشرف على التحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ، حققه محمود الأرناؤوط ، الطبعه الأولى دار ابن كثير ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

٢٥- العسقلاني ، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ ، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية تحت مراقبة برفسور السيد عبدالوهاب البخاري ، الطبعة الاولى ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨١م

٢٦- العسقلاني ، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر ، الدرر الكامنة دار إحياء التراث بيروت

٢٧- العسقلاني ، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر ، لسان الميزان ، الطبعة الثالثة ، مؤسسة الأعلمي بيروت لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٢٨- الحسيني ، عزالدين أبو القاسم أحمد بن محمد بن عبدالرحمن ، صلة التكملة لوفيات النقله ، علق عليه أبو يحي الكندري الطبعة الاولى ، دار ابن حزم بيروت لبنان ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

٢٩- المقري ، احمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، علق علية د. مريم قاسم طويل و د. يوسف على طويل الطبعة الاولى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٥هـ/١٩٩٥م

٣٠- المقريزي ، أحمد بن علي تقي الدين ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، حققه وعلق عليه د. محمود الجليلي الطبعة الاولى دار الغرب الاسلامي ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

٣١- المنذري ، زكي الدين ابو محمد عبدالعظيم بن عبدالقوي ، حققه د. بشار عواد معروف الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م

٣٢- النجم بن فهد ، جار الله بن العز المكي ، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، تحقيق د.محمد الحبيب الهيلة ، الطبعة الاولى مؤسسة الفرقان للتراث ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م

٣٣- اليافعي ، أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليمني المكي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ، الطبعة الثانية دار الكتاب الاسلامي القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

٣٤- اليونيني ، قطب الدين موسى بن محمد ، ذيل مرآه الزمان ، الطبعة الثانية ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر القاهرة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

د. حوتيـــة محمد *

الطرق الصوفية بإقليم توات وغرب إفريقيا

خلال القرنين ١٨-١٩

لقد مر التصوف بعدة مراحل ابتداء من القرن السادس عشر حتى القرن التاسـع عـشر , ويمكن أن نلخصها على النحو التالي:

المرحلة الأولى : وقد بدأت هذه المرحلة باعتراف رجال الصوفية بوجود طريق محدد إلى الله سبحانه وتعالى , ويتطلب هذا الطريق الصلاة والدعاء , وذكر أسماء الله الحسنى. وتعـد هـذه المرحلة بمثابة العصر الذهبي، لأنها اقتصرت على الشيخ وتلامذته, الذين ينتقلون من مكـان إلى آخر دون أن يؤسسوا نظاما معينا.

المرحلة الثانية : وهي التي اتسع فيها نطاق التصوف نظرا لانتشار الإسلام شـرقا وغربـا وازداد نشاط الطرق الصوفية, وظهر عدد من العلماء البارزين أمثال الشيخ عبد القادر الجيلالي والشيخ أبو حامد الغزالي, وقد اتسمت هذه المرحلة بتطوير نظام التدريس في الطرق الصوفية, وظهور أنماط جديدة من الطرق الجماعية لإغراء الناس على قبول الطرق.

---

* جامعة أدرار – الجزائر

المرحلة الثالثة: تشهد هذه المرحلة توسعا في المجال الروحي لمشاهير الصوفية بتنظيماتها الحالية, و انتشار الطرق بشكل واسع, وتحويل الولاء لشيخ الطريقة, وقد ازداد عدد الطرق وازداد نشاط الطرق في القرن السادس عشر كرد فعل للاستعمار الأوروبي, ومحاولات تطويق المسلمين وطردهم من ديارهم والصراع الذي دار بين الطرفين على سواحل أفريقيا الشمالية وغيرها.

لقد أصبحت الصوفية تمثل نشوة دينية اتخذ منها المجاهدون في الدين الاسلامي وسيلة للتقرب إلى الله, واللجوء إليه لمواجهة الأخطار الاستعمارية التي أحاطت بديار الإسلام.

تقوم الحياة الروحية بمنطقة توات و الأزواد على حركة التصوف التي نشرتها الطرق الصوفية هذا وأن التصوف[1] عبارة من ذهب منظم يشير إلى مراتب صوفية مختلفة ويدل على الحقيقة في محاولة محاسبة النفس على الأفعال وفهم الآداب خاصة به, وقد مر التصوف الإسلامي بعدة مراحل حيث كان أوله زهداً في الدنيا و انقطاعاً لعبادة الله عز وجل ثم صار حركات و مظاهر خالية من الروح و العبادة ثم تحول إلى الحاد و خروج عن دين الله و قد عبر عن هذا التحول أحد كبار الصوفية [2] حيث قال « كان للقوم إشارات ثم صارت حركات ثم لم يبق إلا حسرات»،و قد تشعبت الطرق الصوفية و أصبحت تنسب إلى أقطاب هذه الطرق و أهم الطرق الصوفية بإقليمي توات و الأزواد الطريقة القادرية و الموساوية و الشيخية و التيجانية .

أ) الطريقة القادرية :تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ محمد محي الدين عبد القادر بن أبي صالح المولود بمدينة جيلان في مارس ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م و الذي جاء إلى بغداد عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م و درس مذهب الإمام أحمد بن حنبل لكنه ترك الانضمام إلى المدرسة النظامية التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد الغزالي ،بعد وفاة أخيه أبي حامد الغزالي و يقال أنه لم يعتنق أي فكر صوفي حتى حضر إلى مدرسة أبي الخير حمد الدباسي المتوفي ٥٢٦هـ / ١١٣١م و قضى عبد القادر الجيلاني خمسة و عشرين عاماً يتجول في صحراء العراق و في عام ٥٢١هـ/١١٢٧م عندما كان قد جاوز الخمسين عاماً صار من أشهر العلماء في بغداد على الطريقة الحنبلية و كان يلبس لباس العلماء و لبس لباس المتصوفة ثم بني مدرسة لنفسه عام ٥٢٨هـ/١١٣٥م اشتهر بورعه و تقواه لكن لم ينضم أحد إلى طريقته طوال حياته وبعد

وفاته بدأ بعض الناس يسيرون على نهجه و استطاع أبناؤه نشر مذهب والدهم الذي يتسم بالولاء و الإخلاص و الطاعة و التواضع و صارت أوراد الطريقة القادرية تلقى قبولاً لدى عدد من الاتباع و أخذ تلامذته على عاتقهم نشر مذهبه في أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي حيث انتشر في القارة الإفريقية و على وجه خاص في شمالها فقد سيطرت الطريقة الصوفية القادرية في مراكش على الحياة الدينية والاجتماعية خلال القرون الموالية بعد دخولها .[٣] وأصبح الشيخ علي الكنتي قطباً للطريقة القادرية عندما انتقلت قبائل كنتة في القرن التاسع الهجري الخامس عشر ميلادي إلى واحات توات و حملوا معهم الطريقة القادرية و في هذه الواحات انتشرت الطريقة القادرية في النصف الثاني في القرن الخامس عشر ميلادي و كان شيوخ الكنتة يزورون برنو يتبعون الطريقة القادرية [٤].

و في عام ٩٥٧هـ ١٥٥٠م بدأت أفكار جديدة تؤثر على الطريقة القادرية في وسط السودان و غربه ، جاءت هذه الأفكار من الشرق عبر مصر و تركيا و ظهر الشيخ الزروق الذي يعتبر من أهم رجال الطريقة في أغاديس و من هذه المدينة انتقلت أفكار و آراء الشيخ الزروق إلى الشيخ المختار الكبير الذي ساعده بدوره على نقل تعاليم الصوفية القادرية إلى جماعة القولاني في بلاد الهوسا [٥]، و انتقلت الطريقة بعد ذلك إلى منطقة النيجر حيث ساعد الفقيه محمد الأنصاري على نشرها و في أوائل القرن ١٢ هـ الثامن عشر ميلادي أسس شيوخ الكنتة مدينة مبروك التي صارت مركزاً لنشر الطريقة القادرية و ظهر بين جماعة الكنتة عددكبير من الفقهاء الذين صارت لهم الزعامة الدينية في القرن ١٣هـ ١٨م و توسعوا خارج الحدود القبلية و ظهر عدة شيوخ حملوا لواء الطريقة القادرية تعليماً و تأليفاً و ممارسة [٦].

فقد ظهر من أهل المنطقة مشايخ اتصفوا بالكمال من الناحية الدينية و الروحية فحازوا على مراتب بين قبائلهم و أوكلت لهم مهمة الإشراف على الطريقة القادرية فنسقوا بين المريدين و أحيوا المناسبات و أدخلوا الطريقة القادرية العديد من الأقطار فقد استطاعوا عن طريق تكوين(مقدمين) [٧] مهمتهم نشر الطريقة حسبما جرت به العادة إذ يكلف المقدم وخليفته بالعمل مباشرة بعد ما يتسلم سجادة أو سبحة أو عكاز الشيخ الذي يأخذ عنه الورد[٨] و لقد انقسم الشيوخ المرتبطون بالطريقة القادرية إلى قسمين القسم الأول و يمثله ممن كان يحظى بسمعة كبيرة لدى العامة تنسب لهم كرامات و أقوال كانت محل تصديق الجميع وقد جمع

أصحاب هذا الصنف بين التصوف و التأليف و التعليم و الفتوى و لهذا نجدهم تركوا أعمالا جليلة في الدعوة للطريقة القادرية بالمناطق التي عاشوا بها و المحاذية لهم مثل الشيخ مختار الكبير الذي عرف بعلمه و تأليفه العديدة في علوم الشريعة و تعمقه في الطريقة فقد ألف فيها كتاب اسماه الكوكب الوقاد و نظرا لأهميته في الطريقة قال فيه (يجب أن يسمى أسماء كثيرة وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى) تناول في بداية مخطوطه أسس الطريقة القادرية ومؤسسها فذكر كرامات و مزايا ورده بالإضافة إلى فضل الأذكار و أهميتها في الحياة الدنيا والآخرة [٩] و هذا و قد ترك الشيخ المختار الكبير العديد من التصانيف في الأذكار أبرز من خلالها مناهج التربية الصوفية السليمة كما يراها هو « تلك المبنية على عنصر المحبة و يقسمها إلى قسمين رئيسين : المحبة المفروضة و تتمثل في امتثال الأوامر و عدم ارتكاب المعاصي و أي تقصير في الواجبات معناه الوقوع في المحرمات و التقصير في العبادات و على كل مبتدئ أن يوازن ما بين الناحيتين حتى يستطع أن يدرك المحبة المفروضة و القسم الثاني المحبة المندوبة التي يصلها كل من حقق القسم الأول (المحبة المفروضة) و أعطاها جميع حقوقها عندها يدخل المريد في المرحلة الثانية من المحبة المرتكزة على القيام بالوجبات ثم النوافل و الابتعاد عن المحرمات مع عدم الوقوع في الشبهات » [١٠] و يعتبر الكنتيون أكثر شيوخ المنطقة إسهاماً في علم التصوف بصفة عامة و بالطريقة القادرية بصفة خاصة تجلى ذلك في رسائل و قصائد وكتب فللشيخ المختار الكبير قصيدة في السلسلة القادرية و نازلة في التصوف و إجازة في الأوراد و الأحزاب [١١] و إجازة في الورد ورسالة إلى أحد مريديه ، ومثله الشيخ محمد بن الشيخ المختار الكبير الذي ترك إجازة في الأوراد و الأحزاب القادرية و مخطوطاً في الأدعية والأذكار و قصيدة الإبتهال و جواباً على ثلاث مسائل في الورد القادري وقصيدة في الأدعية و التوسل و بهذا فقد تفاوتت هذه المصنفات [١٢] في محتوياتها و عدد صفحاتها إلا أن القاسم المشترك بينها إضافة تراث و إثراء هذه الطريقة العريقة المنتشرة في إقليم توات والأزواد.

والقسم الثاني من شيوخ الطريقة يندرج تحته صلحاء من الشيوخ الذين اشتهروا بالزهد في الحياة و كثرة الأذكار و خدمة العامة و اشتهروا بالكرامات و مواقف خالدات و اكتفوا بالعبادة و الأوراد و لم يتركوا مؤلفات في ميدان الأدب أو الفقه و إنما خلدت أسماؤهم في الذاكرة الشعبية بتوات و الأزواد نظراً لما اشتهروا به من أعمال خيرية خدموا بها للصالح العام

و أفنوا حياتهم في الزهـد وضحوا بأموالهم و أعمارهم في سبيل الإصلاح كإصلاح ذات البيـن و إعانة الفـقراء و المحتاجين في الزوايا التي أسسوها و ساهموا في تسييرها لتؤدي دورها الخيري لكل المسلمين و أبناء السبيل و بعد وفاتهم خلدت قبورهم بأضرحة و زيارات سـنوية يتوافد الناس القاصي والداني من أبناء منطقة الأزواد و توات و هكذا نجد أضرحة هـؤلاء الشيوخ و زياراتهم معروفة و مشتهرة من أكبرها زيارة الشيخ عبد القادر الجيلاني .

الطريقة التيجانية :

احتلت الطريقة التيجانية المكانة المرموقـة في الوسط التواتي و الأزاوادي و هذا ما يتوجب التعريف بها لكونها من الطرق الصوفية المنتشـرة في القارة الإفريقية خاصة في الجزء الغربي منها

و تنتسب إلى الشيخ أبي العباس بن أحمد بن محمد بن مختار التيجاني الذي ولد في قرية عـين ماضي بالاغواط بجنوب الجزائر عام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م [١٣].

وفي عام ١١٧١هـ /١٧٥٧م سافر التيجاني إلى فاس للبحث عن شيوخ الصوفية في هـذا المركز الديـني ،و هناك درس الطرق الصوفية ،ثم ذهب إلى قرية الأبيض علـى مشـارف الصحراء ،حيث استقر في زاوية سيدي عبد القادر بن محمد ،و مكث بها خمس سنوات استغل بعضاً منها في التدريس .

وفي عام ١١٨٦هـ/١٧٧٣م بدأ الشيخ التيجاني رحلته إلى الحج التي واصل فيها متابعتـه للطرق الصوفية حيث توقـف ،ودرس بقرية أيت اسماعيل في بلاد القبائل زار فيها الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان الازهري و أخذ عنه الطريقة الرحمانية الخلواتية [١٤] ثم قضى عاماً في تونس حيث درس كتاب ابن عطاء الله السكندري (كتاب الحكم) ، و حقـق نجاحـاً في تدريسه لدرجة أن القائم على حكم تونس (١١٧١هـ – ١٧٥٧م ١١٩٧هـ – ١٧٨٢م) طلب منه البقاء في تونس للتدريس في مسجد الزيتونة و أغراه بالمال و المسكن الفـاخر لكـن الشيخ التيجاني رفض و قرر مواصلة رحلة الحج ...ووصل إلى القاهرة و بدأ البحث عن شيخ الطريقة الخلواتية ، و التقى به ، و تعلم منه الكثير من مبادئ الطريقة ،و أخيراً وصل إلى مكة في يناير ١١٨٨هـ/١٧٧٤م واتصل هناك بشيخ هندي يدعى أحمد بن عبد الله بواسطة خادمـه وبعد شهرين من هذا البقاء مات الشيخ وورث التيجاني عنه تعاليم الطريقة الصوفية [١٥] و في

طريق العودة إلى بلاده توقف الشيخ التيجاني في القاهرة حيث فوضه الشيخ محمد الخيضري في نشر تعاليم الخلواتية في شمال إفريقيا واتجه أحمد التيجاني إلى فاس بدلاً من مدينة عين ماضي، و في عام ١١٩١هـ ١٧٧٧م اتجه إلى تلمسان بالجزائر مرة أخرى بسبب عودة الحاكم العثماني بالأغواط ثم انتقل إلى جبال قصور بقرية بوسمغون جنوب غرب البيض سنة ١١٩٦هـ- ١٧٨١م حيث استقر بها مدة ثلاث سنوات زار خلالها إقليم عين ماضي و بوجوده في بوسمغون كثر مريدوه وقصدته الوفود من جميع أنحاء الصحراء [١٦] حيث واصل نشر تعاليم الطريقة الصوفية حتى وافته المنية عام ١٢٣١هـ/١٨١٥م .

لقد ظهرت مبادئ الطريقة التيجانية من خلال مؤلفات بعض الأتباع و على رأسهم ابن عربي في كتاب جواهر المعاني و بلوغ الآماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني [١٧] وانتشرت الطريقة التيجانية في غرب إفريقيا بفضل جهود الحاج عمر الفوتي التكروري (١٢١٠هـ- ١٧٩٥م / ١٢٨١هـ -١٨٦٤م) و الذي تلقى وردها على أيدي الشيخ عبد الكريم بن أحمد النفيل الفوتا جالوني و قد وضع الحاج عمر أسس هذه الطريقة في كتابة الرماح (رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم) الذي يتكون من خمسة و خمسين فصلاً إلى جانب المقدمة و الخاتمة و يتناول الكتاب عدة أمور مثل التشجيع على سلوك الطريقة التيجانية و الحديث عن معنى الزهد عند الصوفية و يعتبر التيجانيون هذا الكتاب المرجع الأساسي للطريقة التجانية [١٨].

الأوراد :تقوم الطريقة التجانية على أوراد محددة تشمل الوظيفة و الورد المعلوم .

ورد في المصادر التجانية ،أن الشيخ التجاني لم يدرك مرتبة القطبانية إلا في شهر محرم من عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م أي بعد سنة من هجرته واستقراره في فاس ،و بعد شهر من ذلك ،ارتقى إلى المقام الأحمدي المسمى بمقام الختم و الكتم [١٩] و قد تحدث الشيخ التجاني عن المقام القطب ووصفه بقوله " إنه أفضل جماعة المسلمين في عصره " ثم ذكر الختم فقال " إن أكمل العارفين و هو القطب الكامل لا تتجلى له حقيقة الكبرياء إلا بعد بلوغه المرتبة العليا حيث مراحل نشر الطريقة التجانية حتى واحته السنة عام ١٢٣١هـ -١٨١٥م بمدينة فاس بمعنى أن مرتبة القطبانية و إن أدركها بعض ممن سبقوه من الأولياء فإنه لا أحد أدرك أعلى مراتب القطبانية لا من قبله ولا من بعده لأن هذه المرتبة هي ختم الولاية و تسمى أيضا بالمقام المحمدي ،و مقام

الختم في القبطانية هي غاية الغايات ولا يدركها إلا شخص واحد ،و هو الذي لا يكون بعدة لغيره [٢٠] و يستند التجانيون في تأكيد هذا المقام لشيخهم بأن رسول الله عليه الصلاة و السلام هو الذي أخبر شيخهم بذلك .

و عندما يناقشون هذه المسألة في كتبهم يقوون حجتهم بما رواه الشيخ ابن عربي في كتابيه الفتوحات الملكية " و عنقاء مغرب " من أن " قطب الأقطاب " و " خاتم الولاية " سيظهر بمدينة فاس ، و من علاماته الإنكار عليه ، هذه الرواية يرى التجانيون أنها تصدق على شيخهم الذي بلغ هذه الرتبة و هو بفاس و تلقى الكثير من الإنكار .

و بما أن الطريقة التجانية انفردت بهذه المراتب فإنها في نظر أتباعها تسمو على جميع الطرق الأخرى ، وهو ما أثار جدلا كبيرا و أدخل الطريقة التجانية في صراعات عقائدية دفعت بخصوم التجانية من السلفيين و حتى من أصحاب الطرق الأخرى إلى اتهام التجانية بالضلال .

و إذا عدنا إلى من دافع عن الطريقة التجانية نجدهم ينقسمون إلى متشددين بالغوا في تمجيد التجانية إلى درجة أنهم ألحقوا بها الأذى أكثر مما خدموها ،نتيجة مغالاتهم فأتاحوا بذلك الفرصة لغيرهم لإعطاء البينة و الحجج الدامغة على أن التجانية خارجة عن الشرع مستندين في ذلك مصادر الطريقة مثل " جواهر المعاني " و " الإفادة الأحمدية " و غيرها .

فكثيرا ما يقف خصوم التجانية على مورد في " جواهر المعاني " من أن فضل تلاوة " صلاة الفاتح " المرة الواحدة منها تساوي من كل تسبيح وقع في الكون ومن كل ذكر ومن كل دعاء كبير أو صغير ومن القرآن ستة آلاف مرة [٢١] واعتبروه كفر ينبغي التبرؤ منه لا سيما و أنه ينسب إلى التجاني في كتاب " جواهر المعاني " قوله :إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذيُ أمره بتلاوة " صلاة الفاتح " و أخبره عن فضل هذه الصلاة و أن هذا الورد ادخره له الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يذكر لأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .الأمر الذي جعل خصوم التجانية يعتبرونه افتراء على الله ورسوله ، بل مروق و خروج عن الدين [٢٢] .

أما المعتدل من اتباع الشيخ التجاني لا سيما المتأخرين منهم ، حاولوا في الكثير من كتاباتهم تبرير و تفنيد ما جاء في مصادرهم و اعتبروه دساً مقصوداً الهدف منه التشنيع بشيخ الطريقة وهو في نظرهم بريء من كل مانيب إليه و اعتمدوا على مقولته "إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع فما وافق فخذوه وما خالف فاتركوه [٢٣].

و يعتمده في ورده على :

أولا الوظيفة :وهي قراءة فاتحة الكتاب ثم صلاة الفاتح :(اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق و الخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق و الهادي إلى صراطك المستقيم ....إلخ بعد يشرع في ذكر الوظيفة :(استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين مائة مرة ثم ذكر الجوهرة وهي مدح النبي صلى الله عليه وسلم إحدى عشر مرة ومن لم يحفظها يأتي بها ليلاً عشرين مرة مع دعاء الفاتح و تختم الوظيفة بالآية الكريمة ﴿ إن الله و ملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ (٢٤).

ثانيا : الورد المعلوم أن تستغفر الله مائة مرة ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم و تذكر (لا إله إلا الله مائة مرة) و تختم ذلك بالآية ﴿ إن الله و ملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾

ثالثاً :الهيللة تذكر مرة في الأسبوع يوم الجمعة ما بين العصر و المغرب و هي كما يلي :(لا إله إلا الله) من مائة إلى ألف و ستمائة و تختم بدعاء الفاتحة و يمارس التجانيون أوراد الطريقة بشكل هادئ ولا يغنون بالغناء أثناء المديح بل يجلسون في دائرة و ينشدون الأذكار مرة كل جمعة بعد العصر و ازداد انتشار الطريقة التيجانية في القارة الإفريقية (٢٥) ومن العوامل التي ساعدت على انتشارها ذلك التكالب على القارة الإفريقية من جانب الأروبيين وما أعقبه من قيام الإدارة الاستعمارية بتجشيع رجال الصوفية بالمال وبسط النفوذ من أجل تشويه صورة الدين الإسلامي عن طريق نشر البدع و الخرفات التي تعوق المسلمين عن مقاومة المستعمر الأوروبي ، عرف الأروبيون رغبة رجال الصوفية في الحصول على المال و النفوذ ، فراحوا يغذون هذه الروح حتى قال جوليان بأن حكومة فرنسا قد عرفت كيف تجمع المتصوفة حولها عن طريق التمويل و الحماية .(٢٦)

ولقد ساعد هذا التمويل على انتشار الطريقة التيجانية في أجزاء كبيرة من شمال القارة الإفريقية ووجد فيها الفرنسيون وسيلة للتفريق بينها و بين الطرق الأخرى حتى لا يتحد المسلمون و يقفون صفاً واحداً أمام محاولات فرنسا لتغريب هذه المناطق ولعل هذه المناظرة ما بين التيجانية والقادرية تظهر طرفاً من تلك الصراعات التي كانت في جنوب الجزائر بعين ماضي ثم ألقت بظلالها في غرب أفريقيا .

المناظرة الصوفية ما بين التيجانية و القادرية :

سبق وأن تعرضنا للطريقة القادرية و الطريقة التجانية من حيث تأسيسهما و أورادهما وأعمالهما إلا أنه ظهرت ما بين المريدين لكلتا الطريقتين مناظرة أحد أطرافها من الأزواد بالضبط من تمبكتو ويمثل الطريقة القادرية و الطرف الثاني بالمغرب و بالضبط مدينة فاس وقد تعدت مناظرتهما حدود هاتين الرقعتين بحيث تحمس كل طرف إلى طريقته وقادها بمدينة فاس أحمد أكنسوس .

و دافع عنها بقلمه وقد حفظ لنا التاريخ جانباً مهماً من ثقافة العصر التي كتب بها كل طرف عن طريقته و سنتناول في البداية التعريف بأحمد أكنسوس (١٢١٢هـ-١٢٨٤هـ) هو أبو محمد بن أحمد ولد في قبيلة أدا وكنسوس في سوس (١٢١١هـ-١٢١٢هـ) و بها نشأ إلى أن بلغ الثامنة عشر من عمره فتوجه إلى فاس لإتمام دراسته و أخذ عن أكابر أساتذة ذلك العصر .

فدرس السحر والتنجيم و التصوف فقد شغل على عهد السلطان مولاي سليمان على التوالي منصب الكاتب و الوزير لكنه نكب لما بويع السلطان الجديد مولاي عبد الرحمان و ألقى به في السجن و بعد أن أطلق سراحه استقر بمراكش ولم يغادرها حيث عاش عيشة زهد و تقشف طوال عهد مولاي عبد الرحمان وولده محمد و أوائل ملك مولاي الحسن ، وقد فقد بصره في أواخر حياته و أدركته المنية يوم ١٤ فبراير ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م و دفن خارج باب الرب بمراكش [٢٧] .

فقد عثرنا على العديد من الوثائق التي احتفظت بهذه المناظرة بعضها في شكل رسائل سنقدمها و بعضها في شكل كتب مطبوعة ومخطوطة مقروءة و الآخر في شكل شعار .

أولاً الرسائل :

رسالة [٢٨] أحمد البكاي إلى أهل مراكش يبتدئ هذه الرسالة بالبسملة و السلام وهي موجهة إلى مقدم الطريقة القادرية بمراكش مولاي المدني العلاوي الشريف و السيد عبد السلام بن الطاهر و مولاي الكبير بن مولاي الطائع جاء في الصفحة الأولى حسب قول الكاتب أنهم ذكروا عبد القادر الجيلاني سلطان الأولياء ثم ذكروا أنه لا مثيل للتيجاني أما الصفحة الثانية

فيرى أن التيجانيين يدعون أن من أخذ وردهم يحصل له المال و الغنى و يكون يوم القيامة في عليين ثم يرى أن أحمد البكاي أن طريق الأنبياء و الأولياء ليست مبنية على طلب المال و في نفس الوقت يرى التيجاني أنه لم يدع للتربية و إنما ادعاها له أصحابه بعده طلباً للدنيا وفي الصفحة الرابعة يطلب منهم كثرة التواصل و التزاور في كل وقت و إلا ففي كل يوم أو في كل يومين أو ثلاثة أو في أسبوع و يطلب منهم أن يكون اللقاء يوم الإثنين و الخميس و يستشهد بحديث في الموطأ ،(تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين و يوم الخميس فيغفر لكل عبد مسلم لا يشرك بالله شيئاً إلا رجل كانت بينه و بين أخيه شحناء فيقال انظروا هذين حتى يصطلحا [٢٩] وفي النهاية طلب من مريديه أن يبلغوه تحياته و يدعوه للطريقة القادرية وفي نفس الوقت لا يترك الورد التيجاني فإنه ذكر إن أحب أن يستغني عنه بذكر آخر استغنى و إنشاء أضافه إليه و يطلب منهم أن يبلغه على أنه سيكتب له.

ولم تقتصر المناظرة بينهما بالرسائل فنجد كل طرف يعمل ما في وسعه من أجل التعريف بخصائص طريقته وما يشتمل عليه من أذكار و أدعية تتجاوز بها الطريقة الأخرى ولم يقتصر الأمر عند كتابة الرسائل و الرد عليها بل وصل إلى أن كل طرف بدأ يدون لطريقته و يرد فيها على الطريقة الأخرى فقد خلصت لنا هذه المناظرة بالمخطوط المسمى بالجواب المسكت في الرد على من تكلم في التيجانية بلا تثبت .

علماً و أن هذا المصدر يحتوي على عدة فصول تتعرض للرد على أقوال الشيخ أحمد البكاي وقد تناولنا فصلين بالدراسة فصل مفاده أن التيجاني ليس من أهل التربية و قد تناول هذا في الصفحة الخامسة و الأربعين ، كما يتناول في هذا المصدر أن التيجاني نهى أصحابه عن زيارة الأولياء الأحياء و الأموات و هذا ما تناوله في الصفحة الخمسين من هذا المصدر علماً و أن هذين الفصلين من نقاط الاختلاف ما بين التيجانية و القادرية و في نفس الوقت عثرنا على رسالة [٣٠] أحمد البكاي إلى أكنسوس .تفتح بالبسملة و الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

ورد في الصفحة الأولى الحمد لله الأمر بالتواصل و الإحسان وفي الصفحة الثالثة يقول أحمد البكاي إنما كذب على التيجاني رحمه الله حيث لم يراهم كذبوا عليه و أنه لا يريد أن ينتقص منتسباً إلى الله ولو كان كاذباً ،تنتهي في شوال ١٢٧٠هـ ١٨٦٣م صفحة اثنان وعشرون .

يا كتابي لأحمد قبل يديه * بدلاً من فمي فتفيه احتشام

جوابه [٣١] أحمد أكنسوس عن أحمد البكاي طويل :

يبتدئ الجواب :

رعت بعدما أبدى باسمه الفجر * وزال عن الإشراق من ليلة الحجر

أسيدنا البكاي يامن إذا بدا * محياه حيتنا البشاشة و البشر

فهذا الجواب يبتدئ : من الصفحة الحادية عشرة و مائة إلى أربعين و مائة أي حوالي تسعة و عشرين صفحة وقد أخترنا أبياتاً من الصفحة الثالثة والعشرون ومائة .

إذا لم تذق ما ذاقت الناس في الهوى * فبالله يا حالي الحشا لا تعتقنا

فإن لم تدرك المعنى و تدري * حقائق بلا قول فلا تلمني

ومن حضر السماع بغير قلب * ولم يطرب فلا يلم المغني

و إن تك عاذلاً لا جهلت أمري * فدع عنك الملام وخل عني [٣٢]

و يقول له وقد قيل إن المقر بالذنب كالمغتسل .

كتب ورسائل الطريقة التيجانية

تعددت كتب ورسائل الطريقة التيجانية التي عبرت من خلالها عن أفكارها و مواقف ردت بها على خصومها فهناك الرسالة المشهورة [٣٣] المسماة بالجواب المسكت و هي في الرد على من تكلم في الطريقة التيجانية بلا تثبت فقد ورد في الصفحة العاشرة : " و لسنا أنكم تقولون الباطل حاش لله لكن المبطلون هم الذين بلغوكم غير الحق و قضيتم بما سمعتم " و يقول له أحمد أكنسوس :

و دعوتني وزعمت أنك ناصحي * و لقد صدقت و كنت أميناً

و عرضت ديناً لا محالة أنه * ومن خير أديان البرية ديناً

و يحتوى هذا الكتاب على عدة فصول نذكرها :

فصل يرد فيه على قول البكاي : " إن التيجاني ليس من أهل التربية " فصل فيه نهي التيجاني أصحابه عن زيارة الأولياء الأحياء و الأموات .

فصل في الشيخ سيدي أحمد البكاي الذي أرسل كتاباً لأكنسوس و أفشاه الرسول قبل وصوله إليه فانقلبت نصيحة فضيحة .

فصل يهدد فيه البكاي و يعتذر له أيضاً .

يقول أكنسوس لا تطمعوا أن تهينونا و نكرمكم و أن نكف الأذى عنكم تؤذونا .

يقول ها أنا أقف عجزاً و إعياء .

يا كاتبي بالله قبل يديه • بدلاً من فمي ففيه احتشام [٣٤]

رد الشيخ أحمد البكاي و لكن حسب رواة نساخه يرى أنه نسخه [٣٥] أحمد البكاي لم تصل إلى أحمد أكنسوس بسبب وفاة أحمد البكاي ١٢٨٢هـ – ١٨٦٥م. أما فهرس المخطوط فيقع في آخر المخطوط وبه تسعة وعشرون صفحة وقد اخترت بعض عناوينه. كتبوا كتابهم أي جوهر المعاني فمزقه ولم يرضه ذلك دليل على صلاحه لما تضمنه من الكفريات بالتصريح و التلميح . و استمر أكنسوس إلى أن قال زعموا أن الاجتهاد انقطع ...الخ إلى أن قال و العمل بالعلم هو التربية .قال البكاي رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزر أبا بكر ولا عمر ولا علياً ولا عثمان ولم يختصر مجالسهم فيزور و يحضر إلى مجلس التيجاني و سيدي محمد بن أحمد أكنسوس أني أكذب هذا و أعذبه و طفق يعاتب على من يتصور هذا في عقله و عاتب سلطان وقته .

– أتدري ما هي القصة أن التيجاني جاء إلى الغرب وقد كل علماؤه و اشتغلت أمراؤه و كثر الجهل في أهله فادعى لهم دعاوى و أمناهم أماني ...الخ إلى أن قال إن من كلام التيجانية أن طريقهم هي آخر الطريق فلا يأتي ولي بعده بطريقة جديدة و بحث إلى أن قال ولا أحسب أن أطول هنا إلى أن قال يا أكنسوس بحق إمامك مولانا عبد الرحمان رد أحمد البكاي على الرسالة المسماة بالجواب المسكت بكتاب ما يزال مخطوطا سماه فتح القدوس في جواب ابن عبد الله أكنسوس [٣٦].

فهذا المخطوط يتناول فيه أحمد البكاي مزاعم التيجانيين أن الاجتهاد انقطع و العمل بالعلم هو التربية و ينفي ما قاله أكنسوس في قوله أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحضر إلى مجالس التيجاني من حين أنه لم يزر أبا بكر ولا عمر ولا علياً ولا عثمان أجاب فيه عالم مراكش مخطوط موجود بمركز أحمد بابا بتمكتوا مكتوب بخط مقروء عنوانه مكتوب بحبر أحمر و أزرق و سائر

الكتاب بحبر أسود عدد صفحاته أربعمائة و خمسون صفحة .فإن الأسباب التي جعلت التيجاني في أقواله بالمغرب و هذا بحسب رأي أحمد البكاي أنه جاء إليه في وقت قل علماؤه و استغل أمرؤه وكثر الجهل في أهله فادعى لهم دعاوى و أمانهم الأماني و جعلهم يقولون أن التيجاني هو آخر مؤسس للطرق الصوفية فلا يأتي ولي بعده بطريقة جديدة .

دور الطرق الصوفية في نشر الإسلام في القارة الإفريقية :

و بغض النظر عن أسماء الطرق الصوفية و مسمياتها و الآراء التي نادت بها و الأفكار التي حاولت نشرها فإن هذه الطرق قد لعبت دوراً كبيراً في نشر الدين الإسلامي في إقليم توات و حوض نهر النيجر ولو حاولنا فصل هذه الطرق عن الحياة الدينية بهذين الإقليمين لوجدنا أن المحاولة تؤدي إلى فشل من يتصدى لها و في النهاية نقبل بهذا الطرق باعتبارها الحاكم في الحياة الإسلامية بإقليمي توات والأزواد رغم بعض الإدعاءات عن الانحراف الذي أصاب بعضها .

و مهما يكن فإن لكل من الطريقة القادرية و الطريقة الموساوية و الطريقة الشيخية والطريقة التيجانية أثر كبير في نشر الإسلام و تعاليمه الدينية في الزوايا و الكتاتيب القرآنية و حلقات الذكر التي تكون بعد الصلوات الخمس و في أيام متعارف عليها بين مريدي الطرق الصوفية التي يكون في العادة ليلة الجمعة و في نهارها هذه اللقاءات اليومية و الأسبوعية ساهمت في جذب العديد من المريدين الجدد إليها و لزواياها المتواجدة و المترامية في الإقليمين سواء للتعليم أو الإطعام من جهة أو تنظيم حياة الناس من جهة أخرى نتيجة إلى الحركة الساكنة في ذاتها الملتفة حول نفسها [٣٧] لما لها من ثقافة و إلهام روحي وزخم ديني من النصوص القرآنية و الأحاديث النبوية استطاعت بها من أن تحافظ على بقائها بإقليمي توات و الأزواد .

إلى جانب آخر هذه الطرق عرفت نقلة نوعية بسبب أول اصطدام حضاري ما بين الثقافة العربية الإسلامية و الثقافة الغربية التي كانت تقودها فرنسا خلال القرن التاسع عشر في نشر تعاليم الطرق الصوفية ، ولا ننسى ركب الحج في النقاط التي تتجمع بها الحجيج بالأزواد ثم توات و المدة الزمنية التي كان يستغرقها الركب و التي تدوم في الغالب سنة هذه أهمية تؤدي إلى تفاعل حضري بين الشيوخ و المريدين حيث كانت هذه الفترة من أنشط الفترات فقد شهدت ازدهار حركة الطرق الصوفية حيث وصل عددها بالجزائر حوالي أربع عشرة طريقة بالإضافة إلى الطرق الفرعية عن كل طريقة .فكان لكل شيخ أتباعه و نشاطه الخاص وأثناء عودة شيخ الطريقة مع ركب الحجيج ينضم له أضعاف ما كان المريدين نظراً للثقافة التي تحصلوا عليها و

المقامات التي زاروها و الدروس التي سمعوها طيلة سفرهم [٣٨] ، وقد أبدى علماء كنتة جهوداً في نشر الطريقة البكائية بشكل واسع و أعمق باقليم الأزواد و حوض نهر النيجر فقد ألف الشيخ المختار الكبير أكثر من ثلاث مئة رسالة عن الإسلام و المسلمين بالأزواد و غرب إفريقيا و صارت تعاليمه التي حملها طلابه من أبرز العلامات التي ساعدت على انتشار الإسلام بين الشعوب الزنجية في حوض نهر النيجر و غرب إفريقيا و عندما وصلت الطريقة البكائية إلى هذه الجماعات أصبح يدين بها أغلب الملوك و الشيون و استمر الإسلام في الانتشار على طول الطرق التجارية و صارت محط القوافل مصدر إشعاع ديني و روحي في آن واحد [٣٩] ومن مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي [٤٠].

في نشر الطريقة القادرية مخطوط إحياء المنة و إخماد البدعة و مخطوط أصول الدين و مخطوط أصول الولاية و شروطها و مخطوط السلاسل الذهبية للسادات الصوفية و مخطوط السلاسل القادرية و مخطوط بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أحوال الملة المحمدية و مخطوط تعليم الأخوان بالأمور التي كفرنا بها ملوك السودان .



الهوامش

(١) أما رجال الطرق الصوفية انقسموا حول أصل كلمة التصوف فمنهم من قال : إن الصوفية اسم مشتق من الصوف بوصفه اللباس الغالب على هؤلاء المتصوفة و أنه اسم قديم وجد قبل ظهور الإسلام ، و يرى آخرون أن الكلمة مشتقة من دار الصفة و هي الصومعة التي يأوي إليها جماعة من فقراء المسلمين للإعتكاف و العبادة و كان الناس يقدمون لهم ما يصدقون به عليهم من الطعام و المال ،و هذه الجماعة أمرها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن تهجر الصومعة فلا تأوي إليها ولا تعتكف فيها ثم قال كلمته المشهورة لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق و هو يقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ولا يوجد لهذا الاسم في العربية مثيل لا من ناحية القياس ولا الاشتقاق و الظاهر فيه أنه كاللقب ، فأما قول من قال أنه من الصوف و تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه لكن القوم لا يختصوا بلبس الصوف ، و من قال أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى الصفة لا تجئ على نحو الصوفي و من قال أنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في معنى اللغة العربية و من قال : أنه مشتق من الصف فالمعنى صحيح و لكن اللغة لا تقتضي هذه النسمة إلى الصف ، ثم أن هذه الطائفة أكبر من أ يحتاج إلى قياس لفظ أو اشتقاق » أنظر : أبو الوفا الغنيمي التفتازاني . الطرق الصوفية في مصر ،مستخرج من حوليات كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٦٨، ص ٥٦ و ابو حامد الغزالي . مختصر إحياء علوم الدين ، تحقيق و تعليق شعبان محمد إسماعيل . القاهرة : د.ن.، ١٩٧٨م ص ٧.

و أبو القاسم النيسابوري . الرسالة القشيرية في علم التصوف . – بيروت : المكتبة العصرية ،د.ت.، ص ٢٧٩-٢٨٢ .

(٢) هو محمد بن موسى الواسطي من بلاد تركستان كان عالماً بالأصول دخل خراسان و مات بها عام ٣٣١هـ/ ٩٤٢م انظر الرسالة القشيرية للنيسابوري ، ص ٤٣٩.

(٣) أحمد شلبي . موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية ، الجزء ٦ . ط . ٤ . د . م : مكتبة النهضة ، ١٩٨٣ ص ٢١١.

أنظر ايضاً : عبد القادر الجيلاني . سر الأسرار و مظهر الانوار ، تحقيق خالد محمد عدنان الزرعي و محمد غسان نصوحُ عز قول – دمشق : دار السنابل ، ١٩٩٤م

عبد القادر الجيلاني . الفيوضات الربانية في الآثار و الأوراد القادرية ، جمع و ترتيب الحاج إسماعيل بن محمد سعيد القاري . د.م : مطبعة الباب الحلبي د.ت

(٤) عبد الرحمن بن خلدون . المقدمة ، ج . ١ الفصل ١٧ في علم التصوف ص ٨٦٣- ٨٨٢.

(٥) عبد الله عبد الرزاق ابراهيم . أضواء على الطريقة الصوفية في القارة الإفريقية .د.م : مكتبة مدبولي ، ١٩٩٠، ص ٣٧.

(٦) أبو نصر السراج . كتاب اللمع للطوسي تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود . القاهرة : د.ن، ١٩٦٠ ، ص ٤٧.

(٧) المقدم في اصطلاح الصوفية يطلق على من ينوب صاحب الطريقة في منطقة من المناطق و يكون من الشيوخ المعروفين بالعبادة و إخلاصهم للطريقة .انظر :

Xavier coppolani . Octave Depont . Les confréries religieuses musulmanes .Alger : Adolphe Jourdan . 1897.p 195.

– محمد بن عبد الله . الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التيجاني .د.م : مطبوعات الحاج عبد السلام ، د.ت.ص ٣١.

(٨) الشيخ محمد بن الشيخ المختار الكنتي ، المصدر السابق ، ص ١٨٤.

(٩) الشيخ المختار الكبير – الكوكب الوقاد في فضائل المشائخ و حقائق الأوراد الخزانة العقباوية (مخطوط) أقبلي ص ١١٢.

(١٠) الشيخ المختار الكبير . الجرعة الصافية ، مخطوط خزانة الشيخ باي بلعالم أولف ص ١٦ .

(١١) الأحزاب مجموعة من الأذكار الراتبة شبهوها بحزب القرآن للمداومة عليها في أوقات معينة .

(١٢) انظر صورة لمخطوط الكوكب الوقاد الشيخ المختار الكبير .

(١٣) انظر علي حرازم .جواهر المعاني و بلوغ الأماني في فيض أبي العباس التيجاني ، ج ١ . القاهرة : مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٢٧.ص ٢٩.

(١٤) محمد بن جعفر الكتاني .سلوة الأنفاس و محادثة الأكياس فيمن قبر من العلماء و الصلحاء بفاس ، ج ١ طبعة حجرية ، المكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم ٩٥ .ص ١٨٢.

(15) Louis Rinn Marabouts et khouan etudes sur l'islam en Algerie .Alger : Adolphe Jourdan,1884,p 418.

(16) Eugene Daumas Le Sahara Algerian etudes geographiques statistiques et historiques sur la region au sud des etablissements francais en Algerie .Paris : s.n.,1845,p 34.

(١٧) عبد الكريم العطار تاريخ الطريقة التيجانية المشرقة في البلاد المصرية القاهرة (د.ت)ص ٦٢.

(١٨) عبد الله الرزاق ،المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

(١٩) و هو الذي يبلغ به الصلاح في الدنيا و الدين و يحل في نظر أصحاب الطريقة العالم بموته .

(٢٠) محمد بن محمد أكنسوس . الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريق الإمام التيجاني بلا تثبت .الجزائرية : المطبعة الثعالبية ، ١٩١٣، ص ٢٤.

(٢١) إبراهيم القطان المختار ." من أقوال التيجاني " ، مجلة الفتح ، العدد ٣٨٨ ، ١٩٣٣، ص ٤.

(٢٢) محمد الهاشم الخطيب ." النصيحة الإسلامية إلى المخدوعين بالتجانية " . مجلة الفتح ، عدد ٤٠٨ ، السنة ٠٩ ، ١٩٣٤،ص ١٦.

(٢٣) انظر : ابراهيم نياس الكولخي . البيان و التبين عن التيجانية و التيجانيين .ط.٢ . (السنغال) : مكتبة كولاك ، د.ت .

(٢٤) قرآن كريم سورة الأحزاب الآية ٥٦.

(٢٥) عبد الكريم العطار . تاريخ الطريقة التيجانية المشرقة في البلاد المصرية . القاهرة : د.ن.، د.ت، ص ٦٢.

(٢٦) بن يوسف التلمساني . الطريقة التجانية و موقفها من الحكم المركزي بالجزائر – الحكم العثماني – الأمير عبد القادر – الإدارة الاستعمارية .رسالة نيل شهادة الماجستر في التاريخ الحديث و المعاصر ، جامعة الجزائر ، معهد التاريخ ، ١٩٩٨ ص ٢٣٨.

انظر : قدور بن رويلة . وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب ويليه ديوان العسكر المحمدي المليان ،تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم .الجزائر : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ١٩٦٨ ، ص ٩٥-٩٦.

(٢٧) محمد الاخضر . الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (١٦٦٤– ١٨٩٤) ، ج ١. الدار البيضاء :دار الرشاد ، ١٩٧٧ . ص ٤٣١– ٤٣٢.

(٢٨) رسالة أحمد البكاي بعث بها من تنبكتو إلى أهل مراكش و خاصة الحاج محمد بن أحمد الصحراوي و الحاج محمد عمور و مولاي المدني و غيرهم من الفحول موجودة بمركز أحمد بابا تنبكتو تحت رقم ٢٩٧ بها خمسة أوراق مكتوبة بخط مقروء طول الورقة خمسة و ثلاثون سنتيم و عرضها واحد وعشرون سنتيم .

(٢٩) أخرجه مسلم في الصحيح –كتاب البر و الصلة / ٣٥ ، و الإمام مالك في الموطأ / ٩٠٨ و الترمذي في الجامع / ٢٣ . انظر :

محمد السعيد زغلول .موسوعة أطراف الحديث ، المجلد ٤ (باب – الخيلاء) . بيروت : دار الكتاب العلمية ، د.ت . ص ٣٩٧.

(٣٠) الرسالة موجودة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د ١٠٧١ بعنوان رسالة أحمد البكاي لاكنسوس طول الورقة ٢٣ سم عرض ١٥ سم

(٣١) جواب عن رسالة من أحمد أكنسوس إلى أحمد البكاي الخزانة العامة بالرباط د ١٦٠٤ طول الصفحة ٢١ سم عرض ١٢,٥ سم .

(٣٢) محمد بن أحمد أكنسوس ، المصدر السابق ، ص ١٤٠.

(٣٣) تسمى الجواب المسكت في الرد على تكلم في الطريقة التيجانية بلا تثبت طبع بالمطبعة العثمانية بالجزائر ١٩١٣ ، فهذه الرسالة يرد فيها على الشيخ أحمد البكاي و يحمل مسؤولية إلى من بلغوه عن الطريقة التيجانية و ليس إلى أحمد البكاي .

(٣٤) محمد بن أحمد أكنسوس ، المصدر السابق : ص ٧٨.

(٣٥) أحمد البكاي .فتح القدوس في جواب عبد الله أكنسوس .مركز أحمد بابا تمبكتو تحت رقم ٣٧٣ لا يزال مخطوط .

(٣٦) محمد بن أحمد أكنسوس ، المصدر السابق ، ص ٢٧.

(٣٧) حميد عميراوي . " الطرق الصوفية " مجلة مسالك ، تصدر عن مؤسسة الأمير عبد القادر العدد ٠٣ ديسمبر ١٩٩٨ ص ٨٣.

(٣٨) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٤٠.

(٣٩) نفس المرجع ص ٣٨.

(٤٠) هو أبو محمد عثمان بن محمد ابن عثمان المعروف بابن فودي أخذ ورد الطريقة عن عبد القادر الجيلاني و كان ممن يدعو إلى الله و يدل عليه و كابد ما هو المعهود من أخلاق الناس من الجفاء و الإنكار و الاستهزاء و كان يخاطبهم بقدر عقولهم .



د. محفوظ رموم (*)

سوق العمل أو الوظائف الإدارية والعلمية في الجزائر

خلال العهد العثماني

إن العالم أو المثقف-في أي مجتمع وأي فترة-تتجاذبه المسؤولية العلمية إلى جانب الحاجات النفسية والاجتماعية والاقتصادية،وبين هذا وذلك موقع رجل العلم في الجزائر خلال العهد العثماني، ففي مجتمع-أولى أولوياته الحرب والتجارة- مارس العلماء الجزائريون وظائفهم المتنوعة، والتي سمحت لبعضهم بالتواجد كفئة في طبقة اجتماعية محظوظة، لها امتيازاتها ومجال عملها، في حين ظلت الغالبية منها في أدنى السلم الاجتماعي .

ولتسليط الضوء أكثر على هذه الفئة، ومدى تشابك علاقاتها، يجدر بنا أن نلقي نظرة على أهم الوظائف التي كانت مفتوحة أمامها آنذاك، ومن ثم تحديد مدى حركة سوق العمل من جهة،وما واكبه من صراع وتنافس على الوظائف من جهة أخرى.

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر- بالجامعة الإفريقية/ أدرار/ الجزائر.

أولا: أهم الوظائف الإدارية والعلمية الأساسية:

لم يكن العلماء في الجزائر، وإلى غاية العهد الزياني، مهيكلين إداريا، وبشكل رسمي، إلا في بعض الوظائف المهمة، لكن مع استقرار سلطة الأتراك بدا أن جهازا بيروقراطيا[١] أخذ في التشكل اعتمادا-في البداية-على موارد بشرية تركية، سرعان ما فتحت أبوابه أمام علماء البلد لتغطية النقص، وضمان إحكام السيطرة على المناطق المفتوحة. وكانت أهم الوظائف الرسمية العليا آنذاك هي:

١- وظيفة الإفتاء: وتأتي على رأس السلم الوظيفي من حيث الأهمية،بسبب مكانة المفتي البارزة في صياغة الأحكام والقوانين، حيث كانت المكانة العلمية،والشهرة،شرطا أساسيا لشغل هذا المنصب، الذي استحدث من طرف الأتراك-على شاكلة ما كان في اسطنبول-وأطلقوا على من يتولاه اسم "شيخ الإسلام."[٢] وقد جعلوه برأسين: أحدهما المفتي الخاص بالمذهب الحنفي، و الثاني بالمذهب المالكي، فكان الأخير يعين اعتمادا على جماعات الضغط في المدينة،وكان يؤتى بالأول مع الباشا من عاصمة الخلافة،ثم أصبح يعين من الكراغلة لاحقا.[٣]

يتمتع المفتون الرئيسيون،سواء في عاصمة الأيالة أو عواصم البايليكات، برئاسة المجلس الأعلى، الذي ينعقد أسبوعيا في الجامع الأعظم، بحضور القاضيين، وكبار العلماء، ويمثل عن الباشا أو الباي للنظر في القضايا الكبرى، أما القضايا الصغرى فقد كان يتولاها القضاة العاديين.

لقد اختلف حول تطبيق أحكام هذا المجلس، ومن له سلطة القرار النهائي،[٤] وإذ نرجح الرأي القائل بأن كلمة الفصل كانت ترجع للمفتي المالكي، فإن ذلك لا يعني أن مهمة المفتي الحنفي اقتصرت على الإشراف الفقهي والإداري على مساجد الأحناف،كما يذهب إلى ذلك البعض،بل كان يتدخل في قضايا متعددة،بما في ذلك الفصل في بعض الأمور السياسية والتجارية.[٥]

وأمام أهمية هذا المركز اجتماعيا ودينيا، فإن عائلات بعينها سيطرت على منصب الإفتاء، وتوارثته لأجيال. فعلى المذهب المالكي اشتهرت عائلة قدوره، وعلى المذهب الحنفي عرفت عائلة ابن رجب تداول المنصب بين أبنائها. ويرجع هذا التنافس إلى الامتيازات التي كان

يتحصل عليها من يتصدر هذا المنصب، مما جعل الصراع عليه كبيرا بين الأسر العلمية،كما سنرى،خاصة وأن المفتي كثيرا ما كان يجمع وظائف أخرى كالتدريس،والخطابة،والقضاء، ولم تستثنى منه سوى نظارة الأوقاف التي لم تكن من نصيبه إلا نادرا.[٦]

٢- وظيفة القضاء والتوثيق: من ملامح التغيرات الثقافية في العهد العثماني التعدد المذهبي، فإلى جانب المذهب المالكي أدخل المذهب الحنفي، فأصبح القضاء هو الآخر ثنائي المذهب. وقد عرف التنظيم القضائي تسلسلا هرميا يرأسه قاض حنفي و آخر مالكي، يساعدهما مجموعة من الموثقين والعدول، ثم يتكرر هذا النموذج في عواصم الإقليم الثلاث قسنطينة والمدية ومعسكر، ويتدرج في بقية المدن الكبرى، ليصبح أحادي المذهب في المدن الصغرى والأرياف، بسبب تركز الأتراك الأحناف في المدن الرئيسية فقط.

يتم تنصيب القاضي من طرف الباشا، بما في ذلك قضاة عواصم الأقاليم ومدنها الكبرى،ثم يحضر القاضي بنفسه أمام لجنة العلماء لإقراره على وظيفته الجديدة، وذلك بناء على مستواه العلمي.

كان قرار التنصيب يتضمن مكان ومقر الوظيفة، وتاريخ توليها، والمذهب الذي يتم تولى الحكم به. وهذا ما وجدناه في رسالة تولية القاضي محمد بن الحسين ببجاية أيام محمد باشا سنة ١٢٠١هـ/١٧٠٠م، والتي عثرنا عليها بقسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية وردت تلك المعلومات بالتفصيل :"...فقد أنعمنا عليه ووليناه قاضيا مرضيا محضيا ببلد بجاية...سالكا في ذلك أحسن المسالك حاكما بالمشهور من مذهب الإمام مالك بحيث لا تمتك لـه حرمة ولا يهظم(كذا) له جناب ولا يصله أحد بإذاية ولا بمكروه ولا يقاس بما يقاس به غيره ولا لأحد إليه من سبيل بوجه ولاحال..."[٧] .

إن مثل هذه الرسالة تؤكد قوة موقف القضاة المعنوية، ومن ثم قدرتهم على اتخاذ القرارات بعيدا عن الضغوطات، وهذا ما أكده الرحالة الأوربيون الذين جاءوا الجزائر أو استقروا بها في مذكراتهم، كما أثبتته وقائع الدعوى التي رفعتها آمنة بنت صالح باي ضد أبيها، وهو باي بايلك قسنطينة، بدعوى أنه منعها من وقف كان قد حبسه عليها وعلى إخوتها،حيث حكم القاضي آنذاك، شعبان بن عبد الجليل، لصالح آمنه بثبوت الوقف.[٨]

اختلفت أجور القضاة حسب درجاتهم في السلم القضائي، وأماكن عملهم، لكن الثابت أن قاض المظالم وقاض المواريث كانت لهما مكانة خاصة، لأن المنصبين يؤهلان صاحبهما لمنصب القضاء العام أو الإفتاء، عدا الامتيازات التي يحصل عليها متوليهما من هنا وهناك.

فقاضي مواريث محكمة قسنطينة مثلا كان يتقاضى عشرة في المائة عن كل حالة تقسيم للتركة، أما قاضي التيطري فكانت أجرته ستة سلطاني[٩]،وبذلك تتأكد لنا أهمية القضاء كمنصب قاض له أهميته التي تنبع من المكانة الاجتماعية الراقية التي يوفرها لصاحبه من جهة، وللريع الذي يذره المنصب من جهة أخرى، إلى جانب الأجرة الدائمة التي يتقاضاها القاضي بشكل دوري.

ومن جهة أخرى تبرز لنا أهمية جهاز القضاء باعتباره أحد أهم الأجهزة الإدارية التي استوعبت ووفرت لخريجي المؤسسات التعليمية وظائف قارة، ويتضح ذلك أكثر إذا ما علمنا حجم العدول، والموثقين، والمحضرين القضائيين(الشواش)، والشهود الملحقين بالجهاز القضائي أو بالباش دفتر المكلفين بكتابة السجلات.[١٠] ففي قسنطينة مثلا حفلت سجلاتها بأسماء القضاة المشهورين كقاسم الفكون ومحمد الكماد، ومشاهير العدول كالحاج علي النوري، والسيد العربي الأموي، ومحمد البرادعي، ومصطفى بن عبد الجليل، ومحمد الشريف،وبلقاسم المسبح وغيرهم كثير، مما يدل على تعدد المناصب داخل مؤسسة القضاء، وقدرتها على استيعاب عدد مهم من خريجي المؤسسات الثقافية والعلمية في الجزائر خلال الفترة العثمانية.

٣- وظيفة الإمامة والخطابة: الإمام كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية هو من يؤم الناس في الصلاة، والخطيب هو من يتولى خطبة الجمعة في المسجد الجامع، ويذهب معظم المؤرخون في الجزائر إلى أن الخطيب في العهد العثماني كان يجمع وظيفة الإمامة إلى الخطابة..

والحق أن خطيب الأعياد والجمع لم يكن يؤم الناس في سائر الأيام، بدليل وثائق أوقاف المساجد التي أوردها ديفوكس Albert Devoux ولوكلارك Leclerc وشارل فيرو Charles Feraud في دراستهم بالمجلة الإفريقية Revue Africaine، والتي خصت-في معظمها- الخطيب والإمام بجرايات (أجور) لكل واحد منهما على حدا.

كانت الإمامة والخطابة منصبين مهمين في الجزائر في العصر الحديث، على الأقل في المساجد الكبرى ذات الأوقاف الكثيرة. ففي الجامع الكبير بقسنطينة كان الخطيب يتقاضى مائة ريال،

ويأتي بذلك على رأس كل موظفي الجامع، بما في ذلك المدرس، في حين لايتقاضى الإمام سوى نصفها. و هذا الترتيب نفسه نجده في جامع سوق الغزل بالمدينة نفسها.

أما وقفية جامع خضر باشا بالعاصمة، فقد نصت على دفع خمسين دينارا لمن يتولى الخطبة، دون الإشارة للإمام ولا لأجرته، مما يؤكد أن هذا المنصب كان يسند للخطيب في هذا الجامع. أما في جامع العين البيضاء بمعسكر فكان كل من الخطيب والإمام يأخذ أربعون ريالا للواحد.(١١)

لقد عرفت الثقافة في العهد العثماني تراجعا كبيرا أثر على المستوى العلمي والفقهي للفقهاء، والأئمة، والخطباء، حتى أن بعضهم تصدر للمنصب وهو لا يحسن نظم خطبة سليمة، وقد أشار إلى ذلك الرحالة المغربي أبو سالم العياشي، الذي نعى على إمام المسجد المالكي بورقلة كثرة لحنة في القرآن الكريم، والتحريف والتقديم والتأخير أثناء قراءته،(١٢) كما أورد الفكون الحفيد في كتابه "المنشور" نماذج لهؤلاء، إلى درجة أنه كان يكتب الخطبة بنفسه لأحمد بن باديس خطيب أحد مساجد قسنطينة.

مع ذلك لم تخل الفترة من خطباء متمكنين، حيث اشتهرت خطب المقري ومصطفى البوني بعنابة، وقرباش أفندي بالجامع الجديد بالعاصمة، وعبد الكريم الفكون الحفيد بقسنطينة،والذي جمع خطبه في صحائف، كما أخبرنا في كتابه المنشور ،ولكنها للأسف لم تصلنا.

٤- وظيفة التدريس: تعتبر من الوظائف الرسمية التي استوعبت عددا كبيرا من خريجي المدارس، ووفرت لأصحابها مكانة علمية وأدبية واجتماعية مهمة.(١٣) وذلك بسبب دخلها الوقفي القار.

اختلفتْ أجور المدرسين من مسجد لآخر، ومن مدينة لأخرى، وذلك بحسب مداخل وحجم وقفيات المراكز العلمية والدينية. فقد خصت وقفية جامع خضر باشا دينارين لقارئ الصلاة المحمدية كل يوم اثنين وخميس، ومثلها لقارئ"كتاب التعريف" في التصوف، في حين خصت المدرس المالكي، ومدرس"صحيح البخاري"، ومدرس مختصر ابن أبي جمرة، وقارئ الرسالة بثلاثين دينارا لكل منهم.(١٤)

و في المدرسة الكتانية بقسنطينة خصص لمدرسها المالكي المذهب ثمانية وأربعون ريالا، في الوقت الذي تصل فيه أجرة نظيره بجامع العين البيضاء بمعسكر إلى ستين ريالا.(١٥) وهنا تجدر بنا

الإشارة إلى أن هذه الرواتب يجب أن تقرأ على ضوء الوضع الاجتماعي والاقتصادي لبايلكات الجزائر في العهد العثماني، وقيمة عملة كل بايلك على حدا،كما أن هذه الأجور خاصة بكبار المدرسين في أهم مدارس ومساجد الأيالة، وفي كبريات حواضرها فقط.

اشتهر عدد كبير من كبار المدرسين الجزائريين، وذاع صيتهم، وشدت إليهم الرحال، لتلقي العلم على أيديهم، فزادت شهرة المؤسسات التي تصدروا التدريس بها كمدرسة الأندلسيين، ومدرسة مازونة و مدرسة خنقة سيدي ناجي، وزاوية جامع القشاش التي ضمت لوحدها إحدى عشرة حلقة علم.

ولعل من أشهر مدرسي الجزائر آنذاك المفتي سعيد قدوره (المتوفى سنة ١٦٥٥م) الذي تصدر الفتوى والتدريس بالجامع الأعظم بالعاصمة، وتخرج على يده عدد كبير من علماء الجزائر، منهم عيسى الثعالبي (المتوفى سنة ١٦٦٩م)، ويحي الشاوي (المتوفى سنة ١٦٨٤م)، اللذان تقلدا مهمة التدريس بنفس الجامع، وهو الجامع الذي تجاوز عدد موظفيه الستين بين أئمة، ومؤذنين، وقراء، ومدرسين، تداولوا على أزيد من اثني عشرة حلقة يوميا.

٥- وظيفة ناظر الأوقاف: عرفت الأوقاف-باعتبارها مؤسسة اجتماعية وثقافية-تزايدا كبيرا مع دخول العثمانيين، واعتماد مذهبهم الحنفي، الذي يجيز استمرار انتفاع الواقف بوقفه حتى وفاته، بخلاف المذهب المالكي الذي يلزم الجهة المستفيدة من الوقف باستخدامه مباشرة،[١٦] وهذا ما يفسر ظاهرة وحركية التحبيس بالجزائر خلال العهد العثماني، هذا الوقف الذي سمح بدوره في إيجاد سوق عمل واسعة للمثقفين بمختلف تخصصاتهم.

كان الوقف يشرف عليه ناظر يعينه الواقفون أنفسهم، يساعده مجموعة من الوكلاء الثانويين والشواش والكتبة والعدول.[١٧] وقد زخرت مصادر تلك الفترة بأسماء النظار ووكلاء الأوقاف المتسلقين لتحقيق الثراء، وتحويل أموال الوقف لحسابهم الخاص، فقد أورد الفكون في منشوره أن الشيخ ابن نعمون ناظر الأوقاف بقسنطينة غير الكثير من الأحباس، وهتك حرمتها، وتجرأ على بيع أكثر من خمس وثلاثين وقفا، أما حميدة بن حسن الغربي فقد استولى على ريع أحباس مسجد أبي مصباح عبد الهادي بنفس المدينة.

وقد حاول بعض البايات تدارك الأمر، فأصبحوا يعينون نظار الأوقاف بأنفسهم، إلا أن ذلك لم يقض على ظاهرة تحويل أموال الصالح العام، بل أن المنصب نفسه كان يدر على صاحبه أرباحا إضافية، وقد استغل بعض النظار عجز المجلس العلمي على أداء دوره الرقابي، ومحاسبة

الوكلاء والقائمين على القطاع، لإساءة التصرف، والاستفادة الخاصة من الأوقاف، وهذا ما دفع الباي محمد الكبير، حاكم بايلك الغرب الجزائري، إلى تتبع أوقاف مدرسة تلمسان التي استولت عليها الأيدي، كما ورد في مصادر الفترة، وهو العمل نفسه الذي قام به صالح باي قسنطينة (المتوفى سنة ١٧٩٢م)، حيث اتخذ إجراء محاسبة الوكلاء كل ستة أشهر، وتسجيل الأحباس قديمها وجديدها في سجلات خاصة، لحصرها وتسهيل مراجعتها، وتمكين الرقابة من ممارسة عملها الرقابي دوريا.[١٨]

مع ذلك ظلت -الأوقاف على كثرتها- معرضة للضياع، بسبب احتفاظ الناظر بكامل صلاحيات عقد الصفقات، وشراء الأوقاف، واستبدالها. كما أن التنظيم المؤسساتي الذي قام به بعض البايات، كما سبق و أن ذكرنا، لم يطل سوى المدن الكبرى، وحتى في المدن لم يتعد بعض المؤسسات الوقفية التي تتبع سلطة البايليك (الحكومية أو شبه حكومية)، على خلاف ما شاهدته مثيلاتها في المشرق من تنظيم، واتساع، وقدرة على استيعاب أعداد لا تحصى من الموظفين وطالبي العمل.

٦- وظيفة الكتابة: يشترط في من يتولى وظيفة الكتابة أن يكون متمكنا في البيان، خطاطا، عارفا بقواعد اللغة العربية، والتركية، وحتى بعض اللغات الأخرى كالفرنسية والإيطالية والإسبانية مثلا. فهذا أحمد الفاسي الذي شغل هذا المنصب لدى أمراء بني عباس، قد عرف عنه جودة الخط، ودقة العبارة، ووضوح المعنى، وفصاحة القلم، كما أخبر بذلك الفكون.

لقد كان الكتبة موظفين ملحقين بقصور الإمارة في عواصم الأقاليم، كما شكلوا جهازا بيروقراطيا مهما في تسيير دواليب السلطة، فكان منهم قراء الرسائل، وكتابها، ومترجموها، وحفاظها بقسم الأرشيف.[١٩] واشتهر منهم محمد ابن ميمون كاتب الباي محمد بكداش وصاحب تأليف "التحفة المرضية في أخبار الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية"، وابن هطال كاتب الباي محمد الكبير وكاتب سيرته في التأليف المعروف باسم "رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري".

٧-السفارة: تعتبر السفارة من المهمات الدبلوماسية التي كانت السلطة تخص بها العلماء من ذوي الشهرة، وأصحاب الفصاحة والقدرة على التأثير والإقناع، بل والأقرب إلى رجالات بلاط الدولة المرسل إليها.

فحينما أوشكت الحرب أن تقع بين أتراك الجزائر وسلاطين المغرب الأقصى، أرسل حسين باشا العالم الجليل الشيخ محمد بن علي الخروبي المتوفى سنة ١٥٦٩م، على رأس سفارة لإجراء المفاوضات مع الأسرة السعدية، وترسيم الحدود، وبذلك تفادى البلدين الدخول في المواجهة العسكرية.

وفي سنة ١٦٩٣م، أي زمن مولاي إسماعيل العلوي الذي حكم بين ١٦٧٢-١٧٢٧م، حل بالجزائر وفد من علماء المغرب، بهدف عقد اتفاقية هدنة بين الطرفين، على خلفية وقوف أتراك الجزائر إلى جانب ثورة البربر والطريقة الدلائية بالريف المغربي، فكان دور علماء الجزائر واضحا، حيث استقبلوا أعضاء الوفد ورافقوه إلى الديوان، أين اشتركوا في المحادثات التي دارت بين الطرفين.

وقبل ذلك، وفي سنة ١٦٥٤م، قاد العالم والمفتي الشيخ أحمد القوجلي سفارة رسمية إلى اسطنبول في شأن الأهوال التي مرت بها الأيالة، شارحا أوضاعها، ومحذرا من تكالب الدول الأوروبية، وازدياد الهجمة الشرسة التي تقودها فرنسا واسبانيا عليها.

كما كلف محمد بن العنابي بسفارة إلى المغرب لطلب مساعدات عسكرية، بعد الهجمات التي تعرضت لها الجزائر مطلع القرن التاسع عشر، منها حملة اللورد اكسموث الإنجليزي سنة ١٨١٦م، ثم أعقبها بسفارة أخرى في عام ١٨٢٦م.

أما الشيخ أحمد بن هطال فقد كلفه محمد الكبير باي وهران، بقيادة مفاوضات شراء السلاح من المغرب لتدعيم الترسانة الحربية الجزائرية بعد توقف الإمدادات التي كانت تحصل عليها الجزائر سنويا من الدولة العثمانية، وذلك للوقوف في وجه الإسبان المحتلين لمدينة وهران.[٢٠]

إذن لم تكن السفارة وظيفة بعينها، ولا سوق عمل مفتوح في وجه الفئات المتعلمة، ولكنها غالبا ماكانت تسند إلى بعض العلماء من دون مرتب دائم، وإنما كانت الهبات والعطايا تتقاطر على السفير إذا ما نجح في المهمة التي أوكلت إليه.

ثانيا:الوظائف صراع من أجل البقاء:

لم يكن للتوزيع الوظيفي الامتداد الأفقي أو العمودي الواسع داخل المنظومة الإدارية في الجزائر العثمانية، مما أدى إلى بروز ظاهرة السعي الحثيث، والتنافس الشرس، من أجل الحصول على الوظيفة. و أمام هذا الشح المسجل في سوق العمل فقد استعملت في هذا التنافس كل الوسائل الشريفة في بعض الأحيان، والغير شريفة في أحيان كثيرة، وهذا ما يبرر انتشار الأمراض الاجتماعية والبيروقراطية السلبية في الأوساط العلمية آنذاك كالوساطة، وادعاء العلم، والوشاية، والمدارات، والنفاق، وهي أخلاق رائجة، أصبحت أساس الحصول/ أو البقاء في المنصب المشغول كما سنرى.

١-التنافس على الوظائف: لقد حفل كتاب "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" لصاحبه العالم الفقيه عبد الكريم الفكون، بأخبار التنافس بين العلماء للحصول والبقاء في منصب العمل، وقد أرخ هذا المصدر لمجال مهم في الحياة الاجتماعية، والعلاقات بين مختلف عناصر الفئات المثقفة، بما تناوله من نقد للمستوى العلمي والأخلاقي المتدني لعلماء عصره إبان القرن السابع عشر الميلادي، ودورهم الفكري المتراجع، ومكانتهم الاجتماعية، وهي الأمور التي لم يوليها الكثير من الباحثين اهتماما، رغم أنها تشكل ميدانا خصبا، يستحق أن يكون موضوع بحث ودراسات أكاديمية متخصصة..

ويكفي حصر النماذج التي أوردها الفكون، لمعرفة مدى الصراع الذي عاشته النخب المثقفة في الجزائر، من أجل المحافظة على المنصب بكل الوسائل، ولو كان ذلك على حساب الأخلاق، وهي المسألة التي ألقى عليها صاحب الكتاب الضوء، بكثير من الجراة،قل وجودها في بقية مصادر تلك الفترة، والتي لم تعر الظواهر الاجتماعية السلبية كبير اهتمام.

زادت قيمة الوظيفة أكثر مع زيادة حالة الفقر التي عان منها معظم المثقفون آنذاك، ما عدا أصحاب المكانة المنتمون إلى طبقات أرستقراطية، أو المقربون من السلطان فيما يعرف بظاهرة مثقف السلطة التي لم يخل منها مكان ولا زمان.

أمام قلة ميادين العمل الخاصة بهذه الفئة، انتشرت مظاهر سلبية عديدة، حيث أصبح الحصول على منصب رفيع يتم بوساطة من لهم سلطة القرار والتأثير، وليس بالضرورة الكفاءة

والقدرة من يرشح صاحبها لمثل هذه المراتب. فقد وقفنا على قصيدة[٢١] مدح فيها الشيخ محمد السنوسي- دون تورية- الشيخ مسلم بن عبد القادر الذي توسط له للحصول على منصب الإفتاء لدى باي وهران. كما عثرنا على رسالة مخطوطة بالمكتبة الوطنية من الشيخ الطاهر بن أبي معزة يلتمس فيها صراحة وساطة شيخ الطريقة الدرقاوية أبي عبد الله سيدي محمد العربي للبقاء في منصب القضاء الذي كان يشغله، وترددت حوله وشايات كادت تؤدي إلى عزله منه.[٢٢]

كان الصراع محتدما على المناصب العليا، فهذا يحي بن محجوبة نازع القضاء الشيخ محمد الكماد، وكان السيخ عبد اللطيف بركات مغاضبا ومضادا للشيخ محمد الغربي، برغم صداقة الصغر، التي لم تشفع لهما في صراعهما على المنصب ذاته، وظل التنافس بين الشيخ محمد ابن نعمون والشيخ أحمد ابن باديس -وهما من عائلتين قسنطينيتين اشتهرتا بحيازة المناصب العلمية والمخزنية- يزداد اشتعالا بتدخل الواشين، حتى فرقت صداقتهم، ومزقت أخوتهم بسبب منصب رئاسة المجليس العلمي لمدينة قسنطينة، ولم يفصل بينهما سوى تدخل السلطة في العاصمة التي عزلت الأول وسجنته.[٢٣]

لم يكن الصراع حول المناصب مقتصرا على الوسائل التي تم ذكرها، بل تعدتها إلى استخدام الرشوة والدس والوشاية. فهذا القاضي عبد القادر الراشدي رماه منافسوه بالابتداع في العقائد وبالقول بالتجسيم، وذلك بهدف الفتك به لدى الباي، وقد تسبب ذلك في عزله من منصبه في نهاية المطاف. و ذكر الفكون أن القاضي حميدة بن حسن الغربي كان يخدم الولاة ويعظمهم، ويمتهن نفسه في موالاتهم، ويعطيهم الرشوة، التي عمت وأصبحت ظاهرة عادية بين العلماء، للحصول على المنصب، أو البقاء فيه، مما يؤكد ماكتبه الورتلاني في رحلته المعروفة " في وصفه وتعميمه لانتشار ظاهرة الرشوة في الجزائر، وذلك عند حديثه عن قاضي ومفتي مدينة بسكرة، الذي كان لا يتولى المنصب إلا بأعطاء الرشوة، قائلا: "وكذا في كامل عمالة الجزائر".[٢٤]

كما استوقفنا الصراع بين عائلة المسبح وعائلة باش تارزي على قضاء محكمة قسنطينة، فقد تعاقب عليه أولا الشيخ محمد المسبح بين سنتي ١٨٠٩-١٨٣٢م، ثم العالم مصطفى باش تارزي بين سنتي ١٨١٢-١٨٢٥م، ويؤكد شراسة هذا الصراع بين العائلتين ما رصدناه من تعاقب دوري للشخصيتين على المنصب، من خلال أختامهما المسجلة في سجلات الأحوال الشخصية

رقم ٥ و ٦ و ٧ الخاصة بعقود الزواج والطلاق لمحكمة قسنطينة في تلك الفترة، والمحفوظة في أرشيف البلدية.

في ظل ظروف كهذه يصبح تملق المثقف للسلطة والحاكم طبيعيا، وطلب الهدايا منه أمر مقبول لا حياء فيه، وإلا كيف نفهم و نفسر الأبيات التي كتبها محمد بن ميمون للداي محمد بكداش وصدر بها كتابه التحفة المرضية، سوى تملق وطلب صريح للعطايا على حساب الكرامة وحتى على حساب المستوى الأدبي والفني للقصيدة حيث قال:

هذا الكتاب لو يبع بوزنه	ذهبا لكان البائع المغبون
ومن العجيب أن تراني آخذا	ذهبا وأعطي الجوهر المكنون.(٢٥)

٢- ظاهرة توريث المناصب: أمام قلة الوظائف وأهميتها في نفس الوقت لضمان مصدر قار للرزق من جهة، وسيطرة سلطة البايليك على توزيع الريع الاقتصادي من جهة أخرى، من الطبيعي أن تكون النتيجة سعي كل فائز بالوظائف إلى استمرار الوظيفة في عقبه، وهي أمور، ولاشك، منافية لشروط تولي الوظائف الإدارية والعلمية والتي على رأسها العلم والكفاءة والأخلاق، وهي كلها لا تورث.

تصادف الباحث في هذه الفترة، استفحال ظاهرة التوريث العائلي للمناصب بشكل لافت، حيث اشتهرت عائلات بعينها كعائلة ابن العنابي، وابن العطار، وابن المفتي،وابن الشاهد، والبوني، وعائلة قدوره والفكون، وعائلات أخرى كثيرة، لا يسعنا المقام لذكرها، بعضها ظل يتوارث المناصب الإدارية والعلمية ليس زمن العثمانيين فقط، و إنما منذ العهد الزياني والحفصي،كعائلة العقباني والمقري على سبيل الذكر لا الحصر.

وهكذا ورث الآباء لأبنائهم الوظائف العلمية والإدارية، واحتكروها، وزادوا على ذلك الجمع بين أكثر من منصب ووظيفة، فالشيخ سعيد قدوره مفتي العاصمة أناب عنه ابنه محمد بن سعيد قدوره في أكثر من منصب، حتى أصبح مفتيا لمدة أربعين سنة بعد وفاة والده، ليورث بدوره المنصب لأخيه أحمد بن سعيد قدوره. ونفس الشيء بالنسبة لعائلة ابن باديس في قسنطينة، فقد أخبر الفكون أنه اجتمع فيهم أربعون كلهم حازوا المناصب المخزنية.

وكذلك عائلة الغربي فقد شغل فيها أبو الفضل قضاء قسنطينة، أما ولده فتصدر الفتوى والتدريس بها، واعتلى حفيده حميدة الغربي القضاء والفتوى والخطابة في آن واحد،حتى كانت

شهرتهم على ما ورثوه من أسلافهم،كما عبر عن ذلك الفكون في منشوره.كما اشتهرت عائلة المسبح بتعاقب الآباء والأبناء على تقلد الوظائف العلمية الرسمية، فاشتهر منهم عبد اللطيف وحميدة وبركات.

و الحقيقة أن عائلة الفكون نفسها ،التي انتقد أحد أفرادها هذه الظاهرة، لم تكن هي الأخرى بعيدة عن تكريس ظاهرة التوريث، فقد توارث الفكون الجد، والأب، والحفيد وظائف الإمامة والخطابة والقضاء بمدينة قسنطينة، ثم أضافوا لها زمن الفكون الحفيد صاحب المنشور الذي اعتمدنا عليه في رصد هذه الظاهرة، مشيخة الحج، والتي ظلت تسند لهم إلى غاية ١٨٣٨م.

٣- الوظائف ومصائبها: لم يكن شغل الوظيفة بالأمر الهين، ولم يكن الاحتفاظ بها بالأمر السهل، فقد كان على المثقف أن يخوض الصعاب، ويواجه الأهوال، من أجل الاستمرار أو البقاء في المنصب.

كان ارتباط المثقف بالسلطة، وتبعيته لها، في عصر الانحطاط هذا، هو المؤهل الوحيد للارتقاء في السلم الإداري، ولم تكن الكفاءة والمجهود العلمي، سوى مؤهلات نادرة الوجود، وهذا سر العلم القليل الذي لاحظه الورتلاني على زملائه، وقلة اشتغالهم بالعلم والقضايا الفكرية.

عرفت السلطة كيف تتخذ من الوضع المادي طريقا لكسر شوكة العلماء وعزلهم، مثل ما حدث مع المفتي الحنفي ابن نيكرو، ثم مع الشيخ يحي الأوراسي، الذي اتهم بخلع البيعة، و لما أحس بقرب مساءلته، اضطر للاختفاء والهرب، وإشعال نار الثورة بالأوراس.(٢٦)

تعرض الباشا محمد بكداش بالاضطهاد لمفتي العاصمة أحمد بن قدوره، الذي كان والده سعيد قدوره قد نفي هو الآخر إلى اسطنبول أيام يوسف باشا، هذا الأخير الذي اشتهر بأنه كان ملاحقا للعلماء، حيث لجأ عدد منهم في عهده إلى الهجرة هروبا من التنكيل، وهو ما يسمى في أدبيات الصراع السياسي بالمنفى الاختياري، الذي عاشه الشيخ عيسى الثعالبي ويحي الشاوي، والعالم سعيد المنداسي الذي رحل إلى المغرب.(٢٧)

كانت الوظيفة، بالنسبة للكثيرين، نقمة بقدر ما هي نعمة، وخاصة مع سلطة لم تول العلماء وقطاع التعليم و الثقافة كبير اهتمام، بل كانت تسعى دائما إلى تدجين فئة المثقفين ليسهل عليها بعد ذلك ضمان ولائهم، ترغيبا وترهيبا. فلجأت إلى الطريقة القديمة الجديدة في توزيع الوظائف

والريع، وكما كان توزيع المنصب يتم من هنا وهناك، كان انتزاعه والزج بصاحبه في السجن، أمر هين لايتطلب سوى إشارة بسيطة من الحاكم، والمتصفح لكتاب المنشور تصادفه الظاهرة بشكل مريع، حتى ليحسبها أنها أصبحت موضة للعصر، وقدرا لا مفر منه، وهذا ما نفهمه من كلام الفكون عندما ترجم لابن نعمون، الذي انتهى مساره المهني الطويل في مناصب الدولة بشكل طبيعي غير معهود دون أن تصيبه محنة، مما جعل الفكون يستغرب ذلك، فسجل العبارة التالية عندما ترجم له قائلا: "...ولم تصبه إذاية من منصبه ولم تتوال عليه النكبات كغيره ممن تولى الخطط بهذا البلد".(٢٨)

الخاتمـــــة:

في الأخير نقول، رغم تنوع مجالات العمل في الجزائر في العهد العثماني ظاهرا، إلا أن المتأمل في التصنيف الرتبي لسلم الوظائف، آنذاك، يجدها محددة ومحدودة..

فهي محددة، كون الوظائف ظلت مقتصرة على مؤسسات بعينها، ومتوارثة من العصور الوسطى، بحيث لم تواكب التطورات الحاصلة في المجتمع الجزائري على الأقل ديموغرافيا.

ومن جهة أخرى ظلت محدودة بسبب اقتصارها على المناطق الحضرية فقط، وبالضبط في عواصم الأقاليم والمدن الكبرى، أما الريف، في ذلك الوقت، فقد تميز بالرتابة، وقدم البنى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

أمام شح المناصب والوظائف الإدارية، لم تكن الوظيفة في متناول الجميع، كما أن القطاع الثقافي عمليا لم يكن بمقدوره إستعاب العدد الهائل لخريجي المؤسسات العلمية الجزائرية علىّ تنوعها وبساطتها في نفس الوقت، مما ألجأ الكثير من العلماء والمثقفين إلى ممارسة وظائف تجارية لسد حاجاتهم كما فعل عبد الرزاق ابن حمادوش والشيخ حمودة المقايسي وغيرهم. أما من كان له حظ الوصول وارتقاء سلم الوظيف فقد عان الأمرين في سبيل البقاء أو إبقاء من يخلفه في الوظيفة، ولم يمر ذلك دون أن يدفع المثقف ثمن ذلك، وصل أحيانا إلى حد فقدان حياته.

الهوامش

(١) يذهب الأستاذ أحمد السليماني إلى أن أصول الإدارة الجزائرية تعود إلى أيام حسن باشا ابن خير الدين بلربباي. أنظر: أحمد السليماني، النظام السياسي في الجزائر في العهد العثماني،مطبعة دحلب، الجزائر، دت، ص٣٦.

(٢) أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، ط اسطنبول ١٩٩٩، ج١، ص٤٨٣.

(٣) كان حسين بن رجب شاوش الكرغلي المتوفى سنة ١١٠٢هـ/١٦٩٠م أول مفتي جزائري كرغلي، حيث كان من سبقوه أتراكا قادمون. أنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٥،ج١، ص٣٩٣.

(٤) يرى الأستاذ سعد الله أن القرار النهائي يعود للمفتي المالكي، في حين يرى الأستاذ عبد الجليل التميمي وإمريت و دي لاكروا أن مهمة المفتي لم تكن تتعدى المراقبة الإدارية العامة للجامع وأحباسه. أنظر: سعد الله، المرجع السابق،ج١، ص٣٩٩.

Temimi(A) ; Pour une histoire de la grande mosquée d'Alger , Revu historique maghrébine, N19-20 , A1980, P.180.

(٥) أنظر: أحمد توفيق المدني، "من الوثائق الجزائرية العثمانية:مشكل الديوانة بين الجزائر والدولة العثمانية"، مجلة التاريخ، ع٩ ، الجزائرسنة ١٩٨٠، ص٧٧.

(٦) يذهب الكثير من الباحثين إلى أن المفتي كان ناظرا للأوقاف في نفس الوقت، لكن الوثيقة التي اطلعنا عليها بالمكتبة الوطنية وهي تحت رقم ٥٣ الملف٢، بالمخطوط رقم٣٢٠٥ مجموع،كانت فيها الوظيفتين منفصلتين،فالمفتي سنة ١١٠٢هـ/١٦٨٦م هو محمد قدوره،وناظر الأوقاف هو محمد الموري.

(٧) ينظر الرسالة ٤٤ من الملف ٣، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية،تحت رقم٣٢٠٥ مجموع.

(٨) فاطمة الزهراء قشي ،قسنطينة المدينة والمجتمع،رسالة دكتوراه دولة، جامعة تونس الأولى،ج١، ص١٦٠.

أنظر كذلك كتب الرحالة: وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية. ووليام شالر، مذكرات وليام قنصل أمريكا بالجزائر ١٨١٦-١٨٢٤، ترجمة إسماعيل العربي. و فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي١٨٣٢-١٨٣٧.

(9) Henri et bon aucapitaine ;sur l'histoire et l'administration du beylik de Titri ;Revu Africaine ,N11, A1867 , PP. 366-367.

والسلطاني عملة جزائرية من الذهب وزنها ٣ غ.

(١٠) ينظر سجلات الأحوال الشخصية لمحكمة قسنطينة التي تعود للفترة بمركز أرشيف بلدية قسنطينة وفيها أسماء وأختام المنضوين تحت هذا السلك

(11) Leclerc(Ch) , Inscription Arabes de Mascara . Rerue A fricaine , N4 , A1859 , P.45.

(١٢) أبو سالم العياشي ، رحلة العياشي، الطبعة الحجرية، فاس١٣٠٣هـ، ج١، ص٤٦.

(١٣) كان المدرس يرتقي في سلم الألقاب، فيبدأ معلما فمدرسا فأستاذا ثم شيخا إذا كان مبرزا، إضافة إلى ألقاب أخرى أحصينا منها أربعون مابين لقب علمي وتشريفي، لكن اشتهر منها الأربعة السابق ذكرهم. ينظر: ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، تحقيق عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٦، ص٢٠١.

(١٤) أنظر وقفية الجامع في:

Albert Devoux ; Les édifices religieuse de L'ancien Alger RevueAFricaine, N13, A1869, P.24.

(١٥) انظر وقفية الجامع في: Leklerc(Ch) , Opcit , P.45.

(١٦) انظر دراسة الأستاذ: ناصر الدين سعيدوني، "الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية"، مجلة دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ع١٩، ص- ص ١٤٩-١٥٠. وحمدان خوجة، المرآة، ترجمة وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر١٩٧٥، ص،ص٢٧٢،٢٧٠.

(١٧) لمزيد من الاطلاع أنظر : ناصر الدين سعيدوني، "موظفوا مؤسسة الأوقاف بالجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال وثائق الأرشيف الجزائري"، المجلة التاريخية المغاربية، ع٥٧/٥٨، جويلية ١٩٩٠،ص١٨٤.

(١٨) انظر نص الوثيقة التي افتتحت بها السجلات في: Feraud (Charles) ; Les ancients établissements religieux musulmans de Constantine , Revue Africaine , N12 , A1868 , P.12 .

(١٩) كان عدد الكتبة بقصر الداي يتجاوز إلى عشر كاتبا أنظر:

Venture de Paradis ;Tunis et Alger au 18 siécle, présenté par Josef Coq , Paris la bibliothèque Arabe sindbed, P.75 .

(٢٠) أحمد ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، الجزائر ١٩٧٣، ص٢٤٧.

(٢١) الطاهر ابن حوا، زهر الآداب، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم ٨٩٣ ، الورقة ٧٥ وجه.

(٢٢) انظر الرسالة ١٤، الملف٢، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم ٣٢٠٦ مجموع.

(٢٣) عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١٩٨٧،١، ص٨٣.

(٢٤) الحسين الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق ابن أبي الشنب، مطبعة فونتانا، الجزائر ١٩٠٨، ص،ص ١١، ٦٩٨.

(٢٥) محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ط١٩٨١/٢، ص١١٣.

(٢٦) عبد الكريم الفكون،المرجع السابق، ص٥٤.

(٢٧) أحمد السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر السلاوي وآخر، دار الكتاب المغرب، ط١٩٥٦، ج ٧، ص٣١.

(٢٨) عبد الكريم الفكون، المرجع سابق، ص٨١.



د. عبد العزيز شهبي (*)

سياسة الاستعمار الفرنسي تجاه الطرق الصوفية بالجزائر في القرن ١٩ م

مقدمة

عرّف " ابن خلدون " التصوف بقوله : « أصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه » [1] .

وقد حدد أئمة التصوف طرائقهم بمقتضى الآداب الصوفية ، والورد الذي يمثل تعاليم الطريقة وعقيدتها ومذهبها ، وتختلف فيه كل طريقة عن الأخرى من حيث الممارسات والأذكار.

كانت الطرق الصوفية مختلفة وكثيرة العدد في بلاد الجزائر خلال القرن التاسع عشر الميلادي . واشتهرت كل طريقة بشيخها وبزواياها وكثرة المريدين .

---

*أستاذ محاضر - بالمدرسة العليا للأساتذة - في الآداب والعلوم الإنسانية- بوزريعة - الجزائر

وإذا كان بعض الطرق الصوفية هادن الاستعمار الفرنسي منذ البداية ، إلا أن البعض الآخر دعا إلى الجهاد في سبيل الله وسبيل الوطن ضد الاحتلال الأجنبي .

وخلال القرن التاسع عشر الميلادي , وجد الجيش الفرنسي في الجزائر مقاومة شديدة , وكانت تنطلق من الزوايا في كثير من الأحيان . حيث كانت الزاوية تمثل الرباط , ومكان العبادة والدراسة , ولذلك فهي من أهم الأماكن لاجتماع المسلمين والتقائهم وتوعيتهم في تلك الأثناء .

وحتى يتم القضاء على الثورات الملبية للجهاد في سبيل الله ، والتحكم في المجتمع الجزائري، سعى الفرنسيون إلى التصدي للطرق الصوفية الفاعلة , بغلق زواياها , ومحاربة شيوخها وأتباعها، واستعملوا في ذلك جميع الوسائل الاستعمارية .

١)–دور الطرق الصوفية في محاربة الاحتلال الفرنسي للجزائر :

في الجزائر, تعددت الطرق الصوفية المختلفة المشارب والاتجاهات ، خلال القرن التاسع عشر الميلادي. وتميزت كل طريقة بشيخ أو خليفة يتبعه المقدمون والإخوان ، واشتهرت بزوايا للعبادة الصوفية والذكر، والصلاة الجامعة , والتعليم , وإيواء الغرباء ، واستعملت أيضاً كرباط للمجاهدين , وكانت الزوايا كثيرة المريدين والأتباع والأوقاف والمال. ومن ذلك أخذت كل طريقة شهرتها ووزنها ، بعضها هادن الاستعمار منذ البداية ، مثل التجانية التي أسسها أبو العباس أحمد التجاني ، المتوفى عام (١٢٣٠ هـ / ١٨١٤ م) في فاس ، وهو من بلدة عين ماضي (بنواحي الأغواط) حيث توجد الزاوية الأم [٢] . والبعض الآخر دعا إلى الجهاد في سبيل الله ، دفاعا عن الإسلام والوطن ، ضد الاحتلال الأجنبي .

وكان أكبر تجمع وطني إسلامي هو مبايعة الحاج عبد القادر بن محي الدين أميرا للمؤمنين في معسكر عام (١٨٣٢ م). وكانت هذه المبايعة تعني بوجوب الطاعة للأمير، الذي تعهد بإجراء العدل على سنة الله ورسوله ، واحترام الشريعة ، والعمل على طرد العدو ، ثم أعلن الجهاد في سبيل الله والوطن [٣] .

ومن أهم الثورات [٤] المنسوبة للطرق الصوفية [٥] وزواياها ما يلي :

١- مقاومة الأمير عبد القادر التي شملت معظم التراب الوطني (١٨٣٢ – ١٨٤٧م) .

٢- انتفاضة الشيخ أحمد بوزيان في واحة الزعاطشة بالزيبان عام (١٨٤٩م) .

وتمثل هذه المقاومات الطريقة القادرية ، المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد عام (٥٦١ هـ/ ١١٦٦ م) . وتعتبر القادرية القاعدة للطرق الصوفية التي جاءت بعدها وقد نشرها في الغرب " أبو مدين شعيب الأندلسي " المتوفى في تلمسان عام (٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م) .

٣- مقاومة الحاج موسى الدرقاوي (الأغواطي) في التيطري عام (١٨٣٥م) ، ثم في أولاد نايل

٤- جهاد عبد الرحمن الطوطي ، مقدم الدرقاوية في نواحي بلعباس ، عام (١٨٤٥م).

ظهرت الطريقة الدرقاوية في المغرب الأقصى ، وهي تنتسب إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي المتوفى بشمال فاس ، عام (١٢٣٩ هـ/ ١٨٢٣ م)، وتعود أصولها إلى الشاذلية.

أما الطريقة الشاذلية التي تفرعت عنها عدة طرق صوفية ، فتعود أصولها إلى القادرية . وهي تنتسب إلى أبي الحسن علي الشاذلي ، الذي انتقل من المغرب الأقصى إلى تونس، وتوفي بمصر عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م) .

٥- ثورة الشريف محمد بن عبد الله بومعزة بجبال الونشريس وأولاد نايل (١٨٤٥ – ١٨٤٧ م) .

٦- ثورة سي الأزرق بلحاج الطيبي في فليتة عام (١٨٦٤م) .

تنتمي هذه الثورات إلى الطريقة الطيبية التي تستمد أصولها من الشاذلية . وقد تأسست الطيبية في وزان بالمغرب الأقصى ، على يد الشيخ عبد الله الشريف ، المتوفى عام (١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م)، وازدهرت في عهد ابنه الطيب (١١٢٧ – ١١٨١ هـ/ ١٧١٦ – ١٧٦٨ م)

٧- مقاومة الحاج عمر ، ومولاي إبراهيم ، وفاطمة نسومر في جبال جرجرة (١٨٥٠ – ١٨٥٧م) .

٨- ثورة الشيخ الصادق بلحاج في الخنقة وبسكرة (١٨٥٨ – ١٨٦٠م) .

٩- ثورة الشيخ الحداد ، وابنيه : عزيز ومحمد ، في جرجرة والبابور وقسنطينة ، عام (١٨٧١ م).

١٠- ثورة الشيخ محمد يحي الرحماني في واحة العمري بالزيبان ، عام (١٨٧٦ م).

١١- ثورة الشيخ محمد أمزيان بن عبد الرحمن في الأوراس ، عام (١٨٧٩م) .

قامت بهذه الثورات الطريقة الرحمانية ، التي تنتسب إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي ، المتوفى عام (١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣ م)، وهو من قبيلة آيت إسماعيل ، تلقى تعاليم الطريقة الخلوتية الشاذلية في المشرق ، ثم نشرها في جرجرة والشرق الجزائري وجنوبه

١٢- انتفاضة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الشرقية للجزائر (١٨٥٢ – ١٨٦١ م) .

دعم هذه الانتفاضة الطريقة السنوسية ، التي تعود أصولها إلى القادرية ، وهي تنتسب إلى الشيخ محمد بن علي السنوسي المستغانمي ، المتوفى بليبيا عام (١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩ م). وكان وراء هذا الدعم الشيخ السنوسي ، ومقدمه في الغرب الجزائري: الحاج أحمد التواتي .

١٣- ثورة أولاد سيدي الشيخ بالغرب الوهراني (١٨٦٤ – ١٨٨١م) .

١٤- ثورة الشيخ بوعمامة بالجنوب الوهراني (١٨٨١ – ١٨٨٣ م) .

تزعم هذه الثورات أصحاب الطريقة الشيخية ، المنسوبة إلى سيدي الشيخ عبد القادر بوسماحة ، المتوفى عام (١٠٢٣ هـ/ ١٦١٥ م) في الأبيض سيدي الشيخ ، وكان مقدما للشاذلية .

٢) متبعة الاستعمار الفرنسي للطرق الصوفية بالجزائر :

أرجع بعض المحتلين المقاومة الشديدة التي وجدها الجيش الفرنسي إلى انتماء الناس إلى الطرق الصوفية ، حيث كانت تحمس للجهاد وتدعو للثورة . وحتى يتم القضاء على هذه الطرق الصوفية ، عمل الفرنسيون على معرفتها ، وإدراك أهميتها ودورها وأسرارها وألغازها .

ومن أجل ذلك قام الضباط الفرنسيون بدراسة كل طريقة صوفية ، وتجسسوا على شيخها ومقدميه ، وأحصوا الأتباع والزوايا والأموال ، وجمعوا التقارير الخاصة ، ونشروا المقالات ، وألّفوا الكتب . ومن ذلك وأهمها ما يلي : (٦)

١– كتاب : « الطرق الصوفية عند مسلمي الجزائر » صدر عام (١٨٤٥ م)، ألفه الضابط " دي نوفو De Neveu " والذي كشف فيه أهمية الطرق الصوفية في الثورات . وكان " دي نوفو " يعرف العربية ، ومتزوجا من جزائرية مسلمة وخبيرا بالمجتمع الجزائري ، إذ كان من كبار المسؤولين في الشؤون الأهلية ، منها وظيفة المكتب العربي . وقد استقى معلوماته من وظائفه المختلفة ، ومن زوجته والجزائريين الذين تعامل معهم .

٢– كتاب : « الإخوان » ، صدر عام (١٨٥٩ م)، ألّفه : " شارل بروسلار Ch. Brosselar " ، عن المؤسسات الدينية في تلمسان. وكان" بروسلار " متوليا المكتب العربي في تلمسان ، فاتصل بأهلها ، وعرف حياتهم الاجتماعية ، والتراث الإسلامي الذي كانت تتمتع به هذه المدينة . كما كان يجيد العربية ، فاستعملها للإطلاع على المخطوطات في الزوايا والمساجد والمكتبات الخاصة عند العائلات .

٣– كتاب : « الطرق الإسلامية في الحجاز » ، صدر عام(١٨٨٧م) ، ألفه : " ألفريد لوشاتليه Alfred le Chatelier " ، وهو ضابط مختص في الشؤون الإسلامية ، كان مديرا للمكتب العربي في مدينة ورقلة ، وعن طريق هذا المكتب عرف نشاط الطرق الصوفية في الجنوب ، وهو أيضا مؤسس « مجلة العالم الإسلامي »، وكان رئيسها ، وقد ربط بين بعض الطرق الصوفية في الحجاز والجزائر .

٤– كتاب : « اكتشاف الصحراء : طوارق الشمال » ، صدر عام (١٨٦٤م) ، ألفه : " هنري دوفيرييه H.Deveyrier " ، حين رحل إلى الجنوب حتى وصل غدامس تحت حماية شيوخ التجانية . فكتب عن الطوارق، واكتشاف الصحراء ، وكشف بالخصوص عن أهمية بعض الطرق الصوفية في الجنوب كالتجانية والسنوسية والطيبية والشيخية والقادرية (٧) .

٥–كتاب : « مرابطون واخوان » ، صدر عام (١٨٨٤ م)، وضعه " لويس رين L.Rinn " الذي يعتبر من الخبراء البارزين في الإدارة الأهلية الفرنسية ، وكان مهتما بالحياة الجزائرية الدينية والاجتماعية والسياسية ، فعرف مختلف فئات المجتمع الجزائري بكل تفاصيله . وفي تأليف " رين " لكتابه هذا ، استعمل نفوذه كضابط مسؤول في الإدارة العامة ، فطلب التقارير من مختلف الشيوخ ومقدّمي الطرق الصوفية عن أصولهم وعلاقاتهم وحالاتهم ، ونشاطهم ، وعدد أتباعهم ، وصنفهم وصفتهم وجنسهم ، كما لجأ إلى التقارير الرسمية التي تصل إلى الإدارة المركزية من المكاتب العربية وغيرها ، وأضاف إلى ذلك مراسلات القناصل الفرنسيين في بعض البلدان الإسلامية .

فجاءت دراسة " رين " شاملة لمختلف الطرق الصوفية في الجزائر ، ومن جميع نواحيها وقد تكفل بها الحاكم العام في الجزائر " لويس تيرمان Louis Tirman "(١٨٨٢ – ١٨٩١ م) . وحاليا يوجد كتاب « مرابطون وإخوان » (Marabouts et Khouan) تحت رقم :(٥٢٨٠٧) بالرصيد المغربي، في المكتبة الوطنية بالحامة[٨].

٦–كتاب : « الطرق الدينية الإسلامية » ، صدر في الجزائر عام (١٨٩٧ م) ، وضعه الكاتبان : " أوكتاف ديبون O.Depont ، وايكزافيه كوبولاني Y.Coppolani " كان المؤلفان مسؤولين إداريين ، فهما خبيران بالشؤون الأهلية الجزائرية ، وجاءت دراستهما في وقت كانت فيه فرنسا تحاول ربط مستعمراتها في القارة الإفريقية ببعضها . لذلك كانت دراسة الطرق الصوفية العاملة هنا وهناك مسألة حيوية .

وقد جنّدت حكومة " جول كامبون Jules Cambon "إمكانياتها في البحث والتمويل ، واستعملت لخدمة هذا المشروع التقارير الإدارية ، وتقارير القناصل الفرنسيين في البلاد الإسلامية ومراسلات شيوخ الزوايا . كما قامت الحكومة العامة بطبع هذه الدراسة العامة عن الطرق الصوفية على نفقتها ، والتي تضمنت أيضا آراء وتوصيات كانت توجه السياسة الفرنسية نحو المسلمين .

وكتاب « الطرق الدينية الإسلامية Les confréries religieuses musulmanes»، متوفر حاليا تحت رقم :(٥١١٩٢) بالرصيد المغربي في المكتبة الوطنية بالحامة [٩] .

٣–سياسة الاستعمار الفرنسي في القضاء على دور الطرق الصوفية بالجزائر :

تصدى الفرنسيون للطرق الصوفية بقوة الجيش والسلاح ، ثم اتخذوا وسائل أخرى تمثلت في تشتيت الصفوف وتمزيق الوحدة داخل الطريقة الصوفية الواحدة ، وجلب ضعاف النفوس ، وشراء الذمم ، بهدف القضاء على الثورات والتحكم في سير المجتمع الجزائري .

لقد رأى الفرنسيون أن استقلال زعماء الطرق الصوفية عن الإدارة ، وعدم قبولهم الوظيفة، يجعلهم خطرين على الاستعمار ، لذلك تقررت مراقبتهم عن كثب ، بالتحكم في مداخيلهم المادية ، ومنع اعطائهم الرخص لزيارة أتباعهم وجمع أموال الزيارات(١٠) .

لكن المؤلف " رين Rin " لاحظ أن الطرق الصوفية التي تحالفت مع فرنسا فقدت حيويتها وانخفض عدد أتباعها . بينما الطرق التي ظلت على عدائها أو حيادها اكتسبت أتباعا وتجددت، لذلك نصح بعدم اتخاذ أسلوب المواجهة والانتقام ضد الطرق العدوة ، كهدم الزوايا واعتقال الزعماء ونفيهم ، لأن ذلك لا يخدمها ، ويضر بالمصلحة الفرنسية ، وقال إن أكثر الطرق عداءً في وقته هي الرحمانية والدرقاوية ، وأن أكثرها ولاءً هي التجانية.

واقترح " رين " أن تتبع بلاده سياسة الحكمة ومنح الأموال لدى هذه الطرق لتتصادق معها ، وتستفيد منها ، وتقلّم أظافرها ، ويتجسد ذلك في اعتراف فرنسا بشرعية الرؤساء الذين يمكنهم الانضواء تحت حمايتها ، ومنحتهم مقادير مالية وشرفية ، وبذلك يبقون منشغلين بمصالحهم خارج النشاط السياسي ، وينتهي خطرهم وتأثيرهم على الأهالي .

ورأى " رين " ضرورة تقوية التجانية لتكون حاجزا ضد تسرب الطرق المعادية للفرنسيين في الجنوب على الخصوص ، وتعيين الأئمة من أتباع الطريقة التجانية ، وجعلهم عينا على مقدمي الطرق الأخرى ، ووسيلة إغراء لهؤلاء المقدمين بقبول نفس الوظيف المربح ، إلى أن يصبحوا غيورين على وظيفهم ومكانتهم الاجتماعية . ومن ثمة يتخلى الجميع عن مشايعة الثورات ، وتصبح المصالح هي التي تتحكم في العلاقات (١١) .

وأضاف الكاتبان " ديبون وكوبولاني Depont et Coppolani " الوصايا التالية :

أ–وضع الطرق الصوفية تحت الوصاية الفرنسية ، وجعل شيوخها ومقدميها أئمة ليس لهم رواتب ولا تابعين للسلطة في الظاهر .

ب- وضع اليد على الزوايا القديمة الموجودة ، وإظهار التسامح معها ، وإنشاء زوايا حديثة مجاورة للزوايا القديمة ومنافسة لها ، تكون تحت سلطة فرنسا ، وجعلها تقوم بالعبادات والتعليم والإحسان ، ومن خلالها يمكن مراقبة الزوايا القديمة المجاورة .

ج- عن طريق الطرق الصوفية التي لها علاقات خارجية ، يمكن لفرنسا أن تربط علاقات تجارية وسياسية مع السودان الشرقي والغربي لنشر أفكارها الحضارية .

أما سياسة الحاكم العام في الجزائر " جول كامبون Jules Cambon" نحو الطرق الصوفية منذ توليه عام ١٨٩٢ ، فقامت على الاحتفاظ بحرمة الشيوخ الذين بقوا بعيدين عن الفرنسيين، وتمثلت معالمها فيما يلي :

أ- إعطاء الشيوخ برنوسا أحمرا ، منحهم الكلمة العليا في البلدة ، مع إظهار التسامح نحوهم ، ودعوتهم لتولي الوظيف تحت السلطة الفرنسية .

ب- احترام إرادة الشيخ والإخوان في اختيار المقدمين ، وتعيين الخلفاء عن طريق وراثة البركة .

ج- الموافقة على الإجازات الصادرة من الشيوخ للمقدمين ، والاعتراف بها، وذلك لجعل هؤلاء المقدمين مستقلين في زواياهم ، وواقعين تحت يد فرنسا [١٢] .

وتماشيا مع السياسة الفرنسية تجاه الطرق الصوفية ، فقد تزوج شيخ زاوية عين ماضي " أحمد التجاني " من الفرنسية " أوريلي بيكار " ، ابنة الضابط المتقاعد ، وبنى لها قصر كوردان للحياة الفرنسية ، بقرب عين ماضي ، وبقيت على مسيحيتها من تاريخ الزواج عام (١٨٧١م) إلى وفاتها عام (١٩٣٣م) ، وكانت عين الفرنسيين على الطريقة التجانية .

وبعد وفاة الشيخ " أحمد التجاني " عام (١٨٩٧م) ، اضطر خليفته الشيخ " البشير التجاني " إلى الزواج من "أوريلي Oreilly " أرملة أخيه ، وذلك حتى لا تفقد فرنسا عينها على الطريقة التجانية .

وتزوج من " فيري Feret " الفرنسية ، " حمزة بن بوبكر " ، آغا جبل عمور ، وهو أحد أقطاب أولاد سيدي الشيخ [١٣] . وأيضا تزوج ابن الشيخ البودالي الهبري من امرأة فرنسية[١٤]. وكذلك تزوج الشيخ " محمد الشرقي " ، صاحب زاوية العطاف الشاذلية ، من امرأة فرنسية [١٥] .

٤)-نتائج سياسة الاستعمار الفرنسي في القضاء على دور الطرق الصوفية بالجزائر :

استطاع الفرنسيون أن يقضوا على المحاربين من زعماء الطرق الصوفية ورجالها ، فمنهم من نُفي إلى خارج البلاد كالأمير عبد القادر عام (١٨٤٧م) ، ومنهم من قُتل في ميدان المعركة مثل أحمد بوزيان بالزعاطشة عام (١٨٤٩ م) ، ومنهم من سجن أثناء المقاومة مثل الشريف محمد بومعزة بالونشريس عام (١٨٤٧ م)، والشريف محمد بن عبد الله بورقلة عام (١٨٦١ م)، والشيخ الحداد بقسنطينة عام (١٨٧١ م)، وهكذا فرق الاستعمار شملهم ، واسكت بعضهم بالوظائف ، وزرع بينهم العداوة والبغضاء .

وفي أواخر القرن التاسع عشر (١٩م) ، ضعفت المقاومة ، وفقد الأمل في الخلاص من المستعمر الأجنبي ، ومن ثمة زاد ارتماء المواطن الجزائري في أحضان التصوف وشيوخه ، معتقدا فيهم الخلاص الدنيوي والروحي ، لكن الطرق الصوفية استسلمت للأمر الواقع ، ولم تعد مضادة للاستعمار ، حيث لجأ الفرنسيون أيضا إلى تمزيق وحدتها وتشتيت صفوفها [١٦] .

فلم يأت آخر القرن حتى تفرعت القادرية والشاذلية والدرقاوية ، وغيرها إلى فروع ضعيفة ومتنافسة ، وكان مصير الرحمانية كذلك ، حيث تمزقت إلى فروع كثيرة ، واستقل كل مقدم بزاويته ، لا يعترف أحدهم بالآخر ، وأبرزهم :

١- الشيخ محمد بن أبي القاسم البوجليلي في آقبو (نواحي بجاية) .

٢- الشيخ محمد باش تارزي في قسنطينة .

٣- الشيخ علي بن الحملاوي في وادي العثمانية (نواحي قسنطينة)

٤- الشيخ علي بن عمر في طولقة (نواحي بسكرة) .

٥- الشيخ محمد بن أبي القاسم في الهامل (نواحي بوسعادة) .

٦- الشيخ سالم بن محمد الأعرج في وادي سوف [١٧] .

ولقد اتبع الحاكم العام " جول كامبون " سياسة التقرب من الطرق الصوفية واستمالة رؤسائها ، فعرض عليهم الوظائف والأوسمة ، وأقام لمن مات منهم احتفالات التأبين ، مثل ما فعل عام (١٨٩٧م) ، بالجامع الجديد في مدينة الجزائر ، لـ" أحمد التجاني " ، شيخ زاوية عين ماضي ، وفي بوسعادة لـ" محمد بن أبي القاسم " شيخ زاوية الهامل ، وقد قبل بعضهم وظيفة

الآغا والقائد ، سيما أولاد سيدي الشيخ ، ومنهم من حصل على أوسمة رسمية ، كالآغا الحاج قدور الصحراوي بتيارت ، وتحولوا بذلك إلى جهاز استغلالي في يد السلطة الفرنسية .

وكان هدف " كامبون " هو توظيف نفوذ الطرق الصوفية في خدمة المصالح الفرنسية في الصحراء .

كما سار الحاكمان العامان " شارل جونار Jonnart . Ch " (١٩٠٣ – ١٩١١م) ، و" شارل ليطو Ch.Lutaud" (١٩١١ – ١٩١٨م) على سياسة مشابهة نحو الطرق الصوفية . واستخدمت الإدارة نفوذ هذه الطرق خلال الحرب العالمية الأولى ضد الدعوة إلى الجهاد ، فأعلن رجال الدّين خضوعهم لفرنسا، وتحالفوا معها ، وساهموا في التهدئة العامة ، ودعوا الجزائريين إلى الوقوف بجانب فرنسا ضد ألمانيا وحليفتها تركيا [١٨] .

واستمرت السلطة الفرنسية في توظيف الطرق الصوفية لمعارضة التيارات السياسية والإصلاحية التي ولدت في الجزائر منذ عام (١٩٢٠ م).

٥)–الطريقة القادرية والمقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي في الجزائر " نموذجاً "

أ) الطريقة القادرية :

تنتسب الطريقة الصوفية القادرية إلى العالم المتصوف الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد عام ٥٦١هـ (١١٦٥م) وتعتبر القادرية هي القاعدة لمختلف الطرق الصوفية التي جاءت بعدها أو التي استقلت عنها ، وتوجد الزاوية الأم للقادرية في بغداد [١٩].

وقد انتشرت القادرية في مختلف المدن الجزائرية ، لاسيما خلال العهد العثماني ، وتأسست فروع قادرية في الجزائر وكان أصحاب هذه الفروع يتصلون مباشرة ببغداد لأخذ الإجازة من هناك . كما كانت ترسل الزيارات مع الحجاج إلى الزاوية الأم في بغداد .

وهكذا ظهر مقدموا القادرية في الجزائر ،وتكونت لها زوايا وأضرحة ومساجد وأوقاف كثيرة في مدينة الجزائر وتلمسان وقسنطينة وبجاية وغيرها [٢٠] .

ب) المقاومة على يد الأمير عبد القادر والطريقة القادرية :

إن الاستفسار المطروح في هذا المجال هو: ما هي علاقة القادرية بالمقاومة على يد الأمير عبد القادر ؟

وهنا نجد أنفسنا أمام رأيين : فأحدهما يقول بالعلاقة الوطيدة بين القادرية والمقاومة على يد الأمير عبد القادر.أما الرأي الآخر ، فيقول بخلاف ذلك ، أي لا علاقة بينهما.

– الرأي القائل بعلاقة القادرية بالمقاومة :وهو يستند إلى ما يلي :

نشأ الأمير عبد القادر في جو عائلي يسوده العلم والعمل ، مما ساعده على اكتساب العلم والمعرفة ، وحفظ كتاب الله ، والتشبع بالأخلاق الإسلامية السامية. وفي القيطنة ، مسقط رأسه اندمج في أوساط الطلبة القادمين من مختلف أنحاء البلد للتتلمذ على والده محي الدين ، ولما قرر هذا الأخير التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، اصطحبه معه ، وقبل العودة إلى أرض الوطن عام (١٨٢٩ م)، توجه مع والده إلى بغداد ، حيث أدى الزيارة إلى قبر سيدي عبد القادر الجيلاني .

ثم إن سمعة الحاج محي الدين ، والد الأمير عبد القادر ، قد لعبت دورا في تجميع المقاومة حول شخصه ، بعد ذلك ، باعتباره زعيما روحيا محترما في المنطقة . لقد كان الحاج محي الدين مقدما للزاوية القادرية آنذاك ، كان رجلا ورعا ، تقيًا ، وعالمًا ، تخرج على يده العديد من المثقفين ، وبالإضافة إلى ذلك فإن للقادرية فروع في مختلف أنحاء الجزائر ، وهي تنظيم ديني يشتمل في صفوفه على عدد كبير من الإخوان المستعدين لإتباع شيخهم في الطريق الذي يختاره ، خاصة إذا كان ذلك الطريق هو الجهاد في سبيل الله ولذلك تصدوا معه لمقاومة الاحتلال .

وقد قاد الأمير عبد القادر بنجاح وقعة خنق النطاح الثانية ، نيابة عن والده ، وهو الزعيم الروحي الذي أقعده المرض .ومن خلال تلك المعركة ، برزت العبقرية العسكرية للأمير[٢١] .

ومن هنا فلا شك أن تأييد الحاج محي الدين لابنه عبد القادر ، كان له أثر في التفاف إخوان الطريقة القادرية من حوله .وحتى يكون الأمير في مركز قوي ، فقد اعتمد في كفاحه على الوازع الديني .

وحتى بعد وفاة الحاج محي الدين ، استمرت القادرية على نشاطها إلى جانب المقاومة ، حيث محمد السعيد (أخو الأمير الأكبر) خلف والده ، وتولى شؤون الزاوية القادرية .

وبعد هزيمة الأمير عبد القادر ، سافر معه أخوه محمد السعيد وسجن معه ، ثم استقر الأخوان بالمشرق .

– الرأي القائل بعدم ارتباط المقاومة بالقادرية :

يعتبر أن مبايعة الأمير عبد القادر عامي(١٨٣٣/٣٢م) ، والتفاف القبائل والجماهير من حوله ، مهما كانت عقيدتهم الصوفية وجهتهم جعل القضية تخرج عن نطاق الطريقة القادرية إلى النطاق الوطني .

وقد تعاونت الطرق الصوفية في عهد الأمير عبد القادر من رحمانية ، ودرقاوية ، وطيبية ، وشيخية ، ولم يفرق الأتباع بين الصفوف المجاهدين ، فكلما دعا الداعي استجابوا بقطع النظر عن مصدر الصوت .

ولكن دعاية الحرب الفرنسية ، عندئذ ، كانت تبذل قصارى جهدها لتفريق الصفوف حول الأمير عبد القادر ، مدّعية أنه كان يحارب باسم طريقته الصوفية [٢٢] .

وعلى الرغم من انتصارات الأمير عبد القادر على الجيش الفرنسي ، إلا أنّه أحسّ بضرورة تكوين جيش نظامي ، متحلي بروح الانضباط . فأمر بالنداء في الأسواق والساحات العمومية يعلن عن إنشاء جيش منظم، يستطيع الانضمام إلى صفوفه كل جزائري قادر ، ويرغب في الدفاع عن أرض الوطن وكانت فكرة تزويد البلاد بقوات مسلحة ، ومدربة على مختلف فنون الحرب ، أحسن وسيلة لتجنيد أكبر عدد ممكن من الجزائريين ، ولو كانوا ينتمون إلى قبائل غير مبايعة [٢٣] .

ج) – المقاومة وتوسيع القادرية :

بعد انتقال زعماء القادرية إلى المشرق ، واستقرارهم هناك ، خلف محمد المرتضى والده الشيخ محمد السعيد، وأصبح شيخ القادرية في بيروت ، وكان يقصده الجزائريون للزيارة ، ولأخذ الإجازة ، وكان يستقبل منهم المال، وكان له في الجزائر أتباع واتصالات [٢٤] .

ويلاحظ في تلك أثناء توسيع القادرية وزيادة انتشارها في مختلف أنحاء القطر الجزائري فهل يرجع ذلك إلى التسلط الاستعماري ، وفشل المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر ، وبالتالي التجأ الجزائريون إلى التصوف ؟ أو انظموا إلى قيادات صغيرة متمثلة في مقدمي الزوايا لمواصلة

المقاومة على يدهم ؟ أم لعلاقة الطريقة ، وأسرة الأمير عبد القادر في المشرق بالدولة العثمانية ، ومن ثَمّ كان التوافق بين القادرية وحركة الجامعة الإسلامية ؟ أم كل ذلك وغيره معًا ؟

وفي هذا المجال اشتهر سيدي محمد بن عودة ، في نواحي زمورة (نواحي غليزان) والشيخ بوتليليس بشعبة وادي اللحم (نواحي وهران) وسي الأحول عبد القادر في زاوية شلافة قرب هليل (بين مستغانم وغليزان) . وانتشرت القادرية ناحية تيهرت والجنوب الغربي ومن زعمائها هناك بلعربي عبد القادر بن قدور .

وفي شرق الجزائر ، اشتهر ابن النحال في زاوية الفجوج بنواحي قالمة ، كما اشتهرت زاوية بلعباس في منعة بالأوراس ، وزاوية تبسة .

وفي الجنوب ، ظهرت زاوية عميش التي أسسها الشيخ الهاشمي بن ابراهيم ونشط في تجنيد الأتباع من أهل سوف الذين يمارسون التجارة الصحراوية ، ونشر القادرية إلى أقصى الجنوب وفي ناحية ورقلة أسس أخوة محمد الطيب زاوية الرويسات ، وكان له أتباع في الأغواط وغرداية وبين الشعانبة .

هذا بالاضافة إلى زاوية قمار ، وزاوية صحن الشعانبة بوادي سوف وغيرها . وجميعها زوايا قادرية ، وقد وصل تأثيرها إلى عين صالح وتوات وتيديكلت . وكان لها أتباع بين الطوارق ، وعلى رأسهم الشيخ عابدين وقد كان للقادرية دور بارز في مقاومة الغزو الفرنسي للصحراء ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر [٢٥]

د) مصير القادرة :

يذكر الجنرال "لاروك (Laroque)" المسؤول العسكري على إقليم قسنطينة ، بما فيه الصحراء الشرقية ، أن للقادرية عددًا كبيرًا من الأتباع ، وينصح فرنسا بالاستفادة من نفوذهم .

وتدخل الضابط "ديبورتر (Deporter)" الذي عمل في صحراء الجزائر وتونس ،سيما في بسكرة ووادي سوف وغرداية وتوزر وقابس وقبلي ، واستعمل القادرية لحساب فرنسا .

وهكذا ، منذ أواخر القرن التاسع عشر، أصبحت القادرية تحت رحمة المخابرات الفرنسية ، والضغط المتعدد الجوانب ، لكي تعمل وفق إرادة المحتل ، كما وُظفت في عدد من المناسبات ،

لاسيما عند حاجة الفرنسيين إلى نفوذ الطرق الصوفية في الصحراء ، حين خططوا لاكتشافها ، واحتلالها ، وربطها بمستعمراتهم الإفريقية [٢٦] .

ومن الأمثلة على ذلك فإن الشيخ محمد الطيب ، مقدّم القادرية في ورقلة ، قد اعتمد عليه الحاكم العام " جول كامبون (J.Cambon)" عام ١٨٩٥ لتمهيد تيديكلت للتأثير الفرنسي ، ورافق الشيخ محمد الطيب بنفسه بعثة المستكشف الفرنسي" فلوماند (Flumand)" إلى تيديكلت ، عام (١٨٩٩م) ، وأخذ معه عشرين شخصًا مسلحين لحماية القافلة [٢٧] .

خاتمة

مهما قيل عن الطرق الصوفية وتخاذلها أمام الاستعمار ومهادنتها له , إلا أن بعضها , إن لم يكن الكثير منها, دعا إلى الجهاد في سبيل الله والوطن ضد الاحتلال الأجنبي في الجزائر خلال القرن التاسع عشر للميلاد. وسخر شيوخ تلك الطرق الصوفية أنفسهم , وما يتمتعون من أتباع , وتملكه زواياهم من أموال , في محاربة العدو المحتل , وعدم الخضوع له .

ولو لا المقاومة الشديدة التي وجدها الجيش الفرنسي من أتباع الطرق الصوفية ، ودعوة شيوخها للجهاد ، لما عمل الضباط الفرنسيون على معرفة تلك الطرق الثائرة , ودراسة أهميتها ودورها ، ثم التصدي لها بكل الوسائل, ومحاربتها بالسلاح .

فأخضع المحتلون الفرنسيون شيوخ الطرق الصوفية ، وعطلوا الزوايا , الأتباع واستولوا على الأموال والأوقاف , ودجنوا الأتباع , وتشتتوا الصفوف ، وقضوا على المحاربين بالقتل والسجن والنفي ، بهدف القضاء على الثورات ، والتحكم في المجتمع الجزائري .

الهوامش

١- عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر ، ج١ ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٨٦٣ .

٢- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج١ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٨١ ، ص ٥١٨ .

٣- محمد بن عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر ، ج١ ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٩٦ .

- شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر ، (ترجمة أبو القاسم سعد الله) ، ط٢ ، الجزائر ١٩٨٢ ، ص ٦٩

٤- يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ج١ ، ط٢ ، المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ١٩٩٦ ، ص ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

٥- سعد الله : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٥١٤ / ٥٢٢ - ٥٢٣ .

- سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج٤ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٨ ، ص ص ٤٢ - ٦٤ / ٦٧ - ١٠٣/ ١٠٤ - ١١٢ / ١١٣ - ٢٤٥ / ٢٥٢ .

- عمار هلال : الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ١٩٨٨ ، ص ص ١٠ - ١٠٥ / ١٠٩ .

٦- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ص ٢٩ - ٣٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ .

٧- Duveyrier (Henri) : Exploration du Sahara : les Touareg du Nord , Paris , 1864 .

٨- Rinn (Louis) : Marabouts et Khouan , (Adolphe Jourdan) , Alger , 1884 .

٩- Depont (O) et Coppolani (Y) : Les confréries religieuses musulmanes , (Adolphe Jourdan) , Alger , 1897 .

١٠- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ، ص ص ٣١ - ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣١٠ .

١١- Rinn : op . cit , pp 19- 108- 114- 516 .

١٢- Depont et Coppolani : op . cit , pp int . 283 .

١٣- Garrot (H) : « le mouvement islamique » , Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nort . 1906 , p.174 .

١٤- محمد الهاشمي بن بكار : كتاب مجموع النسب ، الجزائر ج٤ ، ص ص ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٢ .

١٥- سعد الله ، نفسه ، ص ١٩٦١ ، ص ١٦٢ .

١٦- سعد الله ، المرجع السابق ، ص ٣٦ - ٣١ - ٣٢ .

١٧- Depont et Coppolani : op . cit , p 247.

١٨- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ، ص ص ٣١٠ - ٣٢٤ - ٣٢٨ .

١٩- لويس ماسينيون : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ١٥، ص ١٧٥- ١٨٠

- عمار هلال : المرجع السابق ،ص ١٠٩ .

- RINN (L) : op . cit , pp. 179 - 180

٢٠- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ، ص٤٢-٤٣

٢١- محمــد العربــي الزبيــري : الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر ، الجزائر ١٩٨٢، ص١٥ ..٢٢

- يحي بوعزيز : المرجع السابق ، ص٣٥-٣٦

GARROT (H) ; op . cit .P.162

سعد الله : المرجع نفسه ،ص٤٤

٢٢- محمد بن عبد القادر الجزائري : المرجع السابق ،ص٢١٦

٢٣- محمد الجزائري ، المرجع نفسه .

٢٤- سعد الله : المرجع نفسه ص ٤٥ ...٤٨

DEPONT (O) et COPPOLANI (X) : op . cit .P.367

٢٥- سعد الله : المرجع نفسه ص ٤٩-٥٠

- DEPONT et COPPOLANI ; ibid .PP.274 -288

- DEPORTER ; La question de touat au sahara algerien .Alger 1891

27 – B.S.G.A.A .N . anneé 1899/1900 . pp5....12

د. نعيمه عبدالله بن دهيش(*)

عصر السلطان عبد الحميد الثانى وأسباب سقوط الدولة العثمانية

المقدمة :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، الذى ملك ناصية البيان وتحدى فصحاء العرب بمعجزة القرآن . أما بعد :-

هذا البحث يتحدث عن عصر السلطان عبد الحميد وأسباب سقوط الدولة العثمانية، فيعطى صورة واضحة عن الجهود العظيمة التى قام بها السلطان عبد الحميد خدمة للإسلام، ودفاعًا عن دولته، وتوحيداً لجهود الأمة تحت رايته، وكيف ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية فى معترك السياسة الدولية فى زمن السلطان عبد الحميد؟ والوسائل التى اتخذها السلطان عبد الحميد فى تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الرسلامية، كالاتصال بالدعاة ، وتنظيم العمل الإسلامى، وتعريب مؤسسات الدولة، وإقامة مدرسة العشائر، ومد خط سكة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء الرامية إلى تمزيق الوحدة الإسلامية، ودحض المخططات

* أستاذ مساعد - جامعة أم القرى- مكة المكرمة - قسم التاريخ.

الصهيونية العالمية التى تعمل على دعم أعداء السلطان عبد الحميد عن طريق دعم المتمردين الأرمن، والقوميين فى البلقان، مثل حركة الاتحاد والترقى، وتأييد الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية، والتى أدت فى النهاية إلى عزل السلطان عبد الحميد عن السلطة.

وفى نهاية البحث يهتم الباحث بإبراز أسباب سقوط الدولة العثمانية من المنظور القرآنى.

وهدفى من هذا البحث:

١- تسليط الضوء على زعيم إسلامى من زعماء الدولة العثمانية.

٢- بيان المنهج الذى سار عليه السلطان عبد الحميد فى مسيرته الطويلة وقد قمت بتقسيم البحث إلى ثمانية مباحث :

المبحث الأول: السلطان عبد الحميد وتوليه السلطة وما رافق ذلك من أعمال .

المبحث الثانى: الجامعة الإسلامية والعمل على توحيد العالم الإسلامى.

المبحث الثالث: السلطان عبد الحميد واليهود.

المبحث الرابع : السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقى.

المبحث الخامس : الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثانى.

المبحث السادس : حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية .

المبحث السابع : أسباب سقوط الدولة العثمانية.

النتائج.

المبحث الأول

السلطان عبد الحميد (١٢٩٣-١٣٢٦هـ / ١٨٧٦-١٩٠٩م)

السلطان عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، تولى عـــرش الدولة وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره و إذ ولد فى ١٦ شعبان عام ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م.

وكانت والدته قد ماتت وهو فى العاشرة من عمره فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه وكانت عقيمًا ، فأحسنت تربيته وحاولت أن تكون له أمًا ، فبذلت له من حنانها كما أوصت بميراثها له . وقد تأثر السلطان عبد الحميد بهذه التربية وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادئ ، وكان لهذا انعكاس على شخصيته طوال عمره .

تلقى السلطان عبد الحميد تعليمًا منتظمًا فى القصر السلطانى على أيدى نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علمًا وخلقًا ، وقد تعلم اللغات العربية والفارسية، ودرس التاريخ وأحب الأدب، ونظم بعض الأشعار باللغة التركية العثمانية .

وتدرب على استخدام الأسلحة وكان يتقن استخدام السيف، وإصابة الهدف بالمسدس، وكان محافظًا على الرياضة البدنية، ومهتمًا بالسياسة العالمية، ويتابع الأخبار لمعرفة موقع بلاده منها بعناية فائقة ودقة نادرة .

قام السلطان عبد العزيز بزيارة إلى أوروبا يرافقه وفد عثمانى رفيع المستوى، وكان من ضمنه الأمير عبد الحميد الذى ظهر أمام الأوروبيين بملابسه البسيطة وسيرته الحميدة فى العفة[1]. وقد استعد الأمير عبد الحميد لهذه الرحلة بمطالعات واسعة، وقد سبقت تلك الرحلة زيارته مع والده إلى مصر ، وانتبه أثناء وجوده فى مصر إلى الزيف الكاذب للبريق الأوروبى والأخذ هناك بالشكليات الأوروبية، وأما رحلته إلى أوروبا فقد استغرقت من ٢١ يونيو إلى ٧ أغسطس من عام ١٨٦٧م، زار الوفد العثمانى خلالها كل من فرنسا وإنكلترا، وبلجيكا والدولة النمساوية المجرية.

وفى هذه الرحلة الأوروبية ، تفتح ذهن عبد الحميد إلى أمور كثيرة، انعكست على فترة حكمه كلها بعد ذلك، وهذه الأمور هى :

١- الحياة الأوربية بكل ما فيها من طرق معيشية غريبة وأخلاقيات مختلفة وشكليات .

٢- التطور الصناعي والعسكري وبخاصة في القوات البرية الفرنسية والألمانية وفي القوات البحرية البريطانية.

٣- ألاعيب السياسة العالمية.

٤- تأثير القوى الأوروبية على سياسة الدولة العثمانية. اقتنع الأمير عبد الحميد في هذه الرحلة : أن فرنسا دولة لهو، وإنكلترا دولة ثروة وزراعة وصناعة، أما ألمانيا فهي دولة نظام وعسكرية وإدارة وكان إعجابه بألمانيا كثيراً . وتأثر الأمير عبد الحميد بهذه الرحلة ودفعه ذلك التأثر إلى الاهتمام بعد توليه السلطنة بإدخال المخترعات الحديثة وفي دولته في مختلف نواحي الحياة : تعليمية وصناعية ووسائل اتصالات وعسكرية، ومن ذلك أنه قام بشراء غواصتين، زود بها سلاح الغواصات الجديد لديه، وأدخل التلغراف إلى بلاده ، وأنشأ المدارس الحديثة، وزودها بالعلوم العصرية ، التي لاتتعارض مع القيم الإسلامية وأدخل إلى البلاد أول سيارة وأول دراجة ، فانتشرت بعد ذلك السيارات والقاطرات ووسائل النقل والاتصالات الحديثة، وأخذ بنظام القياس المترى، لكنه وقف بحزم ضد سريان الفكر الغربي في البلاد [٢].

ولقد أثرت رحلة عبد الحميد إلى أوروبا أيضاً في إتباعه سياسة استقلالية تجاه أوروبا، ولم يعرف عن عبد الحميد تأثير أي حاكم أوروبي عليه، مهما كانت صداقته ، ومهما كانت درجة التقارب بينهما.

ولفت انتباه عبد الحميد أثناء هذه الرحلة الحوار الذي كان يجريه فؤاد باشا الصدر الأعظم العثماني مع بعض الزعماء الأوربيين.

فتعلم عبد الحميد من هذا الحوار القدرة على إسكات القوى التي تود تحطيم الدولة العثمانية. فأدرك بذكاء قيمة الحوار السياسي وأهدافه وتأثيراته البعيدة ، وهو ما برع فيه بعد ذلك، وكان عمر عبد الحميد أثناء هذه الرحلة ٢٥ عاماً [٣].

بويع بالخلافة بعد أخيه مراد، يوم الخميس ١١ شعبان ١٢٩٣هـ / الموافق ٣١ أغسطس ١٨٧٦م، وكان عمره آنئاك أربعًا وثلاثين سنة، وحضر لمبايعته الوزراء والأعيان وكبار الموظفين من مدنيين وعسكريين في سراى طوبقبو، وكان أول عمل قام به وضع دستور جديد للدولة العثمانية . وضعه الصدر الأعظم مدحت باشا .

وكان هذا الدستور ينص على أن البرلمان يتكون من مجلسين : مجلس النواب أو المبعوثات ثم مجلس الأعيان أو الشيوخ [٤].

كما كان الدستور ينص على فصل السلطات من حيث الشكل لا المضمون ، كما أن التغييرات التى طرأت على نظام الحكم طبقًا لهذا الدستور كانت من قبيل التوطر، فلم يفكر أحد فى تقليص حق السلطان فى السيادة، كما نص الدستور على أن شخص السلطان مصون لايمس، وأنه لايسأل أمام أحد من أعماله، ومن ثم كان الدستور مرتهنًا بشخصه [٥]، فله وحده حق تعيين وإقالة الوزراء، كما أنه هو الذى يعقد المعاهدات ، ويعلن الحرب ويعقد معاهدات الصلح، وهو القائد العام للقوات المسلحة ، ومن حقه إصدار كافة القوانين فى شتى المجالات دون الرجوع إلى البرلمان .

ونص الدستور أيضًا على حرية أعضاء البرلمان فى إبداء آرائهم وفى التصويت ، كما أنه لايمكن محاكمتهم إلا إذا تجاوزوا حدود قوانين المجلس، وحدد الدستور اللغة التركية العثمانية باعتبارها اللغة الرسمية للدولة التى يجرى بها الحديث فى كل الجلسات ، كما نص أن يكون التصويت سريًا أو علنيًا بحسب الظروف ، وعلى أن يقر مجلس النواب الميزانية دون تدخل من جانب السلطان بعكس الحال فيما يتعلق بالقوانين العادية.

وأما بالنسبة لحقوق الأفراد فقد أعلن الدستور أن العثمنة هى السياسة الرسمية للدولة فى إطار مبدأ المساواة الذى نصت عليه التنظيمات .

وقد أمر السلطان عبد الحميد بأن يوضع الدستور موضع التنفيذ، وبأن تجرى انتخابات عامة، كانت الأولى من نوعها فى التاريخ العثمانى [٦]. وبعد إعلان الدستور والعمل به لمدة عشرة شهور وعشرين يومًا أعلن السلطان عبد الحميد تعطيل الدستور وذلك بعد أن تعرض إلى استبداد الوزراء بزعامة مدحت باشا ورغبتهم تغريب الدولة، وظهور جمعية العثمانيين الجدد التى كانت تضم نخبة من المثقفين العثمانيين المتزثرين ببريق النظم والحضارة الأوربية. كما أن انعقاد مجلس الوزراء توقف ، ولم يدفع هذا المجلس للاجتماع ثانية لمدة ثلاثين عامًا ، ولم تفتح خلالها قاعة المجلس ولا مرة واحدة.

لقد كان السلطان عبد الحميد مضطرًا لإعلان الدستور بسبب الضغوط التى مارسها عليه مدحت باشا ، ولذلك عندما أتيحت له الفرصة قام بتعطيل الدستور وعدم عقد المجلس.

إن السلطان عبد الحميد الثانى كان ضد أن تكون هناك شروط تحدد سلطته على اعتبار أن هذا فمر وافد من الغرب ، ولذلك كان ضد سياسة رئيس وزرائه مدحت باشا ولذلك انتقد وزيره هذا بقوله : (لم ير غير فوائد الحكم المشروطى فى أوروبا، لكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى. أقراص السلفات لاتصلح لكل مرض ولكل بنية، وأظن أن أصول المشروطية لاتصلح لكل شعب ولكل بيئة قومية . كنت أظن أنها مفيدة أما الآن : فإنى مقتنع بضررها) [٧].

كان للسلطان حججه فى هذا ، منها سوء تصرف المنادين بالدستور فى أول استجابة للسلطان لأفكارهم ، من ذلك:

- أن طلبت الحكومة من السلطان فى وقت إعلان السلطان للدستور ، أن يوقع على بعض قرارات منها تعيين ولاة نصارى فى ولايات أغلب السكان فيها من المسلمين ، وعلى قرار بقبول طلبة من النصارى فى الكلية الحربية العثمانية التى هى عماد الجيش العثمانى، فرفض السلطان التوقيع فما كان من مدحت باشا - وهو الصدر الأعظم - إلا أن قال للسلطان : (إن مقصدنا من إعلان الدستور أن ننهى استبداد القصر، ويجب على جلالتكم أن تعرف واجباتكم)[٨].

- ومن الأسباب التى يسوقها السلطان عبد الحميد فى رفضه للفكر الدستورى قوله : (إن الدولة العثمانية دولة تجمع شعوبًا شتى، والمشروطية فى دولة كهذه موت العنصر الأصلى فى البلاد، وهل فى البرلمان الإنكليزى نائب هندى واحد ؟ وهل فى البرلمان الفرنسى نائب جزائرى واحد ؟)[٩].

ويبين السلطان عبد الحميد بأن موقفه هذا ليس دائمًا تجاه الحكم الدستورى، فالظروف التى كان يحكم فيها ، إذا اختلفت ، فستختلف وجهة نظره فى الحكم الدستورى .

وفى هذا يقول : «ينبغى ألا يظن أن فكرى واقتناعى دائمًا ضد الحكم الذى يعتمد على أصول المشروطية»[١٠].

إن السلطان عبد الحميد مر عصره بظروف عصيبة، وأزمات شديدة ، وتآمر عالمى على الدولة العثمانية من الداخل والخارج ، فشرع فى إصلاح الدولة وفق الأسس الإسلامية لمنع التدخل الأوروبى فى شؤون الدولة، وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية، وقام بإبعاد

الكتاب والصحفيين المتأثرين بالفكر الغربى عن العاصمة، وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الإسلامية المجيدة فى ولايات الدولة، واستطاع أن يشكل جهازاً استخبارياً قوياً لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه فى الخارج، واهتم بفكرة الجامعة الإسلامية وحقق بها نتائج عظيمة، واهتز الأوروبيون من هذا التفكير الاستراتيجى العميق وعملوا على تفتيتها .

لقد تكلم السلطان عبد الحميد عن جهاز مخابراته وبين الغرض منه فقال : (حسب العرق العثمانى يتعرف السلطان على تفكك الرعية وشكواها عن طريق جهاز الحكم، ومن ولاته وقضاته من جانب ، وعن طريق التكايا المنتشرة فى ربوع البلاد بمشايخها ودراويشها من جانب آخر، فيجمع كل هذه الأخبار ويدير البناء عليها).

لقد شهد عصر السلطان عبد الحميد عدة ثورات الهدف منها التمرد والعصيان والخروج عن طاعة ولى الأمر. فلقد قام سكان الجبل الأسود والصرب بتحريض بلاد الهرسك للخروج عن الدولة العثمانية وكان ذلك فى عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م واستطاع العثمانيون إخماد هذا التحرك ، ورغب السلطان عبد الحميد فى منع الدول الأوروبية من التدخل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية ، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالى، والمساواة فى الضرائب بين المسلمين والنصارى ... ولم يرض ذلك بعض السكان فى الأقاليم الأوروبية ، فعادوا إلى الثورة التى قمعت أيضًا ، ولكن النمسا التى كانت وراء إشعال الثورة فى الدولة العثمانية ، فعملت النمسا مع روسيا وألمانيا وفرنسا وإنكلترا على الطلب من السلطان بالقيام بإصلاحات فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة لم يتقبلوا ذلك، وهذا يدل على أن المطالبة بالإصلاحات ليست سوى مبررات واهية، وحقيقة الأمر أنهم يريدون التدخل فى شؤون الدولة بشكل مباشر وغير مباشر لإضعافها والإطاحة بها [(١١)].

كما قامت ثورة البلغار فى الوقت نفسه بدعم من نصارى البوسنة والهرسك وبتأييد من النمسا وروسيا، فقد تأسست جمعيات فى بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسى بين النصارى الأرثوذكسى والصقالبة ، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح ، لإثارة سكان الصرب والبوسنة والهرسك من النصارى، وتحرضهم على الثورة ضد العثمانيين، ومساعدتهم بالمال والسلاح، فتمكنت الدولة العثمانية من القضاء على تلك الثورة ، فأخذت الدول الأوروبية تثير الشائعات عن المجازر التى ارتكبها العثمانيون ضد النصارى، والعكس هو الصحيح .

وبهذه الشائعات أثير الرأى العام الأوروبى ضد الدولة العثمانية ، وطالبت الحكومات الأوروبية باتخاذ إجراءات صارمة ضد العثمانيين ومنها حصول البلغار على استقلال ذاتى وتعيين حاكم نصرانى لهم (١٢).

وقام الروس والألمان والنمساويون بدفع الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، وتمكنت الدولة العثمانية من الانتصار على الصرب وحلفائهم ، فتدخلت الدول الأوروبية وطلبت وقف القتال وإلا فالحرب سوف يتسع نطاقها (١٣).

لقد كان السلطان عبد الحميد الثانى على يقين من أن هدف الدول الغربية هو السعى لسقوط الدولة العثمانية ، حيث قال فى مذكراته : «رأيت أثناء مؤتمر الدول الكبرى الذى عقد فى إسطنبول ما عزمت عليه هذه الدول، وهى ليست كما يقولون تأمين حقوق الرعايا المسيحيين بل تأمين الاستقلال الذاتى لهؤلاء الرعايا، ثم العمل على استقلالهم التام، وبذلك يتم تقسيم الدولة العثمانية . حسب مخططاتهم العدوانية .

فكانوا يعملوا على تقسيم الدولة العثمانية بطرق عديدة منها :

أولاً: إثارة الأهالى المسيحيين بامتيازات خاصة بهم، وبهذا تتصدى هذه الدول لحماية مطالبهم بهدف تعكير الجو السياسى فى الدولة العثمانية.

ثانيًا : المطالبة بالمشروطية ، لإحداث الفرقة بين المواطنين فى الدولة العثمانية.

كانت روسيا ترغب فى الوصول إلى المياه الدافئة بسبب عوامل دينية واقتصادية وجغرافية، وقد سجل (بطرس الأكبر) ١٦٢٧-١٧٢٥م فى وصيته للروس (فى الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة) منها على ضرورة إثارة مبدأ الصراع الحضارى ضد العثمانيين إلى أن تنتهى الدولة العثمانية من الوجود.

وقد اهتمت روسيا بهذه الوصية، وفى عصر السلطان عبد الحميد كثرت الثورات فى المناطق المحاذية لروسيا بدعم من روسيا والدول الأوروبية وخاصة فى مناطق البلقان واليونان وغيرهما من الأقاليم العثمانية ، وأدت هذه الثورات إلى قيام دول نصرانية مستقلة مثل رومانيا وبلغاريا والصرب واليونان فتصدت قوات الدولة العثمانية لهذه الثورات وحققت انتصارات رائعة فى البلقان ، فقام السلطان عبد الحميد بعمل تغيير كبير فى قيادات الجيوش العثمانية للتصدى للغزو الروسى، وقد حاول الروس الاستيلاء على مدينة (بلفنه) التى تقع

فى بلغاريا حاليًا وهى من أهم المعابر إلى البلقان ، ولكن القائد العثمانى الشجاع الغازى (عثمان باشا) تصدى لهم بكل شجاعة ، فردهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرة أخرى بقوات أكثر كثافة ، ومع ذلك نجح القائد العثمانى الفذ فى التصدى للروس مرة أخرى ، مما جعل السلطان العثمانى يصدر مرسومًا خاصًا فى الثناء على ذلك القائد [١٤].

وأمام هذا الصمود حاول الروس التغيير من سياستهم فى الاستيلاء على هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار لها، وحاولوا منع الإمدادات من الوصول إلى الجيوش العثمانية فيها، وعززوا قواتهم ، ومع هذا صمد العثمانيون بقيادة عثمان باشا صمود الأبطال ، وأعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم، فتمكنوا من اختراق الخط الأول للمحاصرين والخط الثانى واستولوا على المدافع فيه ، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث، فسرت إشاعة قوية بين جنده باستشهاده فأدى ذلك إلى استسلام الجنود العثمانيين للقوات الروسية، وكان ذلك فى عام ١٢٩٤هـ أواخر سنة ١٨٧٧م، وقد شجعت تلك الانتصارات الروسية الصرب فى البلقان على التحرك ضد العثمانيين، وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانية هناك، فأشغلتهم عن الروس، وتمكن الروس من الاستيلاء على صوفيا (عاصمة بلغاريا حاليًا) وتوجهوا جنوبًا ناحية العاصمة العثمانية، ووصلوا إلى مواقع لاتبعد سوى خمسين كيلو مترًا عن إسطنبول ، وأصبح الموقف داخل الدولة العثمانية سيئًا إلى أبعد الحدود .

وفى الوقت نفسه كانت تجرى العديد من المعارك بين العثمانيين والروس فى الجانب الآسيوى ، حيث وصل الروس إلى الأناضول ، ومع ذلك تمكن العثمانيون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضى الروسية، وانتصر العثمانيون بقيادة أحمد مختار باشا على الروس فى أكثر من ست معارك ، مما جعل السلطان عبد الحميد يصدر مرسومًا فى الثناء عليه ، وقد عاد الروس إلى الهجوم فى تلك المناطق مرة أخرى، وتمكنوا سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م من إنزال الهزائم بالقوات العثمانية والاستيلاء على بعض المناطق المهمة فى الأناضول نفسها [١٥].

وأمام تلك الهزائم العثمانية فى أوروبا وفى آسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول فى هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة سان ستيفانو عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م . وعقدت هذه المعاهدة فى ٣ مارس عام ١٨٧٨م، ووقعها «صفوت باشا»

عن الدولة العثمانية وهو يبكى، وكان لابد بالضرورة أن تحتوى هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية [١٦].

معاهدة سان ستفانو (١٢٩٥هـ / ١٥ فبراير ١٨٧٨م)

عند التوقيع على هذه المعاهدة تقدم المندوب الروسى شروطًا مسبقة ، وطلب التوقيع عليها مباشرة ، وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل إسطنبول ، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع على المعاهدة.

كما استاءت بريطانيا لازدياد النفوذ الروسى فى البلقان، واستعدت لمحاربة روسيا وحصلت من الدولة العثمانية على حق احتلال جزيرة قبرص (يونيو ١٨٧٨م) وإدارتها على أن تبقى تابعة للدولة العثمانية ، ولم يكن السلطان عبد الحميد الثانى راضيًا فى الأصل بدخول هذه الحرب ، لذلك لم يصدق على المعاهدة وقام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة ، حتى أقنع بريطانيا بالوقوف إلى جانبه ، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستيفانو من ناحية ، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا ، لكى تصرف روسيا النظر عن الحرب من ناحية أخرى، واستطاع بذلك تحقيق مكاسب سياسية للدولة العثمانية.

ودلت هذه الأحداث على رغبة السلطان عبد الحميد الثانى ضرب الخصم بالخصم، والتى تمثلت فى إحداث النفور بين دولة روسيا ودولة ألمانيا أيضًا [١٧].

مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م) :

حضر ذلك المؤتمر الدول الكبرى (إنكلترا ، فرنسا ، ألمانيا، والنمسا)، وجرى البحث فى هذا المؤتمر لتعديل معاهدة سان ستفانو التى عقدت بين روسيا والدولة العثمانية، وذلك لمعارضة الدول المعنية لهذه المعاهدة لأنها لاتتفق مع مصالحها الاستراتيجية ... واتفق المؤتمرون على تعديل معاهدة سان ستيفانو وعقدت معاهدة برلين والتى تناولت الشروط التالية:

١- استقلال بلغاريا وتعديل فى حدودها.

٢- ضم البوسنة والهرسك للنمسا .

٣- ضم بسارابيا إلى روسيا بعد اقتلاعها من رومانيا.

٤- استقلال الصرب والجبل الأسود.

٥- ضم مدن قارص وردهان وباطوم لروسيا .

٦- قرر المؤتمر الإبقاء على الغرامة الحربية التى قررتها معاهدة سان ستفانو على الدولة العثمانية ومقدارها ٢,٥ مليار ليرة ذهبية.

٧- الموافقة على تحسين أوضاع النصارى فى جزيرة كريت [١٨].

وهكذا فإن مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الإمبراطورية العثمانية التى أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها.

وهكذا كانت النتيجة من الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا، ولمواجهة هذه الأوضاع المتردية كان على السلطان أن يتخذ لقب الخلافة لمواجهة التحديات الجديدة، وعمل على إنشاء الجامعة الإسلامية لكى يعمل على تكتل كافة المسلمين من حوله فى الداخل والخارج .



المبحث الثانى

الجامعة الإسلامية والعمل على توحيد الدولة

لم تظهر فكرة الجامعة الإسلامية، فى معترك الدولية إلا فى عهد السلطان عبد الحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السلطان عبد الحميد عرش الدولة العثمانية عام ١٨٧٦م.

ويعرب عبد الحميد الثانى عن ثقته فى وحدة العالم الإسلامى بقوله : (يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين فى كل مكان ، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر ، فلا أمل فى المستقبل، إلا بهذه الوحدة ، ووقتها لم يحن بعد لكنه سيأتى اليوم الذى يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد وفيه يحطمون أعداءًا منها :

١- مواجهة أعداء الإسلام من المثقفين بالثقافة الغربية.

٢- محاولة إيقاف الدولة الاستعمارية الأوربية وروسيا عند حدها .

٣- إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية.

٤- تأخذ الوحدة الإسلامية الجديدة دورها فى التأثير على السياسة العالمية(١٩).

٥- تستعيد الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة قوتها.

يقول : (إن العمل على تقوية الكيان السياسى والاجتماعى الإسلامى، أفضل من إلقائه أرضًا ، وتكوين كيان غريب فكريًا واجتماعيًا على نفس الأرض) (٢٠).

السلطان عبد الحميد الثانى أبد الدعوة إلى تحقيق الجامعة الإسلامية التى روج لها كل من السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وقدم مشروعات أكبر بكثير من طموح السلطان، ولم يكن السلطان يأمل فى أكثر من وحدة هدف بين الشعوب الإسلامية، لكن الأفغانى عرض على السلطان مشروعًا يرمى إلى توحيد أهل السنة مع الشيعة، واستفاد السلطان عبد الحميد كثيراً من الأفغانى فى الدعاية إلى الجامعة الإسلامية، رغم الاختلاف بين فكر السلطان وفكر الأفغانى ، ومن أسباب الاختلاف :

١- إيمان الأفغانى بقضية وحدة المسلمين .

٢- دعوة الأفغانى لوحدة الشعوب الإسلامية.

٣- تنديد جمال الدين بالاستعمار الإنكليزى.

٤- الخلاف العقائدى الذى ظهر بين العلماء فى إسطنبول وبين جمال الدين الأفغانى وظهور كتاب الشيخ (خليل فوزى الفيليباوى) المعنون (السيوف القواطع) للرد على عقيدة الأفغاني وسكوت الأفغانى عن هذا، وعدم دفاعه عن نفسه.

أما رأى جمال الدين الأفغانى فى السلطان عبد الحميد فإنه يقول : (إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصًا فى تسخير جليسه ، ولا عجب إذا رأيناه يذلل لك ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضيًا عنه وعن سيرته وسيره، ومقتنعًا بحجته سواء من ذلك الملك والأمير والوزير والسفير....)[٢١].

وقال : (ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامى الدول الغربية، وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك، مخرجًا وسلمًا، وأعظم ما أدهشنى ، ما أعده من خفى الوسائل وأمضى العوامل، كى لا تتفق أوروبا على عمل خطير فى الممالك العثمانية، ويريها عيانًا محسوسًا أن تجزئة السلطنة العثمانية لايمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوربية بأسرها)[٢٢].

ويقول : (أما ما رأيته من يقظة السلطان ورشده وحذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة الذى فيه نهضة المسلمين عمومًا ، فقد دفعنى إلى مد يدى له فبايعته بالخلافة والملك، عالمًا علم اليقين أن الممالك الإسلامية فى الشرق لاتسلم من شراك أوروبا، ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرائها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومى وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم....) [٢٣].

لقداستهدف السلطان عبد الحميد الطرق الصوفية فى كسب ولائها للدولة العثمانية ، والدعوة إلى فكرة الجامعة الإسلامية، واستطاع أن يكون رابطة بين مقر الخلافة- إسطنبول- وبين تكايا ومراكز تجمع الطرق الصوفية فى كل أنحاء العالم الإسلامى، واتخذ من حركة التصوف فى العالم الإسلامى وسيلة للدعاية للجامعة الإسلامية، وتكونت فى عاصمة الخلافة لجنة مركزية ، مكونة من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية حيث عملوا مستشارين للسلطان فى شؤون الجامعة الإسلامية : الشيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشريفة فى الحجاز، والشيخ (أبو الهدى الصيادى) شيخ الطريقة الرفاعية ، والشيخ (محمد ظاهر الطرابلسى) شيخ الطريقة المدنية، والشيخ رحمة الله عليه أحد علماء الحرم المكى، كانوا أبرز أعضاء هذه اللجنة للجامعة الإسلامية، وكان معهم غيرهم، وكانت الدولة العثمانية تنتشر فيها هيئات فرعية فى

فى كافة الأقاليم خاضعة لهذه اللجنة، ومن أهمها التى كانت فى مكة تحت إشراف شريف مكة ومهمتها نشر مفهوم الجامعة الإسلامية فى موسم الحج بين الحجاج، وأخرى فى بغداد ، وتقوم بالمهمة نفسها بين اتباع الطريقة القادرية، الذين يأتون بكثرة من الشمال الإفريقى لزيارة الشيخ عبد القادر الكيلانى مؤسس الطريقة ، وقد قدرت أعداد هؤلاء فى إحدى السنوات بحوالى (٢٥,٠٠٠) نسمة، وكانت لجنة بغداد تقوم بتهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الإسلامية، ولمقاومة الاستعمار الفرنسى فى شمال إفريقيا، ووصفت المخابرات الفرنسية ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشمال الإفريقى من بغداد ، من أعمال ضد الفرنسيين وضد الاستعمار الفرنسى بأنها : (استفزازات بعض رجال الدين التابعين للطريقة القادرية) [٢٤].

ولم تستطع المخابرات الفرنسية أن تكشف وسائل التنظيم للطرق الصوفية التابعة للخلافة الإسلامية فى شمال إفريقيا وكل ما استطاعت عمله، هو محاولتها إضعاف هيبة السلطان عبد الحميد فى نفوس مسلمى شمال إفريقيا، ومحاولة هذه السلطات ضرب سياسة الجامعة الإسلامية ، وذلك باتباع سياسة فرنسية تقوم على:

١- اغراء بعض شيوخ الطرق الصوفية بالمال والمركز، للوقوف مع فرنسا وسياستها فى شمال إفريقيا .

٢- منع الحجيج من الحج ، واتخاذ أسباب صحية لتخويف الناس منه، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا [٢٥].

وأرسل السلطان عبد الحميد مجموعة من الزهاد والمتصوفة إلى الهند، لتعمل على القضاء على المحاولات الإنكليزية الداعية إلى سلب الخلافة من العثمانيين، لإعطائها إلى العرب، واتصلت هذه القافلة أيضاً ببعض حكام الجزيرة العربية لاسيما الحجاز [٢٦].

لقد نجح السلطان عبد الحميد الثانى فى جمع الطرق الصوفية إلا أنه فضل السكوت عن كثير من إنحرافاتها العقدية بحيث أن الطرق الصوفية فى تلك المرحلة انحرفت عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما رحم الله، ولذلك أضعفت الأمة وأسهمت فى سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية السنية، وسنبين ذلك بإذن الله تعالى فى أسباب السقوط.

كان السلطان عبد الحميد يرى- منذ أن تولى الحكم- ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة العثمانية، وفى هذا يقول : ((اللغة العربية لغة جميلة، ليتنا كنا اتخذناها لغة

رسمية للدولة من قبل، لقد اقترحت على (خير الدين باشا - التونسى- عندما كان صدراً أعظم أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر اعترض على اقتراحى هذا، وقال : (إذا عربنا الدولة فلن يبقى- للعنصر التركى- شئ بعد ذلك).

إن من الأخطاء التى وقعت فيها الدولة العثمانية عدم تعريب الدولة وشعبها بلغة القرآن الكريم والشرع الحكيم.

عندما تولى السلطان عبد الحميد السلطنة رأى أن المدارس، ونظام التعليم أصبح متأثرا بالفكر الغربى، وأن التيار القومى : هو التيار السائد فى هذه المدارس، فتدخل فى شؤونها ووجها - من خلال نظرته السياسية - إلى الدراسات الإسلامية، فأمر بالآتى:

- استبعاد مادة الأدب والتاريخ العام من البرامج الدراسية لكونها وسيلة من وسائل الأدب الغربى ، والتاريخ القومي للشعوب الأخرى مما يوثر على أجيال المسلمين سلبًا .

- وضع دروس الفقه والتفسير والأخلاق فى برامج الدراسة.

- الاقتصار فقط على تدريس التاريخ الإسلامى بما فيه العثمانى.

وجعل السلطان عبد الحميد مدارس الدولة تحت رقابته الشخصية ووجهها لخدمة الجامعة الإسلامية[٢٧].

واهتم بالمرأة وجعل للفتيات داراً للمعلمات ومنع اختلاطهن بالرجال، وفى هذا يذكر السلطان فى معرض الدفاع عن نفسه أمام اتهام جمعية الاتحاد والترقى له بأنه عدو العقل والعلم بأنه : (لو كنت عدواً للعقل والعلم فهل كنت أفتح الجامعة ؟ لو كنت هكذا عدواً للعلم، فهل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتى لايختلطن بالرجال، داراً للمعلمات؟!) [٢٨].

وقام بمحاربة سفور المرأة فى الدولة العثمانية ، وهاجم تسرب أخلاق الغرب إلى بعض النساء العثمانيات .

وكان السلطان عبد الحميد يرى : (إن المرأة لاتتساوى مع الرجل من حيث القوامة) ، ويقول: (ما دام القرآن يقول بهذا ، فالمسألة منتهية ولا داعى للتحدث عن مساواة المرأة بالرجل) .

ويرى: (أن فكرة هذه المساواة إنما جاءت من الغرب) [٢٩].

كما كان يدافع عن تعدد الزوجات ، فى وقت كان الإعلام العثمانى يثير هذه القضية معترضًا عليها، ويؤكد السلطان أن مبدأ تعدد الزواجات مباح فى الإسلام فماذا يعنى الاعتراض عليه ؟

لقد كان السلطان عبد الحميد مع تعليم المرأة، ولذلك أنشأ دارًا للمعلمات لتخريج معلمات للبنات كما كان ضد الاختلاط بين الرجل والمرأة وضد سفور المرأة، ولم يكن فى عهده للمرأة رأى فى شئون الدولة مهما كانت هذه الشئون وإنما دور المرأة فى البيت وتربية الأجيال ، وكان يعامل المرأة معاملة كريمة.

أنشأ السلطان عبد الحميد فى اسطنبول ، باعتبارها مقر الخلافة ومركز السلطنة (مدرسة العشائر العربية) من أجل تعليم وإعداد أولاد العشائر العربية، من ولايات حلب، وسورية ، وبغداد ، والبصرة ، والموصل، وديار بكر، وطرابلس الغرب، واليمن، والحجاز، وبنغازى، والقدس، ودير الزور.

وكانت مدة الدراسة فى مدرسة العشائر العربية فى إسطنبول خمس سنوات ، وهى داخلية تتكفل الدولة العثمانية بكل مصاريف الطلاب ، ولكل طالب «إجازة صلة الرحم» وهى إجازة مرة كل سنتين، وسفر الطالب فيها على نفقة الدولة.

وبرنامج الدراسة فى هذه المدرسة خمس سنوات فى تعليم القرآن الكريم والتجويد والأبجدية والعلوم الدينية والقراءة التركية والإملاء والتدريب العسكرى والحساب واللغة الفارسية والنحو التركى والجغرافيا والتاريخ العثمانى والقواعد العثمانية والمعلومات المتنوعة ... الخ.

كما أنشأ السلطان عبد الحميد (معهد تدريب الوعاظ والمرشدين) أقيم لإعداد الدعاة للدعوة الإسلامية، وللجامعة الإسلامية ثم يتخرجون فينطلقون إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامى يدعون للإسلام ، ويدعون للخلافة، ويدعون للجامعة الإسلامية (٣٠).

تأسست فى بكين - عاصمة الصين- جامعة أطلق عليها المسلمون الصينيون اسم (دار العلوم الحميدية) نسبة إلى السلطان الخليفة عبد الحميد الثانى، وقد حضر افتتاح هذه الجامعة الآلاف من المسلمين الصينيين ، وحضره أيضًا مفتى المسلمين فى بكين، والكثير من علماء المسلمين هناك . وفى مراسم الافتتاح ، ألقيت الخطبة باللغة العربية، وإن إيراد الخطبة باللغة العربية لغة المسلمين الدينية، ورفع علم الدولة العثمانية على باب هذه الجامعة.

لقد اهتم السلطان عبد الحميد بمشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق إلى المدينة المنورة واعتبره وسيلة من الوسائل التى أدت إلى إعلاء شأن الخلافة ونشر فكرة الجامعة الإسلامية. وأبدى السلطان عبد الحميد اهتمامًا بالغًا بإنشاء الخطوط الحديدية فى مختلف أنحاء الدولة العثمانية مستهدفًا من ورائها تحقيق ثلاثة أغراض هى:

١- ربط أجزاء الدولة المتباعدة مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية والسيطرة الكاملة على الولايات التى تتطلب تقوية قبضة الدولة عليها .

٢- إجبار تلك الولايات على الاندماج فى الدولة والخضوع للقوانين العسكرية التى تنص على وجوب الاشتراك فى الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال.

٣- تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة فى أية جبهة من الجبهات التى تتعرض للعدوان، لأن مد الخطوط الحديدية ساعد على سرعة توزيع القوات العثمانية وايصالها إلى الجبهات [٣٠].

وكانت سكك حديد الحجاز من أهم الخطوط الحديدية التى أنشئت فى عهد السلطان عبد الحميد. ففى سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م بدأ بتشييد خط حديدى من دمشق إلى المدينة، ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الخط مجرد خدمة حجاج بيت الله الحرام وتسهيل وصولهم إلى مكة والمدينة ، وإنما كان السلطان عبد الحميد يرمى من ورائه أيضًا إلى أهداف سياسية وعسكرية.

وكان أول قطار قد وصل إلى محطة سكة الحديد فى المدينة المنورة من دمشق الشام يوم الموافق ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٠٨م، وكان بمثابة تحقيق حلم من الأحلام بالنسبة لمئات الملايين من المسلمين فى أنحاء العالم كافة، فقد اختصر القطار فى رحلته التى استغرقت ثلاثة أيام وقطع فيها ٨١٤ ميلاً مشقات رحلة كانت تستغرق فى السابق أكثر من خمسة أسابيع، كما خفقت فى ذلك اليوم التاريخى قلوب أولئك الذين كانوا مشتاقين إلى القيام بأداء فريضة الحج المقدسة[٣٢].

كانت سياسة عبد الحميد إسلامية محضة ، فأراد أن يجمع قلوب المسلمين حوله باعتباره خليفة المسلمين جميعًا فكان مد خط السكة الحديدى بين الشام والحجاز من الوسائل الجميلة فى تحقيق هدفه المنشود [٣٣].

شرعت بريطانيا منذ الربع الأول من القرن العشرين الميلادى فى تحريض الأكراد ضد الدولة العثمانية، بهدف إيجاد عداء عثمانى كردى من ناحية، وانفصال الأكراد بدولة تقتطع من الدولة العثمانية من ناحية أخرى.

وضع السلطان عبد الحميد خطة مضادة للعمل التدميرى الإنكليزى فقام بالتالى:

- قامت الدولة العثمانية بحماية المواطنين الأكراد من هجمات الأرمن الدموية ضدهم.

- أرسل إلى عشائر الأكراد وفوداً من المسلمين للنصح والإرشاد والدعوة إلى الاجتماع تحت دعوة الجامعة الإسلامية، وأدت هذه الوفود دورها فى إيقاظ الأكراد تجاه الأطماع الغربية.

- اتخذ السلطان عبد الحميد إجراءات يضمن بها ارتباط أمراء الأكراد به وبالدولة.

- أسس الوحدات العسكرية الحميدية فى شرق الأناضول من الأكراد، للوقوف أمام الاعتداءات الأرمنية.

- كان موقف الدولة قويًا ضد أطماع الأرمن فى إقامة دولة تقطع من أراضيها، وبذلك شعر الأكراد المقيمون فى نفس المنطقة بالأمان [٣٤].

- عملت الدولة على كشف مخططات الإنكليز الهادفة إلى تفتيت الدولة العثمانية تحت مسمى حرية القوميات فى تأسيس كل قومية دولة مختصة بها .

استطاع السلطان عبد الحميد أن يضيق على النفوذ البريطانى فى اليمن ويحقق نجاحًا ظاهراً فى صراعه مع الإنكليز فى تلك المنطقة، فقد أنشأ فرقة عسكرية فى اليمن قوامها ثمانية آلاف جندى، لإعادة اليمن إلى الدولة العثمانية مرة أخرى، وقد حاول الإنكليز إذكاء نيران التمرد فى اليمن، ضد الدولة العثمانية ولكن السياسة الحكيمة التى سار عليها السلطان عبد الحميد كفلت له النجاح فى اليمن [٣٥].

كانت إيطاليا تحلم بضم شمال إفريقيا ، لأنها تراه ميراثًا إيطاليا، هكذا صرح رئيس وزرائها (ماتزينى) [٣٦]، لكن فرنسا احتلت تونس وإنكلترا احتلت مصر ، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا .

رسمت ايطاليا سياستها فى ليبيا على ثلاث مراحل :

الأولى : الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من «مؤسسات خدمية» .

الثانية: العلم على أن تعترف الدول بأطماع ايطاليا فى احتلال ليبيا ، بالطرق الدبلوماسية.

الثالثة : إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلى .

وكان السلطان عبد الحميد متيقظًا لتلك الأطماع الإيطالية، وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط الإيطاليين فى «ليبيا» وأهدافهم ، فجاءته المعلومات تقول : (إن للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التى يقيمونها فى الولايات العثمانية، سواء فى ليبيا فى ألبانيا ، هدفًا أخيرًا هو تحقيق أطماع إيطاليا فى الاستيلاء على كل من:

١- طرابلس الغرب.

٢- ألبانيا .

٣- مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير - الإسكندرونة- أنطاكيا) .

لما شعر السلطان عبد الحميد الثانى أنه سيواجه اعتداءً إيطاليًا مسلحًا على ليبيا ، قام بإمداد القوات العثمانية فى ليبيا بـ (١٥٠٠٠) جندى لتقويتها وظل يقظًا حساسًا تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصيًا وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية فى روما، ووالى طرابلس مما جعل الإيطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، وتم لهم ذلك فى عهد جمعية الاتحاد والترقى[٣٧].

المبحث الثالث

السلطان عبد الحميد واليهود

إن حقيقة الصراع بين السلطان عبد الحميد الثانى واليهود من أهم الأحداث فى تاريخ السلطان المسلم الغيور عبد الحميد الثانى.

إن أمر اليهود وعداءهم للإسلام يعود جذوره إلى ظهور الإسلام منذ أن انتصر الإسلام وأجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المدنية المنورة لخيانتهم المتكررة وعداوتهم الدائمة ومن ثم عن سائر الجزيرة العربية فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهم يكيدون له، وقد تظاهر بعضهم بالإسلام وبث السموم فى جسم الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل، وما عبدالله بن سبأ والقرامطة والحشاشون والراوندية والدعوات الهدامة التى ظهرت فى تاريخ المسلمين عنهم ببعيد.

إن اليهود تمتعوا بكافة الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة [٣٨]، ووجدوا السلم والأمان وحرية الوجود الكامل فى الدولة العثمانية [٣٩].

وبالنسبة ليهود الدونمة هناك مفاهيم عديدة لكلمة الدونمة، إذ أن الكلمة من الناحية اللغوية مشتقة من الكلمة التركية (دونمك) التى تعنى الرجوع أو العودة أو الارتداد. أما المفهوم الاجتماعى لهذه الكلمة فإنه يعنى المرتد أو المتذبذب، بينما تعنى هذه الكلمة من الناحية الدينية مذهبًا دينيًا جديداً، دعا إليه الحاخام ساباتى زيفى. أما المفهوم السياسى لهذه الكلمة فإنه يعنى اليهود المسلمين الذين لهم كيانهم الخاص [٤٠]. وقد أطلق المعنى الخاص بالدونمة منذ القرن السابع عشر على اليهود الذى يعيشون فى المدن الإسلامية وخاصة فى ولاية سلانيك، وأطلق العثمانيون اسم الدونمة على اليهود لغرض بيان وتوضيح العودة من اليهودية إلى الإسلام، ثم أصبح علمًا على فئة من يهود الأندلس الذين لجؤوا إلى الدولة العثمانية وتظاهروا باعتناق العقيدة الإسلامية[٤١].

إن مؤسس فرقة الدونمة هو شبتاى زيفى الذى ادعى بأنه المسيح المنتظر فى القرن السابع عشر، حيث انتشرت فى تلك الأيام شائعة تقول : إن المسيح سيظهر فى عام ١٦٤٨م، كى يقود اليهود فى صورة المسيح، وإنه سوف يحكم العالم فى فلسطين، ويجعل القدس عاصمة الدولة اليهودية المزعومة[٤٢].

قام يهود الدونمة بدور فعال فى نصرة القوى المعادية للسلطان عبد الحميد والتى تحركت من سلانيك لعزله ، وهم الذين سمموا أفكار الضباط الشباب ، وفى الصحف ودور النشر وتغلغلوا فى الاقتصاد العثمانى وكل مناحى الحياة فى الدولة العثمانية [٤٣].

وفى حقيقة الأمر اهتم عبد الحميد بإبقاء الدونمة فى ولاية سالونيك وعدم وصولهم إلى الآستانة ، بغية عدم السيطرة عليها والتجنب من تحركاتهم ، ونتيجة للموقف الجاد من عبد الحميد إزاء فرقة الدونمة اتبعوا استراتيجية مضادة له ، حيث تحركوا ضده على مستوى الرأى العام العثمانى والجيش[٤٤].

ونتيجة لموقف عبد الحميد من الدونمة [٤٤]، قام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافل الماسونية للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعارات معينة كالحركة الديمقراطية وإزاحة المستبد عبد الحميد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد فى الدولة العثمانية بين صفوف الجيش، وكانت الغاية من هذا هى تحقيق المشروع الاستيطانى الصهيونى باستيطان فلسطين، وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية [٤٥].

استطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية (تيودر هرتزل) أن يتحصل على تأييد أوروبى للمسألة اليهودية، من بعض الدولة الأوروبية وهى: (ألمانيا ، وبريطانيا، وفرنسا) وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبد الحميد وطلب فلسطين منه، وكانت الدولة العثمانية تعانى من مشاكل مالية متعددة ، إذ كانت الأحوال الاقتصادية فى البلاد على درجة من السوء بحيث فرضت الدول الأوروبية الدائنة وجود بعثة مالية أوروبية فى تركيا العثمانية للإشراف على أوضاعها الاقتصادية ضمانًا لسداد ديونها، الأمر الذى دفع السلطان عبد الحميد الثانى أن يجد حلاً لهذه المعضلة.

كانت هذه الثغرة هى السبيل الوحيد أمام هرتزل ، كى يؤثر على سياسة السلطان عبد الحميد الثانى تجاه اليهود، وفى هذا الصدد يقول هرتزل فى مذكراته: (علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية فى تركية، مليونان منها ثمنًا لفلسطين والباقى لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من البعثة الأوروبية ، ومن ثم تقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأى قروض جديدة يطلبها [٤٦].

كان السلطان عبد الحميد من خلال مقابلته مع هرتزل مستمعًا أكثر منه متكلمًا وكان يرخى

لهرتزل فى الكلام كى يدفعه أن يتحدث بكل ما يخطر فى مخيلته من أفكار ومشروعات ومطالب، وقد أدى هذا الأمر إلى أن يعتقد هرتزل بأنه نجح فى مهمته هذه، ولكنه أدرك فى نهاية الأمر بأنه قد أخفق فى اقناع السلطان وأن محادثاته أخذت تسير فى طريق مسدود معه(٤٧).

ونتيجة لذلك ، تحدث هرتزل قائلاً : (فى حالة منح السلطان فلسطين لليهود، سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع المالية ، أما فى القارة الأوروبية فإننا سنقوم بإيجار حصن منيع ضد آسيا، وسوف نبنى حضارة ضد التخلف ، كما سنبقى فى جميع أنحاء أوروبا بغية ضمان وجودنا) (٤٨).

وفى الحقيقة كان السلطان عبد الحميد الثانى يرى أنه من الضرورى عدم توطين اليهود فى فلسطين ، كى يحتفظ العنصر العربى بتفوقه الطبيعى، وفى هذا الصدد يقول : (... ولكن لدينا عدد كاف من اليهود، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربى متفوقًا ، علينا أن نصرف النظرة عن كفرة توطين المهاجرين فى فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضًا تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا فى الدين بالموت المحتم)(٤٩).

وعن القدس يقول السلطان عبد الحميد فى استماعه إلى (تيودور هرتزل) معرفة الآتى:

١- حقيقة الخطط اليهودية .

٢- معرفة قوة اليهود العالمية ومدى قوتها .

٣- إنقاذ الدولة العثمانى من مخاطر اليهود (٥١).

ولقد اتخذ السلطان عبد الحميد الثانى كل التدابير اللازمة فى سبيل عدم بيع الأراضى إلى اليهود فى فلسطين ، وعدم إعطاء أى امتياز لليهود، ويعزز هذا القول هرتز عندما قال: (إنى أفقد الأمل فى تحقيق أمانى اليهود فى فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، ما دام السلطان عبد الحميد قائما فى الحكم ، مستمراً فيه) (٥٢).

وتحركت الصهيونية العالمية ، لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد الثانى، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون فى البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقى، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية(٥٣) ونجحت مخططاتهم فى عزل السلطان عبد الحميد الثانى عن الحكم.

المبحث الرابع
السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقى

كان الشباب العثمانى المثقف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد تأثر بأفكار الثورة الفرنسية، التى حققت حكمًا ديموقراطيًا فى فرنسا وأتت بأفكار القومية والعلمانية والتحرر من حكم الفرد ، وكذلك تأثر بالحركة القومية الايطالية التى قادها (ماتزينى) بنظمها وخلاياها، وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لحملات عسكرية وإعلامية ، غرضها إضعاف الدولة ومن ثم العمل على تفتيتها ، وكانت الدول الأوربية تتخذ من أوضاع النصارى فى الدولة حجة للتدخل، وفى هذه الظروف وبالضبط فى عام ١٨٦٥م، كان ستة من الشباب العثمانيين المثقفين يسيرون فى حديقة فى ضواحى إسطنبول تسمى (غابة بلغراد)، تحدث هؤلاء الشباب فى موضوعات سياسية، وخرجوا بفكرة تكوين جمعية سرية، على نمط جمعية (إيطاليا الفتاة) التى أسها الزعيم الإيطالى (ماتزينى) عام ١٨٣١م، بهدف الوحدة الإيطالية تحت راية الجمهورية ، أطلق هؤلاء الشباب على جمعيتهم هذه اسم (اتفاق الحمية) ، ومن ضمن هؤلاء الشباب الشاعر الذى أصبح فيما بعد واسع الشهرة : نامق كمال . ورأوا أن العمل لابد أن يكون فى تعريف الشعب بحقوقه السياسية، وحصوله عليها، وبالتالى فإن رغبة الشعوب النصرانية فى الاستقلال بمناطقها عن الدولة، أعلن لها ما يبررها من تدخل أجنبى بحجة مساندة الأقليات الدينية، وكانوا يرون أن إنقاذ الدولة فى حالة التردى التى وصلت إليها يكون بإيجاد نظام سياسى ديموقراطى ، وكان فى فرنسا فى تلك الفترة مصطفى باشا الأمير المصرى الذى نازع فؤاد باشا الرغبة فى تولى عرش مصر ، وفى فرنسا أعلن الأمير أنه ضمن التيار المنادى بالدستور فى الدولة العثمانية ، وقدم نفسه بعبارة ممثل حزب تركيا الفتاة وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوروبية المعنية فشاع اسم «حزب تركيا الفتاة» فى أوروبا.

ويذكر مؤسس جمعية الاتحاد- وهو إبراهيم تيمو- أنه كان يمضى أوقاته فى الخارج- حتى عام ١٨٩٥م- بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظمتهم ، لتربيتهم تربية ثورية ويعقد الاجتماعات السرية، وقراءة الأعمال الأدبية التى ألفها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد، مثل نامق كمال وضياء باشا، وقراءة منشورات على شفقتى بك- عضو كلاتتى الماسونية- وكان فاراً فى أوروبا[٥٤].

كان اسم الجمعية فى الأوساط العسكرية هو (الاتحاد العثمانى) ، وكان أحمد رضا بك - ممثل الجناح المدنى- متأثراً بزفكار الفيلسوف (أوغسطت كانت) وكان دستور هذا الفيلسوف هو : (النتظام والترقى) ، فأخذ أحمد رضا كلمة (الترقى) استلهامًا من دستور «كانت» ، واحتفظ العسكريون باسم (الاتحاد) واتفق الجميع أن تكون جمعيتهم باسم (الاتحاد والترقى)[٥٥].

لقد قامت جمعية الاتحاد والترقى على إثارة المشاعر القومية عند الأتراك ، تحت حلم الطورانية، (والطورانية تسمية تشير إلى وطن الأتراك الأصلى، ونسبته إلى جبل توران الواقع فى المنطقة الشمالية الشرقية فى إيران)[٥٦]، وقد نادت بمفاهيم جديدة مثل الوطن والدستور والحرية ، وكانت هذه المفاهيم غريبة على العثمانيين، وقد ضمت فى صفوفها مجموعة من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة إلى يهود الدونمة، وكانت الغاية منها الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثانى [٥٧].



المبحث الخامس

الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثانى

كان السلطان عبد الحميد الثانى شديد الحذر من جمعية الاتحاد والترقى المدعومة من اليهود والمحافل الماسونية والدول الغربية ، واستطاع جهاز مخابرات السلطان عبد الحميد أن يتعرف على الحركة ويجمع المعلومات عنها؛ إلا أن هذه الحركة كانت قوية ، وقد جاءت مراقبة عبد الحميد لأعضاء هذه الحركة فى وقت متأخر ، حيث دفعوا الأهالى إلى مظاهرات صاخبة فى سلانيك ومناستر وأسكلوب وسوسن مطالبين بإعادة الدستور، بالإضافة إلى أن المتظاهرين هددوا بالزحف إلى اسطنبول ، الأمر الذى أدى بالسلطان إلى الرضوخ لمطالب المتظاهرين حيث قام بإعلان الدستور وإحياء البرلمان ، وذلك فى ٢٤ تموز ١٩٠٨م، وكانت هناك عدة أسباب جعلت من جمعية الاتحاد والترقى أن تبقى السلطان عبد الحميد الثانى فى تلك الفترة على العرش منها :

١- لم تكن فى حوزة الاتحاد والترقى القوة الكافية بعزله فى عام ١٩٠٨م.

٢- اتباع السلطان عبد الحميد الثانى سياسة المرونة معهم، وذلك بتنفيذ رغباتهم بإعادة الدستور .

٣- ولاء العثمانيين لشخص السلطان عبد الحميد ، وهذه النقطة واضحة ، حيث أن لجنة الاتحاد والترقى لم تكن لها الجرأة الكافية على نشر دعايتها ضد السلطان عبد الحميد الثانى بين الجنود، لأن هؤلاء يبجلون السلطان [٥٨].

إن الصهيونية العالمية لم تقتصر على الانقلاب الدستورى لعام ١٩٠٨م، بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقى لتحقيق مكاسب أخرى فى فلسطين، وعليها كان لابد من التخلص من السلطان عبد الحميد الثانى نهائيًا، ولذلك دبرت أحداث ٣١ أبريل ١٩٠٩م فى إسطنبول وترتب على إثرها ، إضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقى ، عرف الحادث فى التاريخ باسم حادث ٣١ مارت .

وقد حدث هذا الاضطراب الكبير فى العاصمة بتخطيط أوروبى يهودى، مع رجال الاتحاد والترقى، وتحرك على إثره عسكر الاتحاد والترقى من سلانيك ودخلوا إسطنبول ، وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثانى من كل سلطاته المدنية والدينية، ثم وجهت إليه جمعية الاتحاد والترقى التهم التالية :

١- تدبير حادث ٣١ مارت (مارس).

٢- إحراق المصاحف (وهذا غير صحيح) .

٣- الإسراف.

٤- الظلم وسفك الدماء [٥٩].

وكلها تهم باطلة لا أساس لها من الصحة.

لقد كان الفكر الحاكم فى اتجاهات جمعية (الاتحاد والترقى) هو : الماسونية وهى لاتعترف بالأديان ، بل بالفلسفة الوضعية (العقلانية وهى تنفى الدين) والعلمانية (وهى تبعد الدين عن الحياة) ، ومع ذلك استخدم الثوار الاتحاديون الدين لمحاربة السلطان عبد الحميد الثانى وافتروا عليه باسم الدين[٦٠].

إن التهم التى وجهت للسلطان عبد الحميد الثانى لاتثبت أمام البحث العلمى والحجج، والبراهين الدالة على براءته الكلية مما ينسب إليه، فقد أثبتت الأدلة على عدم علم السلطان عبد الحميد بحادث ٣١ مارت (مارس) ، كما أنه (من المحال إحراق السلطان عبد الحميد للمصاحف ، فهو سلطان معروف بتقواه ولم يعرف عنه تركه للصلاة وإهماله للتعبد، كما أنه معروف بعدم إسرافه ، ولأنه لايعرف الإسراف فقد كان المال يتوفر معه دائمًا، ولذلك فقد أزاح من على كاهل الدولة أعباء كثيرة من ماله الخاص). وعن ظلمه وسفكه للدماء فلم يعرف عن السلطان عبد الحميد هذا ، سفك الدماء لأن ذلك لم يكن أبداً ضمن سياسته [٦١].

وبتكليف من جمعية الاتحاد والترقى تم تكوين لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين وسلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثانى بقرار خلعه ، وكانت هذه اللجنة تتألف من :

١- إيمانويل قراصو : وهو يهودى أسبانى، كان من أوائل المشتركين فى حركة تركيا الفتاة، وكان مسئولاً أمام جمعية الاتحاد والترقى عن إثارة الشغب وتحريض المتظاهرين ضد السلطان عبد الحميد الثانى وتأمين التخابر بين سلانيك واسطنبول فيما يتعلق بالاتصالات الحركية.

٢- آرام: وهو أرمنى عضو فى مجلس الأعيان العثمانى.

٣- أسعد طوبطانى: وهو ألبانى، نائب فى مجلس المبعوثات عن منطقة دراج.

٤- عارف حكمت : وهو فريق بحرى وعضو مجلس الأعيان، وهو كرجى العراق [٦٢].

يرى السلطان عبد الحميد فى مذكراته تفاصيل هذه الحالة فيقول : (إن ما يحزننى ليس الإبعاد عن السلطة ، ولكنها المعاملة غير المحترمة التى ألقاها بعد كلمات أسعد باشا والتى خرجت عن كل حدود الأدب، حيث قلت لهم : إننى أنحنى للشريعة ولقرار مجلس المبعوثين ذلك تقدير العزيز العليم، سوى أنى أوكد بأنه لم يكن لى أدنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالأحداث التى تفجرت فى ٣١ مارت ثم أردف قائلاً: (إن المسؤولية التى تحملتموها ثقيلة جداً) . ثم أشار عبد الحميد إلى قرصو قائلاً : (ما هو عمل هذا اليهودى فى مقام الخلافة [٦٣]؟ وبأى قصد جئتم بهذا الرجل أمامى؟) [٦٤].

لكن هذا اليهودى الحاقد كانت له أهداف يرغب فى تحقيقها وقف السلطان عبد الحميد الثانى ضدها بكل ما يملك من قوة وهى :

(منع السلطان عبد الحميد تحقيق هدف إنشاء دولة يهودية فى فلسطين وكلف هذا المنع السلطان عبد الحميد غاليًا وأودى بعرشه، وأدى هذا فيما بعد إلى انهيار الدولة العثمانية كلها) ، رغم أنه كان يدرك - كما قال نظام الدين لبه دنلى أوغلو - فى دراسته عن دور اليهود فى هدم الدولة العثمانية أن : (اليهود يمتلكون قوى كثيرة تستطيع النجاح فى العمل المنظم، فالمال كان عندهم والعلاقات التجارية الدولية كانت فى أيديهم، كما كانوا يمتلكون الصحافة الأوربية والمحافل الماسونية) [٦٥].

وبعد إبعاد عبد الحميد الثانى من السلطة، عبرت الصحف اليهودية فى سلانيك عن غبطتها فى الخلاص من (مضطهد إسرائيل) كما وصفته هذه الصحف اليهودية وفى هذا الصدد يقول لوثر : (وبعد إبعاد عبد الحميد من السلطة، عبرت الصحف اليهودية فى سلانيك عن غبطتها، وأخذت تزف البشائر بالخلاص من (مضطهد إسرائيل) الذى رفض استجابة طلب هرتزل لمرتين، والذى وضع جواز السفر الأحمر الذى يقابل عندنا قانون الأجانب) [٦٦].

واستمرت الحملات الإعلامية المنظمة تشهر تشهيراً عنيفًا بالسلطان عبد الحميد الثانى استهدف أعداء الإسلام، من تلك الحملات إظهار الجوانب التالية :

١- الدفاع عن أعضاء الاتحاد والترقى.

٢- تغطية فشل الاتحاد والترقى فى حكم الدولة.

٣- إبراز صورة مشرقة لعهد مصطفى كمال أتاتورك وأعوانه، وتبرير تصرفات عملاء اليهود والإنكليز والدول الغربية فى إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية التركية.

٤- رغبة الصهاينة فى تدمير سيرة السلطان عبد الحميد الثانى انتقامًا منه لسياسته المعادية لأهدافهم فى فلسطين[٦٧].

وحقيقة الأمر أنه لولا أصالة الدولة العثمانية وعراقتها وشموخها لأصبحت هباءً منبثًا، وطويت صفحاتها منذ مطلع العقد الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى، ولكنها ظلت تقاوم عوادي الزمن أكثر من قرنين ، ونتيجة للزحف الاستعمارى، والكيد اليهودى، والنخر الماسونى، والضعف الشديد الذى انتاب الدولة ، وهو ضعف لم يكن السلطان عبد الحميد مسؤولاً عنه غدت ممتلكات الدولة نهبًا بين الدولة الأوربية الاستعمارية التى كانت تخطط منذ زمن بعيد للقضاء على الدولة[٦٨].



المبحث السادس

حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية

تولى السلطنة والخلافة بعد السلطان عبد الحميد الثانى أخوه محمد رشاد إلا أنه فى الحقيقة لايملك أى سلطة فعلية ، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحادو الترقى، وغدت الحكومة العثمانية تركية فى مضمونها ، قومية فى عصبيتها ، بينما كانت من قبل عثمانية فى مضمونها وإسلامية فى رابطتها، فقد تأثرت هذه الجمعية بقوة الأفكار القومية الطورانية التى تدعو إلى تحرير كافة الأتراك، مدعين أن الشعوب الإسلامية فى الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة ، وهى الأفكار التى تطورت أخيراً بمجهودات بعض كتاب الجمعية وعلى رأسها موئيز كوهين اليهودى ، والكاتب التركى الشهير ضيا كوك آل؛ فاتبعت سياسة التتريك، وذلك بجعل اللغة التركية هى اللغة الرسمية الوحيدة بعد أن كانت تقف اللغة العربية إلى جانبها ، فتأججت حركة الدعوة إلى القومية العربية، فى مواجهة حركة التتريك .

كون العرب حزب اللامركزية، كونوا جمعيات سرية مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبد الكريم خليل والضابط عزيز على المصرى، والجمعية العربية الفتاة، وتكونت الجمعية الاصطلاحية فى بيروت عام ١٣٣١هـ / ١٩١٢هـ وتعاونت مع جمعية النهضة اللبنانية فى المهجر فقدمتا رسالة مشتركة إلى حكومة فرنسا فى العام نفسه التمسنا فيها منها احتلال سوريا ولبنان ، بينما اتجه بعض مشقفى العراق نحو الإنكليز وأيد بعضهم إقامة إشراف بريطانى على برامج الإصلاح ، بل وحتى إلى بسط الحماية البريطانية على البلاد[٦٩].

ولما بطش الاتحاديون بأعضاء الجمعيات العربية، قامت العربية الفتاة بعقد مؤتمر عربى فى باريس سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م، وقد هيأ الفرنسيون المكان المناسب لعقد الاجتماع وقرر المؤتمرون :

١- ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة.

٢- إشراك العرب بالإدارة المركزية .

٣- جعل اللغة العربية لغة رسمية فى كافة الولايات العربية.

٤- جعل الخدمة العسكرية محلية بالنسبة للعرب إلى حين الضرورة.

٥- التعاطف مع مطالب الأرمن .

وأكد الأعضاء بأن حركتهم لا دينية وتعادل عدد النصارى مع عدد المسلمين فى المؤتمر، وكان برئاسة عبد الحميد الزهراوى (٧٠).

ولما قامت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ / ١٩١٤-١٩١٨م) دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) فى حين تمكن الإنكليز (بمراسلة الحسين مكماهون) من جر العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك(٧١).

وسقطت تركيا بعد هزيمتها فى الحرب واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها، ووقعت الآستانة تحت سيطرة الإنجليز وأصبح الخليفة كالأسير فيها.

إن خلع السلطان عبد الحميد وقيام جمعية الاتحاد والترقى فى الحكم كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذى تم أثناء الحرب وبعد الحرب فى مراحل نلخصها فيما يلى:

١- اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامى الخاضع للدولة العثمانية بين الحلفاء.

٢- وعد بلفور الذى أصدرته بريطانيا للصهيونية فى ٢ / ١١ / ١٩١٧ م الموافق (محرم ١٣٢٦هـ) بإعطاء اليهود وطنًا قوميًا فى فلسطين

٣- إخضاع تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية بنقلها من دولة ذات طابع إسلامى إلى دولة غربية الطابع، وتوجيهها وجهة قومية.

لقد تجلت سياسة مصطفى أتاتورك العلمانية فى برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهورى) لعام ١٣٤٩هـ وعام ١٣٥٥هـ والتى نص عليها الدستور التركى وهى المبادئ الستة التى رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب وهى: القومي، الجمهورية الشعبية ، العلمانية، الثورة ، سلطة الدولة (٧٢).

توفى أتاتورك عام ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م بعد أن حقق علمانية تركيا رغم أنف المسلمين .

المبحث السابع
أسباب سقوط الدولة العثمانية

إن أساس سقوط الدولة العثمانية كثيرة أهمها هو الابتعادعن تحكيم شرع الله تعالى الذى جلب للأفراد والأمة تعاسةوضنكًا فى الدنيا وإن الابتعاد عن شرع الله له أثره البالغ على الحياة فى النواحى الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . ويظهر تأثير ذلك فى أن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم .

قال تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (النورة : ٦٣) .

فإن أى أمة لاتعظم شرع الله أمراً ونهيًا تسقط كما سقط بنو إسرائيل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق طراً، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضًا ، ثم ليلعننكم كما لعنهم)[٧٣].

لقد تحققت فى الدولة العثمانية سنة الله فى تغيير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الأنفال :٥٣) .

إن الذنوب التى يهلك الله بها الدول، ويهذب بها الأمم قسمان :

١- معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

٢- كفر النعم بالبطر والأشر ، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف فى الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة فهذا كله من الكفر بنعمة الله، واستعمالها فى غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثانى من الذنوب هو الذى مارسه أواخر سلاطين الدولة العثمانية وأمراؤهم [٧٤].

إن الدولة العثمانية فى بداية أمرها كانت تسير على شرع الله فى كل صغيرة وكبيرة، ملتزمة بمنهج أهل السنة فى مسيرتها الدعوية والجهادية ، آخذة بشروط التمكين وأسبابه كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة الشريفة . أما فى أواخر عهدها فقد انحرفت عن شروط

التمكين ، وابتعدت عن أسبابه المادية والمعنوية . قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (النور: ٥٥، ٥٦) .

فكانت الدولة العثمانية فى بداية أمرها مستوعبة لتلك الشروط أما فى أواخر عهدها فقد أصاب تلك الشروط انحرافًا عن مفاهيمها الأصلية فمثلاً :

١- من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء .

٢- انحصار مفهوم العبادة .

٣- انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات .

٤- الصوفية المنحرفة .

٥- نشاط الفرق، كالدروز ، والنصيرية ، والإسماعيلية ، والقاديانية ، والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

٦- غياب القيادة الربانية .

٧- رفض فتح باب الاجتهاد .

٨- انتشار الظلم فى الدولة.

٩- الترف والانغماس فى الشهوات .

١٠- الاختلاف والفرقة .

نتائج البحث

١- تولى حكم الدولة العثمانية بعد مراد الخامس السلطان عبد الحميد الثانى فى عام ١٢٩٣هـ / وضغط عليه من قبل مدحت باشا فأعلن الدستور ، ومارس الوزراء استبدادهم واشتدت سياتهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد والتى كانت تضم النخبة المثقفة التى تأثرت بالغرب وعندما حانت الفرصة للسلطان عبد الحميد ألغى الدستور وشرد زعماء التغريب وعمل على إضعاف سلطاتهم ، وشرع فى إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية.

٢- عمل السلطان عبد الحميد الثانى على تشكيل جهاز استخباراتى قوى لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه من الخارج ، وأخمد ثورات فى البلقان وتمردات داخلية وكان جهاز الاستخبارات من الوسائل المهمة عند السلطان فى القضاء على التمردات الداخلية فى حينها .

٣- دخلت الدولة العثمانية فى حرب ضروس مع روسيا وانهزمت أمامها واضطرت لعقد معاهدة سان ستفانو معها ثم بعد ذلك كان مؤتمر برلين فى ألمانيا .

٤- ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية فى معترك السياسة فى زمن السلطان عبد الحميد الثانى الذى اهتم بهذه الفكرة من دعم أواصر الأخوة بين المسلمين فى كل مكان حتى تستطيع الأمة أن تقف ضد الأطماع الصليبية الاستعمارية .

٥- شرع السلطان عبد الحميد فى تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلامية بواسطة وسائل متعددة منها: الاتصال بالدعاة وتنظيم الطرق الصوفية ، والعمل على تعريب الدولة، وإقامة مدرسة العشائر ، وإقامة خط سكة حديد الحجاز، وابطال مخططات الأعداء .

٦- حاول السلطان عبد الحميد الثانى التضييق على جهود الدونمة عندما علم قوته ومؤامراتهم ضد الإسلام .

٧- كان السلطان عبد الحميد الثانى العائق القوى أمام «مخططات حكماء صهيون» فعملوا على ترغيبه بالمال فلم يستطيعوا ، وكان يتخذ التدابير اللازمة فى سبيل عدم بيع الأراضى إلى اليهود فى فلسطين ولم يعط اليهود أى امتياز من شأنه أن يؤدى إلى تغلب اليهود على أراضى فلسطين.

٨- تحركت الصهيونية العالمية لتدعيم أعداء السلطان عبدالحميد الثانى، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون البلقان ، وحركة حزب الاتحاد والترقى، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية .

٩- استطاعت جمعية الاتحاد والترقى أن تعزل السلطان عبد الحميد الثانى عن الحكم وقد تحصلت على دعم من الدول الأوروبية ، واليهود والمحافل الماسونية للوصول إلى هذا الهدف .

١٠- كانت جمعية الاتحاد والترقى لاتستطيع مقاومة الحلفاء بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى، واضطر زعماؤها إلى الفرار إلى ألمانيا وروسيا .

١١- إن أسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى› وهذا الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكًا فى الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله شهرت فى وجهتها الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية .

١٢- إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أثر فى تلك الشعوب ، وكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس، وتعرضت النفوس للهلاك ، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على إثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم .

١٣- إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق التاريخ أنه إذا عصى الله تعالى من يعرفونه سلط الله عليهم من لايعرفنه .

١٤- لقد أصيبت الأمة بانحراف شديد فى مفاهيم دينها ، كعقيدة الولاء والبراء ، ومفهوم العبادة ، وانتشرت مظاهر الشرك والبدع والخرافات .

١٥- انتشار الظلم فى الدولة العثمانية .

١٦- لقد ترتب على ابتعاد الأمة عن شرع ربها آثار خطيرة، كالضعف السياسى، والحربى، والاقتصادى، والعلمى، والأخلاقى، والاجتماعى وفقدت الأمة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها ، فاستعمرت، وغزيت فكريًا ، نتيجة لفقدها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية وجهلها بسنن الله فى نهوض الأمم وسقوطها . قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف :٩٦) .

الهوامش

١- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص٣١-٣٣ .

٢- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص٥٦ .

٣- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، دمشق، ص٥٨ .

٤- نفس المرجع ، ص١٧٨ .

٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م.

٦- د. إسماعيل ياغي الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص١٨٠ .

٧- د. محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، ص٨٠ .

٨- د. محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، ص٩٥ .

٩- نفسه، ص٦٥ .

١٠- نفسه ، ص٩٦ .

١١- د. إسماعيل أحمد ياغي الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص١٨٩ .

١٢- د. إسماعيل ياغي الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص١٨٩ .

١٣- نفسه ، ص١٩٠ .

١٤- انظر: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، إبراهيم حلمي بك، ص٢٤١ .

١٥- د. عبد العزيز العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور ، دار إشبيلية ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، الرياض ، المملكة العربية السعودية، ص٤١٨ .

١٦- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص١٤٤ .

١٧- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص١٤٥ .

١٨- إسماعيل أحمد ياغي الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص١٩٥ .

١٩- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص١٦٨ .

٢٠- المرجع السابق نفسه ، ص١٦٩ .

٢١- د. محسن عبدالحميد جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، مؤسسه الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣ م، بيروت ، ص١٣٧ .

٢٢- المرجع السابق نفسه .

٢٣- المرجع السابق نفسه .

٢٤- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص١٩٦ .

٢٥- د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، دمشق، ص١٩٨ .

٢٦- المرجع السابق نفسه .

٢٧- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص٢٠١ .

٢٨- المرجع السابق، نفسه، ص٩٩ .

٢٩- نفسه ، ص١٠٠ .

٣٠- مصطفى طوران، الانقلاب العثماني، ص٣٧

٣١- د. موفق بني مرجه ، صحوة الرجل المريض، دار البيارق ، الطبعة الثامنة، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٨م، ص١١٣ .

٣٢- د. موفق بنى مرجه ، صحوة الرجل المريض، دار البيارق ، الطبعة الثامنة، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٨م، ص١١٤ .

٣٣- المصدر السابق نفسه.

٣٤- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثانى، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص١٣١، ١٣٢ .

٣٥- المرجع السابق، ص٢٢٤ .

٣٦- المرجع السابق، ص١٣٨ .

٣٧- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثانى، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص١٣٩ .

٣٨- د. أحمد نورى النعيمى ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص٣٧ .

٣٩- المرجع السابق نفسه .

٤٠- د. أحمد نورى النعيمى ، يهود الدونمة، دراسة فى الأصول والعقائد والمواقف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص٨ .

٤١- د. موفق بنى مرجه ، صحوة الرجل المريض، دار البيارق ، الطبعة الثامنة، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٨م، ص٢٤٢ .

٤٢- د. أحمد نورى النعيمى ، يهود الدونمة، دراسة فى الأصول والعقائد والمواقف، مؤسسة الرسالة، , الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص١٦ .

٤٣- د. على حسون، تاريخ الدولة العثمانية ، المكتب الإسلامى ، الطبعة الثالثة، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م، ص٤٦ .

٤٤- د. أحمد نورى النعيمى ، يهود الدونمة، دراسة فى الأصول والعقائد والمواقف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص٨١ .

٤٥- د. أحمد نورى النعيمى ، الحركة الإسلامية الحديثة فى تركيا، دار البشير، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ص٦٨- ٦٩ .

٤٦- د. أحمد نورى النعيمى ، الدولة العثمانية ، مؤسسة ، دار البشير، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ/

١٩٩٧م، ص١١٦ .

٤٧- المرجع السابق ، نفسه، ص١٤١ .

٤٨- المرجع السابق ، نفسه، ص١٤٣ .

٤٩- المرجع السابق، ص١٤١ .

٥٠- د. محمد حرب ، العثمانيون فى التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٩٧م، ص٥٧ .

٥١- المرجع السابق، نفسه، ص٥٦ .

٥٢- د. أحمد نورى النعيمى ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص١٥٨ .

٥٣- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثانى، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م ، دمشق ، ص٢٣٤ .

٥٤- انظر : مذكرات إبراهيم تيمو، ص٩ .

٥٥- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثانى، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص٢٨٥-٢٨٠ .

٥٦- د. أحمد نورى النعيمى ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص١٦٣ .

٥٧- المرجع السابق نفسه، ص١٦٨ .

٥٨- د. أحمد نورى النعيمى ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص١٦٨ .

٥٩- د. محمد حرب ، العثمانيون فى التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص٥٠ .

٦٠- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثانى، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص٢٨٥-٢٨٣ .

٦١- د. محمد حرب ، العثمانيون فى التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص٥٠ .

٦٢- المرجع السابق نفسه، ص٥١ .

٦٣- د. أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص٢١٩ .

٦٤- المرجع السابق نفسه ، ص٢٢٠ .

٦٥- د. محمد حرب ، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م ، دمشق ، ص٢٨٥-٨٨ .

٦٦- د. أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية ، مؤسسة الرسالة، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص٢٣٠ .

٦٧- د. عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة، عام ١٩٨٠م: ٢ / ١٠١٨-١٠٢٣ .

٦٨- المرجع السابق نفسه : ٢ / ١٠٦١ .

٦٩- د. علي حسون ، تاريخ الدولة العثمانية ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ص٢٤٩ .

٧٠- د. جميل عبدالله محمد المصري ، حاضر العالم الإسلامي، جامعة المدينة المنورة : ١ / ١٠٩ .

٧١- المرجع السابق نفسه : ١ / ١١٠ .

٧٢- د. جميل عبدالله محمد المصري، حاضر العالم الإسلامي، جامعة المدينة المنورة: ١ / ١٢٢ .

٧٣- أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر بالمعروف رقم الحديث ٦٤٧٠ .

٧٤- علي محمد الصلابي ، دولة الموحدين ، دار البيارق ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م، عمان -الأردن ، ص١٧٠ .

المصادر والمراجع

١- أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، د. محمد نور الدين .

٢- أيعيد التاريخ نفسه ، محمد العبده، المنتدى الإسلامي، طبعة ١٤١١هـ.

٣- إعلام الموقعين عن رب العالمين، الإمام ابن القيم، مراجعة وتعليق عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت .

٤- أوروبا فى العصور الوسطى، سعيد عاشور ، الطبعة السادسة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.

٥- اقتصاديات الحرب فى الإسلام د. غازى التمام، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٦- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، تحقيق : محمد حامد الفقى، الطبعة الثانية عام ١٣٦٩هـ، مطبعة السنة المحمدية .

٧- البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى، دار الريان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٨- البطولة والفداء عند الصوفية ، أسعد الخطيب، دار الفكر ، دمشق.

٩- بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، محمد بن أحمد بن إياس، القاهرة، مطابع الشعب، ١٩٦٠م.

١٠- البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، دار اليمامة، الرياض، قطب الدين محمد بن أحمد المكى، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١١- البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصرى، بيروت ١٩٦٠م.

١٢- تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، بارتولد ترجمة أحمد السعيد، القاهرة، مطبعة الأنجلو المصرية ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.

١٣- تاريخ الدولة العثمانية ، محمد فريد بك، تحقيق الدكتور إحسان حقى، دار النفائس ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٤- تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق باسم الجابى، تأليف يوسف اصاف ، دار البصائر ، الطبعة الثالثة ١٤٩٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٥- تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون، المكتب الإسلامى ، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٦- تركيا والسياسة العربية، أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد عطا .

١٧- تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزنتونا ، ترجمة إلى العربية عدنان محمود سلمان، د. محمود الأنصارى ، المجلد الأول - منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول ١٩٨٨م.

١٨- التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، د. توفيق الطويل ، مطبعة الاعتماد ، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦ م القاهرة.

١٩- جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين زيادة أبوغنيمة ، دار الفرقان ، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٣م.

٢٠- جمال الدين الأفغانى المصلح المفترى عليه، د. محسن عبد الحميد ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣، بيروت .

٢١- جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس فى مطلع العصر الحديث، د. نبيل عبد الحى رضوان، مكتبة الطالب الجامعى، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٢- حاضر العالم الإسلامى ، د. جميل عبدالله محمد المصرى، جامعة المدينة المنورة.

٢٣- حروب البلقان والحركة العربية فى المشرق العربى العثمانى، د. عايض بن خزام الروقى، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

٢٤- الحركة الإسلامية الحديثة فى تركيا ، د. أحمد النعيمى ، دار البشير ، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، عمان - الأردن .

٢٥- حركة الجامعة الإسلامية ، أحمد فهد بركات، مكتبة المنار، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، الأردن .

٢٦- خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة ، شكيب أرسلان ، بيروت .

٢٧- الدولة العثمانية والشرق العربى، محمد أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

٢٨- الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، د. عبد العزيز الشناوى، مكتبة الأنجلو المصرية ، مطابع جامعة القاهرة، عام ١٩٨٠م.

٢٩- الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث ، د. إسماعيل أحمد ياغى ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٣٠- الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، قيس جواد العزاوى، مركز دراسات الإسلام والعالم ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٣١- السلاطين فى المشرق العربى د. عصام محمد شباو، طبعة ١٩٩٤م، دار النهضة العربية، بيروت .

٣٢- السلطان عبد الحميد الثانى: د. محمد حرب، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠م، دمشق .

٣٣- السلاطين العثمانيون ، كتاب مصور ، طبع فى تونس.

٣٤- الشعوب الإسلامية ، الأتراك العثمانيون ، الفرس ، مسلمو الهند د. عبد العزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية، طبعة ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٣٥- صحوة الرجل المريض، د. موفق بنى مرجه ، دار البيارق ، الطبعة الثامنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

٣٦- صراع الفكر بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صوره الجبرتى، د. أحمد العدوى، أبحاث ندوة الجبرتى، ١٩٧٦م، القاهرة.

٣٧- العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، د. محمد حرب ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ./ ١٩٨٩م.

٣٨- العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة ، سفر عبد الرحمن الحوالى، طبعة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٣٩- العثمانيون والروس ، د. على حسون ، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٤٠- الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمرى، دار إشبيلية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، الرياض- المملكة العربية السعودية.

٤١- فى أصول التاريخ العثمانى ، أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الشروق ، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٤٢- فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن من البر إلى البحر، محمد عبد اللطيف البحراوى، دار التراث، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م، القاهرة.

٤٣- فلسفة التاريخ العثمانى : محمد جميل بيهم.

٤٤- قيام الدولة العثمانية ، د. عبد اللطيف بن دهيش ، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية .

٤٥- ليبيا منذ الفتح العثمانى، أتورى، روسى، تعريب خليفة التليسى، دار الثقافة ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م.

٤٦- مذكرات السلطان عبد الحميد ، تقديم د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة، الثالثة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

٤٧- موقف أوروبا من الدولة العثمانية، د. يوسف على الثقفى، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٨- المغرب فى عهد الدولة السعدية ، عبد الكريم كريم، شركة الطبع والنشر ، ١٩٧٧م، الدار البيضاء المغرب.

٤٩- من أخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى، محمد أديب غالب، دار اليمامة ، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، السعودية.

٥٠- المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، محمد عبد الحميد حرب، ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر، البحرين .

٥١- مفاهيم يجب أن تصحح ، لمحمد قطب ، دار الشروق ، الطبعة السابعة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، القاهرة.

٥٢- النظام السياسى فى الإسلام، د. محمد أبو فارس دار الفرقان ، عمان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٥٣- النفوذ البرتغالى فى الخليج العربي، نوال صيرفى، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، ١٤٩٣هـ - ١٩٨٣م، الرياض ، المملكة العربية السعودية.

٥٤- واقعنا المعاصر، الشيخ محمد قطب، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مؤسسة المدنية المنورة.

٥٥- الولاء والبراء فى الإسلام، محمد سعيد القحطانى ، دار طيبة الطبعة السادسة، ١٤١٣هـ ، مكة- الرياض.

٥٦- والدى السلطان عبد الحميد، مذكرات الأميرة عائشة ، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٥٧- اليهودية والماسونية، عبد الرحمن الدوسرى، دار السنة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، السعودية.

٥٨- اليهود والدولة العثمانية ، د. أحمد نورى النعيمى، مؤسسة الرسالة دار البشير، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٥٩- يهودى الدونمة ، دراسة فى الأصول والعقائد والمواقف د. أحمد نورى النعيمى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى / ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.



د. مقلاتي عبدالله (*)

مؤتمر طنجة المغاربي ومسألة الوحدة والتضامن مع الثورة الجزائرية

لقد مثل مؤتمر طنجة المنعقد في أفريل ١٩٥٨ حدثا مهما في تاريخ الثورة الجزائرية، ومحطة حاسمة في مشروع وحدة المغرب العربي، وقد أقرت خلاله الأحزاب المغاربية الرئيسية خطة مشتركة للتضامن مع الجزائر ولبناء وحدة مغاربية، فما الذي تغير وجعل الأحزاب المغاربية تفكر في ربط مصيرها في موقف موحد ،وهل كان التصميم حازما نحو إشادة وحدة حقيقية، ولماذا فشل الحكوميون في تنفيذ ما تعاهدت عليه الأحزاب السياسية ،وما وقع المشروع وإخفاقه على الثورة الجزائرية وعلى العلاقات المغاربية؟.

أولا ـــ ظروف ودوافع عقد المؤتمر :

يحس المغاربة في مواجهة الأخطار الكبرى بوحدة المصير والتضامن المشترك، وهذا الحكم صدقته الأحداث والمواقف في العصر الحديث، إذ تساندت الحركات الوطنية وتضامنت لمواجهة القوة الاستعمارية، وهبت لإعلان تكاتفها خلال مرحلة المقاومة المسلحة، وقد ظلت الشعوب تتوق إلى تجربة الكفاح المشترك التي خيضت عامي ١٩٥٥ــ ١٩٥٦ وأجهضها المستعمر بمنح تونس والمغرب استقلالهما، ولم يكن تفرد الاستعمار الفرنسي بالجزائر يعني حيادا تونسيا ومغربيا

* قسم التاريخ ـــ جامعة ادرار

إزاء المشكلة الجزائرية، فقد أثارت حرب الجزائر تضامنا مغاربيا فريدا من نوعه،وعندما تأكد أن الحرب تهدد تونس والمغرب تعالت الأصوات بالدعوة إلى التضامن والوحدة المغاربية[1].

وعلى الرغم من مرور نصف قرن تقريبا على انعقاد مؤتمر طنجة إلا أن كثيرا من الظروف المحيطة بالحدث والدوافع الحقيقية ما تزال ملتبسة[2]، لقد كانت تتداول آنذاك فكرة حلف متوسطي، فقيل إن مؤتمر طنجة هدف إلى علاج المشكلة في إطار التعاون الفرنسي ــ المغاربي، وفسر أنه محاولة احتواء مغربية تونسية للثورة الجزائرية وردا على الوحدة المصرية ــ السورية وعندما نعيد قراءة الحدث نجد أنفسنا أمام قضايا مهمة تساعد على فهم ظروف انعقاد المؤتمر.

ــ الهجمة الفرنسية الشرسة على الجزائر وإفلاس السياسة الفرنسية في علاج مشاكلها.

ــ التحالف الفرنسي الإسباني ضد ذراع حزب الاستقلال جيش تحرير المغرب في الصحراء.

ــ الاعتداءات الفرنسية المتكررة على الحدود وحادثة ساقية سيدي يوسف بالخصوص .

إن الثورة الجزائرية استطاعت أن تواجه السياسة الفرنسية التي هدفت إلى عزلها مغاربيا،وأن تحدث تحولات كبرى في المغرب العربي ،إذ كانت تونس والمغرب معنية دائما بالمشكلة الجزائرية وواقعة تحت تهديد بقايا النظام الاستعماري ،ودعوة التضامن الشعبية إلى مؤازرة الكفاح الجزائري, وقد أدت اعتداءات عسكريي الجزائر المتكررة إلى إفلاس سياسة الجمهورية الفرنسية الرابعة .

لقد بلغت ذروة الاعتداءات الفرنسية على التراب التونسي والمغربي عام ١٩٥٨، وكانت ساقية سيدي يوسف إحدى فصولها الحاسمة، كان الهدف من تلك الاعتداءات إرهاب التونسيين والمغربيين المتضامنين مع الجزائر، وتمهيد إقامة الأسلاك الشائكة بتهجير سكان الحدود، هذا التهجير القسري كان محل تنديد وإدانة شعبية و رسمية[3] في حين اعتبره عسكريو الجزائر الحل الناجع لمنع تسرب المساعدات التونسية والمغربية ومحاصرة الثوار[4] .

لقد خطط هؤلاء العسكريون لمعركة بالقرب من الحدود التونسية, وفي ١١جانفي ١٩٥٨ وقعت معركة جبل الكوشة داخل التراب الجزائري, قتل فيها جيش التحرير الجزائري ١١

جنديًا وأسر أربعة فكانت غيضة القادة العسكريين كبيرة ,وبدءوا في التخطيط لعمل عسكري ضد تونس متهمين إياها بمساعدة الثوار وإيواء الأسرى. وفي ٨ فيفري ١٩٥٨ وقع الاعتداء على الساقية فكان حدثا مهولا دمرت الطائرات الفرنسية القرية التونسية الآمنة وقتلت تسعة وسبعون مدنيا ،وقد أبرزت الحادثة ترابط القضايا المغاربية، وأكدت فشل السياسة الفرنسية في شمال إفريقيا، وكان من انعكاساتها تدويل القضية الجزائرية ,وخلق تضامن مغاربي معادي لفرنسا وللمعسكر الغربي الذي يدعم فرنسا في إطار الحلف الأطلسي(٥).

وسبب التدخل الأمريكي البريطاني في الخلاف التونسي ـ الفرنسي بداية تصدع هز الجمهورية الرابعة إلى أن انهارت بتدخل عسكريي ومعمري الجزائر, وتنفيذهم لتمرد ١٣ماي ١٩٥٨ الذي جاء بديغول إلى السلطة.

وعلى الجبهة المغربية ظل العسكريون الفرنسيون ينقمون على الموقف المغربي، ويتخوفون من حصول تحالف جديد بين ثوار الجزائر وجيش التحرير المغربي في الصحراء, وقد وجه هذا الأخير ضربات قوية للقوات الفرنسية والإسبانية في تندوف والصحراء الغربية وموريطانيا ،وقد أفادت التقارير العسكرية بوجود تنسيق بين ثوار الجزائر والمغرب وتواطؤ إسباني في السماح لجيش التحرير المغربي بالمرور إلى موريطانيا (٦) ,وأدى ذلك إلى التحالف مع إسبانيا ومواجهة الخطر المشترك قبل استفحاله، ورسم مخططات عسكرية للقضاء على جيش التحرير المغربي , وهكذا مضت خطة " المكنسة" العسكرية لتقضي على وحدات جيش التحرير المغربي وتشتت فلوله، فكانت ضربة موجعة تأثر لها حزب الاستقلال وعلال الفاسي خصوصا الذي كان يطمح إلى استعادة المغرب للأراضي الصحراوية الخاضعة للاستعمار وإنشاء المغرب التاريخي ،الذي يضم أقاليم الساورة وتندوف في الجزائر، والصحراء الغربية الخاضعة للإسبان وموريطانيا المحتلة من قبل الفرنسيين (٧) ,وكانت معركة موريطانيا قد شغلت الفاسي كثيرا وأبعدته عن القضية الجزائرية، وتألم كثيرا لعدم تحقيق جيش التحرير المغربي لأحلامه، ونشدد على أن هذا السبب وكذا فشل الحزب في أداء مهامه الحكومية وعدم قدرته على تطبيق برنامجه دفعه لتعويض هذه الخسارات في المجال الإقليمي بالدعوة إلى وحدة المغرب العربي وتزعم المشروع.

وقد مهد الفاسي لهذا الخيار الاستراتيجي بمقال في جريدته "صحراء المغرب" ذكر فيه بماضي النضال المشترك، وبتجربتي الوحدة المشرقية مخاطبا النخب السياسية بالقول: "فكيف يمكننا أن

نشتغل الآن بتدعيم المرحلة الأولى من استقلالنا وننسى هذه الغاية التي هي في مقدمة مبادئنا؟ وإن استمرار الحرب التحريرية في الجزائر وفي الصحراء لا ينبغي أن يكون عائقا في وسائل تحقيق هدف الاتحاد المغربي الذي سيسهل علينا حل كثير من المشاكل التي خلفها الاستعمار في بلادنا"(٨)، وعلى الرغم من أن الفاسي طرح مشروع الوحدة على الرأي العام المغاربي لمناقشته وإبداء الرأي حوله إلا أنه سرعان ما دعا اللجنة التنفيذية للحزب للاجتماع بتاريخ ٢ مارس ١٩٥٨, وذلك لتدارس وضعية البلاد والظروف التي تمر بها المنطقة المغاربية ,وأصدرت اللجنة بلاغا جاء فيه أنها قامت "بتحليل الحالة في مجموع الشمال الإفريقي على إثر حوادث جنوب المغرب وساقية سيدي يوسف, وأمام استمرار الحرب بالجزائر والتطورات التي طرأت على الحالة الدولية." وأنها تعلن تضامنها مع الكفاح الجزائري وتنديدها بإنشاء المنطقة المحرمة والأسلاك الشائكة، وتساند مجهود تونس في الميدان الدولي" ،وأوضحت اللجنة التنفيذية أنها درست الوسائل التي من شأنها أن تقوي تضامن الشعب المغربي مع شعبي الجزائر وتونس في الظروف الحاضرة التي تعتبر حاسمة في مصير شمال إفريقيا وعلاقاته المستقبلية مع فرنسا والغرب."وتؤكد اللجنة التنفيذية ضرورة الشروع منذ الآن في دراسة الخطط التي تؤدي إلى تعزيز مظاهر التآزر والاتحاد،سعيا وراء إنشاء وحدة حقيقية ،تلبي المطامح الصادقة لشعوب المغرب العربي الثلاثة "(٩) ووجدت هذه الدعوة صداها في تونس، إذ استجاب حزب الدستور التونسي مباشرة وبحماسة لنداء حزب الاستقلال المغربي وأصدر بلاغا رحب فيه بالفكرة واقترح مؤتمرا في تونس أو الرباط "لضبط الخطط والوسائل الكفيلة بتحقيق جلاء القوات الأجنبية وتحرير الجزائر وبعث المغرب العربي الكبير "(١٠) ,وإثر ذلك عقدت اللجنة السياسية لحزب الاستقلال اجتماعا درست فيه الموضوع وعهدت إلى لجنة مصغرة (١١) وضع تصور لمشروع الوحدة المقترح يجيب عن ثلاث أسئلة رئيسية هي :لماذا نريد وحدة المغرب العربي ؟, وماذا نعني بهذه الوحدة؟وكيف يمكن تحقيقها؟،وكلفت اللجنة السياسية لمحجوب بن الصديق وعبد الرحمان اليوسفي بمهمة الاتصال بمسئولي جبهة التحرير الوطني في القاهرة وبحث الموضوع معهم, وأرسلت أبو بكر القادري والدكتور بناني إلى تونس لمذاكرة مسئولي الحزب الحر الدستوري في سبيل إبراز فكرة الوحدة للوجود (١٢) ,وحصل اتفاق بين الوفدين المغربي والتونسي على ضرورة تجسيد وحدة المغرب العربي والنظر في المشاكل القائمة في شمال إفريقيا وعلى رأسها قضية الجزائر، وعلى عقد اجتماع في طنجة تحضره جبهة التحرير الجزائرية (١٣).

كانت هذه حيثيات مبادرة حزب الاستقلال المغربي, وقد رأينا سرعة تجاوب الموقف التونسي معها، فما هو يا ترى موقف جبهة التحرير الوطني ؟

لقد كانت أهداف ودوافع حزب الاستقلال ملتبسة كثيرا،وتقف وراءها الإخفاقات الوطنية وتهميش دور الحزب والانهزام في معركة تحرير الصحراء، في حين كانت أهداف تونس براغماتية إلى أبعد الحدود, وهي تنتهز فرصة اعتداء الساقية وانقطاع العلاقات مع فرنسا لتحقق رزمة أهداف داخلية وخارجية ،وقد جاء الاحتضان الرسمي لفكرة الوحدة المغاربية نزولا عند مطمح الأحزاب السياسية والجماهير الشعبية وجريا وراء احتواء جبهة التحرير والتي كانت بتحالفها مع الناصرية تثير المخاوف, وإنهاء لهاجس الحرب الجزائرية التي تهدد كامل الشمال الإفريقي .

في ظل استفحال المخاطر المهددة للشمال الإفريقي والرغبة في إنشاء وحدة مغاربية وأمام ظهور المشاريع القومية هل ستختار جبهة التحرير الوطني الحياد إرضاء للمشروع الناصري أم الاندماج في المشروع المغاربي؟

لقد نبذت جبهة التحرير الوطني مشروع فيدرالية شمال إفريقيا متعاونة مع فرنسا والغرب عام ١٩٥٧ وذلك بتشجيع من مصر، وأعلنت تونس والمغرب تخوفها من استمرارية التدخل الناصري في شؤون المغرب العربي, وأدى نجاح مشروع الوحدة المصرية ـــ السورية إلى ازدياد المخاوف من انتقال عدوى الأفكار القومية الناصرية إلى المغرب العربي، كما فهمت مصر أن الدعوة إلى وحدة مغاربية يعد معاكسة لمشروعها ،واحتواء لجبهة التحرير الوطني ،خاصة إذا علمنا أن الخلافات المصرية البورقيبية بلغت أوجها، وأن حساسية الفاسي والنظام المغربي من مصر تأكدت في مباركته للوحدة العراقية الأردنية، وأن مصر لم تكن مطلعة على حقائق وحدة المغرب العربي[١٤], وأمام ذلك كانت جبهة التحرير الوطني محرجة في حضور مؤتمر طنجة, إذ لم يكن من السهل عليها الارتماء في مشروع مشبوه وإغضاب مصر القومية، وهي القاعدة السياسية واللوجستيكية الداعمة للثورة الجزائرية، ولكن رغم ذلك قبلت جبهة التحرير الوطني بعد نقاش مستفيض حضور مؤتمر طنجة لاعتبارات كثيرة كانت تفيد في تحقيق مكاسب لها نذكر منها:

ـــ سلامة المشروع من أي توجه انفصالي أو معادي للقاهرة ،ذلك أن فكرة الوحدة المغربية مشروع عريق زكته الأحزاب المغاربية منذ كانت لاجئة في القاهرة عام ١٩٤٧ ،كما أنها تؤكد على البعد المغاربي الذي يؤمن به مناضلوها أشد الإيمان .

ـــ تزايد أهمية تونس والمغرب بدءا من عام ١٩٥٧ بفعل التطورات السياسية والعسكرية للثورة ،خاصة وأنهما تقدمان تسهيلات مهمة لنشاط جبهة وجيش التحرير، وتعتمدان قاعدة للإمداد والتمركز قريبة من جبهة الكفاح ،وميدانا للتضامن الشعبي بحكم الجوار والتضامن المشترك،وحتى أهمية المعركة الإعلامية المعلنة ضد الغرب كان من المفيد خوضها انطلاقا من تونس والمغرب المرتبطتين بأوروبا الغربية وإفريقيا .

ـــ إن حضور المؤتمر يتيح الفرصة لتوجيهه لصالح الكفاح المسلح في الجزائر، خاصة في هذه المرحلة الحساسة التي تسمح بتحقيق مكاسب مهمة منها المطالبة بجلاء القوات الأجنبية، وبدعم الثورة الجزائرية، وحشد التضامن الشعبي الذي يمثل ضمانة مهمة قد تدفع إلى وحدة المعركة المسلحة[١٥].

وهكذا اجتهدت جبهة التحرير الوطني في الخروج بأكبر الفوائد الممكنة من هذا المؤتمر، وفق خطة مدروسة وموجهة، صاغها عبد الحميد مهري العارف بالشؤون المغاربية ،إذ أقنع لجنة التنسيق والتنفيذ بضرورة استغلال هذه اللحظة التاريخية وانتهاز فرصة عدم إعداد جدول أعمال للمؤتمر لتوجيهه لصالح المعركة ضد الاستعمار في الجزائر ومخلفاته وقواعده العسكرية في تونس والمغرب، واعتمدت جبهة التحرير الوطني خطة محكمة تهدف إلى تجنيد المغرب العربي للتضامن مع الثورة الجزائرية وتجاوز خيار العمل العسكري المشترك الذي كان مطروحا في عام ١٩٥٥ ،ذلك لأنه لم يعد يتلاءم مع واقع البلدين المستقلين، ولا يمكن للأنظمة السياسية تجسيده، أما مسألة تقديم المساعدات وتوحيد المواقف مع الثورة الجزائرية في القضايا المشتركة فيمكن التجاوب معها ،خاصة وأن جبهة التحرير الوطني كانت تحاور أحزاب سياسية لا حكومات تنفيذية بيدها سلطة القرار، وبحاجة إلى التنسيق العملي للتجاوب مع مطالبها وإلى التضامن الشعبي [١٦] ,وهكذا يمكننا التأكيد أن الوفد الجزائري كان واقعيا في مطامحه، وماهرا في دبلوماسيته واستراتيجيته،اجتهد في إدراج القضايا المهمة على المؤتمرين وبحث الوسائل الكفيلة بتجسيد المقررات .

ثانيا ــ مقررات المؤتمر وأهميتها:

اجتمعت وفود الأحزاب المغاربية الثلاث (حزب الاستقلال ,الحزب الدستوري الحر ,جبهة التحرير الوطني) في طنجة يوم ٢٧ أفريل ١٩٥٨، وتدارست خلال أربع أيام كاملة قضايا استكمال تحرير المغرب العربي وتوحيده, وقد ركزت الخطب الافتتاحية لرؤساء الوفود على حتمية التضامن مع الجزائر في كفاحها التحرري وإشادة وحدة المغرب العربي(١٧)، وشدد رئيس وفد جبهة التحرير الوطني على التأكيد أن "تحرير المغرب العربي وتحقيق وحدته هي مثلنا السامية"(١٨) وكان حدثا مدويا وحاسما ذلك المؤتمر الذي سمي "مؤتمر الوحدة" لأنه أقر مفهوما واضحا لفكرة المغرب العربي التي لم تعد تعني مجرد التنسيق المشترك بل العمل من أجل قيام وحدة فيدرالية بين الأقطار المغاربية، وقد عكس جدول أعمال المؤتمر محاور اهتمام القيادات المغاربية ,إذ حدد المؤتمرون بعد جلستين تمهيديتين في الرباط المحاور الآتية:

ــ حرب الاستقلال الدائرة رحاها بالجزائر .

ــ تصفية قواعد الاستعمار بالمغرب العربي .

ــ وحدة المغرب العربي:شكلها وقواعدها والمرحلة الانتقالية لهذه الوحدة .

ــ إنشاء منظمة دائمة لتنفيذ قرارات المؤتمر (١٩) .

وقد ساعد تجاوب الأنظمة الرسمية وحضور عدد كبير من المسؤولين الرسميين على إثراء النقاش واتخاذ مواقف شجاعة ،وأعلن المؤتمرون عن قرارات تاريخية يمكن أن نجملها في ثلاث محاورُ رئيسية: دعم الثورة الجزائرية، تصفية بقايا الاستعمار، الموقف من الدعم الغربي لفرنسا، ووحدة المغرب العربي .

٢ــ١ــ دعم ثورة الجزائر :

أخذت هذه المسألة النصيب الأوفر من المناقشات باعتبارها قضية المغرب العربي الأساسية، واستطاعت جبهة التحرير الوطني أن تكسب مواقف دعم ومساندة لكفاحها, فأعلن المؤتمر مبدأ "حق الشعب الجزائري المقدس في السيادة والاستقلال الشرط الوحيد لحل النزاع الفرنسي الجزائري", وفي هذا تأكيد على مواقف جبهة التحرير الوطني في مبدأ السيادة والاستقلال

التام، وأقر المؤتمر بعد تشريحه لطبيعة الحرب الاستعمارية " أن تقدم الأحزاب السياسية للشعب الجزائري المكافح من أجل استقلاله كامل مساندة شعوبها وتأييد حكوماتها "، ونظرا لما تحظى به القضية الجزائرية من تأييد دولي، وشرعية تمثيل جبهة التحرير الوطني لكفاح الشعب الجزائري " فإن المؤتمر يوصي بتكوين حكومة جزائرية بعد استشارة حكومتي المغرب وتونس"[٢٠]، وقد نالت المسألة الأخيرة نقاشا مستفيضا وتخوف البعض من توجه وشكل الحكومة، واشترطوا موافقة مسبقة من تونس والمغرب لإعلانها، لكن جبهة التحرير الوطني أصرت على سيادة قرارها وقبلت أخيرا باستشارة تونس والمغرب فقط في الأمر [٢١].

٢ـ٢ ـ التنديد بالموقف الغربي وتصفية بقايا الاستعمار:

نظرا للإعانة التي تتلقاها فرنسا من الحلف الأطلسي والدول الغربية استنكر المؤتمر هذا الموقف, وطالب بوضع حد لكل إعانة سياسية ومادية ترمي إلى تغذية الحرب الاستعمارية في المغرب العربي، ونظرا لما تقوم به القوات الأجنبية المتواجدة في تونس والمغرب من انتهاك للسيادة ومشاركة في حرب الجزائر سجل البلاغ القرارات الآتية:

" ـ يستنكر استمرار وجود القوات الأجنبية فوق ترابها الأمر الذي يتنافى مع سيادة بلاد مستقلة .

ـ يطالب بكل إلحاح أن تكف القوات الفرنسية حالا عن استعمال التراب المغربي والتونسي كقاعدة للعدوان ضد الشعب الجزائري .

ـ يوصي الحكومات والأحزاب السياسية بتنسيق جهودها من أجل اتخاذ الإجراءات اللازمة لتصفية جميع بقايا السيطرة الاستعمارية "[٢٢].

وهذه القرارات البالغة الأهمية اقترحت من قبل جبهة التحرير الوطني لإحراج الموقف الغربي والفرنسي خصوصا, وقد تقدمت للمؤتمرين بخرائط مفصلة عن مواقع القواعد الفرنسية العاملة في تونس والمغرب ،موضحة عملها المنسق مع الجيوش الفرنسية في الجزائر ،وسلبيات ذلك على نشاط المجاهدين الجزائريين، ولقيت جبهة التحرير الوطني تجاوبا مع مطالبها هذه ،وقد كانت تحظى بإجماع شعبي وتعبئة جماهيرية كبيرة ،وجاء التأكيد عليه كذلك بهدف تجنيد هذه الجماهير الواسعة وراء مطالب المؤتمر [٢٣] ,كما أن قرار التنديد بالدعم الغربي المقدم لفرنسا كان قرارا

جزائريا ,تم تثبيته رغم أن حزب الاستقلال والحزب الدستوري اقترحا صياغة هذا التنديد على لسان شعوب المغرب العربي, وأما مطلب دعم نضال شعب موريطانيا فقد عبر المؤتمر عن تضامنه مع هذا المطلب, غير أن حزب الاستقلال دعا إلى ربط هذا النضال في إطار وحدة التراب المغربي، في حين أصر الطرفان التونسي والجزائري على إنزاله في إطار نضال التحرر المغاربي ,والتأكيد أن هذه المقاومة التحريرية "هي جزء من المعركة التي تقوم بها أقطار المغرب العربي من أجل تحريرها ووحدتها" (٢٤) .

وهكذا لم ينجح حزب الاستقلال في الحصول على دعم المؤتمر لما كان يسميه حقوقه الترابية في موريطانيا، وقد تجلت خلاله المطامح القطرية واضحة بالشكل الذي يؤكد أن الإخلاص لبناء الوحدة لم يكن سيدا .

٢ ــ٣ ــ وحدة المغرب العربي :

أكد المؤتمر على توحيد مصير شعوب المغرب العربي في إطار مؤسسات مشتركة، وأقر "أن يعمل على تحقيق الوحدة..."، واعتبر أن "الشكل الفيدرالي أكثر ملاءمة للواقع في البلاد المشتركة في هذا المؤتمر"، ومن أجل ذلك اقترح المؤتمر "أن يشكل في المرحلة الانتقالية مجلس استشاري للمغرب العربي ينبثق عن المجالس الوطنية في تونس والمغرب، وعن المجلس الوطني للثورة الجزائرية"، على أن تكون مهمته " درس القضايا ذات المصلحة المشتركة وتقديم التوصيات للسلطات التنفيذية المحلية ." ومن أجل المتابعة وتنفيذ التوصيات التي يصدرها المجلس الاستشاري يوصي المؤتمر "بضرورة الاتصالات الدورية وكلما اقتضت الظروف ذلك بين المسؤولين المحليين للأقطار الثلاثة "، وقرر المؤتمر كذلك إنشاء أمانة دائمة للمؤتمر من ستة أعضاء، عضوان عن كل طرف، على أن يكون لهذه الأمانة مكتبان أحدهما بالرباط والآخر بتونس، وأن تجتمع دوريا في إحدى العاصمتين بالتناوب, وفي إطار توحيد السياسات الخارجية والدفاع أوصى المؤتمر "حكومات أقطار المغرب العربي بأن لا تربط منفردة مصير شمال إفريقيا في ميدان العلاقات الخارجية والدفاع إلى أن تتم إقامة المؤسسات الفيدرالية "(٢٥).

ولم يحظى قرار الوحدة بنقاشات مستفيضة، مما يؤكد أن الرغبة لتجسيم الوحدة لم تكن صادقة، ويرجع ذلك إلى تخوف النخب السياسية على ضياع الامتيازات القطرية، وعلى مشاركة الجزائر غير المستقلة بعد في هذه الوحدة, ويرى محمد عابد الجابري أن مفهوم الوحدة

في طنجة أخذ صيغة وحدة العمل وليس وحدة الهوية ،وأن القرارات لم تكن موجهة إلى الوحدة بقدر ما كانت تهدف إلى مواجهة الاستعمار الفرنسي (٢٦) ,ويبدو من كل ذلك أن استراتيجية جبهة التحرير الوطني نجحت في تحويل مؤتمر الوحدة إلى مؤتمر للتضامن مع الثورة الجزائرية، وتحققت بعض آمالها في حين لم يمض مشروع الوحدة بعيدا، وأرجع عبد الحميد مهري سبب ذلك إلى أن"هذه القضية لم يولها المؤتمر عناية كافية عند بحثها" (٢٧)، وهو الرأي الذي رجحه مصطفى الفيلالي عندما اعتبر مؤتمر طنجة الحزبي مجرد "ذريعة ظرفية موقوتة", لا تقوم على إرادة حقيقية ولا تسعى إلى أهداف محددة (٢٨)، وقد كانت جبهة التحرير الوطني شبه متأكدة من كل هذا ،الأمر الذي دعاها لعدم تركيز النقاش على مشروع الوحدة، والتأكيد أن هذا المشروع لا يولد بقرارات فوقية ولكن بإمكان تضامن الشعوب أن يخلقه بشكل عملي (٢٩).

ونخلص للتأكيد أن مؤتمر طنجة لم يوجه لبعث الوحدة المغاربية بقدر ما كرس لدعم القضية الجزائرية ،وأن الثورة الجزائرية استطاعت أن تخرج منه بمكاسب مهمة وأن تشق من خلاله آفاقا مغاربية واسعة للتضامن.

ثالثا ـــ آمال مؤتمر طنجة وإخفاقاته:

لقد تحققت نظريا في مؤتمر طنجة آمال واسعة ،كانت تنشدها الأحزاب والجماهير الشعبية وزاد في حماسة قراراته مباركة السلطة الرسمية لمقرراته بما في ذلك ملك ليبيا الذي أكد موافقة بلاده على قرارات المؤتمر (٣٠)، وقد جندت الصحف ووسائل الإعلام للتغني بهذا الإنجاز التاريخي وتفاعلت مختلف القوى الجماهيرية مع مشروع الوحدة .

وقد استقبل الوفد الجزائري استقبالا رسميا وشعبيا في الرباط ،وعبر في بلاغ له عن ارتياحه للنتائج التي تمخض عنها المؤتمر، مشيرا إلى أن قضية الجزائر نالت كامل اهتمام المؤتمر، وأن الشعب الجزائري الذي حظى بتأييد شعبي تونس والمغرب يأمل "بانضمام حكومتهما إليهما في التأييد والتعضيد "، وعبر عن اهتمامه بمهمة بناء مؤسسات المغرب العربي ويقينه " بأن هذا الصرح سيكون متينا وعصريا لأنه سيأتي في وقت واحد وليد إيمان وإرادة شعوبنا"(٣١) وصرح ممثل لجنة التنسيق والتنفيذ بأن نتائج مؤتمر طنجة كانت حاسمة في تأكيد مكانة الشعب الجزائري ضمن المجموعة المغاربية وأن هذه الوحدة جسمت رغائب شعوب شمال إفريقيا في

التضامن, "وأن المغرب العربي بأجمعه من أغادير إلى السلوم ينهض اليوم بكامل قواه ويوجه إلى فرنسا الاستعمارية إنذارا نهائيا وقع تأجيله في الماضي وهو إما أن تعترف للجزائر باستقلالها وإما أن تعم الحرب المغرب العربي بأجمعه...على الفرنسيين أن يقتنعوا أن التضامن المغربي ليس كلمة جوفاء ،ولكنها حقيقة سيكون لها تأثير قوي على سير الحرب"(٣٢)، وكانت هذه الكلمات التي تخاطب الضمير المغاربي وتزيد في تأججه وتثير مخاوف الفرنسيين والغرب وحتى نظامي تونس والمغرب ،ذلك أن تجنيد المد الشعبي لمناصرة هذه الأهداف الثورية قد يمثل ضغطا حقيقيا على توجهاتها وقراراتها ،وقد أرادت جبهة التحرير الوطني لمؤتمر طنجة أن يجند القوى الحزبية والقاعدة الشعبية لدعم الجزائر دون الاصطدام بالأنظمة السياسية، وظلت تلح على تجند شعوب المغرب العربي لمواجهة سياسة مهادنة الاستعمار التي قد تجرف إليها الساسة ودعوتهم للوقوف بكل قواهم في المعركة ضد الإمبريالية حماية للمصالح العليا(٣٣)، وهكذا حصلت جبهة التحرير الوطني من المؤتمر على مكاسب مهمة، فقد رسمت اعتراف الأطراف المغاربية بصفتها التمثيلية وإقرارها بمغاربية قضية الجزائر، ودعوتها إلى دعم النضال التحرري الجزائري ماديا ومعنويا، وأكدت ضمنيا على سلامة التوجه الإيديولوجي للجبهة من خلال تنديد المؤتمر "بالقوى الغربية التي تدعم فرنسا ماليا وعسكريا".

وعلى الرغم من أن الملك محمد الخامس والرئيس بورقيبة أعربا عن قبولهما لقرارات طنجة، إلا أنهما أدركا أن جبهة التحرير التي يراد لها أن تحتضن من قبل نظامهما سجلت أهدافا كثيرة في طنجة ،منتهزة الظرف السائد والتجاوب الشعبي لخيار مغربة الحرب, فأوقعت تونس والمغرب في تعهدات مكبلة لسيادتهما مثل الدعوة لإنهاء القواعد الأجنبية ومعاداة المعسكر الغربي؛ وشعر القصر المغربي أن جبهة التحرير الوطني أوجدت لها تحالفا متينا مع القوى الثورية داخل حزب الاستقلال، وقد عبر الفاسي عن الصدى الواسع الذي خلفه المؤتمر لدى الشعب المغربي وعن رفعه لشأن حزب الاستقلال(٣٤) الذي سيتولى إنشاء الحكومة الاستقلالية، وكان تصميم القيادة الثورية للحزب حازما إزاء تنفيذ برنامج الإصلاح ومحاربة الإمبريالية ،وقد أكد المهدي بن بركة بعد مؤتمر طنجة بفترة قصيرة إلى أن المشروع السياسي للمغرب العربي يمتد إلى إنشاء قوة اقتصادية اعتمادا على "الموارد الطاقوية التي تختزنها الصحراء المغاربية، التي من شأنها إتاحة تنمية اقتصادية حقيقية يمكن مقارنتها بتلك التي عرفتها أوروبا أثناء ثورتها الصناعية"(٣٥)، وأكد على ضرورة "بلورة مخطط شامل للأقطار الثلاثة، وحتى الأربعة إذا وافقت ليبيا على

المشاركة ،من أجل ضمان تقدم في إنماء الدخل الوطني ومستوى حياة الشعوب المغاربية. ,وأضاف ابن بركة أن إنشاء سوق داخلي وقاعدة تصنيع حقيقية للمغرب العربي أمر مفيد للغاية "يمكننا ترقب انتعاش ثقافي وتقني واجتماعي لهذه المجموعة يقوم على معطيات عقلانية..."(٣٦)، ويبدو أن القصر وبعض القيادات المعتدلة لم تكن مستعدة لكل هذا التغيير الجذري ،فمثل هذا بداية انقسام ساهم القصر في تجذيره للقضاء على نفوذ الحزب .

وقد هلل الشعب التونسي بقرارات طنجة واعتبرتها الصحافة والمنظمات الجماهيرية نصرا للمغرب العربي، وعزم بورقيبة على استغلال الظرف لحسم المواجهة مع فرنسا التي تأبى إجلاء قواتها عن تونس(٣٧)

وقد انزعجت الإدارة الفرنسية لصدور مثل هذه القرارات، وعدت المؤتمر ضربة موجعة للحكومة الفرنسية التي عجزت عن حل مشاكل الشمال الإفريقي ،وانتقدت الصحف الفرنسية الموقف التونسي والمغربي الذي تورط في قضية الجزائر، وأبدت تخوفاتها من تلك التوصيات التي تدعوا إلى مساندة جبهة التحرير الوطني وإلى إنشاء حكومة مؤقتة تزيد في سلطة الجبهة دوليا (٣٨)، ويكفي أن نورد تعليقا لجريدة "لوموند" معبرا عن جو الشعور العام في فرنسا."هكذا تتحقق وحدة المغرب العربي في الحرب، وضدنا وكل ما هو اليوم توصيات سيتجسم غدا في مؤسسات سياسية وثقافية واقتصادية ستقوم بتمثيل ٢٣ مليونا من المسلمين"(٣٩)

وقد شنت في المشرق حملة تشكيك في نوايا المغرب وتونس من الدعوة إلى الوحدة، وكان صدى مؤتمر طنجة بالغا في الصحافة الغربية والدولية عدته ثورة ضد السياسة الفرنسية في شمال إفريقيا، واعتبرت أن ردود الفعل هذه جعلت الفاسي يوضح أن "مقررات المؤتمر ليست ضد فرنسا ولكنها في مصلحتها أيضا" فما عليها إلا أن تقر باستقلال الجزائر ,مؤكدا "أنه لا يعقل أن تختار تونس والمغرب الاستعمار على الحرية في القطر الشقيق، ولا ينبغي أن يعتبر ذلك رغبة من الدولتين في قطع العلاقات الطيبة مع فرنسا ،بل الأمر بالعكس، أنه إنذار للفرنسيين ليعترفوا أن ربع الساعة الأخير قد دق في قضية الجزائر، ولكن لهذا الدق نغمات غير التي يعنيها "لاكوست"، أنها نغمة الحرية التي يجب أن تنصت إليها فرنسا وتعترف أن لا بد منها ولا مندوحة عنها"(٤٠) .

لقد ظلت التصريحات الحزبية والرسمية تتناغم مع حماسة التضامن الشعبي إلى أن جاء ديغول بسياسته التقسيمية وفشل مؤتمر المهدية في تزكية مقررات طنجة، فما الذي تغير؟,وما هي أسباب فشل مشروع طنجة ؟.

قيل الكثير في أسباب إخفاق مؤتمر طنجة والمؤكد أن إستراتيجية ديغول المدروسة مثلت تحديا أساسيا لمقررات طنجة ،ولم تجد الأنظمة القطرية المناعة الكافية للصمود وراء مشروع الوحدة، بل أن خلافات عميقة انفجرت في وجه العلاقات المغاربية، وتنصلت الحكومات من التزامات طنجة.

لقد أضعفت حرب الجزائر الجمهورية الفرنسية الرابعة، ورد العسكريون وأوروبيو الجزائر نجاحات الثورة الجزائرية بتنظيم انقلاب ١٣ ماي ١٩٥٨، الذي جاء بديغول إلى السلطة وأدخلت عودة ديغول إلى السلطة معطيات جديدة، إذ نجح في تعبئة القوى السياسية الداخلية ورائه، وتحطيم العزلة الدولية لفرنسا، وأولى مسألة تحطيم تحالف طنجة الاهتمام الأكبر ،معتمدا على استراتيجية تطويق آثار طنجة وضرب وحدة شمال إفريقيا على جبهتين:الموقف من المشكل الجزائري، والعلاقة الجديدة مع حكومتي تونس والمغرب.(٤١)

لقد أعلن ديغول أن الإدماج هو السياسة الرسمية في الجزائر(٤٢)، واستطاع بذلك كسب الرأي العام الفرنسي لفكرة "الجزائر فرنسية" ،وأحرز على ولاء القيادات العسكرية ،كما وضع حدا لأمل تونس والمغرب في إمكانية استقلال الجزائر على المدى القريب، واندماجها معهما في إطار قرارات طنجة .

وبخصوص السياسة الجديدة المنتهجة مع تونس والمغرب فقد زاوجت بين التشدد والإغراء:

ـــ فلقد تبين أولا أن مسألة إدماج الجزائر بهذا التشدد تعني التهديد بتوسيع رقعة الحرب إلى تونس والمغرب، إذا أصرت حكومة كل منهما على تطبيق قرارات طنجة، خاصة وأن عسكريي الجزائر بادروا للتحرش بأراضيهما (٤٣) ,وأنه بامكان ديغول أن يطلق أيديهما في ظل حكمه القوي، وأن التهديد بتوسيع رقعة الحرب سيأخذ جدية أكبر تختلف عن تهديدات الجمهورية الرابعة المتهاوية.

وحتى يأخذ هذا التهديد صبغة التخويف لا تجدير الموقف باتجاه التضامن مع الجزائر بادر الجنرال ديغول إلى تطمين تونس والمغرب بإعلانه احترام استقلالهما، وذلك بهدف دفع نظام البلدين للاطمئنان على مكاسبهما والتزام الحياد وعدم تجسيم قرارات مؤتمر طنجة، ولم يكتف عند هذا بل سعى لبذر الخلاف بين تونس والمغرب ومنع تفاهمهما على خطة مشتركة، فلقد وجه ديغول إلى كل من بورقيبة ومحمد الخامس رسالتين مختلفتين، الأولى توحي بوجود رغبة لديه في التفاهم والتعاون ،والأخرى كانت لهجتها تنم عن التعالي والتشدد، والهدف من لهجة الرسالتين هو محو التقارب بين تونس والمغرب حتى لا تنسق سياستهما بشكل متشدد إزاء فرنسا[٤٤].

ـ بعد إعلان السياسة السابقة طرح ديغول كذلك سياسة الإغراء لضرب مقررات طنجة معتمدا في ذلك على جزرة البترول، فلقد لوح ديغول بمشروع استثمار صحراء الجزائر على الرأسمال الغربي وعلى الجيران ،وخطط لجعل الصحراء منطقة فرنسية مستقلة تساهم في بناء "العظمة الفرنسية"اقتصاديا وعسكريا، ولإنجاح مشروع استغلال بترول الجزائر الذي تعيقه عدة مصاعب لجأت فرنسا إلى مفاوضة الحكومات المغاربية بشأن المساهمة في استثمار البترول والقبول بمرور أنابيب البترول عبر أراضيها، وأمام رفض الحكومة الليبية مرور بترول إيجلي عبر أراضيها لجأت فرنسا إلى إغراء الحكومة التونسية بقبول العرض،وكانت تصبو إلى تحقيق أهداف سياسية على المستوى المغاربي والدولي، منها إظهار نجاح مشروع استثمار البترول ،وخلق خلاف بين الحكومة التونسية وجبهة التحرير الوطني من شأنه أن يقضي على قرارات طنجة[٤٥].

وهكذا نجحت الإغراءات الفرنسية في إسالة لعاب المسؤولين التونسيين والمغربيين ،خاصة وأن مشروع استثمار الصحراء يخدم مطالبهم القطرية في تعديل الحدود مستقبلا، إذ أصبح الحديث عن مجموعة فرنسية شمال إفريقيا للتعاون يزاحم مشروع وحدة المغرب العربي ،وطال مجال الإغراء مسألة جلاء القوات الفرنسية الجزئي عن تونس والمغرب، وإن كانت مجرد تظاهرة شكلية إلا أنها أرضت بعض المطامح القطرية، وساعدت على تشجيع حكومتي تونس والمغرب للتنصل من التزاماتهما القطرية، حتى أن تونس جعلت من انعقاد مؤتمر المهدية عرسا للاحتفال بالجلاء وكان إصرارها على التضحية بقرارات طنجة واضحا ,وهكذا تمكنت المخططات الديغولية من قلب مشروع طنجة من أساسه لصالح فرنسا، وكادت أن تعزل بذلك جبهة التحرير الوطني

وقد أوضح خيوط هذه الاستراتيجية أحد صحفي "المجاهد"[46]، وتفطنت لها جبهة التحرير الوطني في وقتها، واجتهدت في مواجهتها ،حتى أنها لوحت بالعودة من جديد إلى مغربة الحرب وتجذير الموقف عندما نشرت في المجاهد مقالا عنوانه "امتحان المغرب العربي, أكدت فيه "أن المغرب العربي في حالة حرب، ولكي تتوفر في هذه الحرب شروط الانتصار يجب أن نخوضها ونتحملها جميعا في آن واحد من قابس إلى أغادير" [47].

وهددت جبهة التحرير الوطني بأنها ستخوض المعركة العسكرية اعتمادا على تضامن شعوب المغرب العربي, ولكن العلاقات المكرسة مع حكومتي تونس والمغرب كان من الصعب هدمها دفعة واحدة، فاجتهدت في المناورة والمراوغة الدبلوماسية عازفة على وتر التضامن الشعبي والوحدة المرسخة في طنجة،ومشجعة على مزيد من التلاحم في وجه الاستعمار المحتضر،وداعية للإسراع في تحقيق قرارات طنجة [48]، وطالبت جبهة التحرير من تونس والمغرب توحيد المعركة سياسيا دون إظهار الدعم المباشر، واقترحت عليهما مشاركة الجزائر المستقلة في استثمار ثروات الصحراء بدل التفكير في الفضلات التي يعرضها ديغول مقابل شرعنة استعمار الجزائر، أو أن يعرض المغرب العربي كله على فرنسا التعاون من أجل استثمار ثروات الصحراء، بما يخدم مصالح شعوب المغرب العربي [49]، فهل تتمكن جبهة التحرير الوطني من إقناع شركائها والحفاظ على تعهدات طنجة، أم أن تونس والمغرب سيتخليان عن هذه التعهدات في مؤتمر المهدية بتونس.

رابعا ــ مؤتمر المهدية والتراجع عن قرارات طنجة:

التأم شمل الأقطار المغاربية الثلاث على مستوى الهيئات التنفيذية بعد تلك التغيرات العميقة التي عرفتها فرنسا والمنطقة المغاربية في أقل من شهرين من انعقاد مؤتمر طنجة، وكان يبدو أن عقد هذه الندوة بحضور حكومتي تونس والمغرب ولجنة التنسيق والتنفيذ هو مغري للغاية ،ويضمن الخروج بقرارات عملية، غير أن نقل النقاش من الإطار الحزبي إلى الإطار الرسمي كان يعني أشياء كثيرة ،منها أن النقاش سيسري في إطار ضيق، وتوجيه حكومي صارم يمكنه أن يدجن قرارات طنجة ,ويعطيها صبغة تضامنية غير إلزامية, وقد سجل وفد لجنة التنسيق والتنفيذ كامل احتياطاته لمواجهة "مؤامرة اغتيال قرارات طنجة"، والتصدي لحكومتي تونس والمغرب المتأثرتين بأخطبوط السياسة الديغولية.

انعقد الاجتماع في المهدية أيام ١٧_٢٠ جوان ١٩٥٨، وذلك للنظر في تطبيق قـرارات طنجة وترسيمها، وقد تقرر أن يشتمل جدول أعماله على النقاط الآتية:

١ــ تطبيق مقررات طنجة (مساعدة الجزائر، جلاء قوات الاحتلال ،إدانة سياسة الجنـرال ديغول، الموقف المشترك في الأمم المتحدة، الحكومة الجزائرية).

٢ــ دراسة مسألة إقامة الهيئات التي تنص عليها قرارات طنجة (الأمانة الدائمة، المجلـس الاستشاري).

وإن كانت التصريحات الرسمية والصحافة الحزبية تغنت آنذاك بما تم ترسيمه من قرارات إلا أن الحقائق تحرجت صحيفة المجاهد من إعلانها [٥٠] وظلت مغيبة، ويكشف عنها تقرير سري نشره محمد حربي عن مناقشات المؤتمر ،ويوضح مسعى ممثلي الحكومة التونـسية والمغربيـة للتنصل من التزامات طنجة، وعمق الخلافات التي أثارها نقاش المؤتمرين .

خلال الجلسة الأولى تم بحث مسالة إعانة الجزائر ،واستعلم الوفـد الجزائـري عـن الإجراءات المتخذة لتقديم أشكال المساعدات المتفق عليها في طنجة، وتبين أن الحكومتين لم تدرسا المسألة بجدية ،وقد اقتصرتا الأمر على مساعدة اللاجئين، وبرر الباهي الأدغم ذلـك بالقول أن موارد تونس المالية قليلة ولا تسمح لها بالمساهمة في الميزانية التي تتطلبها الثـورة الجزائرية، و أنها تقوم بمساعي لدى الهيئات الدولية لإغاثة اللاجـئين [51]، وهكـذا لم تـرق المساعدة المالية للحكومتين إلى مستوى مساهمة الدول العربية في إطار جامعة الـدول العربيـة، وانتقل النقاش لدراسة قضية جلاء القوات الأجنبية، فأشاد الباهي لدغم بما حققتـه تـونس بعقدها اتفاقية الجلاء مع الحكومة الفرنسية، وأوضح بوعبيد أن الوضع لم يتقدم في المغرب رغم الجلاء عن بعض مناطق شرق المغرب، وتدخل بوصوف ليوضح أن معركة الجـلاء لم تنته ،وانه يتوجب الحذر والمضي في متابعتها حتى النهاية والتمس اطلاع المجتمعين على نص الاتفاقية التونسية- الفرنسية الأخيرة، فرد الباهي لدغم بانفعال رافضا كشف الوثيقة ،وأكد فرحات عباس شرعية مطلب بوصوف باعتباره يستند إلى مقررات طنجة التي أقرت عـدم ربط مصير أي قطر في مجال السياسة الخارجية دون إعلام الأعضاء الآخـرين، لقـد أرادت لجنة التنسيق والتنفيذ الاطلاع على نص الاتفاقية بتفاصيلها، ورغبت في أن تعامـل كطـرف مثلها ممثل المغرب لكن الحكومة التونسية أبت عليها ذلك ،مما جعل الشكوك تحوم حول نوايا التونسيين ومدى تمسكهم بمقررات وحدة المغرب العربي [52]، وانتقل النقاش في اليوم التـالي

للنظر في موضوع إدانة سياسة ديغول في الجزائر، فطالب الوفد الجزائري بإدانة صريحة وتأييد وجهة نظره في مطلب الاستقلال التام، فرد بوعبيد على ذلك قائلا :"نحن هنا كمسؤولين سياسيين مطالبين بالنظر إلى الأبعد، وعلى صعيد السياسة يجب دائما ترك هامش انطباع وليس من الضروري أن يكون المرء بالغ الوضوح والدقة...زيادة على ذلك وبعد تأكيد المبادئ المتفق عليها يجب أن نختار الوقت المناسب وأن لا تكون دائما ملتصقتين بالأحداث ويكون مفيدا أن نتحرر قليلا من الاتحاد الشمال الإفريقي ،إن مجيء ديغول حدث عالمي...ينبغي إذا التفكير والرؤية بوضوح "[53] ,ورد عباس على هذا النصح قائلا بأن وضعية الشعب الجزائري هي التي تحدد منطلق السياسة فالجزائر في حرب ولا يمكن لها مواجهة سياسة ديغول إلا بالحرب " فإن موقف ديغول يعني الحرب، وذلك مهما يكن الدعم الذي قد يتلقاه ديغول من الأمريكيين والروس أو حتى من المصريين إن كلمة الإدماج تعني الحرب "[54]، وفي محاولة لتليين مواقف جبهة التحرير الوطني السياسية اقترح وفد الحكومتين اعتماد خطاب بورقيبة كمخرج لقضية الجزائر، وكان بورقيبة اقترح من جديد الدخول في مفاوضات من أجل استقلال مرحلي[55]، ورد فرحات عباس وبوصوف بالقول أن هذا الحل لا يصلح للمشكلة الجزائرية، وهكذا حصل الاختلاف في المبادئ السياسية وبدا أن تونس والمغرب غير مقتنعتين بالخط الذي تسلكه جبهة التحرير الوطني وتطمحان في أن تعدل من مبادئها وتسعى للتفاوض بدل التركيز على المعركة العسكرية ,وهذا ما أوضحه مشروع البيان الذي ساهم بوعبيد في إعداده وكان محل نقد فرحات عباس وبوصوف وكريم باعتباره يتحدث عن موقفين موقف جبهة التحرير الوطني المتشدد وموقف الحكومتين التونسية والمغربية الذي ينشد إيجاد حل سلمي للقضية ويدعو إلى وساطة الحكومتين لإجراء مفاوضات عادلة.[56]

وبعد انقطاع متوالي لجلسة النقاش بسبب إثارة الفقرة الرابعة من البيان لمسألة تشجيع الوساطة التونسية والمغربية اتفقت الوفود الثلاث على إدراج الفقرة الرابعة ضمن بند توحيد الموقف في الأمم المتحدة, وشددت على درس الوسائل الكفيلة بتبني موقف مشترك في الأمم المتحدة وتنسيق العمل الديبلوماسي لصالح القضية الجزائرية, وأوضح الباهي لدغم أن الظروف توجه الأحداث ,وأنه يمكن تجاوز موقف موحد في الأمم المتحدة والاتفاق على مبادئ مشتركة تركز على البحث عن حلول سلمية، وفي هذا تهرب من الارتباط بمواقف جبهة التحرير الوطني ومبادئها التي ستعرضها في الأمم المتحدة[57]

وخصص اليوم الأخير لإتمام دراسة جدول الأعمال، المتضمن ثلاث مسائل رئيسية : مسألة إقامة مؤسسات الوحدة التي أقرها مؤتمر طنجة وقضية إنشاء حكومة جزائرية مؤقتة وكذا المصادقة على البيان الختامي، ويتبين أن مسألة إنشاء مؤسسات الوحدة لم تأخذ مناقشتها الوقت الكافي رغم أنها تمثل القسم الثاني من جدول الأعمال ويبدو أنها لم تحض بالجدية المطلوبة ،وأن الخلاف حول مسائل القسم الأول استغرقت أيام المؤتمر الأربعة .

وعموما اتفقت الأطراف الثلاثة على تسمية أعضاء الأمانة الدائمة, فعينت تونس أحمد التليلي وعبد المجيد شاكر وعينت لجنة التنسيق أحمد فرنسيس وأحمد بومنجل في حين ذكر بوعبيد أن المغرب لم يحسم اختياره بعد، مما يعني أن اجتماعات الأمانة العامة ستبقى معلقة ،وتم الاتفاق كذلك على تشكيل أعضاء المجلس الاستشاري مؤقتا من ثلاثين عضوا عشرة أعضاء عن كل بلد على أن يعقد اجتماعه الأول في تونس.[58]

وبخصوص إنشاء حكومة جزائرية مؤقتة اهتم الوفدين التونسي والمغربي بمناقشة كثير من القضايا التي طرحتها كلمة الاستشارة الواردة في مقررات طنجة، فمن وجهة نظر بوعبيد هي تعني "...دراسة مشتركة لبعض الضوابط قبل الإعلان :ـ الملائمة السياسية للإعلان (الظرف) ـ اختيار المقر ـ نتائج سبر الآراء الذي أجري لدى مختلف الحكومات ـ اختيار الرجال الذين سيشكلون هذه الحكومة لا يعنينا، لكن تحديد تاريخ الإعلان يجب أن يناقش لأن الاستشارة لا تعني فقط الإعلام المسبق بتاريخ الإعلان ،رأينا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار لأننا لسنا هنا بني وي وي " وأما وجهة النظر التونسية فكانت الاستشارة تأخذ معنى ابعد تصل حتى لتشكيلة الحكومة كما أوضح الباهي الادغم :"...علينا أن ننبه لجنة التنسيق والتنفيذ حول مسألة تشكيلة الحكومة لأننا نعرف أن الدول الأجنبية تعلق أهمية كبيرة حول هذه التشكيلة والتي هي في الغالب مؤشرا للتوجه الإيديولوجي ،إن الأشخاص يعنون الكثير بالنسبة للخارج, وفي كل ما بقي أؤيد وادعم السيد بوعبيد", ورد كريم بانفعال محملا الحكومتين عواقب مسؤولية عدم اعترافهما بالحكومة الجزائرية التي ستولد بقرار جزائري، وحاول فرحات عباس تلطيف الأجواء بوعد الحكومتين تقديم ملف كامل عن الاستشارات التي تلتمسها لجنة التنسيق والتنفيذ ،وتمت المصادقة على البيان الختامي[59] في أجواء من الارتياب وعدم الاطمئنان لمواقف الحكومتين التونسية والمغربية، لقد بدا تراجعهما عن قرارات طنجة واضحا، ودلت التسويفات والمراوغات أن مسالة دعم الجزائر ووحدة المغرب العربي ستظل مجرد شعارات، ولم يكن بمقدور لجنة التنسيق والتنفيذ فضح هذه المواقف

فرأت أن تحافظ على علاقاتها السياسية لإظهار وحدة التكتل المغاربي في وجه فرنسا وعدم صدم التضامن الشعبي الذي عبر عن آمال واسعة

وأمام هذه الحقائق كانت صحافة جبهة التحرير الوطني محرجة بين أن تعلن الحقيقة فتصطدم بالحكومة التونسية وبين أن تخفي الحقيقة وتساهم في مغالطة القواعد النضالية، ورأت أن تأخذ بوسطية لجنة التنسيق والتنفيذ، وتحدثت عن أجواء المؤتمر بصورة مهذبة، ونبهت إلى بعض المخاطر التي تهدد المغرب العربي .(60)

وهكذا يمكن القول أن قرارات مؤتمر طنجة قبرت في المهدية، وأن السياسة الديغولية التي ذكرنا خطوطها كان لها دور رئيسي في عدم تجسيد تلك القرارات ،كما أن نظامي تونس والمغرب اجتهدا في تأويل مقررات طنجة، وتأجيل موضوع الوحدة إلى أجل مسمى، مما يؤكد على تغليب الاهتمامات الوطنية على حساب مطمح الوحدة، وكان هذا سببا مهما في فشل مشروع الوحدة (61) وإجمالا يمكن أن نحصر العوامل التي ساهمت في فشل مقررات طنجة في النقاط الآتية :

ـ اختلاف الأطراف الثلاث حول مفهوم الوحدة المغاربية، ففي حين كانت جبهة التحرير الوطني تفسر هذه الوحدة بوحدة العمل لمواجهة العدوان المشترك، كانت تونس والمغرب تعتقد أنه من المستحيل إقامة مؤسسات الوحدة قبل نيل الجزائر لاستقلالها ،هذا فضلا عن الاختلافات السياسية والإيديولوجية للأنظمة السياسية في الدول الثلاث .

ـ الانقسامات والمشاكل التي اعترضت الأحزاب المغاربية الثلاث، خاصة الانقسام الذي عرفه حزب الاستقلال وانشغال قادته بالهم الوطني، كما أن الخلاف استشرى في مؤسسات جبهة التحرير الوطني خلال عام ١٩٥٩ .

ـ استفحال الخلافات بين الأطراف الثلاث فمنذ جوان١٩٥٨ دخلت جبهة التحرير الوطني في خلافات حادة مع تونس التي خرقت مقررات طنجة وأمضت اتفاقية"إيجلي" مع فرنسا، وواجهتها كثير من المشاكل مع المغرب ترجع إلى مسألة الحدود ونشاط الثورة في المغرب، وتعرضت العلاقات المغربيةـ التونسية لأزمة حادة بسبب الموقف التونسي من المشكلة الموريطانية.

ـ عدم وفاء تونس والمغرب بالتزاماتها إزاء مقترحات دعم الثورة الجزائرية مما جعل القادة الجزائريين يشعرون بتخلي نظامي البلدين عن الثورة الجزائرية في هذه المرحلة الحاسمة ويرفعون

شعارا بديلا للوحدة أساسه الوحدة الشعبية العملية، الأمر الذي كان يثير تخوف النظامين من تجند شعوب المغرب العربي وراء إيديولوجية جبهة التحرير الجزائرية، التي أصبحت غريما وليس حليفا.

هذا وقد احتكر كل طرف تفسير عوامل إخفاق مشروع وحدة طنجة, فارجع علال الفاسي ذلك الى "...الانحراف الذي أصاب الحكومة في أيام عبد الله إبراهيم فيما يخص المغرب،والاختلاف الذي جرى بيننا وبين تونس حول قضية موريطانيا، والاتجاه في السياسة الخارجية"[62], وفي مناسبة أخرى أضاف إليها أسباب عديدة منها حملة بعض الأقطار العربية ضد مؤتمر طنجة، والحركة الانفصالية داخل حزب الاستقلال، والخلافات داخل جبهة التحرير الوطني، وعدم نجاح التجربة النيابية في المغرب والجزائر [63]، أما الحزب الدستوري الحاكم في تونس فإنه ربط مسألة الوحدة بمسألة استقلال الجزائر، وأعطى لها الرئيس بورقيبة تصورات ضحلة وغير واضحة مما يؤكد أن الوحدة المغاربية أصبحت في نظره مجرد شعارات لخدمة الأهداف القطرية [64] ,في حين أن جبهة التحرير الوطني اقتنعت منذ ظهور السياسة الديغولية، وانقلاب حكومتي تونس والمغرب عن قرارات طنجة في المهدية، أن مؤتمر طنجة كان مجرد مبادرة ظرفية صنعت لحظة حماسية، وأن الأوساط الرسمية لا يمكنها أن تخلص اهتماماتها لخدمة الكفاح الجزائري فضلا عن تجسيد الوحدة ,وظهر ذلك مبكرا عندما أمضت تونس اتفاقية إيجلي وطالب المغرب بتحديد الحدود، إذ لم يعد هناك حديث عن الوحدة بقدر ما أصبح التركيز مقتصرا على علاج المشكلات القطرية، وعليه لم يعد هناك من خيار سوى تجنيد القوى الشعبية وراء هذا الطموح الجمعي، وبهذه السياسة حافظت الثورة الجزائرية على تفاعل التضامن الشعبي وراء أهداف طنجة الوحدوية .

وهكذا يبدوا لنا أن الظروف المحلية والإقليمية هي التي أملت قرارات مؤتمر طنجة، وأن هذه المبادئ والقرارات التاريخية انتعشت لفترة زمنية معينة وكانت تخدم التوجه الثوري لجبهة التحرير الوطني، وقد أدت السياسة الديغولية إلى التراجع عن تلك القرارات تحت طائلة التهديد والإغراء، فأصبحت بعدها المطامح القطرية سيدة الموقف في تحديد العلاقات المغاربية، وعلى الرغم من أن قرارات طنجة لم تعرف التنفيذ إلا أنها أثرت البعد المغاربي للثورة الجزائرية, واصطبغت سياسة تضامنية جديدة مع الجزائر, كما ان جبهة التحرير الوطني لم تفقد الأمل في تكريس التضامن المغاربي وخدمة كفاحها التحرري بعد فشل مؤتمر المهدية ,ونجحت في مواجهة التراجع المسجل في توجهات السلطتين التونسية والمغربية, وذلك بالاعتماد أساسا على قوة التضامن الشعبية .

الهوامش

(١) انظر الجنيدي خليفة وآخرون : حوار حول الثورة , طبع المركز الوطني للتوثيق والصحافة والاعلام ,الجزائر ١٩٨٦, ج٣, ص ـــ ص٣٨٨ـــ٣٨٩

(٢) انظر بعض الدراسات التي أرخت لمؤتمر طنجة تحليلا ونقدا، أمحمد مالكي: إشكالية وحدة المغرب العربي، دبلوم دراسات عليا، كلية الحقوق، جامعة الرباط، ١٩٨٩ . ومحمد الميلي :المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامح الشعوب , ط١,دار الكلمة للنشر ,بيروت ,١٩٨٣.

(٣) انظر مثلا برقية رئيس الحكومة المغربية الموجهة إلى لجنة التنسيق والتنفيذ، احمد توفيق المدني:حياة كفاح مذكرات ,الجزء الثالث, ط٢, م و ك, الجزائر , ١٩٨٨, ص٣٨٠

(4) DLASMAS (G) Evolution general des barrages frontiers en algerer REVUE INTERNATINALE D HISTOIRE MILITAIRE N°76 (1997)

(٥) انظر المجاهد , لسان حال جبهة التحرير الوطني، عدد ١٨(١٦فيفري ١٩٥٨) ص٢

(٦) انظر تقرير حول السياسة الفرنسية في الجزائر بالأرشيف الدبلوماسي الفرنسي، اعدته وزارة الخارجية الفرنسية

A.Q.O . serie Algerie 1953 1959 DOS n- 5 2 .

(٧) انظر بخصوص التحالف الفرنسي الإسباني ,محمد بن سعيد ايت يدر :صفحات من ملحمة جيش التحرير بالجنوب المغربي , ط١, مطبعة صوماكرام ,الدار البيضاء ,٢٠٠١ ص ـــ ص١٥٩ـــ١٦٨ .وعبد الإله بلقزيز وآخرون :الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ١٩٤٨ـــ ١٩٨٦ محاولة في التاريخ ,ط١, م د و ع , بيروت ,١٩٩٢, ص ١٥٥

(٨) انظر صحراء المغرب، جريدة اسبوعية مغربية , عدد ٤٩ ،(٢٧ فيفري ١٩٥٨)

(٩) انظر نص البلاغ ،جريدة العلم، لسان حال حزب الاستقلال المغربي ,عدد ٠٣ مارس ١٩٥٨

(١٠) انظر نص الرسالة ،جريدة العمل، لسان حال الحزب الدستوري التونسي، عدد ٠٥ مارس ١٩٥٨

(١١) ضمت علال الفاسي وعبد الرحيم بوعبيد ومحمد بوستة

(١٢) نعتمد رواية أبو بكر القادري ,وهو عضو اللجنة السياسية لحزب الاستقلال ومطلع على خبايا المؤتمر ,انظر شهادته، أبو بكر القادري :مؤتمر طنجة لوحدة المغرب العربي,العلم السياسي ,المغرب ,العدد٤ (أكتوبر ١٩٨٢) ص ـــ ص،٤ ـــ ٥

(١٣) انظر نص البلاغ المشترك للوفدين، العمل , عدد ٢٣ مارس ١٩٥٨ .وقد جرت المذاكرة خلال الفترة مابين ١٩ـــ ٢٢ مارس ١٩٥٨

(١٤) انظر مصطفى الفيلالي : مفهوم المغرب العربي: تطوره تصورا وممارسة وعلاقته بالوعي القومي: تطور الوعي القومي في المغرب العربي, ط١,م د و ع , بيروت , ١٩٨٦, ص١٣

(١٥) انظر ,محمد الميلي :المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامح الشعوب, مرجع سابق , ص ـ ص،٥١_٥٤

(١٦) انظر شهادة عبد الحميد مهري ,مقابلة مع الباحث, الجزائر, ٧ اوت ٢٠٠٥

(١٧) انظر العمل ,عدد (٢٨ أفريل ١٩٥٨)

(١٨) انظر المجاهد ,ع ٢٣ (٧ ماي ١٩٥٨)

(١٩) انظر العمل ,عدد ,٢٧ أفريل ١٩٥٨

(٢٠) انظر نص بيان مؤتمر طنجة ،المجاهد ع ٢٣ (٧ ماي ١٩٥٨) والعلم السياسي ع١٠ (أفريل ١٩٨٣), والملحق رقم ٨

(٢١) انظر محمد الميلي : مواقف جزائرية , ط١, م و ك , الجزائر, ١٩٨٤, ص ـ ص،٧٩ـ ٨٠

(٢٢) انظر نص البيان المجاهد ,ع ٢٣ (٧ ماي ١٩٥٨)

(٢٣) انظر، محمد الميلي: مواقف جزائرية , المرجع السابق , ص ـ ص ٧٢ـ٧٣, ٨١

(٢٤) انظر نص البيان المجاهد,ع ٢٣ (٧ ماي ١٩٥٨) ,ونشير إلى أن إعلام حزب الاستقلال تعمد في البيان ذكر إلحاق سكان موريطانيا بالوطن المغربي في حين أن جريدة المجاهد والعمل تؤكد أن الاتفاق حصل على أن المقصود بالوطن المغربي هو الوطن المغاربي. فهل هذا كان سوء فهم, أم توجيه قسري لمقررات طنجة لخدمة أهداف قطرية ضيقة. انظر, المجاهد ,عدد ٢٣ (٧ماي ١٩٥٨) , العمل عدد (٣٠ افريل ١٩٥٨) ,والعلم السياسي ع ١٠(أفريل ١٩٨٣)

(٢٥) انظر بيان مؤتمر طنجة، المجاهد عدد٢٣ (٧ ماي ١٩٥٨) س ١١

(٢٦) انظر الجابري محمد عابد: فكرة المغرب العربي أثناء الكفاح من أجل الاستقلال، وحدة المغرب العربي ،اشغال ندوة عقدت بباريس ،عام ١٩٨٦, ط١ م د و ع ,بيروت , ص ـ ص، ٢٢ ـ ٢٣

(٢٧) انظر حوار عبد الحميد مهري في الندوة الأولى لانعقاد مؤتمر طنجة, المجاهد .ع (٢٢ جوان ١٩٥٩)

(٢٨) مصطفى الفيلالي : المغرب العربي الكبير، نداء المستقبل ، ط٢, م د و ع , بيروت , ١٩٨٩, ص ـ ص،١٦ـ١٩

(٢٩) انظر شهادة مهري عبد الحميد , مقابلة مع الباحث

(٣٠) انظر تأكيدات الفاسي ، صحراء المغرب، ع٦٠ (٢١ماي ١٩٥٨)

(٣١) انظر نص البلاغ ،العلم السياسي , ع ١٠(أفريل ١٩٨٣)

(٣٢) المجاهد, ع ٢٣ (٠٧ ماي ١٩٥٨)

(٣٣) انظر المجاهد ، ع٤١، (١ ماي ١٩٥٩)

(٣٤) صحراء المغرب ع٥٨(٠٧ ماي ١٩٥٨)

[35] El Mahdi BEN BARARKA ;Problèmes édification du Maroc et Maghreb, quatre entretiens avec el mahdi ben barka recueillis par raymond gean. Plon. Paris, 1959, P 42

[36] Ibid :p,43

(٣٧) انظر بعض هذه الأصداء في جريدة العمل ، عدد ٣٠ يوم أفريل ١٩٥٨

(٣٨) انظر تقرير كتابة الدولة للشؤون الجزائرية المقدم لوزير الخارجية الفرنسي حول قرارات مؤتمر طنجة، ٥ ماي ١٩٥٨. A .Q.O : Serie Algerie 1953-1959:, B 47,. DOS. A G 5-8

[39] LE MONDE .du 5 Mai 1958

(٤٠) انظر، صحراء المغرب، ع٥٨ (٧ ماي ١٩٥٨)

[41] Henri ALLEG et autres : La Guerre d Algerie ,ed Temps actuels, Paris,.T2. p-p, 588-591

(٤٢) الإدماج مصطلح يعني إلحاق الجزائر قانونيا وإداريا بفرنسا ،وإلغاء الحواجز التي أقامها المعمرون في الجزائر لصالحهم وفتح المجال أمام الاستثمارات الرأسمالية خاصة في الصحراء.

(٤٣) اعتدت القوات الفرنسية على منطقتي قفصة ورمادة في تونس، ومناطق ورزازات ونواحي تافيلالت .انظر صحراء المغرب ،ع ٦١(٢٨ ماي ١٩٥٨)

(٤٤) انظر محمد الميلي: مواقف جزائرية، مرجع سابق، ص ٩٤، و Jean LACOUTURE: Cinq homme et la France, edition du seuil , Paris ,1961, p-p ,176- 177, 198

(٤٥) انظر محمد الميلي :المرجع السابق ،ص ـ ص ٩٥ـ٩٧

(٤٦) نقصد المناضل محمد الميلي ،الذي حرر مقالات المجاهد بخصوص هذا الموضوع، وأعاد طرق الموضوع فيما بعد في كتابين هامين، انظر تحليلاته لهذه السياسة ,محمد الميلي:مواقف جزائرية ,مرجع سابق، ص ـ ص،٩٣ـــ٩٧، ومحمد الميلي :المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامح الشعوب, مرجع سابق، ص ـ ص ٦٢ ـ ٦٩ .

(٤٧) انظر المجاهد ، ع ٢٦ (١٣ جوان ١٩٥٨) .

(٤٨) انظر "الاستعمار المحتضر يمنحنا مزيدا من الفرص لتحقيق الوحـدة المغربيـة": المجاهـد,ع ٢٤(٢٩ مـاي ١٩٥٨)

(٤٩) انظر محمد الميلي : مواقف جزائرية ، مرجع سابق، ص٩٩

(٥٠) انظر المجاهد, ع ٢٦,(٢ جويلية ١٩٥٨)، ص ـ ص، ١ـــ٨

(٥١) انظر محضر مـداولات مـؤتمر تـونس Mohammed HARBI : Les Archives de la revolution Algerienne, ed ,Jeune Afrique ,Paris , p- p,414- 427

(52)Ibid , P-P, 417 - 418 .

(53) Ibid .P 419.

(54) Mohammed HARBI : Ibid: P-P 419- 423.

(٥٥) انظر خطاب بورقيبة في المهدية يوم ١٧جوان ١٩٥٨، ا العمل , عدد يوم ١٧ جوان ١٩٥٨ .

(٥٦) تضمنت الفقرة الرابعة من البيان بعد التعديل مايلي: " قرر المؤتمر بعد دراسة الوضعية الدولية القيام بعمل مشترك على المستوى الدبلوماسي من أجل الوصول إلى حل سلمي للمسألة الجزائرية وهو يشيد بالاستعدادات الحفيفة للحكومتين التونسية والمغربية في بحثها عن الوسائل الممكنة لوضع حد لحرب الجزائر " انظر Mohammed HARBI : Ibid, P 425

(57) Ibid . P-P ,424- 425.

(58) Mohammed HARBI : Ibid P 425

(٥٩) لم نتوصل إلى نص البيان المشترك فهل كان سريا للغاية أم أن الاطراف الثلاث تعمدت التكتم عليه خاصة وانه لم يكن في صالح الوحدة والتضامن المغاربي, وقد عرض المحضر الذي أورده حربي وصحيفة المجاهد خطوطه العامة ,انظر ,المجاهد ع ٢٦(٢جويلية ١٩٥٨)

(٦٠) محمد الميلي : مواقف جزائرية, مرجع سابق , ص١٠٦

(٦١) انظر، المجاهد ع ٤١ (١ماي ١٩٥٨)،ص ــ ص، ١ ــ ٢ ومحمد مالكي :إشكالية وحدة المغرب العربي, مرجع سابق ، ص٢٩٥

(٦٢) علال الفاسي :منهج الاستقلالية , نص التقرير المذهبي الذي قدمه رئيس حزب الاستقلال للمؤتمر السادس المنعقد في الدار البيضاء، جانفي ١٩٦٢، المكتبة الاستقلالية ،الرباط،١٩٦٣، ص١٤٨ .

(٦٣) علال الفاسي :دائما مع الشعب , التقرير المذهبي الذي قدمه الرئيس علال الفاسي للمؤتمر الثامن لحزب الاستقلال ،الدار البيضاء نوفمبر ١٩٦٧، مطبعة الرسالة، الرباط، ١٩٦٧ ,ص ــ ص، ٥٤ ــ ٥٥ .

(٦٤) انظر عبد القادر لعريبي :تونس وعلاقاتها مع بلدان المغرب العربي١٩٤٧ــ١٩٨٠ ,رسالة دكتوراه ،قسم التاريخ , كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية, الجامعة التونسية, ص ــ ص،٢٦٣ ــ ٢٦٤ .

د. نعمة حسن محمد

سباق التسلح البحري بين ألمانيا وبريطانيا
قبيل الحرب العالمية الأولى

شهد العقد الأخير من القرن التاسع عشر والأعوام الأولى من القرن العشرين ذروة تعاظم سياسات القوة في أوروبا، حيث شيدت هذه الأمم قوتها العسكرية بصورة مزعجة ، وتكالبت على المستعمرات والنفوذ في أعالي البحار، ودخلت بذلك العلاقات الدولية منعطفًا جديدًا، حيث قدمت التطورات في مجال التقنية البحرية لهذه الدول القادرة على استغلالها أداة جديدة ومرنة للقوة .

إن السفن الحربية الحديثة بذراعها المتحركة الطويلة نسبيًا والتسليحات الثقيلة يمكن أن توصل قوة القرار الوطني إلى أبعد أركان العالم. كما أن المقدرة على بناء واستخدام أساطيل ضخمة أصبحت سمة وطابع الاحترام الدولي، وعلى ذلك فقد وسعت الأساطيل الجديدة المجال، وبدلت مقاييس وقواعد لعبة القوة، وظهر لاعبون جدد مثل اليابان والولايات المتحدة، بعد أن كان النظام مقصورًا من قبل على القوى الأوربية. فأدرك القيصر "فلهلم الثاني Wilhelm II" أهمية هذه التغييرات وعزم على إنشاء أسطول قوى، وراحت ألمانيا تعلن عن كونها إمبراطورية

* مدرس بقسم التاريخ – كلية الآداب عين شمس

عالمية تسعى إلى الحصول على احترامها كقوة عظمى، وأسطول تحمى به تجارتها المتنامية. أما بريطانيا سيدة الأمواج فقد أصبحت تنظر بعين القلق لمثل هذه التطورات وقررت أن تفسد مناورات ألمانيا.

وفي طيات هذه التوترات بدأنا نلمح خيوط عنصر أساسي وهو السباق البحري الإنجليزي – الألماني الذي أصبح السمة الرئيسية للعلاقات بين الدولتين، فقد واجهت بريطانيا على مدى تاريخها سلسلة من التحديات كان أغلبها نتيجة اشتراكها في سباق التسلح، حيث كانت فرنسا وروسيا، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هما أكبر منافسين لبريطانيا، وسعت للتفوق عليهما، وبنهاية القرن التاسع اختلفت الأمور، ففي الوقت الذي تناقصت فيه قوة التهديد الفرنسي – الروسي، تعاظم التهديد الألماني وأضحت بريطانيا تؤكد غريزة صيانة الذات لديها ،وأصبح عزمها على الحفاظ على سيادتها البحرية صلبًا لا يلين من أجل حماية جلب الطعام والمواد الخام لشعبها.

وتحاول هذه الدراسة إلقاء الضوء على أسباب هذه المنافسة، والعوامل السياسية والاستراتيجية والاقتصادية التي أدت إلى ظهور هذا السباق وتصاعده من جانب الدولتين،والأسباب التي دفعت صناع القرار في الدولتين للدخول في مفاوضات للحد من سباق التسلح، ودور العوامل الداخلية وتأثيرها على سير المفاوضات، وكيف راوغت كل من ألمانيا وبريطانيا للتهرب من القيود التي كان من المفترض أن تنص عليها الاتفاقيات المقترحة أثناء المفاوضات؟ ولماذا لم تترجم المفاوضات الرسمية وشبه الرسمية إلى وقف سباق التسلح أو حتى تحسن في العلاقات الثنائية بين البلدين والوضع الدولي؟ وهل كان للدول الأوربية الأخرى تأثير في ذلك؟

أولاً : توتر العلاقات الألمانية – البريطانية في أوائل القرن العشرين :

في البداية تجب الإشارة إلى إنه لم تكن هناك ثمة أسباب متأصلة للكراهية بين ألمانيا وبريطانيا بل كان هناك على النقيض من ذلك أسباب تبعث على التقريب بينهما، فقد كان الألمان والانجليز ينتمون إلى فرع واحد من أفرع الجنس التيوتوني، ويتكلمون لغة مستمدة من أصل مشترك وكثيرًا ما حاربوا جنبًا إلى جنب في معارك حامية، وآثر الانجليز حكم أسرة مالكة ألمانية الأصل على أن يحكمهم ملك إنجليزي كاثوليكي، وأصبحت ألمانيا بتقدم الأيام أفضل عميل أجنبي للبضائع الإنجليزية [١].

ولكن أخذ العداء الألماني – الإنجليزي يظهر ويتعاظم، لا بسبب أزمات مفاجئة ولكنه كان كـسُـم يسرى ببطء، وكان السبب الرئيس لهذا العداء الرضا البريطاني وعدم الرضا الألماني بالتوزيع الموجود للقوى العالمية عندما قررت ألمانيا إقامة أسطول لأعالي البحار يماثل في حجمه وكفاءته الجيش الألماني، وهو التطور الذي بدا لبريطانيا كما لو كان سعيًا ألمانياً للهيمنة زمن السلم على كل أوربا وطرقها ومداخلها البحرية، ومن أجل الحفاظ على حالة التفوق البريطاني طورت بريطانيا أسطولها وأقامت وفاقات مع كل من فرنسا وروسيا ،وردت ألمانيا بتقوية أسطولها والتصقت بالنمسا، وحاولت فصم عرى الوفاقات، وأخذت كل منهما تلقى اللوم في هذه المنافسة على الأخرى .

ونظرًا لكون بريطانيا دولة جزيرة فقد ظلت دائمًا تعتمد على الأسطول كعامل حماية وضمان لسيادة أراضيها، وكان ذلك بمثابة عامل يجذب بريطانيا من هامش الدبلوماسية الأوربية إلى مركزها إذا ما تهدد التوازن الأوربي . وعلى الرغم مما حققته بريطانيا في مجال الصناعة من تقدم خطير، حيث كانت أولى دول العالم في هذا الشأن، فقد ظلت أمامها مشكلة كبرى أخذت تقلق بالها، خاصة مع نهاية القرن التاسع عشر، إذ أنها كانت تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الخارج في تدبير السلع الغذائية ، وحرصت بريطانيا على أن تصل هذه السلع إلى ثغورها بسلامة ، وهذه السلامة لا تضمنها إلا قوة بحرية كبرى لإطعام سكانها ولسد حاجة المصانع الدائمة إلى المواد الخام ، وتصدير المصنوعات إلى أقصى الأرض، فلا عجب إذ رأينا بريطانيا تمتلك نصف ما يمتلكه العالم من القطع البحرية[٢] .

وإذا اختلف الإنجليز أحرارًا ومحافظين واتحاديين ونفعيين واشتراكيين فإن الأسطول فوق الأحزاب فهو صمام الأمان ولا درع غيره، فالحفاظ على السيادة البحرية إحدى أسس السياسة البريطانية خاصة في ظل ضعف الجيش البريطاني[٣]. ولا أدل على ذلك من تحرك الأسطول الإنجليزي ضد نظيره الهولندي في القرن السابع عشر للسيطرة على التجارة الأوربية، وكذلك الحروب الفرنسية – الإنجليزية في القرن الثامن عشر من أجل السيادة البحرية، وضرب الأسطول الإنجليزي لكوبنهاجن عام ١٨٠٧ والاستيلاء على الأسطول الدانمركي كغنيمة حرب[٤]، ذلك هو حال بريطانيا فالأسطول بالنسبة لها حياة أو موت، ولكن ما هي الأسباب التي أدت إلى تحرك ألمانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر لتقوية أسطولها الحربي ؟

ثانياً : الأسباب التي دفعت ألمانيا إلى تقوية أسطولها الحربي :

لم يكن الألمان مغرمين بركوب البحر وصناعة السفن ، ولم يلعب الأسطول دورًا ملحوظًا خلال حروب الوحدة الألمانية، حيث اشترك في مهام برية وفي نقل القوات العسكرية. وخلال فترة مستشارية "بسمارك"ظل الأسطول الرفيق الدائم للجيش ، ويبدو أن السبب في ذلك كان زهد بسمارك في التوسع الاستعماري، بينما كان هدفه الأسمى عدم تغيير الحالة الراهنة في أوروبا والحفاظ على حدود ألمانيا بعد الوحدة[٥] .

كذلك فقد كانت الطبقة الأرستقراطية البروسية من ملاك الأراضي ، "اليونكرز" Junkers، تنظر للأسطول على أنه مجرد أداة تستنزف الأموال، حيث كان الأسطول مرتبطاً بالطبقة الوسطى الليبرالية الآخذة في النمو، والتي كانت موضع كراهية طبقة اليونكرز، كل ذلك كان في غير صالح قضية الأسطول[٦] . ولكن تغيرت الأمور مع تولي القيصر "ڤلهلم الثاني" ، آخر أباطرة الهوهنزلرن وحفيد الملكة "فيكتوريا"، عشق الأسطول منذ نعومة أظافره حيث اصطحبته جدته لمشاهدة الأسطول الإنجليزي عدة مرات فتمنى منذ ذلك الحين أن يكون لألمانيا أسطولاً في أعالي البحار[٧] يماثل الجيش في الحجم والقوة والكفاءة.

ولكن كثيرًا ما وضع "الرايخستاج" العراقيل أمام طموحات القيصر البحرية ورفض التصويت على الأموال اللازمة للتوسع في الإنشاءات البحرية مؤكدًا أن ألمانيا ، بحكم العادة، قوة برية وليست في حاجة إلى الأسطول وهنا اختار القيصر "الفريد فون تربتز" Alfred Von Tirpitz ليكون وزيرًا للبحرية في يونيه ١٨٩٧ لإنجاز هذه المهمة وإنشاء أسطول ألماني لأعالي البحار على مدى سبعة عشر عاماً يصل إلى مستوى عالمي[٨] . مما أصاب العلاقات الألمانية الإنجليزية في مقتل .

ولكن لماذا فكر القيصر في إقامة مثل هذا الأسطول؟

أولاً : كان القيصر "ڤلهلم الثاني" يتوق قبل كل شيء إلى أن يحقق لألمانيا مشروع القوة العظمى في العالم لكي تتمكن من إعادة توزيع المستعمرات وتنال نصيبها هي الأخرى وتحلق بها على حد قوله مكاناً يليق بها تحت الشمس[٩].

ثانيًا : تأثر "ڤلهلم الثاني" بأفكار "ماهان" Mahan عن القوة البحرية حيث رأى الأخير أن امتلاك الأساطيل الحربية الضخمة وتمركز القوة البحرية هما قوام السيطرة على المحيطات، ولا

يمكن لأي أمة النهوض دون امتلاك قوة بحرية، وقد أمر " فلهلم" بوضع نسخ من كتب "ماهان" على متن كل سفينة، كما تأثر "تربتز" في وضع خططه البحرية بأفكار "ماهان"(١٠).

ثالثـاً : رأت الحكومة الألمانية منذ عام ١٨٩٧ التعامل مع السخط الـداخلي بممارسـة سياسة خارجية قوية كخيار للخروج من مشكلاتها الداخلية لكبح جمـاح دعـاة الإصـلاح والثوريين، واستخدمت الأسطول كمسكن قوى ضد الديمقراطيين والاشتراكيين، بمعنى آخـر كان السبب وراء تطوير الأسطول تحويل الانتباه عن المشكلات الداخلية، كما رأت أن تشييد السفن سوف يؤدي إلى رخاء اقتصادي وإلى تطوير الصناعة الألمانية، مما يدعم وضع العناصـر الحاكمة ويهدئ المطالبة بمزيـد مـن الديمقراطيـة مـن جانـب الأحـرار والـديمقراطيين الاشتراكيين(١١).

رابعًا : مرت ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر بتجربة نمو اقتصادي غـير عاديـة، فقـد ازدهرت الصناعة وأصبحت في حاجة متزايدة لأسواق جديدة ومواد خام لصناعتها، فإمـا أن تكون دولة لها أسطول قوي أو ترضى بدور دولة زراعية فقيرة(١٢)، كذلك فرض عليها ذلـك رغبتها في حماية تجارتها فقد كانت كل الطرق النهرية الألمانية التي تستخدمها التجارة الخارجيـة تصب في بحر الشمال وبحر البلطيق، وتقع بورها هناك، وإذا ما انتشرت السفن المعادية في بحـر الشمال وبحر البلطيق فإن أي حصار لهذين البحرين سوف يعرقل التجارة الألمانيـة، كمـا أن سيطرة بريطانيا على جبل طارق ومصر وعدن وجنوب أفريقيا وغيرها جعلها تـسيطر علـى طرق التجارة العالمية، لذلك رأت ألمانيا أن إنفراد بريطانيا وحدها بالسيادة البحرية لا يتناسـب مع عصر تتطلب فيه المصالح التجارية لكل القوى العظمى الإبقاء على البحار مفتوحة(١٣).

خامسًا : إذا نظرنا لألمانيا نجدها أكثر القوى الأوربية الكبرى في ذلـك الوقـت فاعليـة ونشاطـًا وتقدمًا ولكنها كانت أكثرها في الوقت ذاته تقيدًا بموقعها الجغرافي في وسط أوربا مما جعلها تحت رحمة التفوق العددي الروسي والتهديد العسكري الواضح الذي خلقه تحالف روسيا وفرنسا(١٤). كل ذلك جعل ألمانيا تشعر في كل المسائل الخارجية بالعجز بسبب ضعف قوتهـا البحرية، وهو الأمر الذي نجد "القيصر" يؤكد عليه في تعليقاته على الرسائل الألمانية(١٥). فقوتها البرية تعضدها في القارة الأوربية، أما في المحيطات فالقوة البحرية هي الكفيلـة بجعـل القـوى الأخرى تهابها .

سادسـاً : استنكر الألمان صلف بريطانيا ورفضها معاملتهم على قدم المساواة في الأمـور السياسية، فضلاً عن الأزمات التي حدثت بين ألمانيا وبريطانيا كالخلافات الاستعمارية بين عامي (١٨٩٣–١٨٩٤) بشأن النيجر والسامو والكونغو، وكذلك مسألة برقية "كروجر" الشهيرة في يناير عام ١٨٩٦[١٦]، ثم استيلاء الزوارق الحربية البريطانية على البواخر الألمانية التي تحمل البريد على ساحل شرق أفريقيا، أثناء حرب البوير بين عامي (١٨٩٩ – ١٩٠٢)، أوضح كل ذلك عجز ألمانيا عن التدخل لصالح البوير الذين عطفت على كفاحهم، كما فشلت في تكوين عصبة أوروبية ضد بريطانيا فأدركت أن ذلك درس عملي يوضح أن عجز العـالم عـن ردع بريطانيا يعود إلى تفوقها البحري[١٧].

وعلى هذا قامت "نظرية المخاطرة" Risk Theory التي على أساسها أقام "تربتـز" خططـه لتطوير الأسطول ، وتتمثل في أن الأسطول سوف يمثل رادعاً لأي هجوم بريطـاني وسـيجبر بريطانيا على تحسين علاقاتها مع ألمانيا على أساس من التكافؤ ، واعتبر الفترة بين عامي (١٩٠٤ – ١٩١٢) منطقة خطر لا تلبث أن تنتهي عندما يصبح الأسطول الألمـاني نـدًا للأسـطول البريطاني[١٨]. ولذلك جاء في مشروع القانون البحري لعام ١٩٠٠ أن الغـرض مـن إنشـاء الأسطول أن تستطيع ألمانيا في حالة الاشتباك مع أعظم قوة بحرية إلحاق الضرر بمصالحها في العالم وبسيادتها[١٩]. ومن الواضح أن بريطانيا كانت هي المقصودة ، حيث سعى الألمان إلى إقـصاء بريطانيا عن وضعها المتفوق القائم على الأسطول ، واعتبروا أن تلك السيادة هي العقبة الـتي تقف في سبيل إقامة نظام دولي جديد على أساس التكافؤ، وإحداث تغير في علاقـات القـوى لصالح ألمانيا وتأسيس توازن دولي في البحار كما على اليابس . ونخلُص من ذلك أن ألمانيا رأت أن التهديد الذي يمكن أن يفرضه الأسطول الحربي الألماني على صناع القرار في بريطانيا سيضطر الأخيرة إلى تخفيف معارضتها للسياسات الألمانية عندما ترى ألمانيا قوية على المياه كما هي على اليابس، وكذلك لتحقيق أهداف ألمانيا الاستعمارية والسياسية والتجارية وتقبُل التوسع الألمـاني المشروع، ولكن اعتبرت بريطانيا أن إقامة ألمانيا لأسطول قوي يمكنها من الهيمنة زمن الـسلم على أوربا برمتها بطرقها ومداخلها البحرية هو عمل موجه ضدها ،وهكذا فإن بريطانيا الـتي حافظت على مدى ما يقرب من ثلاثين عامًا بعد موقعة الطرف الأغر Trafalgar عام ١٨٠٥ على أن تكون لها فقط السيادة البحرية، وامتلكت خلال تلك الفترة عددًا من السفن يفـوق أساطيل القوى الأوربية مجتمعة، وطبقت "مقياس القوتين" "Two-Power Standard" ، أي أن

تكون قوة بريطانيا مساوية لقوة كل من فرنسا وروسيا مجتمعتين[٢٠]. وهما القوتان اللتان تليانها مباشرة في المقدرة البحرية ، بدأت تواجه منافسة حامية مع ألمانيا .

اتضحت معالم هذا السباق البحري عام ١٩٠٠ عندما وضعت ألمانيا أول خطة متكاملة لبناء قوتها البحرية مما أقلق بريطانيا، ثم أخذ هذا التوتر يتحول إلى أزمة دبلوماسية مع عقد الحلف الإنجليزي – الياباني عام ١٩٠٢، والوفاق الودي عام ١٩٠٤، وهزيمة روسيا على يد اليابان عام ١٩٠٥ كل هذا قوى من جانب بريطانيا وأضعف موقف ألمانيا، خاصة مع التحول الذي نجم عن انتصار اليابان في الحرب الروسية – اليابانية وتأكد أمن المصالح البريطانية في آسيا مما سمح بإعادة توزيع الأسطول البريطاني في البحر المتوسط وتركيزه في بحر الشمال[٢١]. وقد علق "جون فيشر" "Fisher" وزير البحرية البريطاني على ذلك بقوله "من العبث أن نقوى تواجدنا في مسرح ثانوي، بينما نجد أنفسنا من الدرجة الثانية على مسرح أساسي"[٢٢]، وإذا أضفنا إلى ذلك فشل مقابلة "بجوركو" عام ١٩٠٥ بين القيصرين الروسي والألماني في إقامة تحالف بين البلدين[٢٣]، ثم تحول هذا التوتر إلى أزمة دبلوماسية حادة عام ١٩٠٦ تحت تأثير الأزمة المغربية التي هددت باشتعال حرب أوربية كبرى[٢٤]، فقد أيدت بريطانيا فرنسا في مؤتمر الجزيرة وشعرت ألمانيا بأنها أصبحت معزولة، بل شعرت بأن بريطانيا استخفت بها وكانت النتيجة زيادة الإنشاءات البحرية لتصبح قوة عظمى يحترمها الجميع خاصة بريطانيا[٢٥].

واعتبرت ألمانيا أن تعزيز بريطانيا لقواتها في بحر الشمال يُعد استعداداً من جانب بريطانيا للحرب ضدها، ورد الألمان بمزيد من الإنشاءات البحرية الجديدة وأضحى السباق آنذاك بشأن التسلح البحري سافرًا، خاصة مع إدراك ألمانيا أن بريطانيا قد أقدمت على بناء طراز جديد من السفن المدرعة الثقيلة والتي عرفت باسم "الدردنوت" "Dreadnought"[٢٦]، لا بقصد استخدامها في جهات نائية بل لمناضلة غريم قوي في بحر الشمال، بل وسرعان ما أعلنت الصحافة البريطانية إن سفينة "الدردنوت" تلك قادرة على إغراق الأسطول الألماني بأسره، مما استفز الحكومة الألمانية وأجبرها على البدء في بناء سفن من نفس الطراز لتهدئة مخاوف الرأي العام[٢٧].

وعلى الفور استطاع "تربتز" تمرير القانون البحري الثالث عام ١٩٠٦ وحصل على تفويض ببناء ست مدرعات من طراز "الدردنوت"[٢٨] كل ذلك زاد من الصعوبات أمام

بريطانيا ، وهدد بتحطيم تفوقها. فقد أصبح الأسطول الألماني الثاني على مستوى العالم بعد البريطاني مما أدى إلى شعور بريطانيا بعدم الأمان(٢٩) .

وفي تلك الفترة تولت حكومة الأحرار مقاليد الحكم عام ١٩٠٦. برئاسة "هنري كامبل بانرمان" H.Campbell-Bannerman "، بناء على وعد قطعته للناخبين بخفض النفقات المخصصة للتسلح من أجل التوسع في الإنفاق على الإصلاحات الاجتماعية والصحية والتعليمية(٣٠). كما وجد "إدوارد جراي"Edward Grey ، وزير الخارجية البريطاني، أن جيش بلاده ضعيف وأن هناك عدداً كبيراً من أعضاء مجلس العموم من دعاة السلم الراديكاليين يعتبرون زيادة التسلح أمر غير حكيم ويفرض ضغوطاً مالية على البلاد مما يؤدي إلى خفض إيقاع الإصلاح الاجتماعي . كما رأت معظم قطاعات الرأي العام في بريطانيا أن وضع بلادهم سيظل عظيمًا بقدر ضئيل من الإنفاق على زيادة التسلح أو حتى بدون نفقات على الإطلاق(٣١).

وإذا تفحصنا الأمر نجد أن التسلح البحري لم يكن في مصلحة بريطانيا ذلك أن ألمانيا تستطيع الاستمرار في عملية التسابق والتفوق فيها نظرًا لمقدرة العمال الألمان الفائقة في الميدان التكنولوجي ولانخفاض أجورهم نسبيًا بمقارنتها بأجور العمال البريطانيين(٣٢). وبناء على كل هذه الحقائق قامت خطة "بانرمان" خلال العامين الأولين من فترة تولي وزارة الأحرار عام ١٩٠٦ – ١٩٠٧ على أساس تقليل السرعة المحددة لتشييد قطع الأسطول الجديدة على أمل أن تفعل ألمانيا المثل(٣٣) . فأعلنت عام ١٩٠٧تشييد ثلاث سفن دردنوت بدلاً من أربعة خلال السنة المالية الجديدة، أما الرايخستاج الألماني فقد وافق على إنشاء سفينة واحدة من طراز الدردنوت أيضاً بدلاً من ثلاث، ولكن السبب لم يكن تهدئة التوتر بل كانت رغبة (تربتز) في البدء بسفينة واحدة حتى يستطيع دراسة المشكلات التقنية الخاصة بتشييد هذا الطراز من السفن(٣٤) .

شجع ذلك بريطانيا على أن تعرب خلال مؤتمر "لاهاي" الثاني للسلام (يونيه –أكتوبر ١٩٠٧)(٣٥) عن استعدادها لتبادل تقديراتها الخاصة بالإنشاءات البحرية مع أي دولة أخرى، شريطة ان توافق الدول الأخرى على إجراء مماثل(٣٦) ، على أمل أن يؤدي هذا التبادل إلى تخفيض مشترك في التسلح، وقبيل نهاية المؤتمر عرضت بريطانيا بقاء التسلح البحري على

مستواه آنذاك ووعدت بألا تبني أية سفن حربية بعد ذلك إذا وافقت سائر الدول على ذلك ولكن ألمانيا عارضت المشروع بشدة ونجحت في ذلك[٣٧].

وإذا نظرنا لظروف كل دولة نجد أن "فيشر" قد أعاد تنظيم وتوزيع الأسطول البريطاني بينما كان لا يزال الأسطول الألماني في مرحلة النمو، وقد اعتبرت ألمانيا تلك محاولة لتثبيط عزمها ووقف التشييد البحري،خاصة أن المشاكل الداخلية كانت قد أضعفت حليفتها النمسا ،زد على ذلك خشيتها من خطر القتال في ميدانين متى أفاقت روسيا من حربها مع اليابان واستأنفت نشاطها في البلقان ولذلك أصرت ألمانيا على ألا يكون تحديد التسلح من ضمن الموضوعات التي تضمنتها الدعوة إلى المؤتمر[٣٨].

واعتبرت ألمانيا مؤتمر"لاهاي" مجرد محاولة ريائية زائفة لتأمين الهيمنة البحرية البريطانية بدون نفقات إضافية على دافعي الضرائب البريطانيين ، فضلاً عن ذلك فمن ناحية التقنية والعدد لم يكن الموقف في صالح ألمانيا بشكل كبير خاصة مع تمركز الأسطول البريطاني في بحر الشمال أوضح أن ألمانيا هي المقصودة[٣٩].

أما "جراي" فقد أراد إلحاق الخزي بألمانيا فتكون هي السبب في فشل المؤتمر أمام الدول الأخرى فقد قال "جراى" " إنه – يعنى الإمبراطور – سيجبرنا إذا أقر الرايخستاج الألماني الميزانية، على إضافة من ١٠ إلى ١٢ مليون جنيه لميزانية البحرية في السنوات القليلة القادمة ، ولكن في حالة حدوث ذلك ما أريد أن يعرفه الناس هنا وفي ألمانيا، إننا اضطررنا إلى إنفاق المال على الرغم من رغبتنا في تقليل الاتفاق على الإنشاءات البحرية"[٤٠].

ويبدو أن تلك المبادرة البريطانية قامت على شرط مسبق ألا وهو قبول ألمانيا التعايش مع التفوق البحري البريطاني، فضلاً عن تعزيز بريطانيا لتواجدها في بحر الشمال وتحسن علاقاتها مع فرنسا وروسيا، ثم جاء فوز الحزب الإمبراطوري في الانتخابات الألمانية عام ١٩٠٧ ليكون بمثابة انتصار للجناح العسكري الذي يؤيد التشييد البحري[٤١]، وليكون الرد الألماني على مبادرة بريطانيا في "لاهاي" حيث وجد هذا الحزب مع الفائض في الميزانية، أن الوقت مناسب لزيادة الإنفاق على السفن الحربية، فتقرر إنشاء أربع سفن سنويًا ابتداء من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١١ . كما تقرر في نوفمبر عام ١٩٠٧خفض فترة إحلال السفن الجديدة محل القديمة من ٢٥ إلى ٢٠ عاماً لزيادة كفاءة السفن نظرًا للتطورات التقنية . وقد جاء توقيت هذه

الخطوة ليكون صدمة لبريطانيا لأنه جاء في ختام زيارة "فلهلم الثاني" لبريطانيا في الفترة ما بين (١١ – ١٨ نوفمبر)[٤٢] ، مما أدى إلى احتدام المنافسة لتأخذ طبيعة ثأرية خاصة مع قيام عمليات التجسس بين الجانبين[٤٣] .

ثالثاً : بدء مفاوضات الحد من سباق التسلح البحري عام ١٩٠٨ :

استقال "بانرمان" نظراً لاعتلال صحته في فبراير عام ١٩٠٨ وحل محله "هربرت أسكويث" Herbert Asquith وكان زعيمًا للجناح الإمبريالي لحزب الأحرار، فكان ذلك بمثابة ضربة للراديكاليين الأحرار، خاصة مع كونه أقل ميلاً واهتمامًا من أسلافه بالسياسة الخارجية،فقد ركز على النزاع الدستوري مع مجلس اللوردات[٤٤].ولكن عادت المسألة البحرية إلى بؤرة الاهتمام مع إصدار ألمانيا قوانين بحرية جديدة، وفي ضوء قوة الجيش الألماني، طالبت البحرية البريطانية بزيادة الإنفاق البحري لضمان استمرارية التفوق البريطاني وهو المطلب الذي أدى إلى نزاعات داخل الحكومة كادت أن تعصف بوحدها[٤٥] .

لذلك بدا أمر تحسين العلاقات مع ألمانيا أمرًا ملحًا أيده الكثيرون ، وعلى رأسهم "جراى" اعتقادًا منهم أنه يضمن التفوق البريطاني دون أن يستلزم ذلك نفقات إضافية ضخمة، وآمنوا بضرورة بذل الجهود لتحسين العلاقات وأن حلاً للمشكلة قد يتوفر في هذا التحسن، كما أن "لويد جورج" Lloyd George وزير المالية قاد حملة لتقليص الميزانية البحرية عن طريق التوصل إلى اتفاقية بحرية مع ألمانيا شريطة أن تكون هذه الاتفاقية لصالح السيادة البحرية البريطانية على أمل أن يؤدى ذلك إلى إنهاء الجدل الذى كان يثار سنويًا بشأن التقديرات المالية الخاصة بالبحرية والتي تعد من الخطورة بمكان على وحدة حزب الأحرار[٤٦] .

وفي ألمانيا ذاتها ، وطبقـًا للوثائق البريطانية ، اعتبر المستشار الألماني"بيلوف" Bülow أنه من الضروري تقليل سرعة الإنشاء البحري لأسباب داخلية وخارجية على رأسها العبء المالي الذي فرضه التسلح في الوقت الذي كانت فيه الوزارة تحاول إصلاح المالية[٤٧]. وردد "بيلوف" مرارًا أن ألمانيا لا تتحمل الإنفاق على جيش عظيم وأسطول ضخم وسياسة اشتراكية مكلفة، فأراد تقليل النفقات البحرية وأصر على إعطاء الأولوية في الإنفاق للجيش، وأكد أن الأسطول أثار عداء بريطانيا وزاد من خطر اشتعال حرب، وأنه من الضروري الحصول على قروض لتمويله مما سلب ألمانيا الوسائل التي تمكنها من توسيع نفوذها سلميًا[٤٨] .

وقد حاولت بريطانيا جس نبض الألمان للتوصل إلى اتفاق للحد من التسلح بعد أن أضحت بريطانيا، من جراء تقوية الألمان لأسطولهم، محصورة بين خيارين هل تعـزز وجودهـا في بحـر الشمال ،وتقلص تواجدها في أعالي البحار، وتعتمد على حلفائها أم تتوصل إلى تفاهم مع ألمانيا مستغلة تحرج موقفها المالي والسياسي بعد تكوين الوفاق الثلاثي عام ١٩٠٧ فاختارت الحـل الثاني وتوقعت أن تتلقف ألمانيا أي مبادرة بريطانية للتفاهم ،لذا فاتح "جراي" الألمان مـرتين في هذا الشأن خلال عام ١٩٠٨حينما توجه في يوليو بصحبة "لويد جورج" لمقابلة السفير الألماني في لندن "مترنيخ" Metternich واقترح تخفيضاً مشتركاً لبرامج تشييد السـفن في البلـدين، وتكرر ذلك مرة أخرى عبر وساطة "تشارلز هاردنج C.Hardinge"، وكيـل وزارة الخارجـة البريطانية، أثناء زيارة الأخير لألمانيا، برفقـة الملـك "إدوارد السـابع Edward VI" ،وفي "كرونبرج Cronberg" وخلال مقابلته للإمبراطور في ١١ أغسطس عام ١٩٠٨ اشتد الجدال بين "هاردنج" والإمبراطور حينما أصر "هاردنج" على وجوب الكف عن المنافسة في الإنـشاء البحري فرد الإمبراطور بأنه يفضل الحرب على قبول أن يملي عليه أحد الحد مـن تـسليحاته البحرية(٤٩).

وبناء على ذلك قرر "جراي" الكف عن المحاولات الرامية إلى خلق تفاهم بين البلدين حينما اتضح أنها تؤدي إلى مزيد من التوتر في العلاقات الألمانية – الانجليزية واستشعر أيضـًا إمكانية إثارة ذلك لشكوك فرنسا واعتقادها أن بريطانيا تعتزم عقد صفقه مع ألمانيا على حساب المصالح الفرنسية(٥٠). وبذلك شهد عام ١٩٠٨ فشل أولئك الوزراء البريطانيين الذين آمنوا بإمكانيـة استمالة ألمانيا .

أخذت العلاقات الألمانية– البريطانية تزداد تدهورًا بعد ذلك من جراء ما نـشرته جريـدة "ديلي تلجراف" Daily Telegraph من مقابلة مع الإمبراطور الألماني في ٢٨ أكتـوبر عـام ١٩٠٨، أكد فيها أن حكومات روسيا وفرنسا طالبته أثناء حرب البوير بتكوين عصبة ضـد بريطانيا لا لإنقاذ جمهوريات البوير فحسب بل لإذلال بريطانيا مما أثار البريطانيين(٥١).

ولعل أشد ما أثار الألمان في المبادرات البريطانية إنفراد بريطانيا بالسيادة وإنكارها حق أيـة دولة أخرى، بما في ذلك ألمانيا ،أن تمارس هذا الحق الطبيعي ، ويؤكد ذلك ما كتبه القيصر على هامش تقرير أرسله إليه "مترنيخ" في صيف عام ١٩٠٨ "إن ما تريده بريطانيا هو أن تقدم يدها

إلينا مع تحذير بوجوب تحديد أسطولنا إن تلك وقاحة صريحة". وأضاف "ومن هذا المنطلق يمكن لفرنسا وروسيا أن تطالبا أيضـاً بتحديد قواتنا البحرية، إن مشروع القانون البحري سـوف ينفذ إلى آخر حرف سواء شاءت بريطانيا أم أبت" . وعلى هذا الأساس صـدرت تعليمـات القيصر إلى حكومته إزاء الكيفية التي يتم التعامل بها مع المبادرات البريطانية[٥٢].

ولذلك كان طبيعيا أن تصل المفاوضات إلى طريق مسدود ، لقد أراد الألمـان اعترافـاً بريطانيًا بحقيقة وجودهم كقوة عظمى في أوربا ، لذلك لم يشاركوا حكومة الأحرار البريطانية في وجهة نظرها بأن تقليل عدد السفن سيؤدي بالضرورة إلى خلق نوع من التعاون فيمـا بينـهم ورأوا أن هذا التعاون لن يتأتى طالما أن بريطانيا تتفوق عليهم في قدراتها البحريـة. وإذا كـان هناك ثمة تعاون بين البلدين فإنه لن يحدث إلا حينما تتساوى القوتان عسكريًا، وأن السفن رهن الإنشاء آنذاك ستكون ذات أهمية عظمى في الحصول على امتيازات سياسية من بريطانيا.

هنا أعاد صناع القرار الألمان النظر في مسألة رفض العروض البريطانية، حيث أدركـوا أن رفض التفاوض سيكون له نتائج عكسية استراتيجيًا وسياسيًا، فقد زادت مخاوف ألمانيا في ربيع عام ١٩٠٩ عندما أخذت حكومة الأحرار تثير الفـزع في نفـوس البريطـانيين وخاصـة الراديكاليين المعارضين لزيادة النفقات على الإنشاءات البحرية وتعرض صورة قاتمـة للخطـر الألماني، وتؤكد أن ألمانيا ستمتلك عددًا أكبر من السفن المعلن عنها في برنامجها البحري الرسمي، وعلى الرغم من نفي "تربتز" لذلك إلا أن الحكومة البريطانيـة أكـدت ضرورة إنشاء ثمـاني سفن حربية عام ١٩٠٩ بدلاً من أربعة[٥٣].

واستطاعت حكومة الأحرار بزعامة "أسكويث" أن تخلق موجة من الرعب لكـي تـضمن موافقة الراديكاليين على النفقات الكبيرة على الإنشاءات البحرية، مؤكدة أن ما أعلنته الحكومة الألمانية من تقديرات بحرية لا يعبر عن الواقع وإن هناك مزيداً من الدردنوت يجـري إنـشاؤها سراً[٥٤]. وبهذه التصريحات حرك "اسكويث"، رئيس الوزراء ، المـسألة البحريـة إلى معتـرك السياسات الحزبية، وشجع ذلك المحافظين والصحافة وشركات السلاح وبناء السفن ، وأصبح الجميع يتحدثون عن فجوة الدردنوت وضرورة إنقاذ البلاد من هذا الخطر بمزيد مـن تـشييد السفن، واستغل "التوري" الرعب البحري لأغراض حزبية بعد أن عجزوا عـن الوصـول إلى السلطة عن طريق إصلاح التعريفة الجمركية[٥٥].

هنا شعر صناع القرار في ألمانيا وعلى رأسهم المستشار ووزير الخارجية "كيدرلن فاختر Kiderlen - Wachter "(٥٦) أنه من الأفضل لألمانيا تلبية دعوة بريطانيا للدخول في مفاوضات جديدة فقد يؤدي ذلك إلى عدة فوائد منها :

أولاً : تقليل التوتر الذي خيم على العلاقات البريطانية – الألمانية .

ثانيًا : خوف الألمان من أن تؤدي الضغوط على حكومة الأحرار إلى سقوطها، حيث كان من مصلحة ألمانيا أن يظل الأحرار في الحكم، فلو سقطت تلك الحكومة يمكن أن تحل محلها حكومة للمحافظين المعروفين ببرامجهم الدفاعية القوية ورغبتهم في تحويل الوفاقات مع فرنسا وروسيا إلى تحالفات تامة موجهة ضد ألمانيا، فكان هناك اتفاق عام داخل الحكومة الألمانية بضرورة الحفاظ على وجود الأحرار في الحكم لمنع مزيد من التدهور في العلاقات(٥٧).

ثالثًا : من الممكن عن طريق التعاون في التحكم في التسلح تقوية العلاقات مع بريطانيا من جهة وإفساد الوفاقات بين بريطانيا وفرنسا وروسيا من جهة أخرى.

رابعاً : يمكن لألمانيا عن طريق الحد من التسلح عرقلة برامج الإنشاء البحري البريطاني مع إمكانية الاتفاق على تحديد إنشاء السفن بين الدولتين بنسبة معينة لا تستطيع بريطانيا تجاوزها(٥٨) .

لقد تزامن إدراك الحكومة الألمانية لكل هذه المزايا من استئناف المحادثات مع الحكومة البريطانية مع الذعر غير المسبوق الذي انتشر في بريطانيا، الذي أشرنا إليه، والمناقشات الحامية في مجلس العموم وبذلك أصبحت مسألة الدردنوت مسألة حزبية مائة بالمائة بين الأحرار والمحافظين، كل هذا جعل الرأي العام يطالب بالحد من التسلح للوقاية من الهجوم(٥٩) .

دفعت هذه الظروف "جراي" إلى أن يرحب ترحيبًا حذرًا بالدخول في المفاوضات مع الألمان عام ١٩٠٩، فقد عُقدت اتفاقية تعاون اقتصادي مشترك بين فرنسا وألمانيا في المغرب في ٩ فبراير عام ١٩٠٩، وهو ما اعتبرته الخارجية البريطانية خيانة فرنسية(٦٠) . أضف إلى ذلك إعلان حكومة النمسا والمجر عزمها على تشييد أربع سفن من طراز الدردنوت في أبريل عام ١٩٠٩. وغني عن البيان أن ذلك يمثل دعماً لألمانيا في حالة قيام صدام في بحر الشمال، لأن وجود أسطول نمساوي ضخم في البحر المتوسط سيجعل من الصعوبة بمكان تمركز القوات

البريطانية في بحر الشمال[٦١]، في ضوء وجود التحالف الألماني – النمساوي مما زاد من مخاوف بريطانيا وجعلها تعيد النظر في مسألة التفاوض مع ألمانيا .

وإثر ذلك وفي ٢١ أغسطس عام ١٩٠٩أبلغ المستشار الألماني "بتمان هولفيج" Bethman Hollweg السفير البريطاني في برلين بأنه" رداً على التصريحات المتكررة لحكومة صاحب الجلالة والخاصة بعقد اتفاقية للحد من الإنفاق البحري فإنه يقدم مقترحاته من أجل إجراء ترتيب بحري مع بريطانيا على أن تكون جزءاً من خطة أكبر لإجراء اتفاق سياسي عام له طبيعة تحول دون قيام حرب بين الدولتين"[٦٢] . تلا ذلك عامان من المفاوضات غير المثمرة قطعتها الانتخابات الإنجليزية في يناير ثم في ديسمبر من عام ١٩١٠[٦٣].

وقد رحب "جراى" بمبادرة "هولفيج" ترحيبًا يشوبه الحذر حيث رأى أن أي تصريح سياسي لن يكون مؤثرًا في الرأي العام إلا إذا سبقه أو على الأقل صاحبه اتفاق بحري[٦٤] . وأن اتفاقية بحرية لا تحمل خفضـًا محددًا للبرنامج البحري الألماني ستعتبرها حكومة بريطانيا بلا قيمة من الناحية العملية[٦٥].

وقد رد "هولفيج" بأن البرنامج البحري الألماني أصبح قانونـًا ولا يمكن إجراء أي تعديل عليه إلا بموافقة "الرايخستاج"، ولكن يمكن عن طريق المفاوضات تنظيم إيقاع التشييد وتخفيف العبء المفروض على دافعي الضرائب وتهدئة الشكوك[٦٦] . وفي مقابل ذلك طالب بالتزام بريطانيا باتفاقية تنص على أنه في حالة تعرض أي من الدولتين – بريطانيا أو ألمانيا – لهجوم من جانب دولة ثالثة أو مجموعة من الدول الأخرى تقف الثانية التي لم تتعرض للهجوم على الحياد[٦٧]. وعندما سمع الإنجليز بمطلب الحياد الكريم ، تأكدت شكوكهم في أن هدف ألمانيا هو إيقاع الانقسام بين دول الوفاق، فضلاً عن ذلك كانت بريطانيا تعلم أن أقصى ما يمكن "هولفيج" تقديمه، مع إصرار "تربتز" والإمبراطور، هو إبطاء معدل سرعة تشييد السفن، ولكن هذا العرض لم يكن جذابًا بالنسبة لبريطانيا، وكذلك لم يكن "جراي" على استعداد للوقوف على الحياد في حالة اشتباك ألمانيا في حرب ضد فرنسا أو روسيا فقد اتفق ساسة بريطانيا على أن يتركوا لأنفسهم دائمًا حرية التحرك فتارة يلتزمون ويتدخلون وتارة يرفضون ويبتعدون بعيدًا حسبما يخدم مصالحهم .

كما لم تكن هناك ثمة فائدة لبريطانيا من وراء ذلك، فقد ارتبطت بوفاقات مع فرنسا وروسيا وتحالفاً مع اليابان، ولم تكن معرضة لهجوم من جانب هذه القوى ولكن الفائدة كانت بلا شك لألمانيا إذا ما هاجمتها روسيا أو فرنسا فتضمن بذلك حياد بريطانيا في مثل هذه الحرب، وكذلك تحييدها إزاء مخططات ألمانيا المستقبلية، وأن تقديم ألمانيا للاتفاق البحري كان بغرض رشوة بريطانيا. كما أن ما خططت ألمانيا لنيله من التزامات وضمانات لم تجرؤ بريطانيا على التعهد بها لفرنسا وروسيا ،وحتى لو استطاعت بريطانيا التوصل إلى اتفاق مع ألمانيا على أساس قبول ألمانيا للتفوق البريطاني كان من الممكن أن تُشيد إيطاليا أو النمسا والمجر مزيداً من الدردنوت وتتحقق بذلك سيادة التحالف الثلاثي علي البحر المتوسط ، كل ذلك جعل بريطانيا تنظر للعرض الألماني على أنه عرض ضئيل القيمة .

وعلى هذا لم يتقدم "جراي" خطوة واحدة على طريق التفاوض مع ألمانيا على مدى ثلاث سنوات[٦٨] وساعده على ذلك النزاع في داري البرلمان على الأمور المالية ومرور البلاد بحملتين للانتخابات العامة[٦٩]. وفي ١٠أبريل سحب "هولفيج" عرضه المحدد واقترح بدلاً منه ميثاق حياد وعدم اعتداء، وادعى أنه سيحسن العلاقات بين الدولتين، وسيجعل من عقد اتفاقية بحرية أمرًا غير ضروري . وقد أخبر "جراي" الحكومة في ٢٠ يوليو عام ١٩١٠ أن بريطانيا لن تستطيع الاشتراك في مثل هذا الميثاق الذي سيفضي حتماً إلى فقدان الصداقة الفرنسية والروسية[٧٠]، فسوف تعتبر فرنسا تصريح بريطانيا بالحفاظ على الحالة الراهنة في أوربا على أنه إقرار بريطاني بفقدان فرنسا للألزاس واللورين .

استطاع "جراي" إقناع حكومته بالموافقة على مذكرة بريطانية مضادة تقر بأن الاتفاق البحري هو السبيل الوحيد إلى تقليل التوتر بين البلدين، ولكن "بتمان هولفيج" واصل إصراره على المعاهدة السياسية. وقد رأى الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية "أرثر نيكلسون A.Nicolson" أن الأمل ضئيل في الوصول إلى اتفاق بشأن المسألة البحرية،أما "لويد جورج" فقد نفد صبره [٧١] من بطء سير المفاوضات واستطاع إقناع المسئولين في الحكومة في يناير عام ١٩١١بتشكيل لجنة للشئون الخارجية ضمت كلاً من "أسكويث" "وجراى"، "وإيركرو Eyre Crowe" ، و "مورلى Morley"، و "لويد جورج"، و"والتر رنسمان" Walter Runciman" [٧٢] ، وتشكلت هذه اللجنة للسيطرة على "جراي" أكثر من كونها أداة لدعمه، وللاستجابة

لشكاوى "لويد جورج" بشأن انعدام البيانات عن سياسة بريطانيا الخارجية، ولتحفيز تقدم المفاوضات للوصول إلى اتفاق مع ألمانيا، كذلك جاءت تعبيراً عن الغضب من زيادة التقديرات المالية البحرية للعامين(١٩١١ – ١٩١٢) والتي عجز المسئولون عن إيقافها، وأيضاً ساندها حملة للأحرار والراديكاليين في الصحافة والبرلمان ضد ما وُصِف بأنه سياسة بريطانية معادية لألمانيا[٧٣].وكذلك مع التحسن المؤقت الذي طرأ على العلاقات الألمانية – الفرنسية الذي اعتبره الكثيرون أمرًا مفيدًا خاصة للمصالح الفرنسية في الشرق الأوسط، فضلاً عن وجود تيار قوى يفضل المصالحة والتعاون مع ألمانيا ويضمر الكراهية لروسيا الرجعية[٧٤].

وقد خشيت الخارجية البريطانية من أن تتمكن هذه اللجنة من إجبار "جراى" على قبول الاتفاق مع ألمانيا مما يزعج أصدقاء بريطانيا، ولكن في النهاية حاز "جراى" في ٨ مارس عام ١٩١١ على مسودة مذكرة حوت اقتراحات جديدة تُقدم للألمان فحواها أن تكون الاتفاقية البحرية جزءاً من اتفاقية سياسية[٧٥].

وفى يوليو ١٩١١ حدثت أزمة أغادير التي عانت ألمانيا خلالها هزيمة دبلوماسية ، عندما أثارت مواجهة مع فرنسا بشأن المغرب ثم تراجعت تحت الضغط البريطاني، وقد أمطر "جراي" خلال الأزمة بوابل من المذكرات التي حثته على الوقوف بثبات إلى جانب فرنسا لمقاومة الادعاءات الألمانية في أغادير اعتقادًا منهم أن فرنسا ستضعف أمام المطالب الألمانية إذا لم تثق في مساندة بريطانيا. وبعد مناقشات طويلة داخل الحكومة البريطانية اُتفق على إرجاء أي اتصال مع ألمانيا حتى اجتماعهم التالي مما أدى إلى قطع المفاوضات[٧٦].

وقد تم لفرنسا ما أرادت في المغرب وخرجت من الأزمة منتصرة بمساعدة بريطانيا فرأى "تربتز" استغلال هذا الاستياء العام وإظهار أن ألمانيا تحتاج إلى زيادة تسلحاتها البحرية للتغلب على الهزيمة الدبلوماسية التي لحقت بها، وكذلك اقتناعًا منه بأن ألمانيا خسرت قدرًا كبيرًا من مكانتها الدولية ، فشعر أن أفضل طريق لاستعادة هذه المكانة إصدار قانون بحري إضافي عُرف باسم "Novelle" تزداد بمقتضاه أعداد السفن الحربية المزمع إنشاؤها فبدلاً من إنشاء سفينتين كل عام يسير معدل الإنشاء على النحو التالي (٣ – ٢ – ٣ – ٢ – ٣ – ٢) بمعنى تشييد ثلاث سفن في العام الأول ثم سفينتين في العام الثاني ، وهكذا على مدى ست سنوات. وبالفعل أمر القيصر "هولفيج" في ١٤ نوفمبر عام ١٩١١ بأن يلحق القانون الإضافي بميزانية عام

١٩١٢[٧٧] . كل ذلك أدى إلى تصعيد المنافسة وإرهاق حكومة الأحرار وجعلها أكثر استعدادًا لاستئناف المفاوضات .

وقد اقتنعت بريطانيا ، بعد خروج فرنسا منتصرة من أزمة أغادير بفضل مساعدات بريطانيا أنه من الأفضل إنهاء الضغينة مع ألمانيا ، فإذا ما اندمل هذا الجرح الذي ظل يسوف منذ سنوات فربما يصبح باستطاعة بريطانيا حينئذ أن تدير ظهرها للقارة وتكرس طاقاتها وأموالها لإمبراطوريتها ولبرنامج للإصلاح الاجتماعي[٧٨] . كما أن العودة إلى العزلة يمكن أن تؤدي إلى التلاف معاد لبريطانيا ، أما إعادة بناء الأسطول البريطاني على نطاق واسع فهو أمر لن يتحمله الرأي العام في الداخل، وستستغله ألمانيا كدليل على العدوان وربما تلجأ إلى الحرب المانعة من جانبها قبل أن تتمكن بريطانيا من الاستعداد لها، فحاولت حكومة الأحرار التوصل إلى تفاهم مع ألمانيا يماثل ما تم التوصل إليه مع اليابان وفرنسا وروسيا[٧٩]،وإقناع ألمانيا بتحديد قواتها البحرية نظير منحها تعويضات في الميدان الاستعماري[٨٠] .

وقد علمت الحكومة البريطانية ، في أعقاب أزمة أغادير من خلال "ألبرت بالين" Albert "Ballin"، أحد كبار أصحاب السفن في "هامبورج" والصديق الشخصي للقيصر الألماني، وكذلك المصرفي "أرنست كاسيل Ernest Cassell" الصديق الحميم للملك "إدوارد السابع" وكان من أصل ألماني واكتسب الجنسية البريطانية، أن برلين سوف ترحب بتبادل وجهات النظر مع لندن[٨١] .

ومع يناير من عام ١٩١٢ خُول "كاسيل" السلطة لمقابلة القيصر والمستشار وفي معيته مذكرة تحوى آراء "جراي"، و"تشرشل"، وتؤكد وجوب اعتراف ألمانيا بالسيادة البريطانية على البحار واستعداد بريطانيا، في مقابل تعليق أو إرجاء تنفيذ البرنامج البحري التكميلي، مناقشة الأماني الاستعمارية الألمانية ، وتأكيد الدولتين على عدم مشاركة أي منهما في مخططات عدوانية ضد الأخرى. وقد عاد "كاسيل" إلى لندن يحمل ردًا وديًا على المبادرة فيما عدا التمسك بالبرنامج البحري، وقد أشار الرد إلى إمكانية تخفيضه إذا ما ظهرت الدلائل على توجه ودي للسياسة البريطانية، وقد عاد "كاسيل" كذلك بدعوة ألمانية "لتشرشل" و"جراي" لزيارة برلين .وقد تزامنت عودة "كاسيل" أيضًا إلى لندن مع إعلان "هولفيج" في الرايخستاج في ٧ فبراير عام ١٩١٢ عن القانون البحري الجديد التكميلي فاستبد القلق "بتشرشل" ورأى وجوب اتخاذ

إجراءات عاجلة لإقناع الألمان بخفضه إن لم يكن إلغاؤه[٨٢] . فرأى إرسال "لورد هالدين Haldane"[٨٣]. وزير الحربية، إلى برلين على وجه السرعة .

جاءت مهمة "هالدين" في وقت حرج للغاية فألمانيا شاعرة بالإذلال، والصراع قد وصل إلى ذروته بين "هولفيج" و"تربتز" والأجواء متوترة من جراء خطاب وزير البحرية البريطاني " تشرشل" في "جلاسجو Glasgow" في ٩ فبراير، الذي أكد فيه أن "الأسطول ضرورة لبريطانيا ومجرد رفاهية بالنسبة لألمانيا."[٨٤] وعلى الرغم من ذلك التوتر فقد اشتدت المعارضة في ألمانيا لتشييد مزيد من السفن، فدعاة السلام ورجال الصناعة والمال والجيش هاجموا "تربتز" وأكدوا أن ألمانيا تبني السفن منذ عشرة أعوام خلت ولا زالت بريطانيا متفوقة وآمنة، وأصبحت ألمانيا معزولة في خطر، وحتى إيطاليا والنمسا لم يقدما أي دعم لألمانيا خلال أزمتي المغرب، ودون استشارة ألمانيا شرعت النمسا في القيام بسياسات خطيرة في البلقان، كما أن إيطاليا هاجمت ممتلكات الدولة العثمانية، وربما يقومان، نتيجة إدراكها أن ألمانيا باتت معزولة ومعتمدة عليهما، بجر ألمانيا إلى الحرب. وعلى جانبي ألمانيا تقبع كل من فرنسا وروسيا بتسليحاتهما المتطورة[٨٥] كما أن ألمانيا أنفقت المال الذي كانت تحتاجه لتطوير الجيش على الأسطول ولم تجن إلا ازدياد عداء بريطانيا[٨٦] . وهنا حان الوقت للاستماع إلى المعارضة وفتح باب التفاوض مع بريطانيا .

وعندما بادر القيصر بدعوة تشرشل لزيارة برلين[٨٧]، اعتبر "تشرشل" أن زيارته ستكون شيئاً سابقاً لأوانه، وخشي من أن يثير تواجده في برلين ارتياب فرنسا، ولذلك قرر إرسال "لورد هالدين" في مهمة وصفت بالسرية[٨٨] ليستعلم عما إذا كان هناك أمل يبشر بالوصول بالعلاقات بين البلدين لوضع أفضل[٨٩].

امتلئ "لورد هالدين بالحماسة والرغبة في تضميد الجراح بين البلدين، وقد مكث في برلين من ٨ إلى ١١ فبراير[٩٠]. وخلال هذه الفترة تحدث حديثاً فضفاضًا مع المسئولين الألمان ولم يتعامل معهم كدبلوماسي محنك ، تلا ذلك ارتباك حيث فشل "هالدين" في إقناع "هولفيج" بقبول تخفيض البرنامج البحري الألماني، بل زوده الأخير بنسخة من القانون البحري الجديد الذي فاق في ضخامته كل التوقعات[٩١]. وكل ما حصل عليه هو مجرد وعد غير صريح بإبطاء تنفيذ البرنامج نظير وعد بعدم الاعتداء وتعهد بالحياد في حالة حرب قارية إذا لم تكن ألمانيا هي المعتدية، وقد قبلت بريطانيا التعهد بعدم الاعتداء ولكنها رفضت التعهد بالحياد والذي يهدد

بهدم الصداقة الفرنسية، كما نوقشت الامتيازات الاستعمارية الألمانية المقترحة في إيران وسكة حديد بغداد[٩٢] .

في الوقت ذاته تصرف "جراي بحكمة، حيث اهتم بأن تكون باريس وسان بطرسبرج على علم بما يجرى، وأوضح أن الهدف من وراء المفاوضات تحسين العلاقات بين لندن وبرلين مع ولاء بريطانيا للوفاقات المعقودة مع الدولتين[٩٣]

وقد عاد "هالدين" إلى لندن سعيدًا بنتائج مهمته وفي معيته صيغة لاتفاقية الحياد المقترحة[٩٤] أما "جراي" فقد اعتبر مباحثات "هالدين" كارثة، واتهمه بقلة الخبرة وعدم إتقان فنون التفاوض، بل وإفشاء الأسرار للألمان دون الحصول على مقابل، وأكد عدد من مسئولي وزارة الخارجية البريطانية[٩٥] أن مثل هذا الاتفاق ، طبقا لتصور "هالدين"، سيؤدي إلى نهاية الوفاقات مع فرنسا وروسيا، وأن ألمانيا لن تقبل أبدًا بخفض حقيقي لبرنامجها البحري. وخافوا من موافقة حكومتهم على مسودة الاتفاق المقترح، وأكد "كرو" "أن الألمان يخلفون وعودهم وأن الإذعان لهم سيكون خطأً كبيرًا، وإذا كانت ألمانيا حريصة على إقامة صداقة مع بريطانيا فعليها إثبات ذلك بدليل ملموس وهو وقف التصعيد البحري"[٩٦] .

ويسهل على المطلع لمسودة اتفاقية الحياد أن يتوقع أمراً ما وهو أنه في ظل نظام المحالفات إذا ما نشبت حرب بين النمسا وروسيا وهبت ألمانيا لمساعدة الأولى سوف تساند فرنسا الثانية وهنا ماذا سيكون موقف بريطانيا ؟ لم تكن بريطانيا على استعداد للوقوف على الحياد ووضع نفسها في مأزق كهذا .

وقد أكدت الحكومة البريطانية أن مشروع القانون البحري الألماني التكميلي هو العقبة الوحيدة واستمراره سيجعل من المستحيل التوصل إلى اتفاق، وأخذت تحول المفاوضات مرة أخرى من الاتفاقية السياسية إلى الاتفاقية البحرية فاعتبر "فلهلم الثاني" ذلك تنصلاً مما قاله "هالدين" وتدخلاً سافراً في مصير أمة عظمى"[٩٧] ، خاصة مع تأكيد الحكومة البريطانية على أن تمسك ألمانيا بمشروع القانون التكميلي سيؤدي إلى تقديم تقديرات بريطانية مماثلة[٩٨] ، وتحويل جزء من أسطول البحر المتوسط إلى المياه الداخلية، فاستشاط "فلهلم الثاني" غضبًا ورأى أن مثل هذا الأمر يعد بمثابة تهديد بالحرب، وقرر إنهاء المفاوضات والعودة إلى مشروع القانون البحري التكميلي بشكله القديم بلا إبطاء بل والتعبئة . وهنا هدد "هولفيج" بالاستقالة إذا ما تم تقديم

المشروع"للرايخستاج"وهدد "تربتز" بالاستقالة إذا ما رُفض المشروع[٩٩] . وهنا أصبح قرار القيصر هو الفيصل .

أما في لندن فقد جرت مناقشات داخل أروقة الوزارة في ١٤مارس ١٩١٢بعدها قدم "جراى" القرار إلى السفير الألماني "مترنيخ" بأن بريطانيا لن تنضم إلى أي هجوم غير ناتج عن استفزاز يقع على ألمانيا"، وكان ذلك أقل مما قدمه "هالدين" فقد أُسقطت تماماً كلمة الحياد ووصلت المفاوضات إلى طريق مسدود[١٠٠] . وهنا أيد "فلهلم الثاني" "تربتز" فقام بقطع المفاوضات في ١٠ أبريل وأعلنت الحكومة التصويت على القانون البحري الذي نص على زيادة كبيرة في حجم الأسطول[١٠١] . ليُستأنف السباق بشكل أكثر ضراوة .

وبذلك يمكن القول أن مهمة "هالدين" تمخضت عنها نتائج عكسية، فقد تعهد تشرشل بالتصدي للقانون البحري الألماني في المال والرجال، وفي ١٨ مارس ١٩١٢ قدم "تشرشل" التقديرات البحرية لعامي(١٩١٢ – ١٩١٣) لمجلس العموم، وكانت تلك المرة الأولى التي يعلن فيها وزير بحرية بريطاني صراحة التخلي عن "مقياس القوتين" وعن عزم بلاده منذ ذلك الحين فصاعدًا على تشييد سفنها ضد ألمانيا وحدها،وأنها ستحافظ على نسبة (١٠:١٦) بين بريطانيا وألمانيا طالما أن ألمانيا ستواصل برنامجها التكميلي[١٠٢] .وبدأ الاستعداد لاستدعاء أسطول المحيط الأطلنطي للعودة إلى الوطن وتحرك أسطول البحر المتوسط من مالطه إلى جبل طارق[١٠٣].وانتهى بذلك آخر جهد اتضح فيه تصميم الدولتين بشكل بارز على الوصول إلى حل للمشكلة،حتى لا يتم اللجوء إلى القوة.ورغم استئناف المفاوضات بعد ذلك إلا أنها تطرقت لتسوية مشكلات استعمارية محددة ولم تمس جذور المشكلة.

ومع تدعيم بريطانيا لسيادتها في بحر الشمال، تُرِكَ البحر المتوسط، الرابطة الحيوية في شبكة مواصلات الإمبراطورية البريطانية، بلا حماية، فكان من الممكن إذا ما قامت الحرب آنذاك أن تغلق النمسا وإيطاليا الطريق القصير المؤدي إلى الهند، فرأت بريطانيا أن يقوم أسطول فرنسا الحربي في المحيط الأطلنطي بالتحرك إلى البحر المتوسط وأصبح أمر الدفاع عن هذا البحر منوطاً بالفرنسيين[١٠٤] . أدى ذلك إلى قيام محادثات بين بريطانيا وفرنسا في يونيه عام ١٩١٢ أوضح "جراي" الهدف منها حين قال "لقد كانت غايتي من هذه المحادثات لفت نظر الألمان إلى حرج الموقف وإشعار الفرنسيين بالعطف عليهم مع اجتناب إعطاء الوعود"[١٠٥]. واقتصر الأمر

على تبادل الخطابات بين "جراي" ، و"كامبون" وزير خارجية فرنسا في (٢١/ ٢٢ نوفمبر) تمخض عنها تأكيد الحكومتين على قيام الهيئات البحرية والعسكرية للبلدين بتبادل وجهات النظر مع إعلان أن هذه الخطط التقنية لا تتضمن تورطاً بالتعاون في حالة الحرب، كما تم الاتفاق على أنه في حالة التهديد بالحرب على الحكومتين عمل تقييم فوري وشامل للموقف ووجوب البدء فى دراسة خطط هيئتي الأركان المشتركة في البلدين لمواجهة التهديد[١٠٦].

وبذلك أحجم "جراي" عن عقد أي تحالف رسمي مع فرنسا لأسباب معروفة أولها سبب تقليدي وهو أن مثل هذا التحالف سوف يزيد من احتمالية تورط بريطانيا والتزامها بالمشاركة في حرب أوربية، أما السبب الأخر فهو إحجام "جراي" عن إعطاء الألمان انطباعاً بأن بريطانيا قد اصطفت مع القوى المعادية بدون أمل في التسوية . إن غياب مثل هذا التحالف مع فرنسا أعطى "جراي" الحرية لمناورة ألمانيا ولكن هذه المناورة لم تؤد إلى عقد أي اتفاقية بحرية مع ألمانيا[١٠٧] .

وعلى الرغم من أن هذه المذكرات لم تعط لفرنسا أية ضمانات بالتدخل البريطاني في حالة وقوع حرب فرنسية- ألمانية فمن الواضح أن الحكومة البريطانية أصبحت تحت وطأة التزام معنوي أخلاقي، حيث حافظت على حرية القرار بين يديها، ولم تلتزم رسميًا. وبذلك لم تنعم بالتيقن من ماهية الموقف البريطاني ولكن ما حدث أكد أن لبريطانيا وفرنسا قضية مشتركة، وعدواً واحداً هو ألمانيا وبذلك فإن تصاعد التحدي البحري الألماني جعل بريطانيا أكثر ميلاً للالتزام الأخلاقي تجاه فرنسا، ودفع بريطانيا نحو الوفاق أكثر وقد استمرت المشكلة البحرية قائمة بلا حل حتى بعدما اقترح "تشرشل" في ٢٠ مارس ١٩١٣مشروع "العطلة البحرية "Naval Holiday"، أي وقف التشييد البحري في ألمانيا وبريطانيا لمدة عام، حيث قابلها الألمان بفتور لأنها تعني تحطيم القانون البحري، كما رأي القيصر الألماني أن مثل هذه العطلة المقترحة لا يمكن تنفيذها إلا بين حليفين[١٠٨].

على أية حال تراجع التركيز البريطاني – الألماني على المسألة البحرية كنقطة صدام بين الدولتين بعد أن اتضح طيلة هذه السنوات أن التفاوض في هذا السبيل أصبح هباءً منثورا، ساعد على ذلك التوجهات الداخلية ، فقد قوبلت الإضافات الجديدة للقانون البحري في ألمانيا بمعارضة شديدة فى داخل الحكومة حيث دعت المعارضة إلى إعطاء الأولوية في برامج التطوير

العسكري لتطوير الجيش، نظراً لخشية الألمان من أن تؤدي التوسعات المتزايدة في الجيشين الفرنسي والروسي إلى ضياع تفوقهم العسكري البري، وكان على بريطانيا هي الأخرى أن تقلص إنفاقها على الأسطول بسبب وجود صراعات داخل الحكومة على الإنفاق البحري بين "تشرشل" و "لويد جورج"، حيث دعا الأخير إلى تقليص الإنفاق على التسلح البحري وساعده على ذلك حدوث انفراجة في العلاقات بين بريطانيا وألمانيا بعد عام ١٩١٢ نتيجة تعاونهما في حل النزاعات التي نجمت عن الحروب البلقانية[١٠٩]،كما رأت بريطانيا أن السماح لألمانيا بالتوسع الاستعماري، ربما يؤدي إلى إضفاء نوع من الهدوء على الموقف العام وربما يؤدي ذلك اللين أيضاً إلى استئناف الحكومة الألمانية للمحادثات البحرية . وبالفعل تم التوصل إلى اتفاق بين البلدين في ٢٠ أكتوبر ١٩١٣ قُسمت بموجبه المستعمرات البرتغالية إلى مجالات نفوذ ألمانية وبريطانية[١١٠]. ومنذ ذلك الحين بدأ الهدوء يشوب العلاقات، وتوقفت المفاوضات الخاصة بالحد من التسلح وانتهت بالفشل ولكن ظلت المنافسة مشتعلة خلف الستار .

رابعاً : أسباب فشل المفاوضات :

لقد كان من الصعب تخيل نتيجة أخرى سوى الفشل لهذه المفاوضات، لأنه على مدى هذه الأعوام لم تُمس المسألة الجوهرية للخلاف ألا وهي كيفية التوفيق بين مصالح دولتين قويتين، تمسكت كل منهما بمواقفها المتشددة، إحداهما ترغب في منع التغيير، والأخرى تميل إلى تغيير نظام القوى الأوربية الذي انتظم بشكل ما على مدى سنوات طويلة، والذي تشعر بأنه غير منصف، فقد رغبت ألمانيا في إضعاف الوفاق الثلاثي وكان ذلك أمرًا منطقيًا لتحاشي وقوع هجوم مشترك، وبدت الجهود البريطانية لتحطيم جهود الألمان لتقوية أسطولهم نابعة من رغبة بريطانيا في إبقاء ألمانيا بلا معين مجبرة على طاعة بريطانيا ،فكلاهما كانت له حجج مقنعة ، وكلاهما له أسباب للخوف من الآخر، فالإنجليز اعتبروا أنفسهم الحامي التقليدي لتوازن القوى الأوربية ، عندما وحدوا القارة ضد هيمنة لويس الرابع عشر ومن بعده نابليون بونابرت، ورأوا أن الألمان يريدون الهيمنة على أوربا والشيء الوحيد الذي يحول دون تحقيقهم لذلك هو القوة البحرية البريطانية، وأن القوى المعادية فقط هي التي تعارض سيادة بريطانيا البحرية[١١١] ، كما رأوا أن ألمانيا أحوج إلى زيادة قوتها البرية منها إلى زيادة قوتها البحرية نظرًا لموقعها في قلب أوربا، وأن ألمانيا تـضمر الشر لبريطانيا ، ورفضوا قبول حجة ألمانيا بأن الأسطول الألماني قد

أنشئ بغرض حماية التجارة الألمانية وكانوا محقين في ذلك، لأن التجارة يحميها أسطول متحرك لا أسطول يقبع دائما في قواعده في بحر الشمال بالقرب من الجزر البريطانية

وعلى الجانب الآخر حطمت الظروف الدولية المتغيرة آنذاك حجج بريطانيا وتمسكها بانفرادها بالسيادة البحرية، فقد أصبحت هناك مستعمرات وتجارة للدول الأوربية عبر المحيطات والبحار، وطالما كانت بريطانيا سيدة على البحار بلا منازع فإنها وضعت بذلك التجارة والمستعمرات التابعة للدول الأخرى تحت رحمتها، وسرعان ما أدرك الألمان الموقف وأدركوا أنه في كل نزاع مع بريطانيا ستصبح المستعمرات والتجارة الألمانية، كما قال "جراي" "بمثابة رهينتين تحتجزهما بريطانيا"[١١٢]، كما استاءت ألمانيا من إنكار بريطانيا عليها الحق في تقوية أسطولها مع كون ألمانيا واقعة تحت رحمة التفوق العددي الساحق للقوة الروسية، خاصة بعد تحالف روسيا مع فرنسا منذ عام ١٨٩٣، وكذلك شعور ألمانيا بالظلم فهي دولة متفوقة في مجال صناعات الحديد والكيماويات وذات قوة ديموغرافية هائلة ، فلماذا يظل الألمان قابعين داخل أراضيهم ولا يمتلكون أسطولاً ينطلقون به إلى فضاء لا نهائي؟ كذلك شعرت ألمانيا بتحامل بريطانيا عليها فلماذا التركيز فقط على الأسطول الألماني؟ بينما كانت كل القوى العظمى تقريباً حينذاك تتوسع في بناء أساطيلها مثل فرنسا والولايات المتحدة وروسيا وإيطاليا وحتى البرازيل[١١٣].

وبلغ التحامل والعداء ببريطانيا إلى حد التفكير في إغراق الأسطول الألماني[١١٤]، على غرار ما فعلته بريطانيا بالأسطول الدانمركي، ويبدو أن ذلك لم يكن أمرًا منطقيًا ومجديًا آنذاك حيث كانت ألمانيا قوة لا يستهان بها فضلاً عن المحالفات التي كانت تربطها بالنمسا وإيطاليا مما جعل مسألة ضرب الأسطول الألماني ليست بالأمر الهين . ووسط كل ذلك اعتقدت ألمانيا أن الأسطول هو الشيء الذي بإمكانه تحقيق نوع من التكافؤ النسبي بين البلدين ، وأن التهديد الذي يفرضه الأسطول الألماني هو الذي سيقود بريطانيا إلى التوقيع على اتفاقية سياسية بشروط ألمانيا، وأن أي تباطؤ في تشييد هذا الأسطول سيقلل من الضغط على بريطانيا مما يدفعها لأخذ مسألة المفاوضات بلا جدية .

كل هذا يقودنا إلى أهم سبب من أسباب فشل مفاوضات الحد من التسلح البحري ألا وهو سوء الظن المتبادل، فكلاهما يشك في الآخر ويريد أن يستفيد على حساب الآخر، فبينما رأت

ألمانيا في المفاوضات وسيلة لابتزاز بريطانيا والضغط عليها، رأت بريطانيا أن اتفاقية ألمانيـة – بريطانية تضمن حياد بريطانيا في أي حرب مستقبلية ستؤدي إلى سيطرة ألمانيا على القارة ولـن تستمر طويلاً بعد أن تحقق هدفها[١١٥] . كما آمن الألمان بأن بريطانيا تخطـط لتطـويقهم[١١٦] وبالتالي تنضم في النهاية لروسيا وفرنسا في حرب ضدهم. وقد استلزم لنجاح المفاوضـات أن يُعدل الجانبان مطالبهما الأمنية ، فكان على بريطانيا أن تقبل بأقل من الهزيمة الكاملة لألمانيـا في سباقها البحري، كما كان على ألمانيا أن تُخـفض برنامجها البحري وتتخلى عن فكرة إفسـاد معاهدات بريطانيا مع كل من فرنسا وروسيا، وبسبب عدم قبول ألمانيا وبريطانيا لهذه القيـود فشلت المحاولة.

لقد أدار كل طرف المفاوضات من منطلق مصالحه ، فقد أراد "تربتز" التوصـل إلى اتفـاق دون أن تغير ألمانيا خططها لبناء الأسطول ورتب الأحداث على النحو التالي حدوث انفراجـة للأزمة ، ثم معاهدة سياسية للحياد، ثم اتفاقية للحد من التسلح، أما بريطانيا فقد أرادت ترتيبا معاكسا لذلك حيث أرادت أن تبدأ المفاوضات بالتركيز على اتفاقية للحد من التـسلح[١١٧] . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن هذه المفاوضات كان من الممكن أن يُكتب لها النجاح في حالة إذا ما كانت هناك درجة ما من التهديد تستشعره كل دولة تجاه الأخرى وإلا فمـا الحاجـة إلى التفاوض، وهذا ما حدث فيبدو أن تهديد ألمانيا لبريطانيا لم يكن خطيرا فحتى عام ١٩١٤م لم تكن ألمانيا قد استكملت مشروع قناة كييل Kiel ، الممر المائي الحيوي الذي يربط بحر البلطيق ببحر الشمال، حتى تتمكن من نقل سفن الدردنوت عبرها إلى بحر الشمال ، كما شـعرت بريطانيـا بالأمان لتطبيقها مقياس القوتين، ويؤكد ذلك ما تذكره وثائق وزارة الخارجية البريطانية أن كون بريطانيا على عداء مع فرنسا أو روسيا هو الأمر الأشد خطورة على بريطانيا من العداء الألماني خاصة في ظل التحالف الفرنسي – الروسي وقوة أساطيل الدولتين، فصحيح أن ألمانيا سببت لهم بعض المضايقات، ولكنها لم تكن تستطيع تهديد المصالح الحيوية، فروسيا كانت تـستطيع مـثلاً تهديد مصالح بريطانيا في الشرق الأوسط والوجود البريطاني في الهند[١١٨] .

ولا يمكننا تجاهل الدور الفرنسي في الانهيار النهائي الذي أصاب المفاوضات، حيـث أكـد "إزفولسكي Isvolski"، وزير خارجية روسيا، أثناء محادثاته مع "بوانكاريه"،وزير خارجية فرنسا ، أن الغرض من دعوة هالدين إلى برلين أن تتعهد حكومة لندن تعهدًا مكتوباً بالبقاء على الحياد

في حالة تورط ألمانيا في حرب لا تثيرها ألمانيا، وعندما أخبرت حكومة لندن "بوانكاريه" بذلك، أعلن أنه لو حدث ذلك لمثـل نهاية فورية للعلاقات الفرنسية – البريطانيـة. وكـان لـذلك الاعتراض الأثر المطلوب فرفضت حكومة لندن الاقتراح الألمـاني[١١٩]، وفـضلت بريطانيـا الاحتفاظ بصداقة روسيا وفرنسا، كما عارض سفير بريطانيا لدى فرنسا "فرنسيس بيرتي .F" Bertieو سفير بريطانيا في برلين "إدوارد جوشن E.Goschen" مفاوضات الحد من التـسلح ورأوا أن بريطانيا مهددة بسعي ألمانيا الحثيث للهيمنة على البحار وعلى أوربا مما يتطلب تقويـة وفاقات بريطانيا مع كل من فرنسا وروسيا[١٢٠]. وبالفعل تعززت الروابط بـين دول الوفـاق نتيجة الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩١٢على استراتيجية بحرية مشتركة لتقـسيم المهـام الدفاعية في البحار في حالة الحرب، كما شجعت بريطانيا روسيا على تعزيز قواتها المسلحة على الجبهة الشرقية لألمانيا ويمكن القول أن استمرار ألمانيا في عملية التسابق على التـسلح أدى إلى زيادة قوة الوفاق وليس إلى تحطيمه[١٢١].

لاشك أن التسابق على التسلح أدى إلى نتائج عكسية وانعكاسات دولية خطـيرة، فقـد طلبت بريطانيا من استراليا ونيوزيلندا إنشاء قوات بحرية حديثة[١٢٢] لتحل محـل أسـطولها في المحيط الهادي وتم سحب جزء كبير منه للعمل في بحر الشمال، كما طلبت من كندا أن يتـولى أسطولها مهمة الدفاع عن مضيق جبل طارق مما انعكس على العلاقات بـين بريطانيـا ودول الكومنولث، فبدأت تلك الـدول تطالـب بـأن يكـون لهـا رأي في توجيـه الـسياسة البريطانية[١٢٣].

وفي النهاية إذا قيمنا هذا السباق البحري نجده يمثل نمطاً من أنماط الصراعات المسلحة بـين القوى الكبرى تكرر كثيرًا، ولكنه اعـتُبر النموذج الأول لفشل القوى الكبرى في التوصل إلى تحديد التسلح عن طريق التفاوض. ونستطيع أن نستشف من كل ما سبق أنه إذا كانت بريطانيا قد كسبت السباق في النهاية فإن حدة التنافس والعداء واستمرارهما كل هذه الفتـرة أفـسد العلاقات بين البلدين، وأكد انقسام القارة إلى كتلتين متصارعتين مما أسهم بـدوره في إشـعال الحرب العالمية الأولى، وقد عبر "جراى" عن ذلك بقوله: "إن النمو الهائل للتسلح في أوربا، وما تسبب فيه من الشعور بعدم الأمان والخوف جعل من قيام الحرب أمراً محتومًا"[١٢٤].

هوامش البحث

(١) هـ .أ.ل. فشر، تاريخ أوربا الحديث (١٧٨٩ – ١٩٥٠)، تعريب: أحمد نجيب هاشم ووديع الـضبع، القاهرة ١٩٤٦، ص ٤٠٣.

(٢) عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصـرة (١٨٧٠ – ١٩٦٠)، القـاهرة د. ت، ص ٧٦-٧٧؛

Bülow, Bernard. Von, Imperial Germany, Translated by Marie Lewenzima, London1914, pp.20 – 24; Smith, Munroe and Scoll ,James. Brown, The disclosures from Germany, New York 1918, p.72;Parry, Jones, "British Foreign policy in the Nineteenth Century," (History, vol. XX III, march 1939), p.323.

(٣) الأهرام، العدد ٩٤٢٥، ١٨ مارس عام ١٩٠٩، ص١؛

endix V., Extract from minutes of the Committee of Imperial Defense at a meeting of nay,1911, in British Documents in the origins of the first world war (1898 – 1914), ed by G.P., Gooch and Harold Temperley, Vol. VI, Anglo-German Tension: aments and Negotiations 1907-1912, H.M.S.O 1930,P.782,(Henceforth cited as

(٤) - Schmitt, Bernadotte. Everly , England and Germany (1790 – 1914), Oxford 1919, p.198.

(٥) - Lee, Stephen, Imperial Germany (1871-1918), New York 1999, p.15.

(٦) -Wilhelm II (ex-Kaiser), My Memoirs (1888-1918), Translated by Thomas R. Ybarra, London 1922, p.223; Herwig , Holger H.,"Luxury Fleet": the Imperial German Navy (1888-1918), London 1980 p.15.

(٧) -Wyckoff, Richard Lane, The Anglo. German Naval Race, Florida Atlantic University, M.A. 1972, p.3.

(٨) - Tirpitz,Von,My memoirs, vol.I ,New York 1919, PP.119-120;Gooch, G.P., Germany, London 1925, p.51; Woodward .A.W. , Great Britain and German navy, oxford 1936,p.23.

(٩) -Bülow, op. cit, p.19; Lambi , Ivo Nikolai,The Navy and German Power Politics (1862-1914), Boston 1984, p.32;

محمد كمال الدسوقي، تاريخ ألمانيا، دار المعارف ١٩٦٩، ص ١٠٢.

(١٠) محمد محمود إبراهيم الديب، الجغرافيا السياسية من منظور معاصر، القاهرة ١٩٩٠، ص ٦٤٢، ٦٤٣؛

Kennedy, Paul, Strategy and Diplomacy (1870 - 1945), London 1983, p.43.

(١١) - Herwig, op. cit, p.35; Kaiser, David . E . ,"Germany and the Origins of the First world war", (Journal of modern History, Sept. 1983), p.442.

(١٢) - Padfield, Peter, The Great Naval Race: The Anglo. German Rivalry (1900-1914), London 1974, P.41.

(١٣) الجوائب، العدد ١٩ من السنة السادسة، ٢٥ يناير ١٩٠٨، ص ١١

Schmitt, op. cit, p.197.

(١٤) - Seaman, L.C.B., Post -Victorian Britain (1902-1951), London 1966, p.52.

(١٥) -Bülow, op. cit, p.93; Dickinson , G. Lowes, The International Anarchy (1904 –

1914), London 1926, p. 382; Haldane, (lord), Before The war, London 1920, p. 139;Mr. Cartwright to Sir Edward Grey, August 17, 1907, B .D. Vol. VI, p.42.

(١٦) قام د. جيمسون مدير شركة جنوب إفريقيا البريطانية عام ١٨٩٥ بمحاولة الإغـارة علـى أراضـي الترنسفال فقام قيصر ألمانيا بإرسال برقية تهنئة لرئيس الترنسفال يهنئه على صد الهجوم في يناير ١٨٩٦ مما ألهب مشاعر الرأي العام البريطاني أنظر : نعمة حسن محمد السيد، بريطانيا وسياسة العزلـة المجيـدة (١٨٧٩ - ١٩٠٧) ، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس ١٩٩٩، ص ١٤٤-١٤٥؛

Kennedy, Paul . M .,"The Development of German Naval operations against England(1896-1914)"(English Historical Review , Vol . Lxxxiv, No. 350, Jan. 1974) , pp. 49- 55.

(١٧) - Moll, Kenneth .L.," politics, power and panic: Britain's 1909 Dreadnought Gap",(Military affairs, vol.29,No.3, Autumn1985) ,pp.133 ; Woodward, op. cit, pp23,24.

(١٨) –Wyckoff, op. cit, p.296.

(١٩) – Extracts from Memorandum appended to the German Navy Bill 1900, in Snyder, Louis(ed.), Documents of German History, New Jersey 1958, p. 282, Ludwig, Dehio, Germany and world Politics in the Twentieth Century, London 1959, p.79.

(٢٠) - Marder, Arthur .J. , British Naval policy (1880-1905); The Anatomy of British sea power, London W.D, p.105; Stoll, Richard., "Steaming in the dark? Rules, Rivals, and the British Navy (1860-1913)" The Journal Resolution, Vol.36, No.2, Jun. 1992, p.266.

(٢١) –Enclosure in No.1, Captain Dumas to Sir F. Lascelles, Jan.9, 1907, B.D, Vol. VI, p.1; Ensor, P.C.K., England (1870-1914), oxford 1930, pp.263-264 ; Nowell-smith, Simon (ed.), Edwardian England (1901-1914), Landon 1964, p.510.

(٢٢) –Kennedy, P.M, The Rise and Fall of British Naval Mastery, New York 1976, p.217.

(٢٣) –Vagts . Alfred, "Hopes and Fears of American – German war (1870-1915)," (political science quarterly, Vol.54, No.4, Dec.1939) p.521.

(٢٤) سمعان بطرس فرج الله ، العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين ، الجـزء الأول (١٨٩٠ – ١٩١٨) الطبعة الأولى ، الأنجلو المصرية ١٩٧٤ ، ص ٢٦٢؛

Morrow, Ian. F., "The Foreign Policy of Prince von Bülow (1898-1909),"(Cambridge Historical Journal, Vol .4, No.1, 1939),p.85.

(٢٥) –Enclosure in No. 81, Captain Dumas to sir F. lascelles, British Embassy (Berlin), (٢٥)Feb. 12, 1908, B.D, Vol. VI, p.118; Grey, Edward, Twenty Five years (1892-1916), Vol.1, New York 1925, p.46.

(٢٦) لمزيد من التفاصيل أنظر.

Sumida ,John Testuro, "British Capital ship design and Fire Control in the Dreadnought Era", (The Journal of modern History, Vol.51,No.2, Jun.1979), pp.205-230; Massie, Robert .k., Dreadnought: Britain, Germany and the Coming of the Great war, London 1992, p. 172.

(٢٧) فشر ، المرجع نفسه، ص ٤٣٥؛

Yerusalinsky, Arkady, German Imperialism: its past and present, Moscow 1969, p.68.

(٢٨) سيدني برادشوقي، أسباب الحرب العالمية قبل فاجعة سراجيفو، ترجمة محمد إبراهيم الدسوقي ، الجـزء الأول (الأسـباب الخفية للحرب)، القاهرة ١٩٣٤، ص ١٥٦.

(٢٩) -Enclosure in No.6, Captain Dumas to sir F. Lascelles, Mar.21, 1907, p.19; Lowe, C.J. and Dock rill, M.L., The Mirage of Power, vol.1 (the British Foreign policy 1902-1914), London 1972, p.30.

(٣٠) سمعان بطرس، المرجع نفسه، جـ١، ص ٢٦٤؛

Members of Oxford Faculty of Modern History , Why we are at War: Great Britain's Case , Oxford 1914, p. 49.

(٣١) -Seaman, op.cit, p.48; Weinroth, Howard, "Left-wing opposition to Naval Armaments in Britain Before 1914," (Journal of Contemporary History, Vol.6, No.4, 1971), p.94.

(٣٢) سمعان بطرس، المرجع نفسه، ج١، ص ٢٦٢.

(٣٣) Trevelyan, G.M, British History in the Nineteenth Century and after (1782-1919), London 1948, P.464.

(٣٤) -Sontag, Raymond James, European Diplomatic History (1871-1932), New York 1933, P.128.

(٣٥) الجريدة، العدد ١١٧، ٢٥ يوليو ١٩٠٧، ص ١.

(٣٦) المقطم، العدد ٥٤٣٤ ، ١٣ فبراير ١٩٠٧، ص ١ ، والعدد ٥٥٧٣، ٢٦ يوليو ١٩٠٧، ص١.

(٣٧) أ.ج جرانت وهارولد تمبرلي ، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩-١٩٥٠) ترجمة : بهاء فهمي ، مراجعة : أحمد عزت عبد الكريم ، ج٢، مؤسسة سجل العرب د. ت ، ص١٣٠.

(٣٨) سيدني برادشوقي ، المرجع نفسه ، ص ١٥٣.

(٣٩) -Woodward, op .cit, p.151.

(٤٠) -Lowe and Dockrill, op. cit, pp30, 31.

(٤١) المقطم، العدد ٥٤٣٤، ١٣ فبراير، ص١.

(٤٢) - Count de Salis to sir Grey, Berlin D., Nov. 19, 1907, B.D,Vol. VI, p.68; Gooch. G.P., Before the war: Studies in Diplomacy, Vol . I: The Grouping of the power, Longman 1936, p.266.

(٤٣) -Hiley, Nicholas p.,"The Failure of British Espionage against Germany (1907-1914)", (The Historical Journal, Vol.26, No.4, Dec.1983), pp.867- 889.

(٤٤) - Seton- Watson, R.W., Britain in Europe (1789-1914): A survey of Foreign policy, Cambridge University press 1945, p.619.

(٤٥) - Lowe and Dockrill, op. cit, vol.1, p31.

(٤٦) -Ibid, p.33; Hale, Oren James, Publicity and Diplomacy, with special Reference to England and Germany (1890-1914), London1940, p.264.

(٤٧) -Captain Dumas to sir F. Lascelles, Berlin, oct . 23, 1907, B.D, Vol. VI, p.63.

(٤٨) -Kaiser, op. cit. pp. 454-455.

(٤٩) سيدني برادشوي، المرجع نفسه، ص ١٥٩؛

Kennedy, P.M., The Anglo - German Antagonism (1860-1914), London 1980, p.444; Maurois, André, King Edward and his times, translated by Hamish Miles, London1949, pp.249, 250.

(٥٠) -Lowe and Dockrill , op. cit, pp33,34.

(٥١) عن نص المقابلة انظر:

Bülow , Bernard Von , The Memoirs of Prince Bülow, Vol.III , The world war and Germany's Collapse (1909-1919), Boston 1932, pp.59- 60 ; Rich, Norman, Friedrich Von Holstein: Politics and Diplomacy in The Era of Bismarck and Wilhelm II, Cambridge University Press 1965, p.819.

(٥٢) -Yerusalinsky, op. cit, pp.68-69.

(٥٣) -Parliamentary Debates ,5th. Series,Vol.2, March 17, 18 , 22 , 1909,Cols.930-939, 1075-1146,1235-1342,1483-1562 ;Enclosure in No. 160, Translation of Admiral Von Tirpitz's Speech in the Budget Committee of The Reichstag on March 17, 1909, B.D, Vol. VI , p.250.

(٥٤) -Enclosure in No.44, Extract from The Deutsche Tageszeitung, B.D, Vol .VI, p.591; Churchill, Winston .S. ,The World crisis (1911-1918), Vol.1,London 1938., pp.32-33.

(٥٥) -Trevelyan, G. M., Grey of Fall Odon: The life of sir Edward Grey, Longmans (٥٥) 1940, pp.212, 213.

(٥٦) لمزيد من التفاصيل عنه انظر:

Gooch, G.p., "Kiderlen-Wachter", (Cambridge Historical Journal, Vol.5, No.2, 1930), pp.178-192.

(٥٧) -Lambi , op. cit ,pp. 295-301.

(٥٨) -Maurer, John. H., "Arms Control and Anglo-German Naval Race Before World War I: Lessons for today", (political science Quarterly, Vol.112, No.2, summer 1997), p.295.

(٥٩) -Nowell – Smith, op. cit , P.513 ; Papayoanou , Paul , "Interdependence , Institutions and the Balance of Power : Britain , Germany and World War I" , (international security , Vol . 20 . No . 4 , Spring 1996) , PP. 57-58 .

(٦٠) -Lowe and Dockrill, op. cit, Vol.1, p.38.

(٦١) جريدة الصحافة، العدد ١٢٨، ١٤أبريل عام ١٩٠٩، ص٤٤؛

Sir E. Goschen to sir Edward Grey, April 11, 1909, B.D ,Vol .VI, p.262 .

(٦٢) -Enclosure in No. 468, Memorandum respecting Agreement With Germany, B.D,Vol.VI, p.626; sir E.Goschen to Grey, Aug.21. 1909, Ibid. p.284.

(٦٣) -Lowe and Dockrill, op. cit, Vol.1, p.35.

(٦٤) -Notes by Grey, Aug.31, 1909, B.D. Vol.VI, p.288.

(٦٥) -Enclosure in No. 468, Ibid, p.632.

(٦٦) - Sir E.Goschen to sir Grey, oct.15, 1909, Ibid, p.293.

(٦٧) جرانت وتمبرلي، المرجع نفسه، جـ٢، ص ١٣٣؛ فرانسوا جورج دريفوس وورولان مـارکس وريمـون بوادفان، موسوعة تاريخ أوربا العام: أوربا من عام ١٧٨٩ حتى أيامنا، جـ٣ ، ترجمة حسـين حيـدر، ومراجعة أنطوان هاشم، بيروت ١٩٩٥ص٣٧٣.

(٦٨) -Gooch,G.P., "European Diplomacy before the war in the light of archives", (international Affairs, vol.18. No.1, Jan & Feb.1939),p.88.

(٦٩) -Sontag ,op. cit, p.141.

(٧٠) - Lowe and Dockrill. op.cit ,vol.1,pp35-36.

(٧١) -Teed, peter and Clark, Michael, Later Nineteenth century (1868-1919), London 1967, p.158;

وللمزيد من التفاصيل عن لويد جورج وموقفه من ألمانيا أنظر:

Morgan, Kenneth.o.,"Lloyd George and Germany", (The Historical Journal, vol. 39, No.3, sept. 1996), pp.755-766.

(٧٢) -Sir A.Nicolson to Lord Hardinge to Penshurst, F.O, Mar.2, 1911, B.D, vol. VI, p.590.

(٧٣) -Dickinson, op. cit, p.388; Lowe and Dockrill, op. cit, p.36.

(٧٤) -Taylor, A.J.P., The Struggle For Mastery in Europe (1848-1918), Oxford 1954, p.465.

(٧٥) -Lowe and dockrill, op. cit, Vol. 1, p.37.

(٧٦) - Ibid, pp.40-41; Thomson, David(ed.), The new Cambridge – Modern History,vol XII: The era of violence (1898-1945), Cambridge University press 1960, pp.329-330 .

(٧٧) -Wyckoff, op. cit, pp. 82-83.

(٧٨) -Sontag, op. cit, p. 168.

(٧٩) - Seton-watson, op. cit, p. 627; Haldane, op. cit, p.6.

(٨٠) بيرونوفان، تاريخ العلاقات الدولية (١٨١٥–١٩١٤) ترجمة جلال يحيى ، دار المعـارف ١٩٦٨، ص ٧٤٧.

(٨١) فرانسوا جورج دريفوس وآخران، المرجع نفسه، جـ٣، ص ٣٥٣؛

Stieve, Friedrich, Deutschland und Europa(1890-1914), Berlin 1926, p.105.

(٨٢) -Dickinson, op. cit, p.389; Seton-watson, op. cit, p.627.

(٨٣) اختير لورد هالدين لهذه المهمة نظرًا لإجادته اللغة الألمانية ، حيث درس وتخرج مـن جامعـة جـوتنجن Göttingen الألمانية، واهتمامه البالغ بالفلسفة الألمانية أنظر :

Lowe and Dockrill, op. cit,vol. 1,p.48; Langhorne, Richard," The Naval Question in Anglo-Germen Relations (1912-1914)," (The Historical Journal, vol. XIV,2, 1971),p.360.

(٨٤) -Churchill,op. cit, vol.1,p.101, Wyckoff,op. cit, p.85 .

(٨٥) -Sontag. op. cit. , pp.166-167.

(٨٦) -Rich. op.cit, p.801.

(٨٧) -Grey to Goschen, Feb.12,1912, B.D,vol. VI,p.689;Maurer, John.H.,"The Anglo-German Naval Rivalry and Informal Arms control (1912-1914)", (The Journal of conflict Resolution, Vol. 36, No.2,Jun.1992),p. 293.

(٨٨) -The parliamentary Debates, 5th series, vol. XXXIV,H.C,1912, Col.20.

(٨٩) -Grey to Buchanan, Feb.7,1912, B.D,vol. VI, P.667; Kennedy, A.L. , Old Diplomacy and New (1876-1922); From Salisbury to Lloyd George, London 1922, p. 198.

(٩٠) -Stieve, op. cit, p.106.

(٩١) -Langhorne, op. cit, p359.

(٩٢) -Diary of lord Haldane's visit to Berlin, Feb. 10, 1912, B.D, vol. VI, P. 506; Murray, Gilbert, Foreign policy of sir Edward Grey (1906-1915), Oxford 1915, p. 119.

(٩٣) -B.D, Vol. VI, pp. 498-499; Haldane, op. cit, p.63.

(٩٤) -Appendix. I, sketch of A conceivable Formula, B.D, Vol. VI, p. 682.

(٩٥) -Notes by sir Nicolson on the sketch of A conceivable Formula, Appendix I to lord Haldane's diary and sir Bertie to sir A. Nicolson, Feb.11, 1912, B.D, vol.VI,pp. 686-687.

(٩٦) -Minute (3), E.A.C., Feb. 12,1912, B.D, Vol. VI, p. 684; Lowe and dockrill, op. cit, vol. I, p. 49.

(٩٧) -Sontag, op. cit, p. 170; Seton – Watson, op. cit, p. 628.

(٩٨) -Hansard parliamentary Debates, 5th. Series, vol. XXIV, 1912, cols 1340-1341.

(٩٩) -Sontag, op. cit, p. 170; Seton-watson, op. cit, p. 628.

(١٠٠) -Sontag, op. cit, p. 171.

(١٠١) -Enclosure in No. 524, Memorandum communicated to count Metternich, B.D, Vol, p. 698; Fay, Sidney, the origins of the world war, New York 1928, p.311.

(١٠٢) -Wyckoff, op. cit, p.92, Churchill, op. cit, Vol.1, p.107.

(١٠٣) الشعب ، العدد ١٤٤ ، ٦ يونيه ١٩١٢ ، ص ١؛ الأهرام ، العدد ١٠٤٣٨ ، ٢٩ يونيه ١٩١٢ ، ص١.

(١٠٤) -Goodlad , Graham . D., British Foreign and Imperial Policy (1865 – 1919), London 2000, p.79.

(١٠٥) ادوارد غراي ، مذكرات لورد غراي وتبعه الحرب العالمية الكبرى ، بقلم وزير خارجية بريطانيا سابقا من سنة ١٨٩٢ إلى ١٩١٦ ، تعريب على أحمد شكري ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٢٩٩.

(١٠٦) -Renouvin , Pierre ,"Britain and the continent: the Lessons of History" , (Foreign affairs , Vol. 17, No. 2 , Oct. 1938) , pp.119-120; Yerusalinsky , op.cit , p .73 .

(١٠٧) -Seaman , op. cit , p .54 .

(١٠٨) -Lynn, Jones Sean, "Détente and Deterrence :Anglo-German Relations 1911-1914", (International Security, Vol.11, No.2, Autumn 1986), p.133; Members of Oxford Faculty, op. cit, p.51.

(١٠٩) -Dickinson, op. cit, p. 398; Lowe and Dockrill , op. cit , pp. 292- 294.

(١١٠) -Renouvin, op. cit, pp.122-123.

(١١١) -Sir Goschen to Nicolson , Oct. 22, 1910, B.D, Vol.VI , P. 536 ; Sontag, op. cit, pp. 143- 144.

(١١٢) -Sontag, op. cit, p. 147.

(١١٣) -Lascelles to Grey, Jan .30, 1908, B.D, Vol. VI, p. 111; Kaiser, op. cit, p.102.

(١١٤) -Memorandum by Sir Charles Hardinge, August 16, 1908, B.D, Vol. VI, p.186; Pribram, Alfred Francis, England and the international Policy of the European powers (1871 – 1914) Oxford 1931, p. 110.

(١١٥) -Minute by Grey on Goschen to Grey, 16 April 1909, Ibid, p.174.

(١١٦) لمزيد من التفاصيل انظر :

Kantorowicz, Herman, the Spirit of British policy and the Myth of the Encirclement, London W.D; Sorolea, Charles, the Anglo-German problem, London 1912, p .281.

(١١٧) -Kruszel, Joseph ," From Rush -Bagot to start : the lessons of the arms control " , (orbis : Journal of world affairs, Vol.30, No.1, spring 1986), p.200.

(١١٨) -Sir Nicolson to Sir Goschen , April 15, 1912, B.D, Vol. VI, P.747; Grey , op. cit, p. 47.

(١١٩) -Dickinson, op. cit, pp. 395- 396.

(١٢٠) -Maurer , The Anglo-German Naval Rivalry , pp.295-296.

(١٢١) سمعان بطرس ، نفس المرجع ، جـ١ ، ص ١٢٦٨

Kennedy, the Rise and Fall of the British Naval Mastery, pp.224; Keefer, Scott, A., Reassessing the Anglo-German Naval Arms Race , PhD., University of Trento 2006, p.18.

(١٢٢) -The parliamentary Debates, 5th series , H.C, 1911, XXV, Col.411.

(١٢٣) سمعان بطرس ، نفس المرجع ، ص ٢٦٩.

(١٢٤) -Keefer, op. cit, p. 1.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

أ – الوثائق المنشورة

- Gooch, G.P. and Temperley, Harold (eds.),British Documents On The Origins ay The First World War (1898 – 1914) . Vol. VI (The Anglo-German Tension : Armaments and Negotiations 1907-1912), H.M.S.O 1930.

- Members of Oxford Faculty of Modern History, Why we are at War: Great Britain's Case . Oxford 1914.

- Snyder, Louis(ed.), Documents of German History, New Jersy 1958.

- Teed, peter and clark, Michael, Later Nineteenth century (1868-1919) London 1967.

- The parliamentary Debates, 5th series H.C, vol-2 1909.

- -----------------------------------, 5th series H.C. Vol.XXV. 1911.

- -----------------------------------, 5th series H.C. Vol.XXXIV . 1912.

ب – المذكرات والسير الذاتية

١ – المترجمة :

– إدوار غراى ، مذكرات لورد غراي وتبعة الحرب العالمية الكبرى ، بقلم وزير خارجية بريطانيا سابقا من سنة ١٨٩٢ إلى ١٩١٦، تعريب علي أحمد شكري ، القاهرة ١٩٢٩.

٢ – الأجنبية

-Bülow , Bernard Von , Imperial Germany , Translated by Marie Lewenzima , London 1914.

- ----------------------------, The Memoirs of Prince Bülow, Vol.III , The world war and Germany's Collapse (1909-1919) , Translated by Geoffrey Dunlop, Boston 1932.

-Churchill, Winston .S. ,The World crisis. (1911-1918), Vol.1.London 1938.

-Grey, Edward. Twenty Five years (1892-1916), Vol.1, New York 1925.

-Haldane. (lord),Before The war, London 1920.

-Maurois, André, King Edward and his times, translated by Hamish Miles, London1949.

-Murray, Gilbert, Foreign policy of sir Edward Grey (1906-1915), Oxford 1915.

-Rich, Norman. Friedrich Von Holstein: Politics and Diplomacy in The Era of Bismarck and Wilhelm II,Vol II, Cambridge University Press 1965.

-Tirpitz, von, My memoirs ,Vol.1,New York 1919.

-Trevelyan .G. M., Grey of Fallodon: The life of sir Edward Grey, afterwards Viscount Grey of Fallodon, Longmans 1940.

-Trevelyan .G. M., Grey of Fallodon: The life of sir Edward Grey, Longmans 1940.

-Wilhelm II (ex-Kaiser), My Memoirs (1888-1918), Translated by Thomas R. Ybarra, London 1922.

جـ – الصحف والمجلات :

– الأهرام ، العدد ٩٤٢٥ ، ١٨ مارس ١٩٠٩ ،العدد ١٠٤٣٨ ، ٢٩ يونيه ١٩١٢

– الجريدة ، العدد ١١٧ ، ٢٥ يوليو ١٩٠٧ .

– الجوائب ، العدد ١٩ من السنة السادسة ، ٢٥ يناير ١٩٠٨ .

– الشعب ، العدد ١٤٤ ، ٦ يونيه ١٩١٢ .

– الصحافة ، العدد ١٢٨ ، ١٤ إبريل ١٩٠٩ .

– المقطم ، العدد ٥٤٣٤ ، ١٣ فبراير ١٩٠٧ ، العدد ٥٥٧٣ ، ٢٦ يوليو ١٩٠٧

ثانياً : المقالات

- Gooch, G.P., "European Diplomacy before the war in the light of archives", (international affairs, vol.18, No.1, Jan. Feb.1939), PP.77-102.

- --------, Kiderlen-Wachter", (Cambridge Historical Journal, Vol.5, No.2, 1936), PP.178-192.

- Hiley, Nicholas p., "The Failure of British Espionage against Germany (1907-1914),"(The Historical Journal, Vol.26, No.4 Dec.1983), PP.867- 889.

- Kaiser, David. E., "Germany and the Origins of the First world war", (Journal of modern History, Sept. 1983), PP.442-474.

- Kennedy, P.M., "The Development of German Naval operations Plans against England (1896-1914)"(English Historical Review, Vol. LXXXIV, No. 350, Jan. 1974) , PP.48-76.

- Kruzel, Joseph , " From Rush – Bagot to start : the lessons of the arms control " , (orbis; The Journal of world affairs, Vol.30 , No.1 , spring 1986.

- Langhorne, Richard," The Naval Question in Anglo-German Relations. 1912-1914", (Historical Journal, vol. XIV,2 (1971),PP.359-370.

- Lynn-Jones, Sean, M. "Détente and Deterrence: Anglo – German Relatoins (1911-1914)", (International of Security, Vol. II, No.2, Autumn 1986) , PP.121-150.

- Maurer, John. H., "Arms Control and the Anglo-German Naval Race before World War I: Lessons for Today, (political science Quarterly, Vol.112, No.2, summer 1997), PP.285-306.

- ---------,"Anglo-German Naval Rivalry and Informal Arms control (1912-1914), (The Journal of conflict Resolution, Vol.36, No.2, Jun.1992), PP.284-308.

- Moll, Kenneth.L.," politics, power and panic : Britain's 1909 Dreadnought Gap".(Military affairs, vol.29,No.3, Autumn1985) ,pp.133-144.

- Morgan, Kenneth .o."Lloyd George and Germany", The Historical Journal, vol. 39, No.3, Sept. 1996, PP.755-766.

- Morrow, Ian. F.d., "The Foreign Policy of Prince von Bülow (1898-1909)."(Cambridge Historical Journal, Vol .4, No.1, 1932) PP.63-93.

- Papayoanou, Paul," Interdependence, Institutions and the Balance of Power: Britain,

Germany and World war I", (International security, Vol.20, No.4, Spring 1996), PP.42-76.

- Parry, Jones, "British Foreign policy in the Nineteenth Century," (History, vol. XX III, march 1939), PP.322-330.

- Renouvin, Pierre, "Britain and the Lessons of History" ,(Foreign affairs, Vol. 17, No. 2, Oct 1938), pp.101-120.

- Scoll. James Brown," Lard Haldane's Diary of Negotiations between Germany and England 1912," (The American Historical Journal of International Law, Vol.12, No.3, Jul.1918), PP.589-596.

- Sumida, John Testuro, "British Capitalship design and Fire Control in the Dreadnought Era: Sir John Fisher, Arthur Hungerford Pollen and the Battle Cruiser,"(The Journal of modern History, Vol.51, No.2, Jun1979), pp.205-230.

- Vagts, Alfred, "Hopes and Fears of American - German war (1870-1915)," Vol.1 (political science quarterly, Vol.54, No.4, Dec.1939) PP.514-535.
- Weinroth, Howard, "Left-wing opposition to Naval Armaments in Britain Before 1914,"(Journal of Contemporary History, Vol.6, No.4, 1971), PP.93-120.

ثالثاً : المراجع

أ – المراجع العربية والمترجمة :

– أ.ج جرانت وهارولد تمبرلي ، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩–١٩٥٠)، ترجمة : بهاء فهمي، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم ، جـ٢، مؤسسة سجل العرب د. ت.

– سمعان بطرس فرج الله ، العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين ، الجزء الأول (١٨٩٠ – ١٩١٨) الطبعة الأولى ، الأنجلو المصرية ١٩٧٤ .

– سيدني برادشوفي، أسباب الحرب العالمية قبل فاجعة سراجيفو ، الجزء الأول (الأسباب الخفية للحرب) ، ترجمة محمد إبراهيم الدسوقي ، القاهرة ١٩٣٤ .

– عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة (١٨٧٠ – ١٩٦٠) ، القاهرة د. ت .

– فرانسوا جورج دريفوس وآخران، موسوعة تاريخ أوروبا العام: أوروبا من عام ١٧٨٩ حتى أيامنا، ج٣ ترجمة حسين حيدر، ومراجعة أنطوان هاشم، بيروت ١٩٩٥ .

– محمد كمال الدسوقي ، تاريخ ألمانيا ، دار المعارف ١٩٦٩.

– محمد محمود إبراهيم الديب، الجغرافيا السياسية من منظور معاصر، القاهرة ١٩٩٠.

– هـ .أ.ل. فشر، تاريخ أوروبا الحديث (١٧٨٩ – ١٩٥٠)، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، القاهرة ١٩٤٦.

ب – المراجع الأجنبية:

-Dickinson, G. Lowes, The International Anarchy (1904-1914), London 1926.

- Ensor, P.C.K., England (1870-1914), oxford 1930.

-Fay, Sidney, the origins of the world war, New york 1928.

-Gooch, G.P., Before the war: Studies in Diplomacy, Vol. 1: The Grouping of the power, Longman 1936.

-Gooch, G.P., Germany, London 1925.

-Goodlad, Graham D., British Foreign and Imperial Policy (1865 – 1919), London 2000.

-Hale, Oron James, Publicity and Diplomacy: with special Reference to England and Germany (1890-1914), London1940.

-Herwig, Holger H., "Luxury Fleet": the Imperial German Navy (1888-1918), London 1980.

-Kantorowicz , Herman , the Spirit of British policy and the Myth of the Encirclement , London W.D.

-Kennedy, A.L., Old Diplomacy and New (1876-1922); From Salisbury to Lloyd George, London 1922.

-Kennedy, Paul, Strategy and Diplomacy (1870 - 1945), London 1983.

- ————, The Rise and Fall of British Naval Mastery, New York 1976.

- ————, The Anglo- German Antagonism (1860-1914), London 1980

-Lambi , Ivo Nikolai,The Navy and German Power Politics (1862-1914), Boston 1984.

-Lee, Stephen. J ., Imperial Germany (1871-1918), New york 1999.

-Lowe, C.J. and Dockrill, M.L., The Mirage of Power, vol.1 (the British Foreign policy (1902-1914), London 1972.

-Ludwig, Dehio, Germany and world Politics in the Twentieth Century, London 1959.

-Marder, Arthur .J. , British naval policy (1880-1905) The Anatomy of British sea power, London W.D.

-Massie, Robert .k., Dreadnought: Britain, Germany and the Coming of the Great war, London 1992.

-Nowell-smith, Simon (ed.), Edwardian England (1901-1914), Landon 1964.

-Padfield, Peter. The Great Naval Race: The Anglo-German Rivalry (1900-1914), London 1974.

-Pribram, Alfred Francis , England and the international Policy of the European powers (1871 – 1914), Oxford 1931.

-Schmitt, Bernadotte Everly, England and Germany (1790 – 1914), Oxford 1919.

-Seaman, L.C.B., Post -Victorian Britain (1902-1951), London 1966.

-Seton-Watson, R.W., Britain in Europe (1789-1914): A survey of -Foreign policy, Cambridge University press 1945.

-Smith, Munroe and Scoll, James Brown, The disclosures from Germany, New York

1918.

-Sontag. Raymond James, European Diplomatic History (1871-1932), New York 1933.

-Sorolea, Charles, the Anglo .German problem , London 1912.

-Stieve, Friedrich, Deutschland und Europa(1890-1914), Berlin 1926.

-Taylor, A.J.P., The Struggle For Mastery in Europe (1842-1918), Oxford 1954.

-Thomson, David (ed.), The new Cambridge – Modern History, vol. XII: The era of violence (1898-1945), Cambridge University press 1960.

-Trevelyan, G.M, British History in the Nineteenth Century and after (1782-1919), London 1948.

-Woodward .A.W., Great Britain and German navy, oxford 1936.

-Yerusalinsky, Arkady, German Imperialism: its past and present, Moscow 1969.

رابعاً : الرسائل العلمية

أ – العربية:

– نعمه حسن محمد السيد، بريطانيا وسياسة العزلة المجيدة (١٨٧٩–١٩٠٧)، رسالة ماجستير جامعة عين شمس ١٩٩٩

ب – الأجنبية:

-Keefer, Scott, A., Reassessing the Anglo-German Naval Arms Race, Ph D., University of Trento 2006.

-Wyckoff, Richard Lane, The Anglo-German Naval Race, M.A., Florida Atlantic University 1972.